دراسات فى

الأنثروبولوجيا التطبيقية

دكتـــور

على محمد المكـاوى

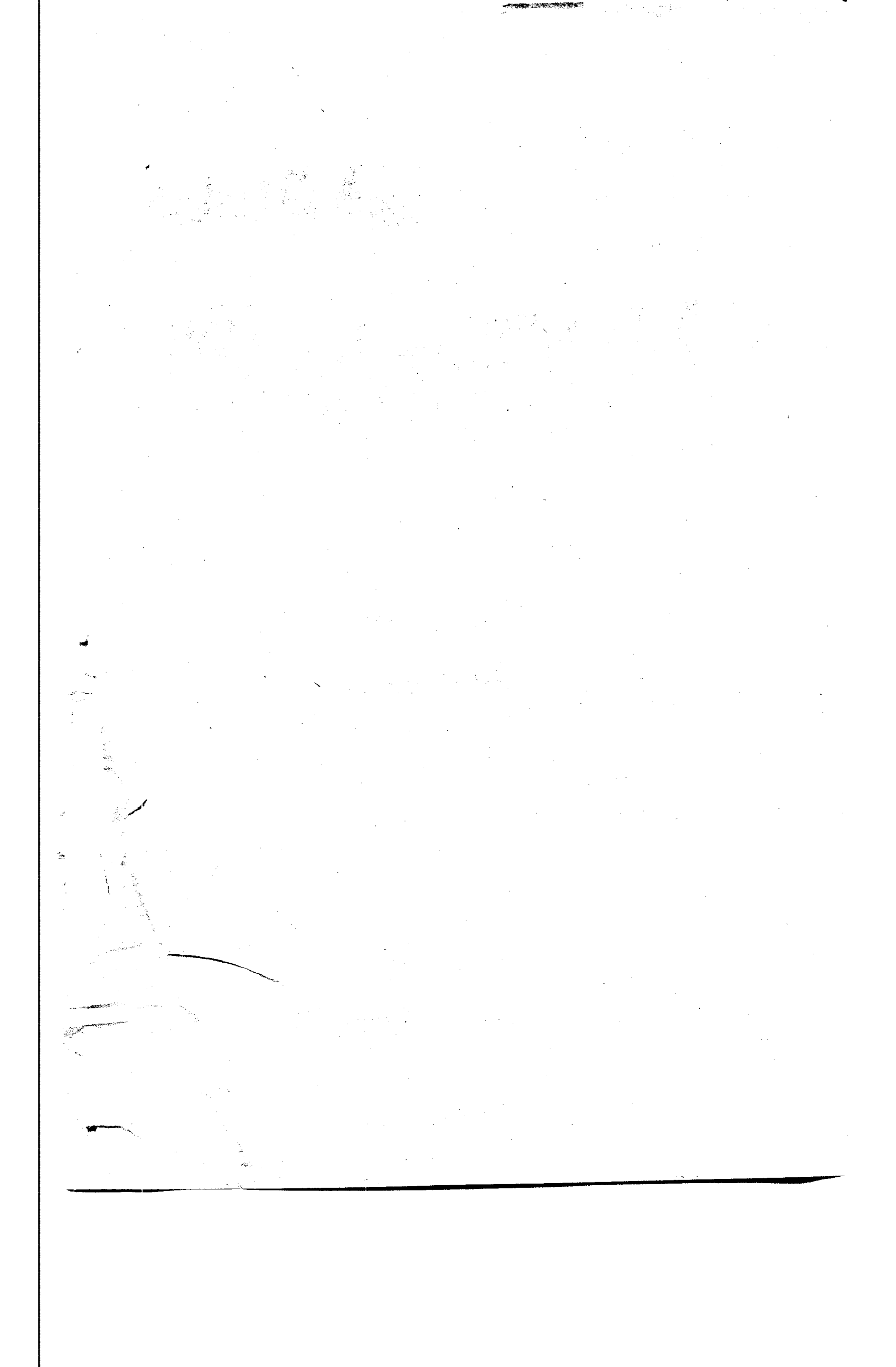
أستاذ ورئيس قسم الاجتماع

كلية الآداب - جامعة القاهرة

الناشـــــر

دار النصر للتوزيع والنشر

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦ م



المحتويـــات

الفصل الاول

ماهية الانثروبولوجيا

أولا: معنى المصطلح واستخدامه

ثانيا : موضوع الانثروبولوجيا وفروعها

الفصـــل الأول

ماهيـــة الأنثروبولوجيـــا

أولا : معنى المصطلح واستخدامه :

ترجع كلمـــة الأنثروبولوجيـــا **Anthropology** أساسـا الى كلمة يونانية الأصل تتكون من مقطعين اولهما **Anthropos** وتعنى الانســـان ، والثانى **Logy** او **Logos** او **Logia** ويعنى العلم . وبهذا تعنى هـــذه الكلمة الأجنبية فى اللغة العربية (علم الانسان) .

الا اننا حينما نستخدم الكلمة العربية المقابلة ـــ اى علم الانســـــان ـــ للمصطلح الأجنبى ، فاننا نحدث نوعا من اللبس بين ما تعنيه الأنثروبولوجيا وتهتم به ، وبين ما تدرسه العلوم الاخرى التى تدرس الانسان كعلم الطب والبيولوجى وعلم النفس والاجتماع والسياسة ... الخ . وعلى هـــذا الأساس ساد استـــخدام المصطلح الاجنبي كمـــا هو **Anthropology** فى اللغة الانجليزية ، **L'Anthropologiè,** فى اللغة الفرنسية خاصـــــة بعد اشـــتقاقه من الكلمة اليونانية الأصلية . كما ســـاد اســـتخدام كلمة الأنثروبولوجيا ـــ كما هى فى اللغة العربية درءا لهذا اللبس ـــ باعتبـــارها (علم دراسة الانسان) .

والواقع ان تاريخ استخدام مصطلح الانثروبولوجيا قد لفت انتبـــاه الكثيرين من العلماء والباحثين للتعرف على هذا العلم وفهم موضـــوعه . ولعل هادون **Haddon** ابرز هؤلاء العلماء ، اذ ارجع تاريخ استخدام هذا الاصطلاح الى الحضارة الاغريقية والحضارة الرومانية . فقـــد لاحظ ان ارسطو قد استخدمه للاشارة الى (الشخص الذى يتحدث عن نفســـه) . ومن الواضح ان هذا المعنى يختلف تماما عن المعنى الحديث للاصطلاح (١) .

---

(١) د. عاطف وصفى ، الانثروبولوجيا الاجتماعية ، ط ٢ ، دار المعارف ، القاهـــرة ، ١٩٧[illegible] ، ص ٩ .

وفى عـــام ١٥٠١م ظهـــر هـــذا الاصـــطلاح (انثروبولوجيـــون (Anthropologeion) كعنوان لكتاب المفكر هندت (Hundt) حيث تكلم فيـــه عن الخصـــائص التشريحية لجســـم الانســـان . وكذلك أورد المفكر كوبيلا Copella هذا الاصطلاح فى كتابه بعنوان L'Anthropologia — فى عام ١٥٣٣م — الذى يدرس فيه الصفات الشخصية الفردية .

والملاحظ ان اول مرة يظهر فيها اصطلاح (انثروبولوجيا) فى اللغـــة الانجليزية كان فى عام ١٦٥٥م فى كتـــاب مجهـــول المـــؤلف يحمل عنـــوان Anthropology Abstracted ويـــدور حـــول الطبيعـــة البشرية . ويتناول بين دفتيه قســـمين اولهمـــا خاص بعلم النفس حيث يناقش فيه الطبيعة البشرية ، وثانيهما يختص بعلم التشريح . ومنذ ذلك الحين بـــدأ مصطلح الانثروبولوجيا ينتشر فى الاستخدام والأوساط العلمية تدريجيـــا ، الى ان صار له مفهوم واضح ومحدد المعالم ، خلال القرن التاسع عشر .

ومع تطور البحث فى علم الانثروبولوجيا ، صار مجاله اكثر تحديدا ، وتبلورت الفروع التى تتفرع عنه ، حتى ان تشارلز فينيك Charles Winick قد ذكر فى عام ١٩٥٦م أن علم الانثروبولوجيا الحديث يضم الفروع الأربعة التالية : علم الاثار ، واللغويات ، والانثروبولوجيا الثقافية والانثروبولوجيا الطبيعية . وبهذا يتضـــح من المعنى اللفظى لاصـــطلاح انثروبولوجيا أن موضوع هذا العلم هو الانسان . وبالتالى فالانسان هو الاطار الوحيـــد الذى يحدد الموضوعات التى يدرسها هذا العلم .

اما الزمان او المكان فلا يقيدان الموضوعات التى تدخل فى نطـــاقه ، اذ يدرس الانسان واجداده واصوله منذ اقـــدم العصـــور وحتى الوقت الحاضر ، ويدرس الانسان فى كل مكان . وهكذا لا يتقيد علم الانثروبولوجيا بحدود الزمان او المكان ، ولكنه يتقيد فقط بالانسان كموضوع للدراسة .

الا أن الانسان مفهوم واسع للغاية ، وبالتالى يجب تحديد ابعاده ، وتضييق نطاقه حتى يتسنى لنا تمييز اهتمامات علم الأنثروبولوجيا بالانسان، عن اهتمامات العلوم الطبيعية والاجتماعية الأخرى ، التى تدرس الانسان ايضا . وفى ضوء هذه الاعتبارات نجد علم الأنثروبولوجيا يهتم بدراسة الجنس البشرى ، حيث يدرس اجسام افراده ومجتمعاتهم ووسائل الاتصال فيما بينهم ، وكل ما ينتجونه سواء كان مادة او علاقة اجتماعية او فكرة . والملاحظ أن الرواد الأوائل فى علم الأنثروبولوجيا قد ركزوا اهتماماتهم على مظاهر الحياة الاجتماعية للمجتمعات البدائية ، حيث اجتذبتهم غرابة تلك المجتمعات واختلافها عن المجتمعات الأخرى وخاصة المجتمعات الأوروبية .

ومع تراكم المعرفة العلمية ، وتعدد الدراسات والبحوث الأنثروبولوجية زاد التراث العلمى حول الانسان وتنوعت مجالاته . فهناك دراسات تتعلق بثقافة الانسان وتراثه المعرفى ، وهناك البحوث التى تدور حول الجانب الجسمى للانسان ، كما ان هناك دراسات حول الانسان فى المجتمعات الحديثة ، فى حين تناولت بحوث رابعة عملية تنمية المجتمع ... الخ (٢) .

وفى النهاية نلاحظ ان الدراسات التى أجراها علماء الأنثروبولوجيا على الانسان أظهرت جوانب لم تظهرها او تتناولها علوم انسانية اخرى ، كعلوم الطب والنفس والاقتصاد وغيرها . كذلك فان تراكم المعرفة — كما قلنا — وزيادة عدد الأنثروبولوجيين ، قد ادى الى تجمع الدراسات الأنثروبولوجية فى شكل مجموعات متشابهة بحيث شكلت كل مجموعة فرعا متميزا من فروع العلم . وعلى سبيل المثال فان الدراسات الأنثروبولوجية التى أجريت على جسم الانسان وتكوينه وملامحه وخصائصه الفيزيقية ، قد اسهمت فى تأسيس علم الأنثروبولوجيا الطبيعية او الفيزيقية . كما

---

(٢) د. نبيل صبحى ، الاتجاهات التقليدية والحديثة فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٨٥م ، ص ٤٢ .

نجد ان دراســـات الأنثروبولوجيا حول الممارســـات والمعتقدات والدين والعادات واللغة (الثقافة عموما) قـــد كونت علم الأنثروبولوجيا الثقافية . ومن جانب آخر فان مجموعة الدراسات التى قام بها علماء الأنثروبولوجيا حول النظم والعلاقات الاجتماعية قـــد شـــكلت اسس علم الأنثروبولوجيا الاجتماعية . وهناك ـــ بالاضافة الى ذلك ـــ بعض الدراسات والبحوث الأنثروبولوجية التى اجريت على الانسان ايضا ، ولكنها لا تزال فى بدايتها أو لم تصل الى ما وصلت اليه الفروع الثلاثة السابقة ، منها على ســـبيل المثال الأنثروبولوجيا الحضرية والاقتصادية والطبية واللغوية ... الخ .

* * *

ثانيا ـــ موضوع الأنثروبولوجيا وفروعهـــا :

على الرغم من أن علم الأنثروبولوجيا يدرس موضـــوعات عديدة فى الوقت الراهن ، وتتفرع عنه عدة فروع علمية ، الا أن الملاحظ عموما على بداية ظهور هذا العلم ، أن علماء الأنثروبولوجيا الأوائل قـــد ركزوا على دراسة المجتمعات البدائية مثل الهنود الحمر الأمريكيين ، وسكان استراليا الاصليين وشعوب جنوب المحيط الهادى ، والمجتمعات الأفريقية الاستوائية ... الخ .

وتجدر الاشارة الى أن التركيز على مثل هذه المجتمعـــات يرجع الى العوامل التاليـــة :

١ ـــ اهتمام علماء الأنثروبولوجيا الأوائل بدراسة اللغات واللهجات والنظم والعادات الغريبة التى تختلف عن لغات ونظم وعادات مجتمعـــاتهم الأوروبية الأصلية . وصار ذلك الاهتمام تقليدا فى الأنثروبولوجيـــا الى حـــد كبير ، حتى أوائل القرن العشرين ، حينما اتجهت اهتمامات الأنثروبولوجيين نحو دراسة المجتمعات الريفية والحضرية والصناعية الحديثة فى العالم الغربى ذاته (٣) . كذلك اهتمت الأنثروبولوجيـــا

---

٣) د. عاطف وصفى ، مرجع سابق ص ١٢ .

حينئذ بدراسة عمليات الصراع الثقافى Cultural conflict والاتصال الثقافى Cultural Contact بين الثقافات والحضارات المختلفة . ومثال ذلك دراسة المهاجرين الى الولايات المتحدة الأمريكية وما طرأ على ثقافاتهم من تغيرات .

٣ — يعتمد علم الأنثروبولوجيا على المنهج التكاملى Integrative Method أو ما يسمى فى هذا العلم بالنظرة الشمولية Holistic . وبالتالى تسعى الدراسات الأنثروبولوجية نحو تحديد جميع عناصر الثقافة والنظم الاجتماعية فى مجتمع ما . وهذا لا يتحقق غالبا الا بدراسة المجتمعات البدائية صغيرة الحجم مثل قبائل النوير Nuer والازاندى Azande بالسودان . وهنا يصل الأنثروبولوجى الى تشخيص طريقة حياة Way of life ابناء القبيلة ، من خلال ملاحظة مساكنهم وملابسهم والادوات التى يستخدمونها ونظمهم العائلية والقرابية والاقتصادية والدينية . وكذلك يهتم بدراسة الطقوس الدينية والمعتقدات السحرية والعادات والتقاليد والفنون السائدة ، علاوة على اهتمامه بتناول النظام السياسى والجماعات التى تتكون منها القبيلة والمراكز الاجتماعية فيها والادوار الاجتماعية لأفرادها . وهكذا يستطيع الأنثروبولوجى التعرف على طريقة حياة المجتمع الصغير الذى يدرسه ؛ على حين لو اجرى هذه الدراسة على المجتمع الهندى أو المجتمع الفرنسى أو المجتمع المصرى لعجز عن تحديد طريقة الحياة تلك ؛ ولما توصل الى الصورة الكلية التى يقوده اليها المنهج التكاملى .

غير انه بتقدم بحوث ودراسات علماء الاجتماع والاقتصاد والقانون، والسياسة والدين وغيرها ، وتراكم المعرفة العلمية حول المجتمعات الكبيرة . تمكن الأنثروبولوجيون من الاستفادة بتلك الدراسات

للوصول الى تحديد عناصر ثقافة المجتمع المتقدم كبير الحجم وحضارته المعقدة .

٣ ـ لعب العامل الايدولوجى دوره البارز فى تركيز علماء الأنثروبولوجيا الأوائل على دراسة المجتمعات البدائية صغيرة الحجم . حيث سعى بعضهم الى وضع مقياس يقيس تطور المجتمعات بحيث تحتل المجتمعات الأوروبية قمته (درجة ١٠٠ مثلا) ، وتشغل المجتمعات البدائية نقطة البداية فيه (الصفر مثلا) . وبين هذين التصنيفين الاستقطابيين (الصفر ـ المائة) يمكن التعرف على المستوى أو الدرجة التى تشغلها هذه المجتمعات على مقياس التطور . ولعل الاتجاه التطورى فى الأنثروبولوجيا يوضح لنا هذه الفكرة .

والواقع ان الآراء قد اختلفت فى تحديد اقسام أو فروع علم الانثروبولوجيا . الا انه يمكن تقسيم هذا العلم عموما الى قسمين رئيسيين هما الانثروبولوجيا الطبيعية أو البيولوجية ، والانثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية (٤) . وهذان الفرعان يمثلان الفرعين التقليديين فى الانثروبولوجيا. على حين توجد فروع أخرى ـ سنشير اليها لاحقا ـ تمثل الاتجاهات الحديثة فى هذا العلم .

---

(٤) د. محمد الجوهرى ، الانثروبولوجيا : أسس نظرية وتطبيقات عملية ، ط ١ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ١٧ .

٢- الفروع الرئيسية فى الانثروبولوجيا :

(أ) الأنثروبولوجيا الطبيعية او البيولوجية :
Physical or Biological Anthropology

ويسمى هذا الفرع بالانثروبولوجيا الفيزيقية (الطبيعية) او الانثروبولوجيا البيولوجية البشرية (٥). ويهتم هذا الفرع بدراسة تطور الانسان وسلوكه ، والخصائص البيولوجية العديدة التى يتباين فيها البشر القدماء عن البشر المحدثين . وينظر هذا الفرع الى الانسان على انه عضو فى المملكة الحيوانية ، اذ يتناول فيه هذا الجانب فقط دون اهتمام بالجوانب الاجتماعية او الثقافية . وعلى هذا الأساس تعتبر الانثروبولوجيا الطبيعية أو البيولوجية أقرب الى العلوم الطبيعية منها الى العلوم الاجتماعية . وبالتالى نجدها أكثر ارتباطا بعلوم التشريح **Anatomy** وعلم وظائف الأعضاء **Physiology** وعلم الحياة **Biology** .

ومن ناحية اخرى فان الانثروبولوجيا الطبيعية تدرس جسم الانسان من حيث صفاته مثل لون البشرة وشكل الشعر وطول القامة وفصائل الدم ، ولون العينين ، وبالتالى تصنيف الجماعات البشرية الى سلالات وتحديد خصائص كل سلالة ، وتوزيع الاجناس على المناطق المختلفة على سطح الأرض . وعلى الرغم من الاعتقاد بأن الاجناس البشرية قد انحدرت عن أصل واحد هو الانسان العاقل **Homo Sapins** ، الا ان توزعها على الأرض ، وتفاعلها مع البيئات المختلفة قد ادى الى اختلاف خصائصها . وقد ادى اهتمام الانثروبولوجيا الطبيعية بجسم الانسان الى تسميتها احيانا بعلم دراسة الجسم **Somatoloty** من حيث صفاته ومقاييسه ، او من حيث أصوله واجداده . واهم تخصصات هذا العلم علم العظام **Osteology** وعلم البنية للبشرية **Human Morphology** ومقاييس جسم الانسان

---

(٥) د. نبيل صبحى ، مرجع سابق ، ص ١٤ .

Anthropomety ودراسة مقاييس الأجسام الحية Biometrics وعلم الجراحة الانسانى Human Serology (٦) ولعله يتضح لنا ان هذه العلوم والتخصصات تدخل فى صميم دراسات كليات الطب والعلوم والتمريض . ولذلك نجد ان معظم المتخصصين فيهما من الاطباء وعلماء الحياة . وان كانت هذه الدراسات تدخل فى دائرة اهتمام اقسام الانثروبولوجيا بكليات العلوم الاجتماعية والآداب .

ومن الواضح ان تاريخ الانثروبولوجيا الطبيعية يرجع اساسا الى كتابات شارلز دارون C. Darwin عن أصل الانواع Origin of Spacies والى بحوث بول بروكا Paul Broca وفرانسيس جالتون Francis Gallton . ويرجع الفضل الى بروكا فى تصميم ادوات الدراسة فى الانثروبولوجيا الطبيعية حتى أصبحت مرادفة لعلم قياس جسم الانسان (الانثروبومترى) ، اضف الى هذا ان اعتماد الانثروبولوجيا الطبيعية على علم التشريح ادى الى تصنيف السلالات البشرية بناء على توزيع السمات التشريحية . وقد شهدت سنة ١٨٣٠م بداية تقدم هذا العلم ، حينما اتجه العلماء نحو دراسة التطور الجسمي للانسان ، ودراسة الحفريات الاثرية للتعرف على الهياكل البشرية والبقايا العظمية للانسان . وهنا انقسمت هذه البحوث الى ميدانين رئيسيين وهما دراسة الانسان كنتاج لعملية التطور ، ودراسة وتحليل الجماعات البشرية (٧) . ورغم ان المناهج المستخدمة فى هذين الميدانين مختلفة ، إلا انها ترتبط ببعضها وتسهم بالقاء الضوء على المشكلات القائمة فى الفرع الآخر .

---

(٦) Ronald A. Reminick, Theory of Ethnicity; An Anthropologist's Perspective, Univ - Press of America, Inc., New York, 1983, pp. 6 14

(٧) د. محمد الجوهرى ، مرجع سابق ، ص ٢٩ .

وبالاضافة الى ذلك ، فان الانثروبولوجيا الطبيعية تسعى للتعرف على السمات الفيزيقية للانسان القديم ، ولذلك يفتش الباحثون عن آثارة ومخلفاته ، ويقارنون بينها وبين بعضها من ناحية ، وبينها وبين الانسان من ناحية أخرى (٨) . ومن خلال المقارنة يتمكن الباحث من تعقب سمة بنائية معينة او مجموعة كاملة من السمات منذ أقدم الجماعات البشرية حتى احدثها . وبالتالى نستطيع اكتشاف متى ظهرت سمة معينة لأول مرة ، وكيف انتشرت بين الناس ، ونلاحظ اختفاءها التدريجى فى بعض الاحيان . وهنا يستطيع عالم الانثروبولوجيا الطبيعية الاجابة على التساؤلات التالية : متى وأين ظهرت اقدم الكائنات البشرية لأول مرة ؟ وكيف كانت هيئة هذه الكائنات البشرية ، وكيف تتشابه أو تختلف بعضها عن بعض ؟ وكيف تغيرت السمات الفيزيقية للانسان خلال الفترة التى عاشها على الأرض ؟ .

وتعتبر دراسة العمليات الفعلية التى تحدث التغيرات البيولوجية فى الانسان من أهم موضوعات الانثروبولوجيا البيولوجية (٩) . وقد بدات هذه الدراسة بالتعرف على نمو الانسان من الحمل الى البلوغ ، وتأثير الظروف البيئية المختلفة على هذا النمو ثم تطرقت الدراسة لاحقا لتتناول الوراثة البشرية أى العوامل الوراثية واساليب تعديل الصفات الوراثية ، واساليب تكيف الكائنات البشرية بيولوجيا مع الظروف الجديدة ، سواء على مستوى الفرد أو على مستوى النوع بأكمله .

(ب) الأنثروبولوجيا الثقافية : Cultural Anthropology

تعتبر الأنثروبولوجيا الثقافية فرعا اساسيا من فروع علم الانثروبولوجيا يهتم بدراسة الثقافة Culture من جوانبها المختلفة ، حيث تركز على

---

(٨) Roger parson, Intyoduction to Antnropology, Holt, Rinehartaud winston, INC., New York, 1974, p. 122.

(٩) Roger pearson, ibid, pp. 126 - 128.

بناء الثقافات البشرية وادائها لوظائفها فى كل زمان ومكان . وبالتالى فهى تهتم بالثقافة فى ذاتها ، سواء كانت ثقافة الانسان الأول او ثقافة العصور القديمة او ثقافة المجتمعات المعاصرة فى امريكا واوروبا .

والواقع أن جميع الثقافات تستأثر باهتمام دارس الانثروبولوجيا لأنها تسهم فى الكشف عن استجابات الناس نحو مشكلات البيئة الطبيعية ، ومحاولاتهم الحياة والعمل معا ، وتفاعلات المجتمعات الانسانية بعضها مع البعض . والثقافة من صنع الانسان ، وهى ظاهرة طبيعية تخضع لقوانين الطبيعة مثل التطور والتغير والبقاء للاصلح . وتعتبر قدرة الانسان على انتاج الثقافة اهم خاصية تميزه عن سائر المخلوقات الأدنى منه . ومن اهم عناصر الثقافة اللغة ، اذ عن طريقها تتناقل الافكار وتستمر من جيل الى جيل ، وتجمع وتسجل الثقافة . ومن ناحية اخرى فان الثقافة هى التى تزود اللغة بمعظم مضامينها فتعطى الانسان الاسماء والموضوعات التى يتكلم فيها . وتشمل الثقافة ايضا كل ما يصنعه الانسان من عناصر المادة مثل الملبس والمسكن والالات والأدوات — التى تتقدم بمرور الوقت — سواء للعمل او للتزين او للانتقال او للترويح ... الخ .

ويرجع الفضل الى تايلور **Tylor** فى نشاة هذا الفرع وتطوره ، وتنظيم موضوعاته فى اطار واحد ينتظم حول الثقافة (١٠) . ولعل التعريف الذى قدمه تايلور للثقافة لا يزال سائدا حتى اليوم ، على الرغم من ظهوره فى عام ١٨٧٨م . وهو كاف لاعطاء فكرة تفصيلية عن الموضوعات الكثيرة والمختلفة التى تدخل فى نطاق الثقافة . ويذهب تعريفه للثقافة الى انها « ذلك الكل المركب الذى يضم المعرفة والمعتقدات والفن والعادات والأخلاق والقانون واى قدرات اخرى يكتسبها الانسان باعتباره عضوا فى مجتمع » .

---

(١٠) **Roger M. Keesing, Cultural Anthropology; A Contmporary perspective, (2 ed editiot), Holt, Rinehartand winston, New York, 1981, pp. 67 - 70.**

وقد وضع تايلور بعض الأسس العامة لدراسة الثقافة من اجل التعرف على طرق التفكير ونماذج الفعل الانساني . كذلك حاول تايلور تفسير تشابه الحضارات الانسانية على اعتبار تشابه الفعل وتشابه الاسباب التي تؤدى الى حدوثه .

ومن الممكن أن تكون الدراسة في الأنثروبولوجيا الثقافية ذات جانبين :

أولهما : هو الدراسة المتزامنة او الآنية **Synchronic Study** أى دراسة الثقافة فى نقطة معينة من تاريخها . وهنا ننظر الى العنصر الثقافى من حيث ارتباطه مع حياة المجتمع ككل .

وثانى الجانبين هو الدراسة التتبعية **Diachronic Study** (او التاريخية) بمعنى دراسة الثقافة عبر التاريخ . وهذا ما يمثل الاتجاه التطورى فى دراسة الثقافة حيث يعزل الظاهرة او العنصر ويتتبعها فى سيرها التاريخى (١١) .

وفى ضوء كثرة وتنوع الموضوعات التى تدخل فى نطاق الثقافة ، فان الانثروبولوجيا الثقافية تضم عدة موضوعات أو فروع ، مثل الاثنولوجيا **Ethnology** وعلم الآثار **Archeology** (الاركيولوجيا) ، وعلم اللغويات **Linguistics** وسنتناول كل فرع منها بشيء من الايجاز .

١ ــ الاثنولوجيا : Ethnology :

وهى علم يختص بدراسة ثقافة المجتمعات الموجودة وقت الدراسة وكذلك الحضارات التى انقرضت بشرط أن تتوافر عنها سجلات مكتوبة وشواهد حية تلقى الضوء على هذه للحضارات . ويهتم الاثنولوجى بدراسة

---

(١١) ايكه هولتكرانس ، قاموس مصطلحات الاثنولوجيا والفولكلور ، ترجمة الدكتورين محمد الجوهرى وحسن الشامى ، ط ٢ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٣م ، ص ٢٤٤ ــ ٢٤٥ ، وص ٢٣٣ .

ووصف الثقافات المختلفة ، أينما وجدت سواء فى القارات القطبية الشاسعة او فى صحراوات وغابات أفريقيا أو فى الجزر المتناثرة فى المحيط الهادى او فى المدن المزدحمة فى أوروبا وآسيا وأمريكا . وبالتالى يعتبر وصف السمات الثقافية للجماعات البشرية المختلفة بمثابة الشغل الشاغل لعالم الانثولوجيا . ونظرا لقلة معلوماتنا عن المجتمعات البدائية نجده يكرس جهده للتعرف على ثقافاتها . ومع ذلك فلا ينبغى أن نصف الانثولوجيا بأنها دراسة المجتمعات والثقافات البدائية لانها تهتم بالثقافة كظاهر مميزة للبشر فى كل مكان وليس بثقافات مجتمع معين أو مجموعة من المجتمعات . كذلك فالانثولوجى يبحث فى كل ثقافة المجتمع فيدرس النظم السياسية والاقتصادية والدينية والفنون والعادات والتقاليد . وقد اتفق العلماء على اطلاق اصطلاح اثنوجرافيا **Ethnography** على الدراسة التى تقتصر على الوصف العام للثقافة ، على حين يطلقون اصطلاح إثنولوجيا على الدراسات التى تجمع بين وصف الثقافة والمقارنة بينها وبين غيرها من الثقافات . ولذلك يستهدف الاثنولوجى الوصول الى قوانين عامة للعادات الانسانية والتغير الثقافى وآثار الاتصال الثقافى بين الحضارات والثقافات المختلفة ، وتصنيفها الى مجموعات او اشكال على اساس مقاييس معينة ؛ ثم تفسر أوجه التشابه وأوجه الاختلاف بينها . وقد اهتمت الاثنولوجيا فى الوقت الحالى بدور الفرد فى المجتمع وارتباط نمو الشخصية بالتراث الثقافى للوصول الى تعميمات واجابات عن مدى دور الفرد فى بعض العمليات الثقافية كالاختراع والاكتشاف ونشر السمات الثقافية وانتشارها ، ووسائل تشكل الشخصية الفردية وانواع السلوك الذى تحبذه الثقافة والسلوك الذى تلفظه ... الخ .

٢ ــ علم الآثار : (الأركيولوجيا) Archeology :

يهتم علم الآثار بدراسة الانسان لتحديد وتتابع التغير الحضارى والثقافى على مر العصور . ولذلك يتحتم عليه أن يستخدم السجلات المكتوبة

كلما وجد اليها سبيلا — كما فى مصر القديمة والصين — لاعادة رسم صورة ثقافات العصور الغابرة بالاستعانة بمخلفاتها المادية وحدها فى اغلب الاحوال . فقد يعثر عالم الآثار على بعض الملاجىء التى كان الانسان القديم يسكنها كالكهوف ، وكذلك يعثر على بعض الاسلحة والادوات والاوانى المدفونة تحت الأرض (١٢) . وقد يعثر على بعض الرسوم والنقوش الحجرية والفخار والبيوت وبقايا المعابد ... الخ . وبالتالى يستطيع وصف جانب من الثقافة القديمة وربطها ببيئتها الطبيعة التى عاشت فيها .

والواقع ان هناك اختلافا كبيرا بين علماء الآثار وعلماء التاريخ . فإذا كان علماء التاريخ يدرسون الفترات المسجلة بالكتابة فى المدنيات والحضارات الكبرى فى الشرق الاوسط والاقصى واوروبا ؛ فان علماء الآثار يهتمون بالفترات والمراحل التاريخية الطويلة التى قضاها الانسان مثل اكتشاف القراءة والكتابة (١٣) . ومن هنا فانهم يعتمدون فى دراساتهم على البقايا التى خلفها الانسان وتمثل حضارته وعناصر ثقافته .

وبذلك يسهم عالم الآثار بنصيب اساسى فى اثراء معرفتنا بتاريخ الثقافات وتطورها . فمنه نعلم اين اكتسب الانسان الثقافة لأول مرة ومتى كان ذلك ، ومنه نقف على جانب من تاريخ الشعوب الامية ، كما نتوصل الى قدر من المعرفة بتطور الثقافات البشرية او اساليب تعاقب نمط ثقافى بعد آخر فى مختلف مجتمعات العالم (١٤) . ومن ناحية اخرى يمكننا ان ندرس ظهور المجتمعات التى تستخدم الاساليب الزراعية فى اعقاب المجتمعات

---

(١٢) د. محمد الجوهرى ، مرجع سابق ، ص ٣٥ .

(١٣) د. عاطف وصفى ، مصدر سابق ، ص ١٧ .

(١٤) Roger pearSon, Introduction to Anthropology; Op. pp. - 302 - 304 .

التى لا تستخدم هذه الأساليب فى الأماكن المختلفة (الجغرافية) والأزمان المختلفة (التاريخية) .

وقد توصل علماء الآثار الى مناهج دقيقة لفحص هذه البقايا ، والمخلفات البشرية ، كما توصلوا الى أساليب محكمة لحفر طبقات الأرض ، وتحديد المواقع التى يوجد فيها بقايا وتصنيفها ومقارنتها . وبالتالى يستنتج عالم الآثار الكثير من المعلومات عن الحضارات القديمة وتغيراتها واتصالاتها بغيرها من الحضارات . ويتعاون — فى هذا الصدد — مع المؤرخين والأنثروبولوجيين باختلاف تخصصاتهم الدقيقة ويستفيدون من أبحاث ودراسات علماء الجيولوجيا وعلماء النبات والحيوان والمناخ فى تاريخ وتحقيق (هوية) البقايا التى يكتشفونها . وكثيرا ما يستخدمون التجارب المعملية لاكتشاف خصائص ومناخ البقايا الاركيولوجية . ويتطلب عمل عالم الآثار معرفة واعية بالكيمياء والطبيعيات والمهارات الدقيقة . وقد نجح العلماء المحدثون فى اختراع وسيلة جديدة لتحديد عمر (البقايا) بدقة وهى طريقة الكربون المشع **Radio Active Carbon** وتعرف باصطلاح (ك ١٤) .

٣ — علم اللغويات : **Linguistics** :

تختص اللغويات بدراسة جميع لغات البشر ، بما فى ذلك اللغات المعاصرة (عند الشعوب الأمية او الشعوب التى تعرف القراءة والكتابة) واللغات التى لا نعرفها الا من واقع السجلات التاريخية المكتوبة فقط مثل اللغة اللاتينية واليونانية القديمة واللغة السنسكريتية . وينصب اهتمام دارس اللغويات على اللغة نفسها أساسا فيهتم بأصولها وتطورها وبنائها . وهو فى هذا يختلف عن دارس اللغويات العملية ، او دارس اللغة المقارنة **Polyglot** — الذى يتكلم ويفهم عدة لغات — او دارس الأدب الذى يهتم باللغات اهتماما ثانويا فى مقابل اهتمامه بالأعمال الأدبية ذاتها . كذلك يختلف عن دارس فقه اللغة ، الذى يهتم باللغة أساسا

كوسيلة لفهم التراث اللغوى والادبى لشعب معين فهما افضـــل (١٥) . وبالتالى يستطيع عالم اللغويات أن يعيد رسم صورة تاريخ اللغات والاسر اللغوية ، ويقارن بينها لتحديد السمات المشتركة ، وفهم العمليـــات التى تظهر من خلالها اللغات الى الوجود ، وتتنوع كما نراها اليوم .

والواقع أن دراسة اللغويات تعتمد على منهج علمى ؛ وتعتبر احــد فروع الأنثروبولوجيا الثقافية لان اللغة احد عناصر الثقافة ؛ ان لم تكــن اهمها على الاطلاق . وينقسم علم اللغويات الى عدة اقسام فرعية اهمها علم اللغويات الوصفى **Descriptive Linguistics** وعلم اصول اللغات **Glottochronology** . اما القســم الاول — علم اللغويات الوصفى — فهو يهتم بتحليل اللغات فى زمن محدد ، ويدرس النظم الصوتية وقواعد اللغة والمفردات . ويعتمد عالم اللغويات هنـــا فى دراساته على اللغة الكلامية (اى لغة غير مكتوبة) فيستمع الى المواطنين ويعبر عـــن لغتهم المنطوقة برموز دولية متعارف عليها . وتتركز معظم هذه الدراسات فى المجتمعات البدائية التى لم تعرف القراءة والكتابة . اما القسم الثانى — علم أصول اللغات — فهو يختص بالجانب التاريخى والمقارن ، حيث يدرس العلاقات التاريخية بين اللغات التى يمكن متابعة تاريخها عن طريق وثائق مكتوبة . وتزداد المشكلة حدة عندما يتناول اللغوى لغة قديمة لم تتـــرك وثائق مكتوبة . وهنا يستهدف تحديد أصول اللغات الانسانية بما فيها هذه اللغـــة القـــديمة .

وينبغى الا نفهم مما سبق أن اللغوى منعزل عن الانثروبولوجيا ، بل على العكس تماما ، فهو يوجه اهتمامه الى المشكلات اللغوية البحتـــة ، كما يهتم بالاعلاقات العديدة القائمة بين لغـــة شـــعب ما ، وبقية جوانب

---

(١٥) Roger Keesing, Cultural Anthropology Op. Cit., pp. 80 - 82.

ثقافته . وهكذا يمكن ان يدرس الكيفية التى ترتبط بها لغة جماعة معينة بمكانة تلك الجماعة أو وضعها الاجتماعى ، والرموز اللغوية المستخدمة فى الشعائر والاحتفالات الدينية ، وكيف ان هذه الرموز تختلف عن الكلام اليومى العادى ، وكيف يعكس تغير الحصيلة اللغوية فى احدى اللغات الثقافة المتغيرة للشعب الذى يتكلمها ، وعمليات نقل اللغة من جيل الى جيل وكيف تساعد على نقل المعتقدات والمثل والتقاليد الى الاجيال اللاحقة (١٦) . اذن يتمثل دور عالم اللغويات فى فهم دور اللغة فى المجتمعات البشرية ، وكذلك دورها فى رسم الصورة العامة للحضارة الانسانية .

(جـ) الانثروبولوجيا الاجتماعية : Social Anthropology

تمثل الأنثروبولوجيا الاجتماعية فرعا متميزا فى علم الأنثروبولوجيا العامة ، الا انها تمثل فى نفس الوقت — محور خلاف بين المدارس الانثروبولوجية الحديثة . فالمدرسة الأمريكية ترى ان الأنثروبولوجيا الاجتماعية فرع من فروع الانثروبولوجيا الثقافية ، وبالتالى فان الانثروبولوجيا العامة تنقسم الى انثروبولوجيا طبيعية او بيولوجية وانثروبولوجيا ثقافية ، يتفرع منها الانثروبولوجيا الاجتماعية . على حين تعتبر المدرسة البريطانية ان الأنثروبولوجيا الاجتماعية هى القسم الرئيسى الثانى للأنثروبولوجيا — بعد الأنثروبولوجيا الطبيعية — ويتفرع عنها الأنثروبولوجيا الثقافية . وبعبارة اخرى تعتبر الأنثروبولوجيا الاجتماعية بمثابة الأصل — من وجهة نظر المدرسة البريطانية — والأنثروبولوجيا الثقافية بمثابة الفرع ، بينما تعتبر الانثروبولوجيا الثقافية — فى ضوء فكر المدرسة الأمريكية — هى الاصل ، والأنثروبولوجيا الاجتماعية هى الفرع .

وعلى اية حال ، فان هذه الخلافات لا تهمنا كثيرا هنا بقدر ما يهمنا توضيح أن مجال اهتمام الأنثروبولوجيا الاجتماعية هو البناء الاجتماعى :

---

(١٦) انظر : Roger Pearson, op . Cit., p. 268.

وانظر أيضا : Roger Keesing . op . Cit., p. 329

ومحور اهتمام الأنثروبولوجيا الثقافية هو الثقافة . ونحن فى مصر — ومن وجهة نظر المدرسة المصرية فى الأنثروبولوجيا اذا جازت التسمية — نعتبر أن الانثروبولوجيا الاجتماعية فرع مستقل . كما أن الأنثروبولوجيا الثقافية هى الاخرى فرع مستقل من فروع الأنثروبولوجيا العامة .

تدرس الأنثروبولوجيا الاجتماعية — اذن — السلوك الاجتماعى الذى يتخذ فى العادة شكل نظم اجتماعية كالعائلة ونسق القرابة والتنظيم السياسى والاجراءات القانونية والعبادات الدينية وغيرها (١٧) . كما تدرس العلاقة بين هذه النظم ، سواء فى المجتمعات المعاصرة أو فى المجتمعات التاريخية التى يوجد لدينا عنها معلومات مناسبة من هذا النوع . ويمكن بهذا القيام بمثل هذه الدراسات (١٨) .

وتولى الأنثروبولوجيا الاجتماعية البناء الاجتماعى **Social Structure** اهتماما ملحوظا . فهى تحلل هذا البناء فى المجتمعات الانسانية . وخاصة المجتمعات الدائمة والبسيطة التى يظهر فيها تكامل البناء الاجتماعى ووحدته بوضوح . وهنا يزداد اهتمام علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية بالقطاع الاجتماعى للحضارة . والدراسة التفصيلية للبناء الاجتماعى ، وتوضيح الترابط والتأثير المتبادل بين النظم الاجتماعية . وسوف نعالج هذه الموضوعات بالتفصيل فى الفصول اللاحقة .

٢ — الفروع الحديثة للأنثروبولوجيا :

تعددت الدراسات الأنثروبولوجية فى الوقت الراهن وتراكمت البحوث التى أجريت على موضوعات حديثة وفى مجتمعات كبيرة الحجم نسبيا

---

١٧) انظر : Roger Keesing, op - Cit., p - 316 . 334.
See Also :
Roger Pearson, Introduction to Anthropology. op . Cit., pp . 191 - 205 .

١٨) ايفانز بريتشارد ، الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، ترجمة الدكتور أحمد أبو زيد ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٦٠م ، ص ٢٣ .

ريفية وحضرية صناعية ... الخ) والملاحظ ان هذه الفروع ليست حديثة بالمعنى الزمنى (بداية ظهورها) لأنها نالت بعض الاهتمام فى دراسات الرواد ، وفى الفروع التقليدية (الطبيعية والاجتماعية والثقافية) ، ولكنها حديثة بمعنى تبلورها بشكل واضح حول محور من محاور الاهتمام والدراسة يجذب الباحثين اليه فتتراكم بحوثهم وتنصب على هذا المحور ، فيصبح بالتالى فرعا متميزا وحديثا فى نفس الوقت . وتزداد معالم هذا الفرع رسوخا كلما ساهمت بحوثه ودراساته بتقديم الحلول لبعض المشكلات، وابراز الجوانب التطبيقية المفيدة . ومن اهم هذه الفروع : الأنثروبولوجيا السياسية Political Anthropology والأنثروبولوجيا الاقتصادية Economic Anthropology والانثروبولوجيا الطبية Medical Anthropology (١٩) ، والانثروبولوجيا الحضرية Urban Anthropology والأنثروبولوجيا النفسية Psychological Anthropology (٢٠). والانثروبولوجيا التطبيقية Applied Anthropology (*) .

---

(١٩) حول هذا الموضوع انظر مزيدا من التفاصيل فى :

(أ) د. على المكاوى ، الجوانب الاجتماعية والثقافية للخدمة الصحية : دراسة ميدانية فى علم الاجتماع الطبى ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٨٨م الفصل الخامس ص ص ٢٩٣ ـ ٤٠٧ .

(ب) د. على المكاوى ، الطب السحرى ، دراسة نقدية ، الكتاب السنوى لعلم الاجتماع ، العدد الرابع ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٣م ص ص ٤٧٢ — ٤٨٣ .

(جـ) د. على المكاوى ، الخدمة الصحية فى مصر : دراسة للابعاد المهنية والاجتماعية والثقافية ، رسالة دكتوراه (غير منشورة) ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٦م ، البابان الاول والثانى .

(د) د. نبيل صبحى ، الانثروبولوجيا الطبية وخدمة قضايا الصحة والمرض فى مصر، مقال منشور بالكتاب السنوى لعلم الاجتماع ، العدد الثالث ، دار المعارف ، القاهرة ، اكتوبر ١٩٨٢م ، ص ص ١٩ — ٢٠٠ .

(٢٠) انظر تفاصيل هذا الفرع فى الكتاب التالى :

د. عاطف وصفى ، الثقافة والشخصية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٥م .

(*) سنتناول هذا الموضوع بالتفصيل فى الفصل الرابع عشر الاخير من هذا الكتاب .

الفصل الثانى

الأنثروبولوجيا التطبيقية : المفهوم والتاريخ

مفهوم الانثروبولوجيا التطبيقية :

ظهرت الانثروبولوجيا التطبيقية نتيجة رغبة المدرسة الوظيفية فى تطبيق علمها على السياسة الإدارية ، وفى الواقع لا يختلف بناء مقولات الانثروبولوجيا التطبيقية كليا عما هو فى الانثروبولوجيا الأكاديمية التى تركز على مفهوم التثاقف المجرد[*] .

ولا يمكن الاكتفاء بوجهة نظر بعض المتخصصين الذين اعتبروا «ولادة» الانثربولوجيا التطبيقية قد أتت عن وعى الانثربولوجيين لذاتهم كمواطنين تصيبهم ممارسات أمتهم . والانثروبولوجيا التطبقية ليست نمطا مختلفا عن الانثروبولوجيا الأكاديمية، بل على العكس ، إنها نظرية ، إنها علم .

ويعتبر المعهد الأفريقى العالمى الذى تأسس عام ١٩٢٦ م من أنشط الأجهزة وأكثرها أهمية من بين الأجهزة العالمية الإرادية التى تأسست أثناء قيام الانثروبولوجيا التطبيقية . ومن الشخصيات الهامة التى ساهتم فى تأسيسه وإدارته نجد أكثر الأسماء شهرة فى حقل الانثروبولجيا الكلاسيكية : كارل ماينهوف ، سليجمان - ليفى بريل ، الأب شميث ، شابيرا، هادون ، وأخيرا لابوريت ولوجارد ومالينوفسكى .

وكان أحد أهم أهدافه التقريب الكامل بين المعرفة والبحث العلمى من جهة، وبين الأمور التطبيقية من جهة أخرى .

وفى كتاب ايفانز بريتشارد النوير The Nurrn الذى ألفه بطلب من الحكومة البريطانية تشغل الإجراءات التطبيقية حيزا رئيسيا باعتباره وصفا رائعا لنسق مستقل بغض النظر عن الظروف التى ظهر فيها . كذلك وضع مايافورتس كتابه عن قبائل الثالنسى بناء على طلب حكومة الشاطئ الذهبى ، كما وضع شابيرا كتابا عام ١٩٣٨ بطلب من حكومة جنوب أفريقيا ، وعنوانه :

AHadbock of Tswana law and custorns"

تم الاعتماد فى هذا الجزء على المصدر التالى :
د/ فوزى العربى ، الانثروبولوجيا التطبيقية ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ١٩٩٠ ، ص.ص ٢٣-٢٨.

وفي عام ١٩٤٠ تأسست جمعية الانثروبولوجية التطبيقية :

Seciety for Applid Anthropology

وقد ساهم فيها كل من هوسكوفيتر وهوجبيه وليبتون ، وكاردنير وسواهم . وقلقا منه على صفاء معرفته ، يرفض الانثربولوجى أن يخرج علمه بالسياسة التى يتوجب عليها اختيارات لا تخضع للعقل بل للإدارة ، فيضطلع عندها ، مثل رادكليف براون ، بدور وسيط داخل الإدارة ، دور خبير استشارى داخل النظام وغير مرتبط به إذ يقول : « يجب على العالم ألا يحاول أن يملى على الإدارى مايجب عليه عمله ، إنما ينحصر دوره بتقديم المعارف المجمعة عن الواقع والمحللة تحليلا علميا ، وهى معارف سيستعملها الإدارى إن رغب فى ذلك .

يطالعنا النص السابق ، بقلة إهتمام رادكليف براون بالأنثروبولوجيا التطبيقية ، أو بشكل عام بعدم اكتراثه بإمكانيات هذا العلم ومسئولياته التطبيقية ،هذا فى الوقت الذى يصر فيه علي ترك الأبحاث « القديمة » و «الأكاديمية »[٨].

وفى عام ١٩٤٦ طالب ايفانز بريتشارد بصفة خبير مساو لبقية أفراد الإدارة من المستحيل أن يصل الانثروبولوجى بصفته خبيرا أو مستشارا فى الإدارة وإن كان فيها فردا معزولا ؛ فهو لايستطيع اسداء النصح فيما يتعلق بطبيعة البرامج القضائية أو التربوية والاقتصادية أو الاجتماعية قبل أن يتعرف على الجهاز البيروقراطى من الداخل ، أو قبل أن يطلع على الوثائق وأن يجلس مع رؤساء الأقسام المختصين على طاولة واحدة وعلى قدم المساواة معهم ، وإلا لا يمكنه أن يضع المسائل فى إطارها الانثروبولوجي ، ولا يمكنه أن يترجم للإدارة المسائل بلغة إدارية . كما لا يمكنه أخيرا أن يشارك في تحمل مسئولية أعمال الإدارة وسياستها .

وقد قابلت لوسى مير Lucy Mair بين الانثروبولوجي والتقنى ، بين من يملك نظرة كلية اجتماعية - ثقافية ومن لا يعرف إلا مظاهر مجزأة عن الحقيقة الاجتماعية(١٠) .

وفى كتاب له ظهر عام ١٩٥٣ بعنوانAnthropology and life ذهب نادل إلى أبعد مما ذهب إليه مالينوفسكى أو ايفانز بريتشارد قائلا : " حين يصبح العلم الاجتماعى قابلا للتطبيق فعلى الانثروبولوجى وحده أن يطبقه ، وأن لا يطبقه بصفته تقنيا يستعمل الغايات التى توصل إليها آخرون ، بل أن ينسب لنفسه الحق فى الحكم على شرعية هذه الغايات التى توصل إليها أخرون ، بل أن ينسب لنفسه الحق فى الحكم على شرعية هذه الغايات ، عليه أن يأمر أن ينصح ، وأن ينتقد ، وأن يتدخل فى ما للسياسة من حقوق وما تقع فيه من أخطاء".

ومنذ عام ١٩٣٠لم تعد الانثروبولوجيا التطبيقية تكتفى بالاعتبارات العامة المتعلقة بالتغير ، إذ تخلت عن الدراسات لتعتمد تقطيعا منهجيا يتناول « مشكلات محددة (الجوع ، التصنيع ، تنظيم المدن) ، ولم تعد الدراسات تعتمد الاعتبارات المعرفية الصرفة، بل ركزت على الضرورات العملية ، فقد صار لزاما على العلم الصرف أن يتجزأ ليصبح ممارسة .

إن الانثروبولوجيا التطبيقية هى دراسة للتغير الاجتماعى المخطط ، ويجب دائما الاهتمام بالدور الذى تلعبه الانثروبولجيا التطبقية والاستفسارات الرئيسية التي تبحث الانثروبولوجيا عن إجابات لها وعلاقتها بالتنمية والتغير . وتدرس الانثروبولوجيا التطبقية علي أنها فن تقليدى يضاف إلى العلم المنظور أكثر من دراستها عل أنها علم ذاتي من فعل الجماعات وجهدهم .

ومثلما يشفى الطبيب مرضاه يمنع الانثروبولوجى الاحتكاك بين الأفراد ويستبعد القوة فى العلاقات الاجتماعية ويحمى حقوق وكرامة الجماعات ، وذلك أن الانثربولوجى ليس مجرد « تكنولوجى »ولكنه فى المحل الأول « إنسان» فإنه

كتكنولوجي يمتلك مهارات تمكنه من أن يعمل تجاه التحقق من الوصول إلى غايات معينة ، ولكنه كإنسان فإن لديه الحرية والواجب لرفض كل المطالب التي قد تبدو له لا مبرر لها أخلاقيا ، فهو على سبيل المثال - يستطيع أن يقبل مشروعا سياسيا يسمح بالوفاق بين الجماعات المتصارعة ، كما يقبل نظاما للعلاقات السلمية في مواجهة تسلط القوة ، كما يستطيع الانثروبولوجي أن يرفض من ناحية أخرى مشروعا سياسيا لنقل السكان بالقوة من إقليم إلى آخر حتى ولو كان ذلك النقل من بيئة شديدة الفقر إلى بيئة أغنى منها في مصادرها الطبيعية إذا ما حكم بأن التكاليف الاجتماعية لذلك النقل سوف تكون أعلى من عائدها الاقتصادي .

والانثروبولوجي مواطن كالآخرين ، وكل مواطن له الحق في تكوين وخلق فلسفة يستطيع بواسطتها أن ينظم سلوكه الخاص ، وتحدد تلك الفلسفة الصواب والخطأ بالنسبة له [11].

إن أفرقة الجماعات هدف تم الوصول إليه بأفرقة الانثروبولوجيا التطبيقية ، وذلك أن الانثروبولوجيين السود فقط سوف يكونون قادرين على تنمية أقطارهم وبواسطة احترام ثقافتهم الوطنية ، وبإيجاد الطرق تجاه ضرورة التوفيق بين الأهداف الجديدة والتقاليد المتوارثة من الأسلاف . وستظل تلك الانثروبولوجيا التطبيقية الأفريقية توضع في الإطار الإنساني للبشرية وليس في إطار الثقافة الغربية.

ويجب أن نذهب إلى أبعد من ذلك ونقرر أنه خلال تلك المرحلة فإن الحوار بين الحكومات والانثروبولوجيا أسهل من الحوار بين الحكومات وغيرهم من المتخصصين كالاقتصاديين وأخصائيين التغذية والسوسيولوجيين أو السيكولوجيين ، لأن الانثروبولوجيين يبدأون بمعرفة الثقافات العرقية أو القومية واختلافاتها وملامحها الأصلية ، بينما يهتم الآخرون - مع ذلك - بالمظاهر العامة والتافهة للطبيعة البشرية .

تاريخ الانثروبولوجيا التطبيقية Applied Anthropology

كان أول ظهور للأنثروبولوجيا التطبيقية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر عندما ظهرت أول مدرسة اثنولوجية وهى « المدرسة التطورية -Evo lurionism ولا يهمنا فى هذا الصدد أن نشرح معنى «التطورية » ، أو ما هوالشكل الذى كانت عليه ، ويكفى هنا أن نقول أن البشرية مرت بنفس مراحل التطور من التوحش Savagery إلى التبربر Barprism ومن التبربر إلى المدنية civilization ولكن المشكلة الحقيقية هنا : إذا ماكان البشريجب أن يمروا من خلال تلك المراحل من التطور فكيف نفسر أن بعضا منهم قد توقف فى الطريق ، أو أن البعض الأخر تقدموا بخطوات كبيرة فى طريق التطور ؟ ويشرح لنا العلم لماذا وكيف عبر بعض السكان من مرحلة لأخرى فى طريق التطور . وتحيلنا الإثنولوجيا التاريخية لفهم دروس الماضى وتتعرف على العمليات الحقيقية وخطوات التطور الفعلية لنا ، ونستطيع عندئذ أن نتعرف على التكيف الثقافى للبشرية فى مرحلتى التبربر أو التوحش، وعندما ظهرت الانثربولوجيا كعلم كان هذا أول ميلاد للأنثروبولوجيا التطبيقية[٣] .

وكان أول تساؤل وضعه أوجست كونت Conte -على سبيل المثال - هو اكتشاف - فى هذه القفزة تجاه التقدم - هل كان البشر يجب أن يمروا من خلال نفس تلك المراحل المتعاقبة أم أن خطوات معينة يجب أن يعبروها فقط ؟ والتساؤل الثانى يتعلق باكتشاف سبب محطات التوقف المؤكدة تلك فى طريق التطور ، أو سبب البطء المؤكد المميز لهؤلاء السكان والذى اصطلح على تسميته العودة إلى الوراء. ومن وجهة نظر موريل Morelيرد ذلك إلى عدة

أسباب طبيعية : كالمناخ والايكولوجيا وأسباب أخرى صحية جعلتهم لا يتلاءمون مع المدنية .

المدرسة الثقافية النسبية الأمريكية :

عرض كاردنير فى كتابه : The psyychological frontiers of society لعدد من أنماط الثقافة « ثقافة الكومانش» أو ثقافة شعب الألور مقابل الثقافة الغربية كما تتمثل فى مدينة أمريكية صغيره هى بلينفيل »استناذا إلى « نظم استاط» الشخصية الأساسية التى تتمثل فى كل ثقافة دون اللجوء إلى قيم أو مفاهيم خارجية ، وذلك يعود كما يقول كاردنير « لامتلاك كل ثقافة تركيبا نفسيا فريدا ، ولا وجود لثقافتين متشابهتين(٤) .

وقد اقترح سابير – وبعد من أساتذة الانثروبولوجيا الأمريكية ، مع كل من فرانزبواس وكروجر – منذ عام ١٩٢٥ تمييزا بين ثقافات « أصيلة وثقافات غير أصيلة « الأولى » ثقافات منسجمة،متوازنة وتعيش بتطابق كلى مع ذاتها ، أما الأخرى فتحيل الفرد إلى حالة من الصدأ ، كما تولد الكبت والاغتراب ، ولم يشك سابير إطلاقا بانتماء الثقافة الغربية إلى الصنف الثانى .

ويعودالفضل إلى هرسكوفيتز باختراع مصطلح « نسبية الثقافة »، ولتطويره مفهوما منظما لم يكن إلا خطرطا لدى العديد من علماء الانثروبولوجيا الأمريكيين ، وقد تساءل هرسكوفيتز : « كيف يمكن إطلاق أحكام قيمية على هذه الثقافة أو تلك ، أو على الثقافة البدائية بشكل عام طالما أن الأحكام هذه مبنية على التجربة ، وطالما أن كل فرد يفسر التجربة بحدود ثقافته الخاص ؟ لا وجود إذن لتجربة (حسية – فنية – دينية .. الخ) طالما أن كل تجربة هى نسبية بالنسبة لنسق المجتمع الثقافى ، وطالما أن كل مجتمع هو نظام تجربة وأحكام .

من الوهم إذن أن تسعى الثقافة الغربية كما يقول هرسكوفيتز -لاطلاق أحكام مُعلّلة على ثقافات أخرى ، وهى أحكام ستصبح فيما بعد ...

للممارسات الاستعمارية .

إن النزعة الفردية فى احتقار أو سوء تقدير الثقافات الأخرى أمر لازم لكل الثقافات . وهذه النزعة هي ما نطلق عليها إسم الاثنية المركزية ، وهى تتلخص بموقف من يعتقد أن نمط حياته أفضل من الأنماط الأخرى كلها . ومدرسة الثقافة النسبية قد ذهبت أبعد مما ذهبت إليه الوظيفية ، فلم تحاول طرح السؤال عما إذاكانت المجتمعات التى تتناولها بالدراسة هى مجتمعات بدائية ، بل إنها رفضت حق الانثروبولوجيا فى وصف هذه المجتمعات وإطلاق الأحكام التى ليست فى نهاية الأمر إلا أحكاما قيمية . وهكذا ساهمت الأنثربولوجيا الثقافية برفضها تقسيم المجتمع الإنسانى واعتباره كثرة من العوالم الثقافية ، بتحطيم الرؤية الامبريالية (٥).

ولقد أظهرت الانثربولوجيا أنه لا يمكن رد السياسة إلى الدولة ، وإلى الدولة البيروقراطية بشكل خاص ، وبإمكانها أيضا إظهار تفوق الأنظمة السياسية الأفريقية (وهى ليست الأدنى) على الأنظمة الأوربية . ولا شك فى ضرورة ادخال بعض التغييرات شرط أن تكون مقبولة ومختارة من قبل الأفارقة لا أن تفرض عليهم ، أو يوصى لهم بها من الخارج .

وتعتبر مدرسة الثقافة النسبية نفسها بالأساس محصلة النتائج الطبيعية لعلم الانثروبولوجيا . ويقول مؤلف أمريكى : « من المعروف على الأقل فى بعض الأوساط ،أن إحدى وظائف الثقافة النسبية حماية الشعوب التى لا تعرف القراءة،من تدخل المبشرين الهادف والواعى والذى يوصل إلى نتائج مأساوية ، ومن تدخل الامبرياليين الذى لا يرحم (٦).

وقد أنكر فرانربواس التطورية ، ونصل مع بواس إلى مرحلة ثانية من تاريخ الانثروبولوجيا التطبيقية ذلك هو انتصار الانثروبولوجيا الثقافية الذى سنتحدث عنه الآن باختصار :

من المؤكد أن الإدراك واحد عند كل البشر دون ما تفرقه بينهم على أساس لون الجلد أو نسيج الشعر ، ولكنه يظهر نفسه من خلال مصادر مختلفة من الاجتهادات الثقافية . ولست هنا في مجال تقييم تلك الاجتهادات ، إذ لا يوجد ثقافة عليا أو ثقافات دنيا ، بل هناك فقط ثقافات مختلفة .

وكان الخطأ الرئيسي الذى وقعت فيه التطورية هو الحكم على الحضارات الأخرى بالإشارة إلى حضارتنا نحن مما يؤدى إلى الوقوع فى خطأ المركزية الاثنوجرافية.

والحضارات لا تظل أبدا ساكنة لا تتغير ، فهي تتغير طوال الوقت سواء بواسطة الابتكار الداخلى لتطويرها أو عن طريق الاستعارة من الحضارات المجاورة ، ولا يجب أن ننسى أن الانثروبولوجيا الثقافية قد ولدت مع بواس تحت مظلة فوضى التعرف على التبادل بين المجتمعات والاحتكاك بينها ، كما أنها أهتمت دائما بحقائق التكيف الثقافى كما يتضح عند هو سكوفتر وليتونورينلد .

وتوضح ملاحظات الاثنوجرافيين أنه إذا ما قاوم الناس التغير ، فيستقبلون دائما الوسائل التكنولوجية والنظم والمهارات من الثقافات الأخري والتى تبدو جيدة بالنسبة لهم . ويمكن للانثروبولوجيا التطبيقية حينئذ - والتى تقوم على حقائق التكيف الثقافى والمعرفة - أن تكون مقبولة من الوطنيين فى نهاية الأمر.

الوظيفية Functionalism والانثروبولوجيا التطبيقية :

كان مالينوفسكى على حق . فقد أوضح بجلاء وصراحة تأثير الاستعمار على أصول الانثروبولوجيا التطبيقية والتي حاولت أن تأخذ شكل « انثروبولوجيا وظيفية » . وطبقا لما ذكره مالينوفسكى :يعتبر العلم أكثر ضرورة للإداريين إذا ما رغبوا فى إجزاء تغير ناجع للمجتمعات التي أصبحوا يتولون ادراتها . ولهذا فإن كل جهود مالينوفسكى بعد عودته إلى انجلترا تركزت حول تدريب اداريين

المستقبل على الطرق الاثنوجرافية ودفع الاثنولوجية نحو القيم العملية وليس القيم النظرية لنظمهم . وهذا يفسر السبب الذى جعل مالينوفسك يهاجم التطورية تماما مثل هجومه على الاثنولوجيا التاريخية لحرينر .

ويري ماليوفسكى أن الانثربولوجى يجب عليه الا يرتمى طويلا فى أحضان الماضى الافتراضى ، وبدلا من ذلك عليه أن يكون عمله الرئيسى إعادة بناء ما يفعله المجتمع الوطنى قبل مجئ الأوربيين(٦) .

وكان ما اكتشفه مالينوفسكى هو « الوظيفة السيكولوجية » التى تقوم فى نهاية الأمر على الطبيعة البيولوجية للاحتياجات البشرية التي جعلت ممارستها الممكنة الغرض الأساسى للانثروبولوجيا التطبيقية .

إن بناء نظام جديد لتوفير المياه فى قرية افريقية يبدو من هذا المنطلق أنه يقدم مثلا طيبا علي الأخطاء التى يمكن أن تقع من خلال الأغراض الحسنة ، ولقد اندهش المخططون تماما من المجهود الفيزيقى الذى قام به النساء الذين كان عليهم السير لعدة كيلومترات لجلب الماء من المنبع وحمله مرة أخرى على رؤوسهم للمنازل . ولكن حدث بغير ذلك أن الماء تم توصيله فى أنابيب للمنازل فعم القرية الحزن وعانى الناس من إنتشار الكآبة . ويرجع سبب ذلك إلى أن حمل الماء كانت له وظيفة أخرى ، فقد كان يعطى النساء الفرصة للالتقاء معا والثرثرة والشكوى من جيرانهم والإحاطة علما بالأخبار والقرارات . والآن وجدت كل امرأة نفسها حبيسة جدران المنزل بمفردها . وفى مواجهة المحافظة علي التتابع الروحى من الفراغ كان يجب إيجاد نظام جديد يلبى الاحتياجات القديمة كالثرثرة والتفاعل، فأقيمت لهذا الغرض نوادى قديمة للنساء ترضى تلك الاحتياجات القديمة وفى نفس الوقت تصل أيضا على خلق احتياجات ثقافية وسياسية جديدة.

هذا المثال الذى أوردناه يمكن أن يكون أحسن الأمثلة لأنه مثال تقليدى يوضح مطابقة الفكر الوظيفى لتكوين الانثروبولوجيا التطبيقية (٧).

الفصل الثالث

الأنثروبولوجيا التطبيقية وتطور العمل الانثروبولوجى

اولا : الانثروبولوجيا التطبيقية فى الولايات المتحدة الامريكية :

أصبح من الأمور المقررة فى الولايات المتحدة منذ ان بدا علم الأنثروبولوجيا فى الظهور انه بالامكان توظيف المعرفة الأنثروبولوجية فى الأغراض العملية المتمثلة فى حل مشكلات الانسان . ولقد ظهرت الآراء المتعلقة بالأنثروبولوجيا والرفاهية الانسانية لاول مرة خلال القرن الماضى، كما ظهرت ايضا فى بعض الوثائق الحديثة جدا التى اشرفت عليها الجمعية الأمريكية لعلم الأنثروبولوجيا .. ويؤمن معظم العلماء ـ حتى اولئك الذين يكرسون انفسهم لاجراء البحوث « البحتة » . او التى لا تنطوى على قيمة عملية واضحة ـ بالفكرة التى مؤداها أن ما يقومون به من بحوث قد تثبت « فائدته » أو اسهامه فى الرفاهية الانسانية يوما ما . ان معظم مشكلات الانسانية تتضمن تغيرات فى السلوك والاتجاهات والنظم والعلاقات . ولهذا السبب فان دراسات التثقف فى الولايات المتحدة ودراسات الاتصال الثقافى التى تجرى فى دول أخرى ، قد اصبحت وثيقة الصلة بالأنثروبولوجيا التطبيقية . فالافكار التى تسهم فى ظهورها دراسات التثقف لا تنطوى فقط على امكانية فائدتها ، بل ان كثيرا من المواقف التطبيقية تسمح بتحكم ادق فى التغير ، كما تسمح بتطوير اتجاه الاختبار العملى للفروض والنظريات . فالأنثروبولوجيا التطبيقية تتضمن معالجة وتناولا للكائنات الانسانية من اجل تحقيق اهداف معينة . ولهذا نجد بعض الأنثروبولوجيين ـ رغم اهتمامهم الملح بالرفاهية الانسانية ـ يعارضون الأنثروبولوجيا التطبيقية والمؤكد أن ذلك يثير عددا من المشكلات الهامة المتعلقة بالأخلاق والمشروعية .

ولقد نمت التطبيقات الأنثروبولوجية المبكرة الهامة فى مجال الادارة الاستعمارية تماما . ذلك حقيقة أساءت الى سمعة الجانب التطبيقى الذى يمارسه كثير من علماء الانثروبولوجيا . ولقد ظل الهولنديون والبريطانيون، ومن بعدهم الفرنسيون لفترة طويلة ، يعتبرون الانثروبولوجيا والتدريب الأنثروبولوجى للاداريين الاستعماريين مسألة على درجة بالغة من القيمة والأهميـــة .

ومن الاستخدامات المبكرة الهامة للانثروبولوجيا تطوير ما يطلق عليه الحكم غير المباشر . فلقد كانت الدراسات التى تتناول القانون المحلى والبناء

تم الاعتماد فى هذا الجزء على المصدر التالى :
د/ محمد الجوهرى الانثروبولوجيا : اسس نظرية وتطبيقات عملية ، دار المعارف، القاهرة ، ١٩٨٤ ، ص.ص ٣٧٨-٣٨٩

الاجتماعي وتحديد الزعامة المحلية تستخدم في ادخال انماط من الادارة تحدث أقل قدر من التوتر في حياة المجتمعات البدائية . ففي اندونيسيا - على سبيل المثال تم تقنين القانون القبلي ، بحيث كانت نصوص القوانين تختلف - غالبا - من قرية لأخرى ، بما يتلاءم مع الظروف المحلية . وغالبا ما كانت تجرى تعديلات (مثال ذلك انه اينما وجد صيد الرؤوس كان يحرم في التقنين النهائي) وان كان الجانب الأكبر من القانون العرفي القائم يلقى دعما ويصبح ملزما للجماعة .

وبرغم السطحية المرغوبة التي ينطوي عليها هذا الاتجاه ، الا انه لم يصبح عقبة تعوق التغير الاجتماعي داخل الجماعة المحكومة . لكننا نجد الحيازات الزراعية المتفاوتة ، او الحكم المحلي الأوتوقراطي - الذي يكون مقبولا حينما تكون الجماعة منعزلة عن بقية العالم - قد يعوق - الى حد كبير - التغير او التلاؤم مع الانتقاء الضروري للأفكار الجديدة ومعرفة الظروف في مناطق اخرى من العالم . وكان من المحتم ايضا على الاداريين الأوروبيين أن يظلوا حريصين - اساسا - على توسيع الأسواق للسلع الصناعية الأوروبية وزيادة انتاج المواد الخام . واخيرا فان مثل هذه السياسات قد جعلت من الصعب على الشعوب البدائية ان تتعلم كيفية ادارة شئونها الخاصة في ضوء احتكاكاتها المتزايدة مع العالم الخارجي .

والمشكلة الأساسية تتعلق بما اذا كانت الادارة الاستعمارية تسعى نحو تدعيم علاقة سيطرة وتبعية ، أم انها كانت تسعى نحو مساعدة الشعوب على الوصول الى مكانة مستقلة ومتساوية في اطار عالم حديث موحد يأخذ بأسباب التصنيع . وفي الحالة الأولى فان الأنثروبولوجيا التطبيقية قد تحولت لتصبح مجرد عملية اكتشاف افضل الوسائل للتأثير في الشعوب البدائية حتى تتمثل أهداف الثقافة المسيطرة ، مع السماح - غالبا - بقدر ضئيل من التغير الثقافي . وحتى في الحالة الثانية - أي حينما كان الحكم الذاتي والتحديد الذاتي للمصير هما الهدفان المبتغيان - فان الاداريين اعتقدوا دائما انهم يعرفون ما هو الأفضل . وبالتالي فان عالم الأنثروبولوجيا - مرة أخرى - كان مهتما - أولا وقبل كل شيء - بمهمة التأثير في الشعوب البدائية الى أن يعتقد بأن القرارات الادارية « لصالحها » .

ويميل معظم علماء الأنثروبولوجيا في الولايات المتحدة الى رفض أي

من هاتين الوظيفتين ، بوصفهما استخداما غير اخلاقى لمعلوماتهم • ومع ذلك نجد فى بعض الأوقات ان مثل هذه الأعمال قد تبدو ضرورية ومرغوبا فيها • والمثال المتطرف على ذلك هو حالة سكان جزيرة بيكينى المرجانية فى المحيط الهادى الذين رحلوا الى موقع آخر . حينما تم اختيار جزيرة بيكينى كموقع لتجربة القنابل الذرية • ولقد وجد السكان فى بداية الأمر صعوبة بالغة فى التكيف مع هذا الرحيل • وبمساعدة احد علماء الأنثروبولوجيا تمكن السكان فى النهاية من التوافق – الى حد ما – مع وطنهم الجديد ، وبذلك تمكنوا من التكيف بنجاح وربما يستحق تاريخ هذه الحالة معالجة قصيرة •

* * *

٥ – المشكلة فى بيكينى :

كان سكان جزيرة بيكينى يمثلون فى البداية جماعة غازية طردت سكانا أوائل ، ثم استقرت فى الجزيرة تحت قيادة رئيس وراثى متحكم نسبيا ، وبعد مرور مائة عام تقريبا وقعت تحت سيادة رئيس اقوى (الكابو) يحكم مجموعة من الجزر المجاورة ، حيث كانت تدفع له الجزية التقليدية نظير خدمات متابلة • وكان هذا الرئيس الأعلى يتولى مسالة العلاقات بالأوروبيين ، وحينما ظهر الحكم الألمانى ، ومن بعده اليابانى ، كان الرئيس الأعلى يدفع كل الضرائب من الجزية التى كان يتقاضاها ، حيث كان يدفع هذه الضرائب فى مقابل الرعاية الأبوية وتحمل المسئولية العامة فى الحرب بالنسبة لمجموعة الجزر •

وباختيار جزيرة بيكينى لاجراء التجارب الذرية توجه الحاكم العسكرى لجزر مارشال الى جزيرة بيكينى . حيث شرح الموقف للسكان وطلب اليهم التعاون بأن يوافقوا على الرحيل • ونظرا لصعوبة التشاور مع رئيسهم الاعلى • وعدم قدرة سكان جزيرة بيكينى على ابداء راى فى اى موضوع يخارج عليهم فانهم قد اضطروا لقبول الرحيل ، ومن ثم ظهرت مشكلة البحث عن وطن جديد لهم • ومع أن من الواضح ان القرار قد تم بجدية كاملة ، الا أنه لم يكن مفهوما فى الواقع ، فلقد كان – اساسا – استجابة صادرة عن شعب اعتاد على قبول قرارات اى شخص يحتل موقعا من مواقع السلطة •

والأرض فى هذا الاقليم نادرة الى حد كبير . كما انها مكتظة بالسكان

عادة • فعدد سكان جزيرة بيكيني يبلغ ١٦٧ شخصا يعيشون على مساحة أرض تبلغ باكملها ٢٫٣٢ من الميل المربع ، جزء منها غير صالح للزراعة • ولقد وجهت دعوة من الرئيس الأعلى ومجلس جزيرتى يوجاك لاختيار أى منهما • الا أن كلتا الجزيرتين كانا أصغر حجما وأكثر كثافة سكانية من جزيرة بيكيني ، كما أن ملاحة تفريغ السفن كانت صعبة • لذلك وقع الاختيار على جزيرة غير مأهولة هي جزيرة رونجيريك التى تنتمى الى رئيس اعلى مختلف • وتمتلك جزيرة رونجيريك موارد اقل بكثير من موارد بيكيني، كما انها تنتج كميات ضئيلة من جوز الهند ، وان كان قد ظهر اعتقاد بان بالامكان التغلب على هذه المشكلة • ولم يذكر اى شخص حقيقية أن جزيرة رونجيريك كانت تعتبر موطنا سابقا لروح انثى خطرة ظل تاثيرها الضار قائما فى الجزيرة • ويعود السبب فى ذلك – الى حدما – الى ان سكان جزيرة بيكيني قداعتقدوا أن اقامتهم سوف تكون مؤقتة • ولم يذكر اى شخص حقيقة ان استخدام هذه الجزيرة يفرض تحول الولاء الى رئيس أعلى آخر ، مما يعد امرا على درجة كبيرة من الاهمية •

وليس بالامكان أن نتناول هنا بالتفصيل الاجراءات الاجتماعية المعقدة التى ظهرت فجأة بعد الرحيل • فلقد كان من الضرورى على الجماعة اعادة التكيف فى رونجيريك ، والا وصلت الى حافة المجاعة ، بسبب ضآلة الموارد المتاحة من جانب ، وبسبب عدم الرغبة فى الكفاح ضد ما بدا انه موقف لا أمل فيه • وعند هذا الحد وصل عالم الأنثروبولوجيا (ليونارد ماسون من جامعة هاواى) الى المسرح ليبحث الموقف على الطبيعة • وخلال فترة قصيرة اكتشف السبب الكامن وراء هذه الصعوبات ، والرغبة الجماعية من جانب شعب بيكيني الرحيل من جزيرة رونجيريك • وفى ذلك الوقت كانت رغبتهم هى الرحيل الى اى مكان آخر •

ولقد تحرك الحكم العسكرى فى هذه الحالة بسرعة شديدة ، حيث ارسل امدادات الطعام الضرورية • ونقل السكان الى جزيرة كوجالين بصفة مؤقتة ، حيث زودوا جميعا بالطعام والمسكن والملبس • وأما الذين أبدوا رغبتهم فى مزيد من الأمن فقد حصلوا على أعمال مجزية فى عمليات التشييد الحربية • وبعد مرور عدة شهور – خلالها تمت دراسة كل المواقع المتاحة واتضحت للقادة – اعرب افراد شعب بيكيني عن رغبتهم فى الانتقال الى جزيرة كيلى ، وهى جزيرة جنوبية صغيرة لكنها غنية ، حيث تملؤهم الثقة بانهم سوف

يعولون انفسهم بنفس الطريقة الجيدة التى يعول بها افراد جزيرة مارشال انفســـهم ٠

على ان المشكلات لم تجد حلا مباشرا ٠ فنظرا لعدم استقامة شاطئ البحر كان شعب البيكينى بحاجة الى مســاعدة فى تعلم كيفية اســتخدام القوارب الصغيرة فى امواج البحـر القاسية المتكسرة على الشــاطئ ، وكان لديهم مشكلة تتعلق بتحديد كيفية توزيع اراضيهم ، وهو قرار يعتمد به الى حد ما ـ على علاقتهم بالرئيس الأعلى ٠ ولقد كانت جزيرة كيلى غير ماهولة بالسكان ولا تخضع لرياسة أى زعيم ٠ واحس سكان الجزيرة ان وطنهم الجديد قد اتى من حكومة الولايات المتحدة ، ولم ياتهم من رئيس ٠ وفضـلا عن ذلك فان الحكم العسكرى الذى حل محله الآن حكم مدنى قد أخذ على عاتقه مسئولية صحتهم ورفاهيتهم ، وهما وظيفتان كانتا تقعان ـ من قبل ـ على عاتق الرئيس الأعلى ٠ لذلك نجد كثيرا من افراد شعب البيكينى يرغب فى التعامل مع الهيئة المسئولة عنرفاهيتهم ، بل وفى حالة الضرورة يدفع الجزية (الضرائب) اليها مباشرة ، ولقد اشار ماسون الى بعض هذه المشكلات الاساسية حيث كتب يقول :

• ان سرعة وفعالية عملية اعادة توطين شعب البيكينى خلال أى مرحلة معينة يرتبطان ارتباطا وثيقـا بنمط الفرد المســئول وبكمية الضغوط التى تمارس من مستويات اعلى ، وبالنقد الذى يصدر من خارج الحكومة ٠ ولقد لوحظ فى عدد من المناسبات ان « القائم » الادارى يميل بصــفة عامة الى النظر الى سكان جزيرة مارشال على انهم اطفال يمكن ارضـاؤهم بســهولة بتقديم وعود لهم وانه يمكن توجيه تهمتى الكســل وعدم الكفاية حينمـا لا يستجيب سكان جزر مارشال على نحو ما هو متوقع ٠ ويرتبط ذلك بميل شائع آخر لدى الأمريكيين فى علاقاتهم بابناء الثقافات الأخرى ، وهو انهم يفسرون ما يرونه وما يسمعونه فى ضوء الثقافة الأمريكية وقيمها ، مع اخفاق ...ابل فى فهم ما يحدث بالفعل ٠

•• ومن هنا يبدو ان هناك تناقضا فى نظرتنا الكلية الى مشــكلات الشعوب التابعة ٠ فمن ناحية نحن نعلن احترامنا ومحافظتنا على التراث والعادات ، فى حين نحاول ـ من ناحية اخرى ـ أن ندخل الى ســكان جزر مارشال ما نعتقد انه الأفضـل فى ثقافتنا ، وبالتالى الأفضـل لســكان جزر

بالرسال . وهذا يؤدي دائما الى مواقف متضاربة ...»(٢) .

وتوضح حالة شعب جزيرة بيكيني بعض المشكلات – من وجهة نظر ناظمة – التي تواجهها المهمة الحقيقية للانثروبولوجيا التطبيقية . ففي هذا الموقف وغيره من المواقف المماثلة تتشكل القوى . وتتخذ القرارات الهامة بعيدا عن المنطقة . وبدون فهم للشعوب المعنية التي سيتأثر بها مستقبلها تأثرا كبيرا . وتثار مشكلات تتعلق بعدم قدرة الناس انفسهم على اتخاذ قرارات سليمة (مثال ذلك ان افراد شعب البيكيني قد عادوا مرة اخرى ليروا الجزيرة المرجانيه بعد الانفجار الذري . ولقد كان الدمار الفيزيقي الذي يمكن رؤيته محدودا ، لكن من غير الممكن تفسير اخطار الاشعاع لهم ، وبالتالي فلقد ظلوا غير قادرين على فهم لماذا كانت عودتهم في ذلك الوقت امرا مستحيلا) . ومن المحتم ان يضطر الاداريون الى اتخاذ قرارات بالنيابة عنهم . وبه تتطلب عالم الانثروبولوجيا دائما ان يسهم في صياغة القرارات التي قد تحقق اقصى اشباع للشعوب المعنية ، وتستند وجهة النظر الاكثر تطرفا التي يتبناها بعض علماء الانثروبولوجيا الى اننا لا نملك حق اتخاذ مثل هذه القرارات ، أو ندخل تغييرا ثقافيا في شعوب أخرى ، على ان الغالبية العظمى من الانثروبولوجيين قد يوافقون على انه في مثل هذه الحالة على الاقل كانت مسئولية الانثروبولوجيين المساعدة في الوصول الى اكثر الحلول ملاءمة لمشكلة يصعب تفاديها .

واخيرا علينا ان نلاحظ انه برغم تدخل الانثروبولوجيين ، الا ان برنامج تهجير شعب البيكيني قد ثبت فشله ، بمعنى ان افراد شعب البيكيني قد ظلوا يرغبون في العودة الى الجزيرة المرجانية . ولقد اوضحت تقارير حديثة ان مستويات الاشعاع على الجزيرة قد انخفضت بمعدل اسرع مما كان متوقعا ، وانه بازالة القطع المدنية المتبقية ومصادر الاشعاع الاخرى الشديدة ، وانه بمجرد اعادة زراعة اشجار جوز الهند ووصولها الى مرحلة الانتاج ، فان افراد شعب البيكيني سوف يعودون الى وطنهم السابق . ولم يفهم افراد شعب البيكيني ابدا لماذا لا يستطيعون العودة ، والآن – وبنفس

---

(٢) Leonard Mason, "The Bikinians: A Transplanted Population, Human organization, 9, No. 1 (1950), pp. 5-15.

صعوبة التنبير- فانهم سيعلمون ان باستطاعتهم العودة ، ولقد أصبح دور عالم الانثروبولوجيا ينحصر فى معالجة المشكلة التى تنشأ خلال هذه المرحلة ·

٦ ـ الاستخدامات العملية داخل الولايات المتحدة :

لعل اول محاولة للافادة المنظمة من الأنثروبولوجيين قامت بها حكومة الولايات المتحدة هى تلك التى تمت بوساطة مكتب الشئون الهندية ، ووزارة الزراعة ، وهيئة صيانة التربة، ثم ظهرت هيئة مستقلة بدات نشاطها فى ثلاثينيات القرن العشرين · وكان معظم علماء الأنثروبولوجيا العاملين يهتمون باجراء دراسات وصفية للكشف عن ظروف الجماعات الاجتماعية المختلفة ، او اسباب مواجهة البرامج التى تنفذها هذه الهيئات مشكلات معينة ، او وصولها احيانا الى مرحلة الاختناق · ولم يكن للانثروبولوجيين تاثير فى وضع السياسات ، وفى تحديد طبيعة هذه البحوث التى يجب القيام بها ، والنتائج التى يمكن تـ[illegible]ـنيتها من نتائج هذه البحوث ·

وفى بعض الاحيان كانت نتائج البحوث تخفى ولا تنشر · فعلى سبيل المثال ترجمات دراسة قام بها انثروبولوجى تدير الى حقيقة مؤداها : ان كثيرا من المشكلات التى يواجهها هنود اونى بجزر بوتاه قد تنشأ عن استغلال السكان البيض فى المنطقة لهم · وطبقا لما قاله هذا الأنثروبولوجى فان التقرير قد اخفى حينما هدد احد رجال مجلس الشيوخ الممثلين الولاية بمعارضته الميزانية المالية التالية المخصصة لمكتب الشئون الهندية · وفى حالة اخرى شهيرة ، هى حالة والترجولد شميدت ـ الذى كان يجرى دراسة بتكليف من وزارة الزراعة حيث درس مجتمعين محليين فى كاليفورنيا ، وهما: ارفنين ودنيوبا ، بهدف اكتشاف آثار الزراعة الواسعة النطاق فى مقابل زراعة المزارع الصغيرة نسبيا .وفى هذه الحالة نشر تقرير الدراسة بواسطة لجنة من لجان الكونجرس ، لكنه اثار معارضة شديدة من جانب ذوى المصالح الزراعية الواسعة ، وربما ادى ذلك الى عدم استعانة الزراعة بالأنثروبولوجيين(٣) ·

---

(٣) Walter R. Goldschmidt. Small Business and the community : A Study in California on Effects of Scale in Farm Operations (Washington. D.C. : Government Printing Office, 1946. As you Sow (New York : Arcourt, 1917).

وقبل ذلك بفترة كان علماء الأنثروبولوجيا يشتركون مع علماء آخرين فيما أطلق عليه : دراسات هاوثورن ، التى كانت تجرى على مصنع تابع لشركة ويسترن اليكتريك(٤) • ولقد تلت هذه الدراسات دراسات أخرى تناولت العلاقات الصناعية وتنظيم المؤسسات ، كالمستشفيات ، ومعامل البحوث • ولقد أدت هذه الدراسات الى تأسيس جمعية الأنثروبولوجيا التطبيقية فى سنة ١٩٤١ • هذا وقد ظلت مشاركة الأنثروبولوجيين فى الدراسات الصناعية والتنظيمية محدودة النطاق •

وخلال الحرب العالمية الثانية كان هناك طلب شديد على الأنثروبولوجيين ويعود هذا – الى حد ما – الى معرفتهم الوثيقة بالمناطق الاجنبية • ولقد طلب اليهم ان يعدوا تمارين للفرق العسكرية فى مناطق مختلفة ، وان يفسروا ثقافات الأمم والمناطق الاخرى لخدمة هيئات متنوعة جدا ، وان يشاركوا فى رسم السياسات التى تطبق فى المناطق المستعمرة • وربما كانت أشهر الدراسات التى تضمنت – بشكل ثانوى – بعض هذه الممارسات التطبيقية دراسة روث بندكت بعنوان « زهرة الكريزنتيم والسيف » ، وهى تمثل دراسة للثقافة والشخصية اليابانيتين • وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية كان الجانب الأكبر من نشاطات الانثروبولوجيا التطبيقية يتمثل فى برامج المساعدات الفنية التى تقدمها الولايات المتحدة والهيئات الدولية والخاصة على السواء •

ويسلم الانثروبولجيين الملتحقون بجمعية الانثروبولوجيا التطبيقية بان المشكلات التى درسوها قد تطلبت – فى حالات كثيرة – وجود علماء آخرين وانهم قد اثاروا عددا من المشكلات لم يواجهها فى تلك الفترة انثروبولوجيون آخرون • ومن حيث الاساس فان هذه الجماعة من علماء الأنثروبولوجيا تستعين بنماذج التوازن اساسا • وباختصار فانهم ينظرون الى المجتمع الذى يؤدى وظائفه بكفاءة على أنه مؤلف من افراد او

---

(٤) F. J. Roethlisberger and W. J. Dickson, Management and the Worker : An Account of a Research Program Conducted in the Western Electric Company, Hawthrone Works (Cambridge. Mass : Harvard University Press, 1939) (Paperback edition : John Wiley & Sons. Inc., 1969).

جماعات تعمل على التكيف بعضها مع بعض بحيث يمكن اعتبار علاقتها فيما بينها فى حالة توازن · وقد لا تكون حالة التوازن استاتيكية ، ولكن ما دامت الأجزاء المختلفة تتغير بطريقة متناغمة ، فان حالة التوازن تستمر · ومن وقت لآخر قد تختل حالة التوازن هذه ، اما بسبب تطورات داخلية ، أو بسبب مؤثرات خارجية · وفى مواقف الصناعة قد يتخذ ذلك شكل الاضرابات والاكراه ، والاستياء الشديدة ، والابطاء فى العمل ، وشواهد اخرى عديدة على الصراع بما فى ذلك زيادة التوترات الفردية وعدم الاحساس بالأمان·

وفى موقف شانه هكذا ينظر الى دور عالم الأنثروبولوجيا التطبيقية كما لو انه بمثابة وسيلة لاستعادة حالة التوازن التى ترضى المسئولين · وتعد الجملة الأخيرة هامة ، ذلك لأن هناك اصرارا على ان عالم الأنثروبولوجيا التطبيقية يلعب دورا حيويا غير منحاز · اذ عليه ان يكشف عن أسباب الاستياء والتوترات والعلاقات الشخصية المضطربة ، وان يحاول اعادة تنظيم العلاقات النظامية والشخصية ·

* * *

٧ ــ الاستخدامات العملية خارج الولايات المتحدة :

يشترك معظم علماء الأنثروبولوجيا التطبيقية الذين يعملون خارج الولايات المتحدة فى برامج تستهدف النهوض بالمهارات الفنية ورفع مستويات المعيشة · وهى برامج تستهدف النهوض بالزراعة وغيرها من النشاطات الانتاجية وكذلك الصحة والتعليم وتنمية المجتمع المحلى · ودائما ما يتم هذا العمل من خلال علاقات وظيفية او تعاقدية مع الهيئات الحكومية · وحتى سنوات قليلة مضت كانت هيئة التنمية الدولية فى الولايات المتحدة الأمريكية تمثل اكبر هيئة فى العالم تستعين بالأنثروبولوجيين · ولقد تغير هذا الموقف تغييرا كبيرا ، وذلك لأسباب تستحق بعض الترضيح ·

وهناك مشكلتان اساسيتان عند تطبيق الأنثروبولوجيا خارج الولايات المتحدة · الأولى هى تغير مضمون الأنثروبولوجيا التطبيقية خلال العقدين الأخرين وذلك بانتهاء الحكم الاستعمارى فى معظم انحاء العالم ، وظهور الأمم الجديدة ، ويرتبط بذلك الاعتراف الجديد بمشكلة التنمية · وهو

موضوع سوف نفرد له معالجة مستقلة فى الفصل التالى ٠ أما المشكلة الثانية – وهى تنطبق أيضا على كثير من الدراسات التطبيقية داخل الولايات المتحدة – فتتعلق بقضية الأهداف والدور الحقيقى لعالم الأنثروبولوجيا ٠

ولقد رأينا أن علماء الأنثروبولوجيا التطبيقية الأوائل كانوا يرون أن دورهم يتمثل أساسا فى تصفية التوترات التى تنشأ فى مجال العلاقات الاجتماعية ٠ إلا أن برامج المساعدات الفنية كانت تسعى – عادة – الى تحقيق أهداف معينة ، وعلى ذلك فان السؤال المتعلق بالأشخاص الذين يحددون الأهداف أو السياسات وما يجب على عالم الأنثروبولوجيا القيام به، يصبح سؤالا على درجة كبيرة من الأهمية ٠ ان أى تحليل لنشاطات الأنثروبولوجيا التطبيقية يكشف على النور عن أن عالم الأنثروبولوجيا نادرا ما يسأل عن واقعية الأهداف أو المشروعات المراد تنفيذها٠ وفى أحسن الظروف نجد أن الموقف هو أن يطلب الى عالم الأنثروبولوجيا أن يتقدم بمعرفة أو معلومات تسهم فى تنفيذ المشروعات ، أو اكتشاف أسباب مواجهة المشروع للمشكلات ، ونتيجة لذلك فان رصيد الأنثروبولوجيا يشير الى وجود عدد قليل من التطبيقات الناجحة ، ولكنه يزخر بتحليلات توضح أسباب اخفاق المشروعات ، نتيجة لعدم الاهتمام الكافى بالمشكلات الاجتماعية والثقافية ٠ ودائما ما ينظر الى عالم الأنثروبولوجيا على أنه فنى لديه رصيد من المرونة ، أو مجموعة من الحيل التى يمكن استخدامها مباشرة فى أى موقف ٠

وتنطوى وجهة النظر هذه – فى مجموعها – على جانب من الحقيقة ، على الرغم من أن رصيد المرونة لا يزال أبعد ما يكون عن الاكتمال ٠ فعلى سبيل المثال يستطيع عالم الأنثروبولوجيا تأكيد أن أى مشروع يستهدف احداث تغير تكنولوجى عليه :

١ – أن يتضمن مزايا واضحة يمكن أن يستوعبها الناس المعنيون : فالقمح المهجن الذى يدر محصولا كبيرا قد يبدو أنه يمثل مزايا واضحة للفلاحين المكسيكيين ٠ إلا أنه يجب شراء البذور ، مما يعنى ضرورة توفير مبالغ نقدية ، وهو أمر مستحيل ٠ وعلاوة على ذلك يصعب استخدام القمح فى عمل الفطائر والكعك وهى دعامة طعام الفلاح فضلا عن أن القمح المهجن لا ينتج كمية وفيرة من الطعام الذى يمكن تناوله ٠

٢ ـ أن يتم تنفيذه من خلال القنوات السليمة : فاذا ما حدث تجاهل أو معاداة لنفوذ وهيئة القادة المحليين ، فاننا نتوقع منهم تنظيم معارضة ضد أى تجديد ٠

٣ ـ الافادة من الدوافع القائمة ، أو الدوافع الجديدة التى يمكن بثها ،

٤ ـ أن يصاحب المشروع تعليم أو توضيح كاف ٠ فالمخصبات التجارية قد تستخدم بكثرة بحيث لا تؤدى الى نتيجة ملحوظة ، أو قد تؤدى الى حرق المحصول ٠

ذلك هى بعض التعميمات القليلة التى يمكن التوصل اليها ٠ ومع ذلك فان اى انثروبولوجى لا يستطيع ان يذكر على الفور ـ او حتى من خلال دراسة تستغرق فترة قصيرة ـ كيف يمكن مواجهة هذه الظروف بدقة ، ولا يمكن ان نكتشف على الفور القادة الحقيقيين للمجتمع المحلى ٠ فقد يبدو الرئيس ، او العمدة المنتخب ، وكانه الشخص الذى يمكن التعامل معه ٠ رغم يكون كبار السن الذين يشكلون مجلسا غير رسمى ، أو احد الفسارسة شخصيات حاسمة كذلك فان زيادة الامكانات النقدية أو السلع المادية قد لا تسهم اسهاما كبيرا فى دفع التغير فى بعض المجتمعات ، ما لم تتم ترجمتها الى مرتبة اجتماعية من خلال المشاركة ٠ فعنصر الأسرة الممتدة ، أو المشتركة، الذى يمثل وحدة انتاجية او استهلاكية قد لا يتبنى التجديدات بنفسه ، اذ ان رئيس الاسرة يقتنع اولا ، ثم على الجماعة أن تعمل كوحدة ، وباختصار فانه برغم امكان الاشارة الى كثير من المبادىء ، الا ان تطبيقها يختلف من ثقافة الى أخرى ٠ ومن خلال كل ما ذكرناه فى الفصول السابقة ، يجب ان يكون واضحا ان ابسط تغير تكنولوجى يتطلب تغيرات فى كثير من جوانب الثقافة ٠

واينما تتاح لعالم الأنثروبولوجيا الفرص الكافية ، فانه غالبا ما يقدم مساعدات كبيرة ٠ ولقد اوضح احد المعاهد التى تقوم باجراء تجارب واقعية جديدة بهدف زيادة انتاج الطعام ، اوضح ان الدراسة المتعمقة للمجتمع المحلى الأندونيسى بواسطة انثروبولوجى اقتصادى لم تكن ذات فائدة ٠ ومع ذلك فلقد كان سكان المجتمع المحلى يشكرون من ان الدراسة قد استغرقت عاما على الأقل ٠ ومع اقتناع السكان بفائدة الدراسات الأنثروبولوجية ، الا انهم يشعرون بانهم لا يستطيعون توفير الوقت او المال لكل تجربة من تجارب

الأنثروبولوجيين ، كما انهم استفسروا عن امكانية اجراء دراسات قصيرة تؤدى الى نتائج سريعة وبتكاليف اقل ، والاجابة عن ذلك فى الوقت الحالى هى بالنفى •

بل ان فى المواقف التى يتقبل فيها الى حد ما استخدام المعرفة الأنثروبولوجية فاننا لا نلمس الا قدرا ضئيلا من التقدير لما تتضمنه هذه المعرفة • فلقد طلبت مجموعة من المهندسين لديها برنامج مصمم هام – بل وحساس – لاحداث تنمية صناعية محدودة فى الشمال الشرقى من دولة البرازيل ، طلبت ان يقضى دارسان او ثلاثة من دارسى الأنثروبولوجيا فصل الصيف فى هذه الدولة ، وان يطلعوا المخططين على بعض اشياء عن طبيعة البناء الاجتماعى للمنطقة • وكانت الاجابة بالنفى مرة اخرى ، خاصة اذا ما اخذنا فى الاعتبار حقيقة عدم وجود دراسات عن البرازيل • وواقع الأمر ان احد الدارسين قد قضى ثمانية عشر شهرا فى البرازيل واتى ببعض البيانات الهامة • وفى ذلك الوقت كانت المشروعات جاهزة ، بحيث لم يكن ممكنا احداث سوى تعديلات طفيفة •

والمشكلة الاساسية هى اخفاق ما هو خارج عن نطاق الأنثروبولوجيا او العلوم الاجتماعية فى تقدير وزن المشكلات التى لا تتعلق فقط بتحديد مشكلات التغير ، بل ايضا تلك التى تتعلق بالنفقات الاجتماعية للمشروعات• فقد ينفق المهندسون مئات الآلاف من الدولارات ، وقد يقضون – فى بعض الأحيان – سنوات فى اعداد دراسات واقعية واقتصادية لمشروع اساسى كمشروع للرى ولأنهم شديدو الحرص على القيم الكمية ، او عدد الدولارات فانهم يبدون اهتماما ضئيلا – ان لم يكونوا لا يبدون شيئا من هذا على الاطلاق – بتحديد النفقات الاجتماعية وموازنتها فى مقابل المزايا الاجتماعية •

* * *

٨ – مشروع فيكوس :

يمثل مشروع فيكوس واحدا من المشروعات القليلة للتغير الثقافى الموجه ، قام بتخطيطه وتنفيذه الأنثروبولوجيون • وكان المشروع تجريبيا فى طابعه ، فهو يضم بحثا فى مشكلات التغير الثقافى ، الى جانب جهد من اجل معالجة او تحريك مجموعة من الناس نحو اهداف حددها الأنثروبولجيون لأول مرة ، وفى سنة ١٩٥٢ استاجرت جامعة كورنيل الهاسيندا التقليدية الموجودة فى

ثانيا : تطور العمل الانثروبولوجى (١٩٥٠-١٩٨٠) :

سنقدم فيما يلي أربعة اتجاهات ، أو تطورات رئيسة في العمل الانثولوجي منذ الخمسينات تقريباً حتى بداية الثمانينات مع الاشارة الى احتمالات المستقبل . سنعرض كذلك بعض جوانب الأزمة أو المحنة التي مرت بها الانثولوجيا خاصة في الستينات .

(١) دراسات التغير الموجه (المخطط Planned or directed Change) على أثر انهيار الاستعمار العسكري في كثير من البلاد وحصولها على استقلالها ، وتحولها إلى دول أو مجتمعات ناهضة ،قل الاهتمام بدراسة التغير الاجتماعي في شكل عملية تثاقف بين ثقافة استعمارية أوربية وأخرى بسيطة أو بدائية . ونتيجة لذلك وجه كثير من الأنثروبولوجيين دراساتهم عن طبيعة التغيرات الاقتصادية الاجتماعية المصاحبة لمحاولات نقل التكنولوجيا الغربية الحديثة ، وذلك في اطار ما سمي بالتنمية القومية الشاملة . وبهذا تحول الاهتمام بين الانثولوجيين من عمليات التثاقف إلى دراسات التغير المخطط أو الموجه . وقدشجعت الحكومات الغربية هذه الدراسات ، وذلك باعتبارها الطرف المصدر للتكنولوجيا وما يصاحبها من أيدولوجية سياسية وثقافية معينة . نذكر بصفة خاصة الولايات المتحدة الأمريكية التي قدمت الكثير من المساعدات الفنية والتكنولوجية للبلاد النامية التي انحازت معها في صراعها ضد المنهج الاشتراكي . كما اهتمت الأمم المتحدة أيضا ـ كجهة محايدة نظرياً على الأقل ـ في تقديم المساعدات الفنية للدول الفقيرة وتبنت الاتجاه

اعتمدنا في هذا الجزء على المصدر التالى :
د/ حسين فهيم ، قصة الانثروبولوجيا ، العدد ٩٨ من سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ،عدد فبراير ١٩٨٦ ، ص.ص ٢٠٦-٢٢٧

التنموي عند هذه الدول وركزت عليه في الستينات ، وسميت لذلك هذه الفترة « بعقد التنمية » .

وبغض النظر عن نوايا هذا الاتجاه التنموي وأهدافه المرتبطة إلى حد ما بالسيطرة الغربية على بلاد العالم الثالث في شكل مساعدات فنية واقتصادية معينة ، فقد أعطت هذه الظروف السياسية الجديدة دفعة كبيرة لدراسة ديناميكيات التغيرات الناتجة عن محاولات نقل التكنولوجيا الحديثة إلى الثقافات التقليدية . وقد نتج عن ذلك العمل تطور كبير أيضا في مفاهيم واتجاهات الاستفادة من المادة الاثنولوجية عن الشعوب في إمكانية إحداث التغير المنشود . إلا أن هذا الهدف قد أثار الكثير من القضايا الأخلاقية من ناحية الأضرار التي قد تصيب البيئة والانسان من جراء المشروعات التكنولوجية الكبرى ، والتي قد لاتكون تلك المجتمعات في حاجة اليها أصلاً . وبصفة عامة أحدثت دراسات التغير الموجه طفرة واضحة في مجال الأنثروبولوجيا التطبيقية ، ومن أهم الباحثين الأمريكيين في هذا المجال نذكر الأنثروبولوجي الأمريكي جورج فوستر George Foster الذي قدم في كتابه « الثقافات التقليدية والتغير التكنولوجي » ١٩٦٣ تحليلاً للعوامل التي تساعد ، والأخرى التي تحبط قبول التغير ، وناقش هذه العوامل في مضمون اقتصادي ثقافي ونفسي . كما أوضح أن ما قد يبدو مفيداً أو عظيماً في التكنولوجيا الغربية ، قد لايشترط أن يحظى بنفس التقدير أو القبول في المجتمعات غير الغربية أو ما أسماه بالمجتمعات التقليدية . (مرجع ١٢٣) .

(٢) **الأنثروبولوجيا التطبيقية : Applied Anthropology** يقال إن التغير الاجتماعي والأنثروبولوجيا التطبيقية يكونان وجهين لعملة واحدة . وفي الحقيقة أن توظيف أو استخدام المعرفة بثقافات الشعوب لتحقيق أهداف معينة لأمر

قديم ، إلا أنه مع بداية الأنثروبولوجيا وبلورتها في أواخر القرن التاسع عشر ، وضع مثل هذا التوظيف أو الاستخدام في قالب أكثر تحديداً وأهمية . ولقد سبق أن أوضحنا كيف (مع بدايات القرن العشرين) استخدمت المادة الاثنولوجية في رسم وتنفيذ سياسة مناسبة لادارة المستعمرات البريطانية ، إلا أن أول محاولة لاستخدام الاثنولوجيا في الولايات المتحدة الأمريكية قد ارتبطت بالتعامل مع الهنود الحمر ، ومع ذلك لم يكن للأنثروبولوجيين تأثير كبير في رسم السياسة الأمريكية تجاه هؤلاء السكان الأصليين للقارة الأمريكية . وبعد تأسيس الجمعية الأمريكية للانثروبولوجيا التطبيقية[٣] في عام ١٩٤١ امتد نطاق توظيف الأنثروبولوجيين واستخدامهم في جهات حكومية عديدة وفي بعض المؤسسات الصناعية خلال الثلاثينات والأربعينات . وقد اتضح بجلاء خلال الحرب العالمية الثانية امكانية توظيف الاثنولوجيا لخدمة أهداف الحرب .

ومع ذلك فإن توظيف المعرفة الاثنولوجية للغايات السياسية قد تعدل بعد الحرب العالمية الثانية تحت تأثير الاتجاهات التحررية في الفكر الاثنولوجي، التي سادت خاصة في الستينات والسبعينات حين رفض عدد كبير من الأنثروبولوجيين توظيف الاثنولوجيا لخدمة الادارة الحكومية أيا كان نوعها وهدفها ، على أساس أن ذلك يمثل استخداماً غير أخلاقي لمعلوماتهم عن الشعوب أو المجتمعات التي أولتهم الثقة ومنحتهم فرصة الدراسة . ويصر الاتجاه السائد الآن في نشاطات الأنثروبولوجيا التطبيقية على استخدام نتائج الدراسات الإنسانية لمساعدة الدول النامية على النهوض والتقدم من خلال عمليات التغير الموجه في اطار التنمية القومية . ونتيجة لذلك نشأ تخصص جديد في الاثنولوجيا يعرف باسم . انثروبولوجيا التنمية «Anthropology of Development» وكان من نتائج ذلك أن كثيراً من الهيئات الحكومية والدولية والمؤسسات الاستشارية الخاصة بدأت في

استخدام الباحثين الأنثروبولوجيين للاستعانة بخبراتهم المعرفية والحقلية عند القيام بمشروعات التنمية الاقتصادية، وخاصة في مجالات الزراعة والصناعة وبرامج الارتقاء بالمستوى الاجتماعي والتعليمي والصحي في البلاد النامية، والمتقدمة على حد سواء .

وبصدد بروز الأنثروبولوجيا التطبيقية خلالالعقود التالية للحرب العالمية الثانية، يذكرنا ايريك وولف أن هذا الجانب العملي للمعرفة الانثولوجية قد تأثر وارتبط بالفلسفة الجديدة المناهضة لفكرة النسبية الثقافية التي سادت في فترة ما قبل الحرب العالمية الثانية. فقد رأى البعض - ونشاركهم الرأي في ذلك - أن هذا المفهوم يعكس اتجاهاً يرفض عملية تقويم الثقافات وفق معايير ثقافات أخرى، وذلك على أساس أن لكل ثقافة منطقها الخاص وسياقها الفريد اللذين يجب أن تفهم في اطارهما. وبالتالي فإن ما يبدو قبيحاً أو شاذاً أو غير إنساني لابد وأن يكون له مبرره ومنطقه، ويجدر أن يترك على حاله . والحقيقة أن الجانب السلبي لهذا الاتجاه يعوق في رأينا أيضا قدرات الشعوب النامية على مسايرة عصر العلم والتقدم والمواءمة مع التغيرات به أو المرجوة له، والتدخل بشأن إحداثها. ان عالم اليوم لم يعد منعزلاً ، ولايجب أن ينظر إليه في اطار المفاهيم المستمدة فقط من الدراسات المركزة للمجتمعات المحلية الصغيرة والمتناثرة ، والتي قد يسود فيها بعض الممارسات الثقافية التي يراها الباحث غير مألوفة أو ربما غير إنسانية بالمرة ، وذلك في اطار قيمه الثقافية . ومع ذلك نجد أنه في اطار « النسبية الثقافية » يحاول الباحث أن يجد المبرر أو المنطلق اللذين يفسران تلك الممارسات وبالتالي يتعين علينا تركها وشأنها ، وبمعنى آخر أن يأخذ الباحث موقفاً سلبياً في عصر يحتاج أكثر من أي وقت مضى الى الايجابية في الفكر والعمل (مرجع ٣٧) .

ومن الجدير بالذكر ، أن مسألة استخدام - أو سوء استخدام المعرفة

الأنثروبولوجية ـ قد شكلنا قضية كبيرة في نهاية الستينات ، الأمر الذي جعل الجمعية الأنثروبولوجية الأمريكية تشكل لجنة في عام ١٩٦٨ لبحث قضايا مسئوليات الأنثروبولوجيين الأخلاقية تجاه المجتمعات أو الجماعات التي يقومون بدراستها . وكان السؤال الرئيس الذي طرح للمناقشة هو كيف ، ولمصلحة من تستخدم البحوث الأنثروبولوجية ؟ وانتهت المناقشات بإصدار ما عرف باسم « وثيقة أو بيان الأخلاقيات » في عام ١٩٧٣ بعد مناقشات استمرت زهاء خمس سنوات . حدد هذا البيان علاقة الأنثروبولوجيين ومسئولياتهم تجاه الأفراد الذين يدرسونهم ، وكذلك علاقة الأنثروبولوجيين بالحكومات أو الدول المضيفة . هذا الى جانب تحديد المسئوليات المهنية للباحثين الأنثروبولوجيين تجاه زملائهم وطلابهم . وانتهى هذا البيان إلى أن المسئولية الأخلاقية للباحث تقع تجاه الأفراد الذين يدرسهم ، كما يجب على الباحث الأنثروبولوجي أن يكون أميناً في دراسته ، وأن يحمي هؤلاء الأفراد من أي أذى قد يقع عليهم نتيجة لما ينشره (مرجعا ١٢٣ ، ١٢٤) .

وفي أعقاب اعلان وثيقة الأخلاقيات برزت ثلاثة اتجاهات رئيسة نحو استخدامات الانثولوجيا . يرى الاتجاه الأول ـ وهو تقليدي النزعة ـ أن القيم والسياسة ليس لهما محل في العلوم الاجتماعية ، وأن الباحث مطالب بتقديم الحقائق كما هي دون الاهتمام بما قد ينتج عنها من ضرر أو نفع ، إذ أن العلم لا يعمل في اطار من القيم أو المسئوليات الأخلاقية . ويأتي الاتجاه الثاني ليوصي بضرورة وضع قواعد وحدود أخلاقية لاستخدام نتائج البحوث الانثولوجية ، كما ركز على فكرة النسبية الثقافية وضرورة عدم التدخل في شئون الآخرين . إلا أن بعض الأنثروبولوجيين قد وجدوا في هذا الموقف نوعاً من السلبية واقترحوا دوراً ايجابياً للباحث ، اذ أنه من الصعب عليه أن يقف موقف المحايد تجاه مايجري حوله .

وبناء على ذلك تتضمن مسئولية الباحث الأنثروبولوجي اطلاع الأفراد الـذين أجري بينهم الدراسة على نتائج دراسته والعمل معهم على اختيار افضل الوسائل لتغيير الأوضاع القائمة في اطار امكاناتهم البيئية والبشرية ، وأهدافهم الثقافية والأخلاقية التي توافـق تراثهـم وتقاليدهـم ، ولايجـب أن تفـرض عليهـم من الخارج . إلا أن البعض قد وجـد أن هذا النوع من التدخل ليس كافياً ، فعلى الباحث الأنثروبولوجي أن يتخذ موقفاً ايدلوجياً مسبقاً قبل الشروع في الدراسة أو العمل مع الجماعة في حل مشاكلهـا . وقـد تزعـم الاتجـاه الثالـث الباحثـة البريطانية كاثلين جاف K. Gough[4] التي ذكرت أن الأنثروبولوجيين الآن أمام أحد امرين إما أن يعملوا في اطار خدمة الاستعمار أو مناهضته عن طريق تبني أيدلوجية غربية ، خاصة مايرتبط منها بمصالح العالم الثالث (مرجع ١٢٩) .

(٣) الماركسية والأنثروبولوجيا : ليس هدفنا في هذا الجزء أن نشرح الفكر الماركسي ونحلله ، وإنما نقتصر فقط على توضيح طبيعة ، وأسباب الصلة التي برزت مؤخـراً ، « ومنـذ منتصف القـرن العشرين على وجـه التحـديد » بـين الماركسية والأنثروبولوجيا . إن المتتبع لتاريخ العلوم الإنسـانية بصفـة عامـة ، سيجد أن النظرية المادية التاريخية ، التـي هي ركيزة الفـكر الماركسي ، والتـي وضحت معالمها الرئيسة منذ منتصف القرن التاسع عشر ، بل وفي عام ١٨٤٨ على وجه التحديد ، عندما صدر بيان الحزب الشيوعي الشهير الذي أعده كل من كارل ماركس K. Marx (١٨١٨ - ١٨٨٧) وفـردريك إنجلـز E. Engles (١٨٢٠ - ١٨٩٥) ، لم تجد (تلك النظرية) صداها أو تحدث تأثيراً واضحاً في الفكر الغربي الا عقب قيام الثورة الاشتراكية في روسيا في أكتوبـر عام ١٩١٧ (مرجع ٤٤ ص ٣٣٤) . فمع أوائل القرن العشرين ترجمت أعمال فلاديمر لينين V. Le nine (١٨٧٠ - ١٩٢٤) إلى اللغات الأوروبية الرئيسة ، كما وقد أدى

النهوض الثوري في عدد من الدول الأوروبية (١٩١٨ - ١٩٢٣) إلى تأسيس عدة أحزاب شيوعية والى تدعيم التيار اليساري المتطرف . وعندما تفاقمت الأزمة الاقتصادية في الدول الرأسمالية (١٩٢٩ - ١٩٣٣) ، وقامت الأنظمة الفاشية ، عم الفكر الاشتراكي ، والتف حوله كثير من المثقفين ، إذ وجدوا فيه حلاً للأزمة الاقتصادية العالمية . ارتفع قدر المادية الجدلية أيضا باعتبارها الأساس المنهجي للعلوم ، والسلاح الفعال ضد الأيدلوجية الفاشية (مرجع ٤٤ ص ٣٣٤) .

كان أيضا لأحداث الحرب العالمية الثانية وما نتج عنها من تغيرات جذرية في جميع المجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للمجتمع الأوروبي الحديث أثر كبير في تدعيم الفكر الاشتراكي . ففي أعقاب هزيمة الفاشية الايطالية ، والعسكرية الألمانية واليابانية ، واحتلال القوات السوفيتية لبعض بلاد أوروبا ، اتسعت مجالات التطبيق للفكر الماركسي ، وقامت دولاً اشتراكية في أوروبا وآسيا على حد سواء . ومع ظهور العالم الثالث ، وحصول دوله على الاستقلال تباعاً بعد الحرب العالمية الثانية ، برزت الاشتراكية كأيدلوجية مناهضة للاستعمار والتبعية الاقتصادية ، واستحوذت على انتباه الكثيرين ، كما سعى البعض الى الأخذ بمناهجها وتطبيقاتها . جاء بعد ذلك دافع قوي آخر لتوسيع دائرة تأثيرات الماركسية على الفكر الانساني ، وذلك في إطار ما تمخض عنه المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفيتي الذي عقد عام ١٩٥٦،ووضع فيه الأساس لمرحلة جديدة في تطور الحركة الشيوعية (مرجع ٤٤ ص ٣٣٤ - ٣٣٥) .

ففي اطار عرضنا الموجز ، والمبسط ، نذكر أن الماركسية في جوهرها الأساسي تتكون من شقين أساسيين : المادية الجدليةDialectical Materialism . والمادية

التاريخية Historical Materialism . فبينما تتضمن المادية الجدلية النظرة الفلسفية العلمية للعالم ، فإن المادية التاريخية هي العلم الذي يدرس القوانين العامة للتطور الاجتماعي ، وأشكال تحققه في نشاط الناس التاريخي . فالمادية التاريخية تشكل إذن الأساس النظري والمنهجي لكل العلوم الاجتماعية (مرجع ٤٤ ص ٤٣١) . وربما يمكن القول ببساطة أنه يمكن عن طريق المادية الجدلية تفسير جوهر المجتمع الإنساني ، في حين تبرز المادية التاريخية « كمركب فلسفي ، مؤثر ، يشتمل على مجموع الظواهر الطبيعية ، وظواهر المجتمع الإنساني ، والفكر الإنساني ، كما يتضمن منهجه الفلسفي في تفسير وتحليل الواقع فكرة القيام بعملية ثورية علمية للعالم » (مرجع ٤٤ ص ٤٣٣) . وتتخذ الماركسية نقطة انطلاقها مما يكمن في أساس كل مجتمع ، أي طريقة الحصول على وسائل العيش ، وتقيم الصلة بين هذه الطريقة وبين العلاقات التي يدخل فيها الناس في عملية الانتاج ، فالعلاقات الانتاجية إذن تشكل الأساس والقاعدة الحقيقية لكل مجتمع (مرجع ٤٤ ص ٤٣١ - ٤٣٢) . ومما هو جدير بالذكر أن المادية التاريخية قد استمدت فكرها من الأصول الفلسفية الأوروبية ، والظروف التاريخية الاجتماعية للمجتمع الأوروبي .

ولعل من بين الموضوعات التي اهتم بها الأنثروبولوجيون في أعمال كارل ماركس ، مسألتين هامتين : نظرة الماركسية إلى الانسان ، ونظرية ماركس في التطور الاجتماعي ، وخاصة آراؤه عن المجتمعات البدائية في إطار نقده اللاذع لمساوىء مجتمع أوروبا الرأسمالي خلال القرن التاسع عشر . فمن ناحية نظرة الماركسية إلى الانسان ، نقدم فيما يلي هذا النص الذي ورد في دائرة المعارف الفلسفية ، التي حررها نخبة من العلماء السوفييت ، والتي وجدنا فيه ايجازاً وإيضاحاً مناسبين لعرضنا هنا :

العربية في مجال العلوم الاجتماعية تزخر بعرض التحليلات الماركسية والاتجاهات الراديكالية المعاصرة ، إلا أن هناك نقص واضح - في حدود معلوماتنا - بالنسبة لموضوع الاتجاهات الراديكالية في مجال الدراسات الأنثروبولوجية العربية ، الأمر الذي يجب معالجته في إطار الفكر العربي المعاصر . ونود أن نؤكد أيضا أهمية « الحوار بين الأحياء » - على حد تعبير الفيلسوف الفرنسي روجيه جارودي. R Garaudy - (مرجع ٤٣ ص ٤) . ولعلنا نشير في هذا الصدد الى وجود حوار متصل بين الأنثروبولوجيين السوفييت وزملائهم من الغرب ، سواء من كان منهم ماركسيا أو غير ذلك . ويعتبر اللقاء الذي تم في يوليو عام ١٩٧٦ بين مجموعة من الأنثروبولوجيين السوفييت ومجموعة أخرى من الأنثروبولوجيين الغربيين حدثا هاما ، ونقطة إنطلاق في تبادل وجهات النظر ، وخلق جو من الحوار الهادىء ، والمثمر . عرضت تمارا دراجادز T . Dragadze لوقائع هذا اللقاء وما دار فيه من أفكار ومناقشات في مقال مطول بعنوان « لقاء العقول : حوار سوفيتي - غربي » (مرجع ١١٣) . وإلى جانب هذا التقرير جمع إيرنست جيلنر ، منظم هذا اللقاء الذي عقد في النمسا (في كتاب البحوث التي قدمت مصحوبة بما دار حولها من تعليقات) ، كما تضمن الكتاب أيضا مقدمة تحليلية للأنثروبولوجي البريطاني مابرنورتس (مرجع ١٢٨) .

(٤) **الاتجاه المعرفي (Cognitive) في دراسة الثقافة** : منذ أن تبلور مفهوم « الثقافة » عند تايلور في نهاية القرن الماضي وكذلك في كتابات الاثنولوجيين الرواد الذين عاصروه أو جاءوا من بعده ، برزت عدة تعريفات لهذا المفهوم ، وتباينت المداخل المنهجية لدراسة « ظاهرة الثقافة » . أوضحنا في الجزئين السابقين من هذا الفصل كيف عاد بعض الاثنولوجيين الى دراسة الثقافة الإنسانية في مجملها ، وذلك في محاولة لتحقيق تطلعات الرواد الأوائل في الوصول

إلى القوانين العامة التي تحكم مسار الحضارة الإنسانية وتفسر التباين القائم بين الثقافات المتعددة ، رأينا كذلك كيف أن الاتجاه البنائي الوظيفي قد نُقد لإغفاله الجانب الديناميكي في دراسة الثقافة الإنسانية ، الأمر الذي دفع بدراسات التغير إلى الشيوع خاصة كرد فعل للتغيرات الهائلة التي صاحب فترة الحرب وما تلاها .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فقد لقي التحليل البنائي الوظيفي السائد في الكتابات التقليدية نقدا كبيرا ، يشير إليه الانثروبولوجي أحمد أبو زيد بقوله : « إن من العبث الاكتفاء بملاحظة سلوك الأفراد وتتبع علاقاتهم الظاهرة ، أو الواقعية في المجتمع ، لاستخلاص صور بنائية راسخة وثابتة عن هذه العلاقات ومظاهر السلوك والنظم ، لأن مثل هذا النوع من التحليل هو - في أفضل حالاته - مجرد انعكاس لما يتصوره الباحث نفسه عن المجتمع ، أو لما يدركه ذلك الباحث في المجتمع من علاقات أو مصالح ونظم وقيم . وليس صورة لما يدركه الناس أنفسهم عن واقعهم الاجتماعي أو لما يتصورونه عن هذه العلاقات والأوضاع والنظم والقيم » (مرجع ٥ ص ٢٤٨) . وعلى هذا الأساس برز الاتجاه المعرفي في دراسة الثقافة ، والذي يبحث فيما « يتصوره الناس طريقة تفكيرهم وأسلوب ادراكهم للاشياء والمبادىء التي تكمن وراء هذا التفكير والتصور ، والادراك والوسيلة التي يصلون بها إلى ذلك ، لأنهم هم (قبل كل شيء) أصحاب هذا المجتمع ومن العدل أن نتعرف على أرائهم فيها » (مرجع ٥ ص ٢٤٨) .

وهكذا أعطى هذا الاتجاه تصورا جديدا للثقافة باعتبار أنها « تؤلف بما تحتويه من أفكار وأنماط سلوكية خريطة معرفية أو إدراكية » على حد تعبير جيمس داونز J . Downs في كتابه عن « الطبيعة الإنسانية Human Nature» . ومع أن هذه

الخريطة الادراكية لأي شعب من الشعوب تحتفظ بملامح ومقومات أساسية وثابتة فانها لا تخلو من بعض الاختلافات في التفاصيل والدقائق من جيل لآخر . بل ومن زمرة اجتماعية لأخرى في الفترة الزمنية الواحدة . ويعني هذا أن كل مجتمع له تصوراته الخاصة عن العالم ، أو الكون تختلف عن تصور غيره من المجتمعات » (مرجع ٥ ص ٢٤٩) . وقد تبلور هذا الاتجاه المعرفي منذ أوائل الستينات في مدرستين رئيستين إحداهما ظهرت في فرنسا وعرفت « بالبنائية Structuralism ، والأخرى في الولايات المتحدة وتعرف باسم « الاثنوجرافيا الجديدة »New Ethnography أو كما يشار اليها أحيانا بعلم الشعوب أو العلم الاثنولوجيEthnoscience ، وبصفة عامة اهتمت كلتا المدرستين بدراسة الصلة القائمة بين اللغة والثقافة لتدعيم اتجاههما الادراكي أو المعرفي في فهم مجتمعات الدراسة . ومع أن اهتمام الاثنولوجيين باللغة أمر قديم ، نجده واضحا في الكتابات الاثنولوجية الكلاسيكية الا أن الاتجاه المعرفي أعطى لدراسة لغة مجتمع الدراسة أبعادا جديدة وهامة في الدراسات الاثنولوجية .

وتأكيدا لهذه الأهمية نرى « أن الباحث أولمستيدOlmsted أطلق عام ١٩٥٠ مصطلح علم اللغة الاثنولوجيEthno — Linguistics على عدة موضوعات ، منها الإفادة من نتائج علم اللغة في الدراسات الاثنولوجية ، والافادة أيضا من هذه الدراسات في علم اللغة ، هناك كذلك اهتمام بالعلاقات المتبادلة بين علم اللغة والاثنولوجيا من الجانب المنهجي ، علاوة على دراسة القضايا التي يحتاج بحثها إلى مادة من العلمين ، والعمل على الاستفادة من العلمين لتكوين منهج متكامل في العلوم الاجتماعية . (مرجع ٨٩ ص ١٥٤) . « وينعكس اهتمام الأمريكيين بالصلة بين اللغة والثقافة مرة أخرى في محاولة ديل هايمزDell Hymes حين اقترح في عام ١٩٦٤ مصطلحا جديدا لتلك الصلة أو الرابطة وهو

« الانثروبولوجيا اللغوية Linguistic anthropology ومجالها هو دراسة اللغة في اطارها الأنثروبولوجي . (مرجع ٨٩ ص ١٥٤) .

وتجدر الاشارة إلى أن الأنثروبولوجيين اللغويين يهتمون في دراساتهم بتوضيح خصائص اللغة الإنسانية في مقابل مظاهر الاتصال والتخاطب لدى الحيوانات ، فاللغة خاصية إنسانية ذات أنظمة مفتوحة ، بينما تعتبر أنظمة النداءات والصيحات الحيوانية مغلقة . ويهتم الأنثروبولوجيون اللغويون المعاصرون أيضا بتطوير ما يمكن أن يشار اليه بالمدخل أو المنهج اللغوي في دراسة الثقافة ، كما أن دراساتهم عن أصل اللغة ومراحل تطورها قد يؤدي إلى مجالات دراسية جديدة حول تطوير الأساس الاجتماعي والاعلامي للحياة الإنسانية المعاصرة والمستقبلية (مرجع ١٢٧ ص ٢٨٠) . ونود في هذا الصدد أن نؤكد ، مرة أخرى ، أن التخصصات الأنثروبولوجية تغذي بعضها البعض بالمعلومات ، كما تسهم جميعها في بلورة أفكار جديدة ، ونظريات متطورة عن الإنسان . فالأنثروبولوجيا اللغوية لها صلات بالأنثروبولوجية الطبيعية ، وكذلك بالدراسات الأثنولوجية كما هو الحال مثلا في الاتجاه البنائي الفرنسي ، والاتجاه الاثنوجرافي الجديد بالولايات المتحدة الأمريكية .

قبل أن نتحدث عن الأنثروبولوجيا البنائية بفرنسا ، ربما تجدر الإشارة هنا ولو بإيجاز إلى الوضع الذي انتهت إليه البنائية البريطانية التقليدية التي أرسى دعائمها راد كليف براون، والتي أثرت على الفكر الأنثروبولوجي تأثيرا كبيرا لعدة عقود سواء في أوروبا أو خارجها . وفي هذا الصدد يذكر لنا آدم كوبر Adam Kuper في طبعة عام ١٩٨٣ لكتابة « الانثروبولوجيا والأنثروبولوجيين : المدرسة البريطانية الحديثة . إن الأنثروبولوجيا الاجتماعية توجهت عقب راد كليف براون وجهة بنائية وظيفية معتمدة على الدراسات الحقلية ، الأمر الذي نتج عنه عدد من

المؤلفات المونجرافية Monographs التي تهتم بالدراسات الوصفية لثقافة جماعات بدائية ، ولكن سرعان ما برز في الخمسينات نوع من التخصص في دراسة نظام معين بالذات ، كالنظام الاقتصادي أو الديني أو السياسي مثلا . ومن هنا تبلورت عدة تخصصات حملت أسماء مثل الأنثروبولوجيا الاقتصادية ، أو الأنثروبولوجيا الدينية ، أو الانثروبولوجيا السياسية . . الخ . . وقد اهتمت كل منها بالمعالجة الأنثروبولوجية في إطار الوصف والمقارنة والتنظير (إلى حد ما) لنظام اجتماعي معين .

ويتساءل كوبر عن أعمال البنائيين الإنجليز في السبعينات وأوائل الثمانينات ، وهي فترة يطلق عليها « حقبة السنوات العجاف » مرجع ١٤٧ ص ١٨٩ فيذكر لنا أنه بفحصه للمقالات التي نشرت في الدورية البريطانية الشهيرة « الإنسان » (MAN) وجد أن الاتجاه العام للكتابات الأنثروبولوجية استمر محافظا ، وإن بدا فيه ميل أقل من العقود السابقة إلى الاعتماد على التحليل السيسيولوجي (المستمد من الفكر الفرنسي) . ويظهر بجلاء أيضا أن الإنجليز ما زالوا يفضلون عرض التفصيلات الاثنوجرافية أكثر من سعيهم للوصول إلى التجريدات النظرية للمادة . هذا وقد أوضحت دراسة أخرى أن الأنثروبولوجيين الشبان أصبح لديهم اهتمام أكبر الآن بالموضوعات أو المسائل الثقافية ، الأمر الذي قد يعيد إلى بريطانيا التراث التيلوري (نسبة الى إدوارد تايلور) ، وبالتالي فقد يحدث في المستقبل القريب نَقْلَه من الأنثربولوجيا الاجتماعية (بتراثها البنائي الوظيفي) الى الأنثروبولوجيا الثقافية (بتراثها الأثنولوجي الكلاسيكي) - (المرجع ١٤٧ ص ١٩٠) . وهكذا ففي الوقت الذي بدأت فيه البنائية البريطانية - خاصة منذ الستينات - تفقد سحرها وشيوعها تدريجيا إلى جانب التزامها بمسار الدراسات التقليدية التي أجريت خلال

الثلاثينات والأربعينات بصفة خاصة ، ظهر عبر بحر المانش اتجاه بنائي جديد حيث انتزعت فرنسا الأضواء لتسلط على ما يعرف « بالبنائية الفرنسية » .

(أ) البنائية الفرنسية : تناول بعض المؤلفين العرب بالشرح والتحليل الاتجاه البنائي الفرنسي (أو البنيوي كما يشير إليه البعض) ، وأوضحوا جميعا القدر الكبير الذي حظيت به في توجيه الفكر الفرنسي بصفة عامة ، وفي خلق حوار جاد مع الاتجاهات الأنثروبولوجية الأخرى خاصة في إنجلترا وأمريكا(٦) .

ومن بين المؤلفات العربية ، نشير - على سبيل المثال لا الحصر - إلى كتاب « مشكلة البنية » للأستاذ الدكتور زكريا ابراهيم ، (مرجع ٤٥) ، ودراسة الدكتور فؤاد زكريا عن « الجذور الفلسفية للبنائية » (مرجع ٧٥) . إن مفهوم البنية - في نظر كلود ليفي - ستروس (الذي ارتبطت البنائية باسمه ، والذي يعد رائدها الأول بدون نزاع) . يحمل أولا - وقبل كل شيء - طابع النسق أو النظام . فالبنية تتألف من عناصر يكون من شأن أي تحول يعرض الواحد منها ، أن يحدث تحولا في باقي العناصر الأخرى » . ويشرح لنا ليفي ستروس المقصود بهذا التعريف فيقول إن العبرة في دراسة الظواهر أو النظم الاجتماعية هي الوصول إلى العلاقات القائمة بينها . والدافع أن حقيقة الظواهر لا تتمثل في ظاهرها على نحو ما تبدو عيانا للملاحظ ، بل هي تكمن على مستوى أعمق من ذلك بكثير ، ألا وهو مستوى دلالتها

الفصل الرابع

الأنثروبولوجيا التطبيقية والتغير الاجتماعي

الفصل الرابع

الانثروبولوجيا التطبيقية والتغير الاجتماعى

مقـــدمة :

يعد التغير الاجتماعى **Social Change** ظاهرة طبيعية تخضع لها جميع المجتمعات الإنسانية بلا استثناء . غير أن الاختلاف بين هـــذه المجتمعات لا يكون فى نوع التغير ، بقدر ما هو اختلاف فى مدى هذا التغير ودرجته . وعلى ذلك فلا يمكن قبول ما قاله بعض الأنثروبولوجيين من أن المجتمعات البدائية ثابتة استاتيكية لا يعتريها التغير (١) . إذ أن هــذه المجتمعات تتعرض — فى الواقع — لموجات من التغير ، ولكنها تتخذ شكل الإيقاع الهادىء ، وتنأى عن العنف والطفرات **Mutations** (٢) .

وتكفى نظرة واحدة إلى مجتمع من المجتمعات لنرى ما اعتـــداه من تغيرات عديدة على فترات زمنية مختلفة . ولو نظرنا إلى المجتمع المصرى — على سبيل المثال منذ قرن واحد من الزمان — لوجدنا مدى التغير البالــغ الذى طرا على هذا المجتمع . ولعل من يتصفح دراسة وليم لين **W.Lane** (٣) أو كلونزنجر **Klunzinger** (٤) ، يقف على مدى ما طرا عليـــه من

---

(١) انظــر : **Evert Roger and Floyed Shoemaker Communication of Innovation, The Free Press , New York, 1971 , p. 17 ,**

(٢) إنظر حول معني الطفرة :

ايكه هولتكرانس ، قاموس مصطلحات الاثنولوجيا والفولكلور ، ترجمة الدكتورين محمد الجوهرى وحسن الشامى ، ط ٢ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص ٢٤٥ .

(٣) ادوارد وليم لين ، المصريون المحدثون ، ترجمة عدلى طاهر نور ، ط ٢ ، دار نشر الجامعات ، القاهرة ، ١٩٧٥ .

(٤) **C. B. Klunzinger, Upper Egept : Its People and Its Product . London, 1878 .**

تغير فى البناء والوظائف على حد سواء . وقد تناولنا كل ذلك بالتفصيل فى دراستنا للماجستير فى عام ١٩٨٢ ، حينما عرضنا للتغير الاجتماعى وعلاقته بالمعتقدات الشعبية فى قرية سيف الدين بمحافظة دمياط (*) .

غاية القول أنه لا توجد ثقافة Culture ولا مجتمع استاتيكيان على الإطلاق ، ولابد أن التغير اعتراهما بشكل أو بآخر (٥) ، حتى وإن كان المجتمع يتصف بدرجة كبيرة من الثبات Stability أو المحافظة الثقافية Cultural Conservatism . ومرد ذلك إلى وجود عمليتين فى كل مجتمع ، تسيران جنبا إلى جنب فى داخل النسق الاجتماعى . العملية الأولى منهما هى مجموعة المحاولات التى تتجه نحو تدعيم النسق ، أو حتى المحافظة عليه ، والثانية هى المحاولات التى ترمى إلى إحداث التغيير فى بنائه (٦) . وتحاول الأنثروبولوجيا الاجتماعية الكشف عن هاتين العمليتين فى المجتمع ، وإلقاء الضوء على اهم العوامل الفاعلة فيهما .

ومن خلال ذلك فسوف نتناول فى هذا الفصل الموضوعات التالية :

أولا : التغير الاجتماعى والتغير الثقافى .

ثانيا : انماط التغير الاجتماعى .

ثالثا : عوامل التغير الاجتماعى .

* * *

اولا — التغير الاجتماعى والتغير الثقافى :

من الواضح أن قضية التغير الاجتماعى قد قتلت بحثا ودراسة ؛ ولا تزال مع ذلك موضوع اهتمام الكثيرين . إلا أن تناولها فى الغالب يعتمد

(*) على المكاوى المعتقدات الشعبية والتغير الاجتماعى ، مرجع سابق الذكر .

(٥) Melville Heskovits, Cultural Anthropology, Indian Edition, Bombay, 1969 p. 343.

(٦) Harry Johnson, Sociology : A Systematic Introduction, (3 rd Indian edition) , Bombay, 1970. p. 625.

على ربطها بقضية اخرى او بموضوع آخر . ولعلنا فى هذا الفصل نربطها ببعض العناصر اللامادية من الثقافية ، وهى المعتقدات الشعبية . وبالتالى سوف نركز على طبيعة العلاقة بين التغير الاجتماعى وبين هذه المعتقدات، مع إبراز اهم اســهامات علمــاء الانثروبولوجيا عامة — والانثروبولوجيا الاجتماعية بنحو خاص — فى بلورة هذه القضية وإلقاء الضوء عليهــا . اضف إلى ذلك ان هناك بعض المقدمات المنطقية التى لابد منها فى تناولنــا للتغير الاجتماعى .

يقصد بالتغير الاجتماعى اى تغير يطرا على البناء الاجتماعى ، او الوظائف الاجتماعية . وقد يكون هذا التغير تقدميا للأمام (اى إرتقائيا) ، كما قد يكون فى ظرف آخر تغيرا إلى الوراء (نكوصــا) Regression (٧)، فى حالة الازمات السياســية ، والاقتصــادية ، والاضــطرابات الداخلية ... الخ .

ومن المعروف فى هذا الصدد ان المجتمع يحتوى فى بنيانه على عمليات اجتماعية تؤدى إلى الحفاظ عليه ، وتدعيمه ومن هذه العمليات التنشــئة الاجتماعية والضبط الاجتماعى ويحتوى البناء الاجتماعى ايضا على عمليات تسعى جاهدة لإحداث التغيير فى البنيان نفسه . غير انه لا يوجد فاصــل بينهما . فعلى سبيل المثال : يتعمد الاباء فى المجتمع الذى تسوده الثورة ، ان ينشئوا ابناءهم على قيم وانماط السلوك التى تتجه بكليتها نحو البنــاء المستقبلى للمجتمع ، اكثر من اتجاههم نحو الوضع القائم والحفاظ عليه . ومن ثم يمكن القول بأن الآباء لا يقومون بتعليم ابنائهم كل شيء تعلموه هم انفسهم من آبائهم (جدود الابناء) فالاباء فى هذه الحالة يعملون على الاقل

---

(٧) على المكاوى ، المعتقدات الشعبية والتغير الاجتماعى ، مرجع سابق الذكر ، صص ٣٤٢ — ٣٤٥ . وحول مفهوم « النكوص » راجع :

هولتكرانس ، مرجع سابق ، ص ٣٥٤ .

على تحول وانتقال الثقافة ، أو الحفاظ عليها (٨) . ولكنهم يحاولون ـ بنفس القدر أن يعيدوا تشكيل الحياة الاجتماعية والنسق الاجتماعي من جـديد .

وعلى الرغم من أن عمليات التغير الاجتماعي تحـدث تحولا وتبدلا في النسق الاجتماعي ، إلا أنها قد تعمل على الحفاظ على النسق وتدعيمه . فقد يحتاج هذا النسق أن يكيف بناءه في الظروف الجديدة ، ويتواءم مع هذه الظروف لكي يحافظ على بقائه . ومن الممكن أن يعمل التغير الذي يطرا على النسق ، على تأكيد تكامله (٩) Integration ، بحيث يكـون متميزا عن غيره . على حين لو ظل هذا البناء بنفس حالة التغير مدة طويلة من الزمن ودون أن يعيد تكيفه تارة آخرى مع الأوضاع والظروف الجديدة ، فلا بد أن يفقد تكامله كنسق متمايز . وكلنا يعرف أن خروج المرأة الى مجال العمل في المجتمع المصري قد ترتب عليه خلل في النسق الاجتماعي شـمل النظام التربوي ، والعائلي ، واحدث تغيرات في النظم السياسية والاقتصادية ... الخ . وهنا كان على النسق أن يتخذ مجموعة من الاستجابات التلاؤمية التي يضمن بها أن يعيد تكيفه من جديد مع التغيرات القائمة . ومن ثم ظهرت التشريعات التي تحمي المرأة ، وتحدد حقوقها وواجباتها واضطلع نظـام

---

(٨) Harry Johnson , Sociology . Op. Cit p 625.

(٩) التكامل Integration هو المبدأ الذي ترتبط الاجزاء بمقتضاه مكونة كلا واحدا ... ويفرق سوروكن Sorokin بين « التكامل المنطقي الهادف » الذي يميز الثقافة ، وبين التكامل العلي الوظيفي الذي يميز الاتساق الاجتماعية . ولكن من المعروف أن هذا التكامل لا يكون تاما على الاطلاق . وفي هذا الصدد يميز كوهين Cohen بين « التكامل الوظيفي » من ناحية ، و « التكامل المنطقي » أو الفروض الثابتة التي تعبر عن القيم والمعتقد التي ينطلق منها السلوك من ناحية أخرى . ويرى كوهين أن « من لزوميات التكامل الوظيفي لا يتبع التحقق الكامل للتكامل المنطقي ، أو يتيح تحققه بدرجات متفـاوتة وفي ظل ظروف مختلفة » . للمزيد من التفاصيل : انظـر :

هولتكرانس ، قاموس الفولكلور ، مرجع سابق ، ص ص ١٢٧ — ١٢٨ .

الضبط الاجتماعى بذلك . ثم قام النظام الاقتصادى بإنتاج الأدوات وتقديم التسهيلات التكنولوجية والصناعية التى تيسر لها عملها فى البيت . كما تكفل النظام التربوى بافتتاح دور الحضانة التى ترعى الأبناء الصغار فى فترة غياب الأم عنهم ، وهكذا . وهنا يظهر مدى حرص النسق على إعادة تكامله المفقود . أما إذا ظل على حالة التفكك والخلل ، بدون المبادرة بمواجهة التغيرات الجديدة والتكيف معها ، فسوف يتدهور ويتفكك ومن ثم يصل إلى حالة التغير « النكوصى » المذكورة .

وعلى الجانب الآخر نجد أن خصائص النسق الاجتماعى ومظاهره ، وقيمه ، قد تعمل على الحد من التغير (١٠) . ففى المجتمعات ذات التنظيم الطائفى الصارم كالهند مثلا ، يتباطأ التغير إلى أدنى معدلاته . إذ يحدث أن أعضاء طائفة معينة ، لا يمكن أن يحصلوا على الماء من نفس العين الجارية التى تجلب الطوائف الأخرى منها الماء فى ظل النظام الطائفى التقليدى . وليس الأمر قاصرا على المياه فحسب ، وإنما يمتد ليشمل تحريم دخول نفس المدرسة ، وحظر طعام معين ومنع تناوله فى نفس الوقت بأية صورة من الصور .

إذن فالتغير الاجتماعى هو العملية التى يحدث بمقتضاها تحول فى بنية النسق الاجتماعى ووظيفته . ومن أمثلة التغير الاجتماعى الثورة القومية ، واختراع أساليب فنية صناعية جديدة ، وإنشاء مجالس تطوير وتنمية القرى ، ومشروعات تنظيم الأسرة ... الخ (١١) . وبعد ذلك يطرأ التحول فى بنية ووظائف النسق . فالبناء الاجتماعى للنسق يتكون من

---

(١٠) George Foster , Traditional ocioties and Social Change , 2. ed Ed tion. New York, 1973, p ١١٤.

(١١) E. Rogers and Otner , Commun cat on of nmovations, Op. Cit., p . 7.

وانظر كذلك : على المكاوى ، المعتقدات الشعبية ، مرجع سابق ، ص ٢٤٤ .

الأشخاص العديدين ومراكز الجماعة التى تشكله . وقد يكون الوضع Position او المركز Status فى النسق الاجتماعى رسميا مثل المدرس بمدرسة فى القرية مثلا ، وقد يكون غير رسمى Informal مثل قائد جماعة الحوار وممثل الراى العام فيها . ويحمل كلا النمطين مركبا ضمنيا من التوقعات عن سلوك الشخص الذى يشغل هذا المركز او ذاك الوضع .

أما العنصر الخاص بالاداء الوظيفى Functoning فى داخل ذلك البناء من المراكز فهو دور الشخص ، أو السلوك الفعلى له فى المركز الذى يشغله . ويتبادل الدور والمركز التاثير والتاثر فيما بينهما (١٢) . حيث يحمل مركز المدرس فى المدرسة مثلا معه توقعات ترتبط بسلوك الشخص فى هذا الوضع ، ومؤثرا بذلك فى سلوكه الفعلى . اما إذا انحرف الشخص انحرافا كبيرا عن مجمل سلوكياته . فإن مركزه يتغير بالضرورة وبشكل مباشر .

ومن المسلم به أن البناء الاجتماعى والوظيفة الاجتماعية يتبادلان الاعتماد والتأثير والتاثر كل منهما فى الآخر . فانشاء الجمعية التعاونية الزراعية فى القرية — على سبيل المثال — يؤثر على بنائها الاجتماعى عن طريق إقامة نظام جديد للمراكز . وبمجرد ما يبدا الاداء الوظيفى للأشخاص فى أوضاعهم الجديدة ، يبدا بالتالى التأثير الاكبر فى الاداء الوظيفى لتلك الجمعية . ويتمثل هذا التاثير فى احتجاج الفلاحين ، وإعتراض بعض اصحاب الحيازات ونقمة بعض اعضاء مجلس الادارة على بعضهم الآخر بسبب ما يستأثر به من إمتيازات يقتنصها من الآخرين . وكذلك الحال فى المستشفى بالقرية ، تنشأ ، فينشأ نظام للأدوار والأوضاع الاجتماعية فيشكلان بناء اجتماعيا لها . ولكن مع بداية الاداء الوظيفى لها فى الرعاية الطبية والعلاج

---

(١٢) انظر : B. Rogers and Other, Ibid. p. 8.

... الخ ، يبدأ سخط الفقراء على طبيب الوحدة لانه يحجب عنهم العلاج المجانى ، وعلى المرضين الذين يبيعونهم الخدمة الرسمية والعلاج المجانى بمقابل لا يقدرون عليه . وغاية القول ان البناء والوظيفة يســود بينهمــا الاعتماد المتبادل والتأثير والتأثر .

وإذا كان هذا شــأن التغير الاجتماعى ، فما هو إذن شــأن التغير الثقافى ؟ يعد التغير الثقافى Cultural Change ذا مدلول اوسع كثيرا من مدلول التغير الاجتماعى ، وإن كان الاثنــان يستخدمان للاشــارة إلى التغيرات الاجتماعية التى تحدث فى مجتمع من المجتمعات . ولكن المقصود من التغير الثقافى ارحب من ذلك ، إذ يدل على كل تغير يحدث فى الجوانب المادية واللامادية للثقافة كأن يحدث فى اللغــة ، او الفن ، او العلم ، او المعتقدات والعادات ، او فى المأكل والمشرب والملبس ، او وسائل المواصلات والنقل ، او فى النمط الفيزيقى للمسكن ، والاثاث ، او فى الصناعة او فى شكل من اشكال الحياة الاجتماعية (١٣) . وما ذلك التعدد بكثير ، خاصة وان التغير الثقافى يتعلق بالثقافة ، والثقافة ظاهرة شــاملة للعــديد من الجوانب المــادية Artifacts ، والعقليــات Ment facts والاجتماعيات Socifacts .

وفى هذا الصدد يذهب كيسنج Kessing إلى ان الثقــافة هى « مجموع السلوك المكتسب الذى يتم تناقله اجتماعيا » . وعلى ذلك فهى تضم العديد من العناصر كما ســبق . وان اى تغير يطــرا على عنصر من التكوينات المادية ، والعقلية والاجتماعية ــ عند هكسلى Huxley ــ يعد تغيرا ثقافيا . وعلى هذا فإن التغير الثقافى يعنى اى تغير يمكن ان يؤثر فى مضمون او بناء ثقافة معينة . ويعتمد هذا النوع من التغير على الإنتشار Difusion او الاختراع Invention .

(١٣) على المكاوى ، المعتقدات الشعبية والتغير الاجتماعى ، مصــدر ســابق الذكر ص ٣٤٥ .

إذن فالتغير الثقافي ظاهرة أعم وأشمل من التغير الاجتماعي . كما أن هذا التغير الثقافي لا تخلو منه جماعة بشرية ، وتتضح هذه الحقيقة من خلال دراسة التغير في أثناء حدوثه In process ، أو عن طريق التحليل الثقافي للثقافات غير التاريخية (١٤) . علاوة على أن الطابع الدينامى للاختلافات الاقليمية والتباينات المحلية يؤكد حدوث هذه الظاهرة الشاملة .

وعلى هذا فالتغير الثقافي ظاهرة عريقة الأصول ، ممتدة الجذور في دراما تتابع الأجيال ، تلك الدراما التي لا ينضب معينها ، ولن يجف على الاطلاق (١٥) . وبالتالي فهي تشكل منبها اجتماعيا ثقافيا للتغير الثقافي والتعجيل به .

وإذا كان حدوث التغير الاجتماعي محل اتفاق بين علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا الاجتماعية والفولكلور على السواء ، إلا أن التباين في وجهات نظرهم ينصب على موضوعات تنبثق عن هذه الظاهرة . أي كيف يحدث التغير الاجتماعي ، ولماذا يتخذ إيقاعا هادئا تلاؤميا في مجتمع ، بينما يتخذ شكلا عنيفا في مجتمع آخر ؟ ثم ما هي أنماط هذا التغير ، والعوامل التي تحدثه وتعجل به ، وما هي المعوقات الاجتماعية له ؟ وما هي النتائج التي تترتب عليه ، وما مردودها ، ولمصلحة أية طبقة اجتماعية من الطبقات ... الخ ؟ (١٦) . وهذه التساؤلات تمثل رؤوس موضوعات نتناولها هنا بالتفصيل .

* * *

---

(١٤) M. Herskovits , Cultural Anthropology , Op. Cit., p. 44?.

(١٥) Vern Bengtson and Others , Time , Aging and The Continuity of Social Structure : Themes and Issues in Generational Analysis , in : Journal of Social Issues , Vol. 30 , 1974 , p. 25 .

(١٦) على المكاوى ، المعتقدات الشعبية ... ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٢٤٩ — ٢٥١ .

ثانيا — انماط التغير الاجتماعى :

يتعرض كل نسق اجتماعى لحالة من التغير الملموس على مدار الزمن، شأنه فى ذلك شأن الكائن الحى الصغير ، الذى ينمو باستمرار نمطرا عليه التغير . كذلك شأن الطفل الذى يعايش نمـوا فسيولوجيا فيتغير وتتغير بالتالى الادوار التى يقوم بها . وقد لا تكون هذه التغيرات العمرية ذات اهمية كبيرة فى المدى الزمنى القصير ، وإنما تزداد أهميتها بتراكم هذه التغـيرات البسيطة على المدى الطويل (*) . وهنا ينصب الاهتمام — فى ضوء هذا المعنى — على إسهام جماعات العمر المتوالية باستمرار فى عمليـة تغير تشكيل Configuration النظام الاجتماعى (١٧) .

وإذا كانت التفسيرات التى تربط بين التقدم الاجتمـاعى والازدهار الثقافى وبين التتابع البيولوجى للأجيال ، قد ظهرت معالم تصورها بوضوح، فإن اهتمام العلماء توجه نحو الدور الذى تلعبه الصفوة Elite فى إحداث التغير الاجتماعى ، واعتبارها بمثابة ميكانيزم حيوى داخل الجيل ، ويحدث هذا التغير (١٨) . لذلك شهدت العقود الأخيرة توجها جديدا نحو الاهتمام بحدوى تتابع الاجيال فى هذه الظاهرة .

ومن المعروف انه فى كل عملية تفاعل مع شخص آخر مثلا . يقـوم أعضاء النسق الاجتماعى بممارسة تأثيرات متبادلة فى الاتجاهات ، بما فى ذلك توقعاتهم المتبادلة . وإذا كان هذا النسق فرعيا ، فإن أعضاءه يعتريهم التغير من خلال المشـاركة فى الأنسـاق الأخـرى فى قدراتهم واتجاهاتهم ... الخ .

(*) Harry Johnson, Sociology, Op. cit., p 626.

(١٧) Vern Bengtson and Others, Op. cit, p. 2.

(١٨) انظر دراستنا عن المعتقدات الشعبية والتغير الاجتماعى سابقة الذكر ، ص ٢٤٥ ، والمراجع الواردة هناك .

وغاية القول أن هناك بعض أنواع التغير الاجتماعى تبدو أكثر أهمية من غيرها ، كما تتجاهل بعضها الأخرى أغراضا معينة . وعلى هذا ، لزم التنوية السريع إلى أظهر هذه الأنواع والبيئات التى تكون فيها أكثر أهمية — وذلك قبل تناول أنماط التغير الاجتماعى — ومن ذلك مثلا :

١ — نسبية التغير الاجتماعى ، وأهمية بعض التغيرات عن الأخرى فى بيئة معينة (١٩) . وتدور هذه الفكرة حول أنظمة جوهرية مثل النظام القيمى المعيارى ، والنظام العائلى والنظام الاقتصادى والنظام السياسى ... الخ . فقد تغيرت القيم الإقطاعية فى الريف المصرى ، ولم تعد المهن الزراعية تستقطب الاحترام ، وباتت الملكية الزراعية تتنازل عن عرشها — كمصدر للقوة الاقتصادية — راغمة للمهن الفنية والتكنولوجية فى مجال الصناعة والمهن الحرة والنقل والمواصلات . وصارت الوظائف الاقتصادية تحظى بمعظم الاهتمام الذى يتجسد فى هيبة أصحابها إلى حد كبير (٢٠) .

٢ — أنماط التغير الاجتماعى ومنها الأنماط الداخلية والأنماط الخارجية . وهذا ما سنركز عليه فى هذه الفترة .

٣ — مستويات التغير الاجتماعى ، أى الوحدة التى تتبنى الفكرة الجديدة أو تعارضها . فاذا كان التغير داخليا (Internal) immanent كان له مستويان ، أولهما المستوى الفردى على نطاق الوحدات الصغرى ، وثانيهما المستوى الاجتماعى على نطاق النسق . وبالتالى تؤدى المحصلة النهائية لهذين المستويين إلى تغير نسقى .

* * *

---

(١٩) Talcott Parsons , The Social System, (Indian Edition). New Delhi, 1972. p. 503.

(٢٠) على المكاوى ، المعتقدات الشعبية ... ، مرجع سالف الذكر ، ص ٣٤٦ .

انماط التغير الاجتماعى :

يمكن النظر إلى التغير الاجتماعى من خلال مصدر حدوثه . فإذا كان هذا المصدر نابعا من داخل النسق الاجتماعى موضع الدراسة ، نكون بصدد تغير من الداخل . على حين لو كان المصدر قادما من خارج النسق ، كالاتصال مثلا ، فإننا نكون امام تغير من الخارج .

وقد قدم بعض دارسى التغير الاجتماعى معايير للتمييز بين انماطه المختلفة . واول هذه المعايير هو إدراك اعضاء النسق الاجتماعى لحاجتهم الملحة للتغير . وثانيها هو اصل او مصدر الفكرة الجديدة التى احدثت التغير (٢١) . وسوف نشير بايجاز إلى هذه الانماط .

١ — **التغير من الداخل (الداخلى)** **Internal** : وهو ظاهرة تنبع من داخل المجتمع ذاته بعيدا عن اى تأثير خارجى . وقد يتمثل ذلك فى تقديم فكرة جديدة ، أو عنصر جديد ، او اختراع بسيط ييسر الاتصال او العمل الزراعى او التجارى أو الصناعى ، ويوفر الجهد ويختصر الوقت. ويؤدى التغير الداخلى النابع من مصدر واحد إلى إطلاق العنان لمجموعات اخرى من التغيرات ، مع حدوث رد فعل يؤثر على المصدر الاول . وبالتالى نكون امام العلاقة الدائرية Circular relationship (٢٢) .

ويوضح مجتمعنا المصرى هذه العلاقة ويجسدها من خلال ما حدث فيه من تغيرات بعد ثورة ١٩٥٢ ، طرات على النظام السياسى اولا ، ثم لحقها على الفور تغيرات هيكلية فى النظم الاقتصادية والتربوية والعسكرية وغيرها . وقد دعم تغير هذه النظم ، النظام السياسى من جديد ، ليدعمها بدوره فى نفس الوقت مرة اخرى (٢٣) .

---

(٢١) Shoemaker and Roger, Op, cit.. p. 8.

(٢٢) Hary Johnson, op. cit., p. 632 .

(٢٣) د. على المكاوى ، المعتقدات الشعبية والتغير الاجتماعى ، مرجع سابق الذكر ، ص ص ٢٠٦ ـ ٢١٧ .

٢ — **التغير الخارجى** External Change : ويحدث هذا النوع من التغير ، حينما تطرأ الأفكار الجديدة على النظام الاجتماعى او النسق من خارجه . وبالتالى يمثل التغير هنا ظاهرة تقع بين النسق وغيره . وقد يتخذ التغير الخارجى شكلا اختياريا او شكلا مخططا او موجها، فى ضوء مصدر الحاجة إلى هذا التغير . فإذا كان مصدرها داخليا ، اصبح التغير ذا شكل اختيارى ، بينما لو كان المصدر خارجيا ، صار التغير مخططا او موجهــا .

(أ) التغير الاختيارى Selective Change : ويحدث هـذا الشكل من اشكال التغير حينما يتعرض النسق الاجتماعى لمؤثرات خارجية ، يترتب عليها قبول الأفكار الجديدة او المخترعات الجديدة الوافدة من خارجه وتبنيها ، او معارضتها وفقا للاحتياجات الخاصة لاعضاء النسق ذاتهم . فالتعرض لصور الابتداع يكون تلقائيا ، او مصادفة حيث تترك للمســتقبلين حرية الاختيار ، والتأويل ، والتبنى للفكرة الجديدة والاختراع الجديد ، او الاعتراض عليها ورفضها . ومثال هذا النمط من التغير الاختيارى فى النظام التربوى ، عندما يقوم المدرسون بزيارة إلى مدرسة مجاورة وخاصة اذا كانت تتسم بالروح الابتكارية الإبداعية . وقد يعود المدرسون إلى فصولهم بأفكار جديدة ، وطرق تدريس جديدة ، دونما إجبار او قسر من ناظر المدرسة حول تبنى هذه الأفكار او البحث عنها .

(ب) **التغير الموجه** Directed Contact Change **او المخطط :** ويحدث هذا النمط عن طريق اشخاص من الخارج يمثلون هيئات خارجيــة لإحداث التغير . ومن خلال الأفكار التى يقدمونهــا — على مــدى إقامتهم وتمثيلهم لهيئاتهم — يحاولون إنجاز الأهداف الكبرى المخططة . وتعد حملة الصحة العامة Pueli health Campaign التى استهدفت « غلى الماء قبل شربه » فى بيرو مثالا على ذلك (٢٤) . فالاختراع ، او الفكرة الجديدة

---

(٢٤) ...y Mair , An Introduction to Social Anthropology op. cit., p. 265.

عموما ، قد نبتت فى خارج المجتمع ، فى حالة التغير الاجتماعى المخطط . وتعد الهيئات الحكومية العاملة فى مجال التنمية ، وما تقدمه من برامج تستهدف التطوير التكنولوجى والتعليمى والزراعى ... الخ — كلها امثلة على التغير المخطط الموجود فى عصرنا الحاضر (٢٥) . وتجدر الاشارة إلى ان رغبة الحكومات فى رفع مستوى معيشة شعوبها ، لا يمكن تحققها إلا عن طريق البرامج الفعالة للتغير الموجه . فهذه البرامج مؤشر يدل على عدم رضا تلك الحكومات عن معدل التغير النابع من الداخل ، وكذلك التغير الخارجى الموجه على السواء .

* * *

ثالثا — عوامل التغير الاجتماعى :

من المعروف ان هناك العديد من العوامل التى تؤدى إلى إحداث التغير الاجتماعى . وتتنوع هذه العوامل ما بين العوامل الداخلية التى تنبع من داخل النسق نفسه ، والعوامل الخارجية النابعة من خارجه أساسا . وغالبا ما تصطبغ العوامل الداخلية بالصبغة الفردية النفسية ، على حين يغلب على العوامل الخارجية الطابع الاجتماعى . « وعلى كل حال فإن هذه العوامل تتداخل وتتبادل التأثير والتأثر فيما بينها » (٢٦) . كما أنها تتضمن من العوامل ما هو بيئى ، وما هو نفسى ، وما هو تاريخى ... الخ .

١ — **العامل البيئى :** تلعب العوامل البيئية دورا هاما فى التغير الاجتماعى . فإذا ما تغير المناخ مثلا ، حاول اعضاء النسق الاجتماعى أن يكيفوا انفسهم مع الوضع الجديد فى مجال الزراعة والصناعة والمسكن والنظم الاجتماعية . وقد ينضب معين التربة فيهجرها السكان إلى مكان آخر ليعيدوا تكيف انفسهم مع البيئة الجديدة وما يترتب على ذلك من تغير فى نوع العمل ، وطرق التفكير ، ووسائل الانتاج ... الخ .

---

(٢٥) ...er and Other , Op, cit. p. 9

(٢٦) ...s, Cultural Anthropolog , Op cit., p. 451.

والبيئة او المكان قد تعمل على تقديم الإمكانيات المفيدة لمن يقطنها ، وقد تكون جرداء عديمة الجدوى بالنسبة لهم . إذ يمكن ان تشكل هذه البيئة عقبة فى وجه التيار التكنولوجى الطاغى . كما يمكن ان تحد العراقيل الطبيعية — كالجبال والبحار والحواجز الجغرافية عموما — من فاعلية الاتصال Communication بين الشعوب (٢٧) . وبالتالى تحول دون وصول التيارات الوافدة من الخارج لتحقق التغير الاجتماعى المنشود .

غير أن العامل البيئى لا يعتبر حاسما إلى هذا الحد ، ذلك لأن تطور الحياة الاجتماعية يسير بخطى اسرع من إيقاع التطور البيئى . وتكفى نظرة واحدة إلى مجتمع من المجتمعات ، لنجد أن البيئة هى كما هى منذ مئات او آلاف السنين ، على حين طرأ التغير الجذرى على النظم الاجتماعية والوظائف الاجتماعية بشكل لا يمكن مقارنته بها . إذ ان الموقع الجغرافى لمجتمع هو هو ، والبحر والنهر قائمان ، والريح تعصف والهواء يسرى ؛ والمطر ينهمر والأرض تجود ... الخ . اما بنية المجتمع ووظائفها فشتان بين الأمس واليوم فيها .

٢ — **الإتصال بين المجتمعات** : يؤدى الاتصال بين المجتمعات دورا بالغ الاهمية فى تنشيط العمليات الاجتماعية ، وبالتالى يضفى بعدا ديناميا على البناء الاجتماعى القائم . إذ يتاثر هذا البناء بلا شك بالأفكار المستحدثة، التى ترد إليه من الخارج ، وتدفعه إلى وقفة تامل ليتخذ بعدها قراره بالقبول او الرفض . وتزداد قيمة هذا العامل فى احداث التغير الاجتماعى ، حينما تتصل الجماعات الانسانية المنعزلة وشبه المنعزلة ، بالمجتمعات التى قطعت أشواطا كبيرة على طريق الرفاهية والتقدم .

والاتصال بكل بساطة هو العملية التى تنتقل بواسطتها الرسالة او الفكرة او الاختراع من المرسل (المصدر) ، حتى تصل إلى المستقبل . ويمكن

---

(٢٧) B. Rogers and Other, Op. cit., p. 7.

توضيحها عن طريق نموذج .S. M. C. R (٢٨) . وفى هذا النموذج يقوم (S) المصدر Source بإرسال رسالة Message (M) عبر قنوات اتصال معينة Channels (C) ، إلى (R) الشخص المستقبل Receiver . ويمكن التعبير عنها بهذا الشكل :

$$\text{Source} \ \frac{\text{(Message)}}{\text{(Channels)}} \longrightarrow \text{Receiver} \rightrightarrows \ \text{Effecrs}$$

وعلى ذلك يتيسر لنا الوقوف على عوامل الاتصال عن طريق تأمل المظاهر العديدة لعملية اتخاذ القرار التى تؤدى فى نهاية الأمر إلى إحداث التغير الاجتماعى : فالقرار الذى يتخذه الفلاح مثلا بالذهاب إلى المدينة ، أو بالمشاركة السياسية فى برنامج من برامج الحكومة ، أو بتبنى تقنيات الزراعة الجديدة واتباع توصيات الارشاد الزراعى ، وكذلك قرار الزوج والزوجة بالتعاون فى تنظيم الاسرة ، أو تعليم الأبناء ... الخ هذه الأمثلة كلها ، نكون بصدد رسالة موجهة (فكرة ، اختراع ، ابتداع ، اكتشاف) إلى الافراد عبر وسائل وقنوات اتصال ، يقبل عليها المستقبلون لها ، فيغيروا من انماط سلوكهم الحالية . وهذه هى النتيجة المرجوة من الاتصال. وعلى الرغم من أن الاتصال والتغير الاجتماعى ليسا مترادفين ، إلا ان هذا الاتصال هو العنصر الهام والفعال خلال عملية التغير الاجتماعى (٢٩) . وبالتالى فإن مفهوم التغير الاجتماعى يتضمن — علاوة على عملية الاتصال — النتائج الفردية ، والمجتمعية التى تنجم عن تبنى إبتكار جديد ، أو حتى الاعتراض عليه ورفضه . ولكن تناول التغير الاجتماعى يستدعى اتساقا منطقيا يتمثل فى تركيز الاهتمام على البناء والوظيفة للنسق الاجتماعى ، وما يطرأ عليهما من تحول .

ويقدم لنا كارل مانهايم K. Mannheim مفهوما جديدا فى عملية

---

(٢٨) Floyed Shoemaker and Other, Op. Cit., p 11.

(٢٩) انظر : F. Shoemaker, Ibid, p . 21.

التغير الاجتماعي عند فئة الشباب على وجه الخصوص كقطاع من قطاعات البناء الاجتماعي . وهذا المفهوم هو الاحتكاك الخصب (الاتصال الفائق) **Fresh Contact** شارحا إياه بانه علاقة متغيرة فى النظر إلى الموضوع تتضمن النظرة الجديدة فى تمثل ، وتطوير ، واستخدام البدائل الثقافية ، والبدائل المادية فى هذه الحالة (٣٠) . ويترتب على هذا اللون من السوان الاحتكاك ، أن يغير الشباب من طرق الحياة السائدة ، ويثور على القيم الاجتماعية المسيطرة ، ويبتكر البدائل الثقافية الجديدة والفريدة ، ويتحرر من الإنصياع للثقافة التى تمليها عليهم التزامات العصر **Current Incumbents** ، وبذلك كله يحدث التغير الاجتماعي والثقافي (٣١) .

وعلى ضوء هذه النظرة الجديدة لقطاع الشباب ، نلاحظ انهم لم يبتكروا بدائل ثقافية فحسب ، وإنما أوجدوا صورا واشكالا ثقافية جديدة **New Cultural Forms** ايضا . وقد طور روزاك **Roszak** وريتش **Reich** وميد **Mead** هذه القضية . وزادوا عليها ان اسلوب الشباب فى المراجعة والنظرة الجديدة للمؤسسات والنظم الاجتماعية فى جيل الآباء . . . ووصفها بالرياء **Hypocracy** والانفصال **Irrelevant** مما يترتب عليه تغير فى النسق الاجتماعي يتمثل فى إنقلاب التنشئة الاجتماعية بحيث يضطر الآباء إلى تعلم التبنى الثقافى لابتكارات ابنائهم الشبان فى المجتمع الأمريكى على سبيل الذكر (٣٢) . ويرى بنجتسون **Bengtson** وبـلات ن وظيفة النظرة الجديدة — عند الشباب — على التغير

---

(٣٠) **Vern Bengtson and Others, „Time, Aging and The Continuity of Social Structu e ' Op. cit., p. 22..**

ويمكن أن نسميه « بالنظرة الجديدة » بدلا خاصة وأن هذا الاصطلاح بعد اكثر اتساقا مع المضمون .

(٣١) د. على المكاوى ، المعتقدات الشعبية . . . ، مرجع سابق ، ص ٢٥٠ .

(٣٢) انظر : **Vern Pngtson, Ibid. p 23,**

الاجتماعى ، تكمن فى خلق البدائل الثقافية Cultural Alternatives التى ابتكروها ، وصـارت جزءا لا يتجزأ من الثقـافة الجماهيرية الكبرى كجماعات النشاط السياسى ، والزواج الجمـاعى ، والكميونات (٢٣) Communes فى المجتمعات الغربية .

غاية القول ان الاتصال عملية حيوية لابد منها لإحداث التغير الاجتماعى. وعلى ذلك ، يحسن الاشارة إلى ان طبيعة هذا التغير الناجم عن انتشار الافكار الجديدة ، تتوقف على النسق الاجتماعى نفسه (٣٤) . ولعل مثال « غلى الماء » فى قرية لوس مولينوس ببيرو ، توضح لنا ذلك ، وتلقى الضوء على مراحل عملية التغير الاجتماعى . وتتمثل هذه المراحل فى :

(ا) الاختراع Invention وهى مرحلة خلق الأفكار الجـديدة وتطـويرها .

(ب) الانتشار وهى مرحلة وصول الأفكار إلى اعضـاء النسـق الاجتمـاعى .

(حـ) النتائج وهى التغيرات التى تنجم عن استخدام الفكرة الجديدة ، او رفضهـا .

اما عن النتائج المترتبة على الأفكار الجديدة ، فهى تشكل المرحـلة الثالثة من مراحل عملية التغير الاجتماعى . وهى تمثل التغيرات التى طرأت على النسق نتيجة التبنى لفكرة جديدة او رفضها . وهناك ثلاثة تصنيفات لتلك النتائج كما يلى (٣٥) :

---

(٢٣) الكميون Commune هو الانقسام الصغير ، ويعنى ايضا اصغر وحداته التقسيم الادارى فى فرنسا وسويسرا . وقد صارت هذه اللفظة تطلق على المجتمعات البديلة التى يبتكرها الشباب فى الغرب ويلفظ بها حياة الاباء ، والجيل السابق عامة .

(٣٤) انظـر : Floyd Shoemaker, and Other, Op. cit., p. 7.

(٣٥) E. Rogers and Other, Op. cit, p. 17 .

(ا) **النتائج الوظيفية السوية** مقـــابل نتـــائج الخلل الوظيفى : **Functional Versus Desfun tional** **وهنا نتســاءل** عن تاثيرات الافكار الجديدة على النسق الاجتماعى . فان كانت هذه التاثيرات مرغوبة ، كانت النتائج وظيفية سوية . على حين تدل التأثيرات المرذولة على نتائج وظيفية مختلة . ولعل المثال الواضح على ذلك هو إدخال الفأس الحديدى فى إحدى قبائل استراليا الاصلية والذى ادى إلى تفكك النســـق العائلى ، وزيادة الامراض الاجتماعية ... الخ . وكما سبق فان هـــذه التأثيرات تعد مرذولة ، ومن ثم فهى نتائج مختلة وظيفيا .

(ب) **النتائج المباشرة** فى مقابل النتائج غير المباشرة **Direct Versus indirect** ومعنى ذلك تحديد اى التغيرات فى النســـق الاجتماعى التى تحدث كاستجابة سريعة للفكرة الجديدة ، وايها الآخر الذى ينبثق عن الآثار والنتـــائج المباشرة . ومثـــال ذلك اتخـــاذ الزوج والزوجة قرارهما المشترك بتنظيم الاسرة استجابة للأفكار الجديدة التى تقدمها وسائل الاعلام المختلفة عبر قنواتها العديدة . وهنا هذا القرار السريع يمثل اســـــتجابة مباشرة (نتيجة مباشرة) . على حين تتمثل الآثار غير المباشرة الاخرى فى التغيرات الاجتماعية "التى تحدث على النسق الاجتماعى من جـــراء تنظيم الأسرة الفعلى كانخفاض معـــدلات المواليد ، وتوافر الســـلع التموينية ، وانكسار حدة أزمات المساكن والمواصلات ... الخ .

(حـ) **النتائج الظاهرة** فى مقابل النتائج الكامنة **Manifest Versus latent** : والمقصود من النتائج الاولى الظاهرة ، هو اى التغيرات وقف عليها اعضاء النسق الاجتماعى وادركوها . على حين تمثل النتـــائج الكامنة تلك التغيرات المستترة فى حالة كمون لم يدركها اعضاء النســـق الاجتمـــاعى بعـــد .

وعلى ضوء هذه النتائج نجد هيرسكوفيتس يحدد بشكل قاطع ؛ بأن للاتصال دوره فى القضاء على عزلة المجتمعات وبالتالى تصل إليهـــا رياح

التغير والنهوض . ولكنه ينساق فى خطأ عندما يقول : « ويبدو أن الشعوب التى تسكن معظم مناطق العالم عزلة ، هى تلك التى تدخل ضمن أكثر الجماعات العالمية تمسكا بالقديم ومحافظة عليه » (٣٦) . غير أنه يتدارك الخطأ سريعا عندما يقرر بأن حضارات الشرق الأقصى على الرغم من أنها محافظة إلا أنها ليست منعزلة . ولا تعد قاصية إلا من وجهة نظر الثقافة الأوربية المتطورة ، وإذا نظرنا بعين الأوربيين أنفسهم . علاوة على أن العزلة مفهوم نسبى . فالأمريكتان كانتا منعزلتين عن العالم منذ آلاف السنين كلية . ولكن بعد الكشوف الجغرافية وهجرة الأوربيين لهما ، صارت القارتان بؤرة للتغيرات الاجتماعية التقدمية .

وما يهمنا فى موضوع الاتصال فى المجتمع الريفى المصرى أيضا هو مدى سهولة إتصال القرية بالمدينة . وليست العبرة بالقرب المكانى ، وإنما العبرة بالقرب الزمانى واليسر فى الانتقال . كذلك الإنفتاح على العالم الخارجى من خلال الظعن والإرتحال ، والهجرة والأسفار ، والإطلاع على خبرات وأفكار الآخرين (٣٧) . وهنا نجد أن الثقافة تنتقل بطريق عمدى وذلك عن طريق الإذاعة والتليفزيون والصحف والمجلات والكتب والسينما . ويلعب التجنيد الاجبارى للشباب دورا هاما فى هذا التغير الاجتماعى والثقافى على حد سواء .

٣ — **العوامل التكنولوجية** : تتأثر المجتمعات تأثرا كبيرا بالمخترعات الجديدة . فلكل اختراع مادى ، أو فكرة جديدة آثارها على البناء الاجتماعى والوظائف الاجتماعية . وعلى ذلك يمكن البدء بأبسط هذه المستويات التكنولوجية لنقف على دورها فى التغير الاجتماعى وبالتالى على النسق

---

(٣٦) **Melville Herskovits, Cultural Anthrop. op. cit., p. 451.**

(٣٧) د. حسن الكاوى ، المعتقدات الشعبية والتغير الاجتماعى ، مرجع سالف الذكر ، ص ٣٠٦ .

الاجتماعى الكلى . فاختراع المنجل (اداة الحصاد) مثلا وتزويده بوسادة لينة على اليد ، جعل استخدام الفلاحين له مريحا ، ويسر سرعة تداوله وانتشاره ، وعمل على توفير المزيد من الوقت ، وبالتالى قلل من التكاليف . وانعكس ذلك على البناء الاجتماعى فمع توفير الوقت زادت دائرة العلاقات الاجتماعية ، ومع قلة التكاليف زاد عائد الانتاج ليعم النسق كله وهكذا .

يضاف إلى ذلك أن اختراع الالات الزراعية التكنولوجية الحديثة . والميكنة الزراعية على وجه العموم ، قد احدث تغيرا واسع المدى فى المجتمع المصرى على سبيل المثال . فقد ادت الميكنة إلى توفير الوقت ، والجهد . وبالتالى التوسع فى الانتاج . ومن ناحية اخرى حتمت الميكنة ضرورة تغيير فى انماط السلوك والتفكير عند من يقوم بتشغيلها او بالاستفادة من خدماتها. ومن ثم نجد اتجاه تفكير صاحب الآلة ، وسائقها ، ومستخدمها — احيانا كثيرة — إلى الطابع الرشيد . فتزداد قيمة الوقت لديه ، ويقيس انماط سلوكه بهذا المقياس . كما يكتسب خاصية السرعة فى التفاعل والعلاقات .

ولكن هذه الامثلة تعتبر التكنولوجيا فيها سلاحا ذا حدين . فهى تحدث تغيرا بالقطع ، ولكنه ليس تغيرا إلى الأفضل دائما (تقدما) وليس إلى الوراء دائما (نكوصا) ، وإنما هو امر نسبى فى الغالب . فالميكنة قد ادت إلى التغير المذكور (تقدمى) ، بيد ان لها سلاحا آخر وهو ان توفير الوقت والجهد قد يترتب عليه المزيد من الإنهماك فى الممارسات والطقوس الاعتقادية الشعبية . وفى هذه الحالة يكثر الناس من إقامة الموالد ، والاحتفال بتكريم الاولياء ، واقتناء الأجهزة الكهربائية الحديثة .

وهناك مثال آخر يقدمه لنا روجرز وشوميكر عن إدخال « الفأس الحديدى » فى إحدى قبائل استراليا الأصلية (٣٨) . وساد الظن ان إدخال هذه الأداة الجديدة سوف يعمل على رفع معدلات الانتاج ، وبالتالى رفع

---

(٣٨) Rogers and Others op. cit., p. 17.

مستوى معيشة ابناء القبيلة ، وضمان راحتهم وتوفير مجهودهم . إلا أن هذه التكنولوجيا قد ترتب عليها تغير اجتماعي (نكوصي) تمثل في انكسار البناء العائلي وتفككه ، وارتفاع نسبة الدعارة ، وسوء استخدام الإختراع نفسه . وهذا يمثل الأثر السلبي الذي تحدثه التكنولوجيا في مجتمع متخلف .

ولكن هذا لا يجعلنا نغمط التكنولوجيا حقها ، إذ أن اختراع السيارة مثلا قد احدث انقلابا في البيئات الصغيرة المنعزلة ، حيث ربطت بينها وبين غيرها من البيئات ، ويسرت وسائل التبادل . ومن ثم اتسعت دائرة العلاقات الاجتماعية ، وتنوعت الحاجات ، وانتقل اعضاء المجتمع من مكان إلى آخر في سهولة ويسر وتضاعف الانتاج وارتفع مستوى المعيشة واتسعت المدن ، وزادت الهجرة إليها . وكان لكل ظاهرة من هذه الظواهر رد فعل في العلاقات الاجتماعية التي يتكون منها البنــاء الاجتمــاعي فتغيرت تلك العلاقات وتطورت .

٤ ــ **العامل الديموجرافي** : يعتمــد التغير في حــدوثه على الهيكل السكاني القائم في المجتمع . إذ يؤدي معــدل المواليد والوفيــات والهجرة الداخلية والخارجية إلى تغير في الهرم السكاني من شأنه أن يزداد عــدد المسنين على عدد المحدثين ومن ثم ترتفع نسبة المعولين إلى العائلين . ومن ناحية أخرى فان عدد الاناث يزيد عن عدد الذكور ، وعلى ذلك تحــــدث تغيرات اجتماعية تبعا لنوع التكوين العقلي والجسمي والاجتماعي للنوع الغالب . وفي هذا الصــدد يذهب بنجتســون **Bengtson** وفيورلونج **Furlong** ولاوفر **Laufer** إلى أن النوع الغالب من الجمــاعات العمرية والنوعية ، يدل على اساليب حياة ، ويدعم وجهات نظر جديدة ، ويخلق قيما قد تختلف كثيرا عن القيم السائدة في المجتمع (٣٩) . اذ تؤدي كثرة الشباب المحدث مثلا ــ بالنسبة للمسنين ــ إلى استقبال العالم بطرق

---

(٣٩) Vern Bengtson and Other . op. cit . p. 22

جديدة ، وخلق بدائل ثقافية فريدة »، واسلوب حياة جديدة يختلف عن نظائرها في ثقافة المسنين ، وتغير في مضمون الأدوار القائمة بشكل واضح (٤٠) .

ونلاحظ في مجتمعنــا المصرى في هــذه الأيام زيادة موجات الهجرة الداخلية إلى المدن ، والهجرة الخارجيــة إلى الدول العربيــة (هجــرة العمالة المؤقتة) والدول الأجنبية (هجرة دائمة) . وكل هذه الأنواع من الهجرة يترتب عليها بالقطع تغير قيمى **Value Change** واضح (٤١) .

٥ ــ **اثر القادة والزعماء :** قد يظهر في المجتمع اشخاص يقومون بتوجيه الناس توجيها يؤثر تأثيرا كبيرا في اتجاهاتهم وآرائهم وافكارهم وســلوكهم العام . ومن الجدير بالذكر أن هؤلاء القادة والزعماء لا يخلقون المجتمع او الرأى العام وإنما هم يتأثرون به ، ويتجاوبون معه . فكلاهما يؤثر في الآخر ويتأثر به .

ومن الواضح هنا غلبة الطابع النفسى كما يتمثل في الميكانيزمات التى تقف وراء السلوك الانسانى وتضع خطوطه العريضة بوجه عام مما يترتب عليها قبول الجديد حينا ، ورفضه احيانا اخرى (٤٢) . ومن الآراء الرائدة في هذا الخصوص ، نظرية ماكس فيبر **M. Weber** عن الزعامة (الكاريزما **Charisma**) والتى تذهب إلى أن هناك رجالا قيضهم الله لخــدمة مجتمعهم ، يقدرون على القيادة ، ويؤمنون بحتهم فيها ويصفهم بارســونز بأنهم « قادرون على القيادة الأخلاقية ، وهم يلقون من المجتمــع التقــدير

---

(٤٠) **Alexander Alland, Adaptation in Cultural Evolution, Colubia Uni. Press. New York. 1970. p 157.**

(٤١) د. على المكاوى ، اثر انتقال القوى العاملة المصرية الى الخارج على التنمية الصناعية في مصر ، دراسة نقدية منشورة بمجلة دراسات سكانية ، المجلد ١٢ ، العدد ٧٢ ، يناير ــ مارس ١٩٨٥ ، ص ص ٦٥ ــ ٧١ .

(٤٢) د. على المكاوى ، المعتقدات الشعبية ... ، مرجع سابق ، ص ٣٥١ .

والاستحسان معا » (٤٣) . ويمارسون كذلك دورهم فى معظم الحركات الدينية والسياسية الكاريزمية وتتضح معالم هذا الدور فى المجتمع الغربى فى القيام بعمليات الضبط الاجتماعى .

ويلعب القادة والزعماء ايضا دورا هاما فى إحداث التغير الاجتماعى فى مختلف مجالات الحياة الاجتماعية . بيد انهم لا يحدثونها بمفردهم إذ لولا المجتمع ما كانوا قادة وزعماء . ولولا الظروف المهيأة للزعامة والقيادة لما كانت زعامتهم . ومن الملاحظ ان هذا الدور تزداد خطورته فى المجتمع الرينى — على وجه الخصوص — عندما تكون الناحية الدينية أحد مقومات الزعامة والقيادة . فالدين فى هذه المجتمعات يمثل الموضوع الاساسى **Theme** الذى تنتظم حوله الحياة الاجتماعية والثقافية . وبالتالى يضرب هؤلاء على هذا الوتر الحساس فيجدون ما يهيىء لأفكارهم فرص التمحيص والتأمل بصرف النظر عن نتيجة ذلك فى الرفض او القبول .

وليس هذا بغريب ولا مستبعد على رجال الدين فى الريف حيث يضطلع الواحد منهم بالإصلاح بين الناس ، والوعظ والارشاد الدينى ، والضبط الاجتماعى غير الرسمى ، وحل المشكلات العائلية ذات الطابع الدينى ، والقيام بدور المأذون الشرعى فى حالتى الزواج والطلاق ... الخ . علاوة على انه مالك ارض ، او يتاجر فى المحصولات الزراعية النقدية والغذائية . فهو إذن يجمع النسق الاجتماعى للقرية فى يديه . وتبدو هذه الزعامة فى اثناء الانتخابات السياسية ، واضحة للعيان ، حيث يمكن لرجل الدين بقوة نفوذه وعظيم تاثيره ان يحول معظم الأصوات الانتخابية بالقرية من كفة مرشح إلى مرشح آخر .

وهناك زعماء آخرون لا يشكل الدين قوام زعامتهم ، وإنما يمثل مظهرا سلوكيا فى الغالب كارتياد المساجد ، واداء الفرائض والإسهام فى المشروعات

---

(٤٣) Talcott Parsons, op. cit., p. 142

الخيرية ... الخ : ولكن مقومات زعامتهم الرئيسية هى القوة الاقتصادية Economic Power التى سرعان ما تتحول فى القرية إلى قوة سياسية Political Power ، تؤازرها الهيبة الاجتماعية Social Prestige والتدين . ويضطلع هؤلاء بالإسهام فى إقامة بعض المشروعات الهامة المفيدة للقرية كالجمعية الاستهلاكية ، ونادى الشباب ، واستكمال مبانى المدارس. وهم فى ذلك لا يتكفلون بتغطية النفقات الاجتماعية، وإنما يساهمون بقدر اكبر، يكفى لإثارة إهتمام باقى اعضاء المجتمع ، والمساهمة النقدية او العينية على سبيل المثــــال .

أما إسهام الزعامة الاكبر فهو واضح القسمات فى التخلص من بعض العادات الاجتماعية فى حفلات الزواج « يــوم الصباحية » . حيث يتجلى الإسراف والتبذير بشكل يضر بالاقتصاد ، فتنحر الذبائح ، وتقــام الولائم لكل المحتفلين والمدعوين ومن يشاء من القرية ومن خارجها . وهنا بادر بعض هؤلاء الزعماء برفض الانصياع للعادة ، واكتفى بتقديم الحلـــويات و « الملبس » للمدعوين ، ضاربا بالولائم عرض الحائط . وعلى النور لاقى هذا النمط السلوكى القبول والاستحسان من قبل ابناء القرية ، عدا نفـــر قليلين ساءهم ما ينظرون ، وقطبوا الجبين ولكن سرعان ما انفرجت اساريرهم مرة آخرى معلنين بذلك : القبول للعـــادة الجـــديدة البديلة عن العـــادة القــــديمة .

وهنا نجد ان القيادة تفاعل بين القائـــد واتبـــاعه من حيث حاجتهم واتجاهاتهم ومشكلاتهم ، والجماعة نفسها من حيث بنــاء العـــلاقات بين أفرادها ، وخصائصها ، والمواقف التى تواجههـــا . وكل ذلك من إدراك القائد لنفسه وإدراك الآخرين له . وإدراك القائد لهم . والادراك المشترك بين القائد والآخرين للجماعة وللموقف (٤٤) .

---

(٤٤) د. لويس كامل مليكه ، الجماعات والقيادات فى قرية عربية ، فى : **قراءات فى علم النفس الاجتماعى** ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص ١٥٢ وما بعـــدها .

غير أن القيادة فى قرية سيف الدين ، التى درسناها فيما قبل لا تقتصر مقوماتها على الأسس الدينية والاقتصادية وحسب ، وإنما صارت مقومات جديدة تدخل فى دعائم هذه الظاهرة غير الرسمية . وبذلك حدث تغير فى نمط القيادة من النمط التقليدى القائم على مقومات السن ، والتدين ، والثروة إلى النمط الحديث الذى يرتكز على المقومات الحديثة المستمدة من طبيعة التغير الاجتماعى ونتائجه وهى التعليم ، وشغل الوظائف الإدارية والفنية فى مؤسسات الخدمات المحلية الرسمية (٤٥) . وهنا يجمعون بين القيادة الرسمية وغير الرسمية . ولكن الملاحظ بصفة عامة هو السعى الحثيث للشباب المحدث نحو تصدر صفوف القيادة فى القرية فى مقابل الإنزواء التدريجى للصفوات التقليدية . وبهذا نأمل لمجتمع القرية مزيدا من التغير على أيدى هؤلاء المحدثين الذين يختلفون عن « دائرة التراث » Tradition Circle (٤٦) ، ويرحبون بالأفكار الجديدة والمستحدثات بمعدل يفوق نظيره عند المسنين .

٦ ــ **العمليات الاجتماعية الداخلية : التوتر والصراع :** يؤدى صراع المصالح Conflict of interests إلى إحداث تغير اجتماعى واضح فى الأنساق الاجتماعية . وتعد بؤرة السياسة هى الحلبة التى يتنافس فيها الجماعات المختلفة وتتصارع لكى تحقق أهدافها ضد منافسيها (٤٧). ويتضمن مفهوم القوة Power هنا فكرة الأغراض المتصارعة . ويذهب أنصار النظرية الوظيفية إلى أن صراع المصالح لا يظهر فى الأنساق الاجتماعية المستقرة نسبيا ، لأن هناك قواعد صارمة تتولى تنظيمه . ولعل

---

(٤٥) د. على المكاوى ، المعتقدات الشعبية والتغير الاجتماعى ، مرجع سابق ، ص ٢٥١ .

(٤٦) دائرة التراث Tradition Circle هى جملة التراث ، أو حاملو عناصر تراث معينة متميزة ، وهم مجموعة الأشخاص الذين يحملونه فى الحاضر .

انظــر :

هولتكرانس ، قاموس الفولكلور ، مرجع سابق ، ص ١٨٨ .

(٤٧) Harry Johnson, Sociology, op. cit., p. 634

التشريعات ، والمحاكم ، والمواثيق وغيرها من الاشكال القانونية ووسائل الضبط الاجتماعي ، تسعى لمواجهة هذه الصراعات وحلها .

وتجدر الاشارة إلى ان قضايا الصراع على المصالح ، تختلف وتتنوع من موقف إلى آخر . ومع ذلك فان هناك اسبابا عريضة شاملة لهذا الصراع، وتوجد في كل نسق اجتماعي . ومن خلال تناول بارسونز (٤٨) لبعض اسباب الصراع الطبقي في المجتمع الصناعي الحديث ، عرض لنا مجموعة من تلكم الأسباب التي تحدث صراعا في اى مجتمع معقد . ويرى بارسونز في البداية ان التنظيمات الجديدة في هذه المجتمعات الصناعية تحل محل القديمة . وبالتالي يتغير بناء الدور **Role- Structure** . ويترتب على هذا ان تكتسب انماط التيسيرات الجديدة اهمية كبرى ، ومن ثم تنعكس هذه الاهمية على قوة **Power** وهيبة **Prestige** شاغلي الدور الذين ينتفعون بهذه التسهيلات الجديدة ، وهنا يعترى التوتر ، بناء المصالح **Interests-Structure** فلا ممكن الفكاك بالتالي من عمليات التغير . وهذا الصراع على المصالح يمثل نواة الصراع الطبقي في المجتمع الغربي المعاصر .

وهذه الظواهر الصراعية تتصف بطابع نسبي ، على الرغم من درجة تعقدها البالغة ، في البناء الاجتماعي الخاص الذى يعتريه التغير ففي انجلترا على سبيل المثال شعر عمال الزراعة بتهديد الملكية الزراعية لمعيشتهم ومن ثم شكلوا على الفور راس حربة تتصدر الحركات الراديكالية بدلا من أن تقوم البروليتاريا بتلك الصدارة .

وعلى اية حال ، فقد لخص بارسونز اسباب الصراع فيما يلى (٤٩) .

(ا) تؤدى ممارسة السلطة (بمعنى الحق الشرعي في إصدار

---

(٤٨) Talcott Parson, The Social System. Op. cit., p. 518.

(٤٩) Talcott Parsons, ibid, p. 134 . 529.

الأوامر » ، إلى ظهور الاعتراضات والتناقضات وهنا يفرض السؤال نفسه : هل السلطة تلقى حسن الاستخدام أم تعانى من سوء الاستعمال **Abuse ؟**

(ب) هناك ميل عام — مع اختلاف فى الدرجة — لممارسة كل أنواع القوة فى استغلال الناس (وليس المقصود هنا السلطة **Authority** بمعناها الضيق) . وعلى الرغم من ان كل نسق اجتماعى يتضمن فى داخله عوامل إحتواء الصراع ، والاستغلال بكل صوره — مثل سوء استعمال السلطة ، والتدابير الخاصة بمواجهته — إلا انه يحتمل وجود الكثير من المنافذ والثغرات . ولا يعنى هذا الحكم بطبيعة الحال ، ان كل نسق يشبه النسق الآخر فى الجودة والإحكام . وعلى ذلك يعد إساءة استعمال السلطة، والاستغلال ، محملا لتفريخ الصراع **Conflict** ، والإغتراب **Alienation** وما شاكلهما .

(جـ) عندما يزيد حجم المجتمع ، وترتفع درجة التباين فيه فتظهر على الفور ثقافات فرعية **Sub - cultutes** تتضارب فيما بينها ، او على الاقل تكون على درجة من الاختلاف كفيلة بإقامة العراقيل أمام الاتصال الداخلى المتبادل بينها **Inter Communication difficult**

وفى بعض الحالات تأتى الثقافة الفرعية الى المجتمع من خارجه ، كما فى حالة هجرة جماعات سلالية مختلفة ، ذات ثقافات متباينة ، قد تتغلب إحداها على الاخرى ، وبالتالى ينتهى التثاقف بسيطرة الثقافة الغالبة .

(د) يحتوى كل مجتمع من المجتمعات فى داخله مجموعة من عمليات التنافس ، يترتب على كل منافسة طرف يكسب ، وآخر يخسر . ومن هنا يؤدى استياء الطرف الخاسر إلى التحرى والتمحيص فى حقيقة المنافسة .

(هـ) استحالة تكافؤ الفرص بشكل كامل . إذ لانعدم بعض الجماعات السلالية ذات الميول الخاصة ، وقد ينضم إلى هذه القائمة الجماعات الدينية . ومن هنا تسود التوتر والقلاقل بسبب حرمان إحدى الجماعات

من الفرص المتاحة امام جماعات آخرى فيدفعها هذا الحرمان والاحباط Frustration إلى الصراع (٥٠) .

(و) واخيرا يؤثر وجود الثقافات الفرعية الطبقية على عملية التنشئة الاجتماعية فى المجتمع الأمريكى على وجه الخصوص . وتنطبق نفس الفكرة على الثقافات الفرعية السلالية Ethnic Sub-Cultures . فبعض هذه الثقافات يتصف بمميزات هامة ، على حين يعد بعضها الآخر معوقا فى حالة التنافس على القوة وعلى الهيبة الاجتماعية . وعلى الفور يسود التوتر والصراع ، ومن ثم يحدث التغير الاجتماعى .

* * *

---

(٥٠) Talcott parsons ' Ibid. p. 252.
See also : Harry Johnson, Sociology, Op. cit., p. 634.

الفصل الخامس

الأنثروبولوجيا التطبيقية والتغير الثقافى

الفصل الخامس
الانثروبولوجيا التطبيقية والتغير الثقافى

* * *

مقـــدمة :

التغير الثقافى Cultural Change حقيقة أزلية من حقائق الوجود، وظاهرة طبيعية تخضع لها كل المجتمعات الانسانيـــة • وعلى هذا فاننا لانستطيع التسليم بماقاله علماء الأنثروبولوجيا على المجتمعات البدائية خلال القرن التاســع عشر بأنها مجتمعات راكدة لا يطرأ عليها التغير • اذ لم تكن الدراســات الميدانية المكثفة قد ذاعت بعد ، ولم تتوافــر الشواهد الاثنوجرافية الكفيلة بدحض هذا الزعم •

واذا نظرنا الى مجتمعنا المصرى — على سبيل المثال — وجدنا عديدا من الدراســات الأنثروبولوجية التى أجراها علماء الحملة الفرنسية[١] أو المستشرقون أمثــال وليم لين[٢] وكلونزنجر[٣] ، تشــير الى طبيعة الثقافة المصرية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، ومدى التغير الذى طرأ عليها • علاوة على ذلك فان هذه الدراســات تساعدنا الآن فى الوقوف على حجم التغير ، ومداه وعوامله الرئيسية • ومن ناحية أخرى يمكن التعرف على مبلغ التغــير فى العناصر المادية للثقافة ، والعنــاصر اللامادية (الروحية) لها • ان التغير الثقافى اذن تغير عام وشامل لكلا

---

(١) راجع المجلد الأول من كتــاب وصف مصر تاليف دى شــابرول ، المصريون المحدثون ، ترجمة زهير الشايب ، مكتبة الخانجى ، القــاهرة ، ١٩٧٩ .

(٢) وليم لين ، المصريون المحدثون ، مرجع سابق الذكر .

(٣) C.B. Klunzinegr : Upper Egypt : It's people and its product, London, 1878, pp. 390-443.

النوعين من العناصر ، وان كان معدل أحدهما أكثر من الآخر أو أقل منه .

والأمثلة عديدة على حدوث هذا التغير ، فى أدوات الطعام ، وأوانيه ، والمسكن والأثاث ، وأدوات العمل الزراعى والصناعى ، وأساليب الانتقال والاتصال ، ووسائل الترويح ، وفى الاتجاهات والعادات والأفكار والمعتقدات واللهجات والآداب الشعبية ... الخ .

وتتعدد العوامل التى تسبب هذا التغير الثقافى ما بين عوامل تصدر عن المجتمع ذاته ، وأخرى تفد اليه من خارجه ، وبالتالى نكون بصدد أنماط للتغير الثقافى الداخلى والتغير الثقافى الخارجى .

وفى ضوء ما سبق يدور هذا الفصل حول الموضوعات التالية :

أولا : جوهر التغير الثقافى .

ثانيا : الاتجاهات النظرية فى دراسة التغير الثقافى .

ثالثا : أنماط التغير الثقافى .

رابعا : عوامل التغير الثقافى .

* * *

أولا — جوهر التغير الثقافى :

يعنى التغير الثقافى أى تحول أو تبدل يطرأ على مضمون أو بناء ثقافة معينة ، وهو يعتمد أساسا على النقل عبر ثقافات مختلفة (الانتشار) أو يعتمد على القدرة على الابداع الثقافى فى الثقافة المحلية ذاتها (الاختراع)[٤] .

والواقع أن التغير الثقافى يحوى عددا من المصطلحات الأنثروبولوجية

---

(٤) على المكاوى ، المعتقدات الشعبية والتغير الاجتماعى : دراسة ميدانية على قرية سيف الدين بمحافظة دمياط ، رسالة ماجستير (غير منشورة) ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٢ ، ص ٣٥٢ .

الثقافية ذات الدلالة عليه ومنها على سبيل المثال: التفكك Disorganization والانحراف Deviance والتطور Evolution والتثاقف Acculturation والابتداع Innovation والتكامل Integration والتغير التدريجي والنقل واعادة الاحياء واعادة التفسير ... الخ • ولعل هذا الثراء والتنوع في مفهوم التغير الثقافي ومضمونه ، يدل على أنه ظاهرة ثقافية عامة ، تشكل ديناميات الثقافة على مر الزمن(٥) •

وتجدر الاشارة الى أن التغير الثقافي أشمل وأعم كثيرا من التغير الاجتماعي • فالتغير الاجتماعي هو أي تحول أو تبدل يطرأ على البناء الاجتماعي أو الوظائف الاجتماعية • وقد يكون هذا التغير تقدميا للأمام (ارتقائيا) ، كما قد يكون في ظروف أخرى تغيرا الى الوراء (نكوصا Regression) في حالة الأزمات السياسية والاقتصادية والاضطرابات الداخلية ... الخ(٦) • أما التغير الثقافي فهو — كما قلنا — كل تحول يحدث في الجوانب المادية واللامادية للثقافة • والثقـافة كما حددها تايلور Tylar تعني « ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة والأخـلاق والقانون والمعتقدات والعرف والقـانون ، وكل القدرات والعـادات الأخرى التي يكتسبها الانسان باعتباره عضوا في مجتمع »(٧) • الثقافة اذن ظاهرة شـاملة للعـديد من الماديات Artifacts والعقليـات Mentifacts والاجتماعيات Socifacts ، وأي تحـول يقع على عنصر منها يعتبر تغيرا ثقافيا ، وبالتالي فالتغير الاجتماعي جزء من التغير الثقـافي •

---

(٥) M. Herskovits : Cultural Anthropology, Indian Ed., Bombay, 1969, p. 445.

(٦) د. علي المكاوي ، الأنثروبولوجيا الاجتماعية ودراسة التغير والبناء الاجتماعي ، مكتبة نهضة الشرق ، القاهرة ، ١٩٩٠ ، ص ٢٠٩ .

(٧) د. أحمد أبو زيد ، تايلور ، دار المعارف ، القـاهرة ، ١٩٥٧ ، ص ٨١ .

ثانيا ـ الاتجاهات النظرية فى دراسة التغير الثقافى :

هناك ثلاثة اتجاهات نظرية فى دراسة التغير الثقافى تتمثل فى الاتجاه التطورى الذى ساد خلال القرن التاسع عشر ، والاتجاه الانتشارى خلال الربع الأول من القرن العشرين ، والاتجاه الوظيفى والاهتمام بعملية الاتصال الثقافى . وفيما يلى استعراض سريع لهذه الاتجاهات :

١ ـ الاتجاه التطورى :

لم يرتكز أصحاب هذا الاتجاه على واقع ميدانى ينطلقون منه فى صياغة نظرياتهم وآرائهم العديدة وانما كانت دراساتهم مكتبية فى الغالب ، وبعيدة عن الواقع ذاته . ويؤمن التطوريون بفكرة التطور ، ويرون أن التغير الثقافى ينمو من خلال ازدياد تمايز الظواهر الثقافية وتعقدها .

ويرى التطوريون أن التطور هو الانتقال من التجانس الى التباين ، ومن البساطة الى التعقيد . والملاحظ أن جذور الاتجاه التطورى قديمة للغاية ، الا أنها ازدادت انتشارا خلال القرن التاسع عشر ، فأوجيست كونت يرى أن التطور قانون طبيعى ، يظهر فى سلسلة تقدمية من مستويات المجتمع والثقافة وانتقلت هذه الرؤية فيما بعد الى علماء الأنثروبولوجيا الأوائل ومنهم لويس مورجان L. Morgan وادوارد تايلور Taylar . ولعل اسهامات تايلور تزداد أهميتها ، لأنه يمثل كما يقول الدكتور أحمد أبو زيد[٨] حلقة الوصل بين الفلاسفة الاجتماعين فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وبين أنصار المدرسة الوظيفية التى سيطرت على الدراسات الأنثروبولوجية خلال القرن العشرين .

---

(٨) د. احمد أبو زيد ، تايلور ، المرجع السابق ، صص ٢١ ـ ٢٢ .

وقد لعب الاتصال الثقافى بين المجتمعات الأوربية الاستعمارية وبين المجتمعات البسيطة (البدائية) المستعمرة ، دوره البارز فى ازدهار الاتجاه التطورى ومعرفة ماضى الجنس البشرى ، وفهم الأصول الأولى للنظم الاجتماعية وتطورها ، حيث أنها تمثل النظم الاجتماعية فى أبسط صورها[٩] .

لقد بحث الاتجاه التطورى فى الأصول الأولى للعنصر الثقافى ، والنظر الى الثقافة باعتبارها كيانا عضويا متكاملا ، وأن السمات الثقافية Cultural Traits التى لا تتلاءم مع السياق الثقافى Cultural Context تعد بمثابة رواسب Survivals [١٠] أو بقايا . لذلك صار التاريخ مجالا للفكر التطورى[١١] .

٢ ـ الاتجاه الانتشارى :

لقد تولد الفكر الانتشارى عن الفكر التطورى سواء بالسلب أو بالايجاب . اذ أن الاتجاه الانتشارى لا يتناقض مع الاتجاه التطورى ، وانما تختلف نظرة كل منهما للثقافة ، والمدخل المستخدم فى ذلك . فالاتجاه الانتشارى يتعامل مع الثقافة كما لو كانت كائنا عضويا ميتا ، ليس بين أجزائه أى تساند بنائى أو تفاعل وظيفى . كما أن هذا الاتجاه

(٩) د. على المكاوى ، الأنثروبولوجيا الاجتماعية . . . ، مرجع سابق ، ص ٣٧ .

(١٠) الرواسب Survivals أو البقايا هى عناصر ثقافية تترسب من مواقف ثقافية قديمة كانت اكثر تكيفا معها . ويرى هوبل Hobbel أن « الراسب الثقافى عنصر أو مركب ثقافى تغيرت وظيفته الأصلية بمرور الزمن بحيث أصبح استعماله مجرد اتفاق شكلى » . انظر التفاصيل فى :
ايكه هولتكرانس ، قاموس مصطلحات الاثنولوجيا والفولكلور ، ترجمة الدكتورين محمد الجوهرى وحسن الشامى ، ط ٢ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٣ ، ص ٢١٤ .

(١١) د. على ليله ، كفاءة الاتجاه الوظيفى فى دراسة التغير الاجتماعى ، المجلة الاجتماعية القومية ، ع ١٢ ، القاهرة ، يناير ١٩٧٥ ، ص ١١٦ .

يجمع ما بين الواقعية والحس التاريخي والالمام بالمؤثرات البيئية والجغرافية •

ويعلى الاتجاه الانتشارى من شأن الاتصال الثقافى Cultural Contact الذى تنتشر عن طريقه الابتكارات والأفكار الجديدة فى النسق الاجتماعى ، ولذلك تدور معظم دراسات الانتشار حول هذه الأفكار الجديدة(١٢) •

والواقع أن الانتقادات التى وجهت الى الاتجاه التطورى فى دراسة التغير الثقافى ، وتفسير عملياته ومساره ، أظهرت أهمية عملية الانتشار ، وبالتالى أبرزت كفاءة الاتجاه الانتشارى فى فهم التغير الثقافى ودراسته• وهناك ثلاث مدارس دعمت هذا الاتجاه وهى المدرسة البريطانية (المدرسة المصرية) بزعامة اليوت سميث E. Smith والمدرسة الألمانية النمساوية التاريخية الثقافية بريادة جريبنر F. Graebner ، والمدرسة الأمريكية وعلى رأسها فرانز بواس F. Boas وكروبر A. Kroeber وغيرهما •

٣ ــ الاتجاه الوظيفى :

اذا كان التطوريون اهتموا بالتاريخ فى دراسة التغير الثقافى . والانتشاريون اهتموا بالجغرافيا ، فان الوظيفين اهتموا بالقواعد المنهجية الأساسية فى دراسة التغير وفهم أبعاده وموضوعاته(١٣) . وتستهدف تلك القواعد الاعتماد على الدراسة الواقعية والاستناد الى الواقع الميدانى ذاته • وقد تبلورت هذه القواعد والتوجيهات المنهجية

---

(١٢) انظر : Floyd Shoemaker and Other : Communication of Innovations, The Free Press, N.Y., 1971, p. 12.

(١٣) د. على المكاوى ، الانثروبولوجيا الاجتماعية . . . ، مرجع سابق ، ص ٣٧ ، وصص ٢٦١ ــ ٢٦٥ .

خـلال منتصف القرن العشرين على أيدى مالينوفسكى وهى تتمثـل فيما يلى :

(ا) ان التغير الثقافى ظاهرة عامة فى كـل المجتمعات والثقافات مهما اتسمت بالجمود أو الثبات وبالتالى نضع التغير على بداية متصل Continum والثبات على نهايته ، ونبدأ فى الدراسة الميدانيـة التى تكشف بالفعل عن معدل التغير واتجاهه أو الثبات واتجاهه .

(ب) وجوب تفاعل الأنثروبولوجى مع الثقافة التى يدرسها مثلما يتفاعل أبناؤها معها . فاذا رأى الثبات سائدا ، مر على التغير مرور الكرام ، واذا أدرك التغير اللاهث وراء الجديد ـ كما هو الشـأن فى المجتمعات الغربية والامريكية مثلا ـ فانه يركز على العناصر الساكنة من الثقافة .

(جـ) التزام الباحث بالموضوعية فى نظرته الى ثبات أو تغـير الثقافة مما يتيح له فرصة الوقوف على حجم التغير ومعدله وعوامله .

(د) ضرورة استيعاب الباحث لعمليات التنوع الثقافى والتباين الثقافى بنفس درجة استيعابه للتنوع والتباين السلوكى . مما يهيىء له الفرصة للوقوف على التغير فى أثناء حدوثه .

(هـ) لابد من التزام الأنثروبولوجى بالنظرة الكليـة للثقافة ، فيستطيع الوقوف على جوهر التغير والثبات فى الثقافة ، والتعرف على صور الخروج عن الثقافة وعن أنماط السلوك(١٤) .

هذا وقد ركز الا... الوظيفى على الطابع الكلى للثقافة ، وبالتالى فهم كيفية ارتباط مظاهر الثقـافة وعناصرها ببعضها فى وحـدة ثقافية متكاملة ، ولذلك فهو حينما يتناول قضية التغير الثقافى ، فانه يقرر بأن

---

(١٤) أنظر : Herskovits : op. cit., p. 447.

السمات الثقافية التى تنتقل الى مجتمع ما لا يقبلها هذا المجتمع الا اذا كانت تشبع حاجة أساسية لديه ، أو تؤدى وظيفة بكفاءة تفــوق أداء الوحدة الأصلية التى تضطلع بهذه الوظيفة[١٥] .

* * *

ثالثا — أنماط التغير الثقافى :

يستـــلزم الحديث عن التغير الثقافى تحديد نقطة البـــداية ، اذ أن تحديد نقطة الصفر **Zero-Point** الافتراضية فى النسق الثقافى ، واتجاهه بعد الانطلاق يعدان من الأبعـــاد الهامة فى النســق الوظيفى المتغير[١٦] .

والواقع أن هناك نمطين للتغير الثقافى فى ضوء العوامل التى تحدثه . أما النمط الأول فهو التغير الثقافى الداخلى **Internal cultural change** الذى يحدث بفعل عوامل تنبع من داخل النسق الثقافى ذاته كالاختراع **Invention** ، والاكتشاف **Discovery** ، والتجديد **Innovation** [١٧] . والنمط الثانى هو التغير الثقافى الخارجى **External cultural change** الذى يرجع الى عوامل تفد من خارج النسق الثقافى كالاتصال **Cultural Contact** والاستعارة **Borrowing** والتثاقف **Acculturation**

وتجدر الاشارة الى أن التغير لا يطرأ على العناصر الثقافية بنفس المعدل ، بل يحدث للعناصر المادية بمعدل يختلف عن حدوثه للعنـــاصر الروحية اللامادية . فقد يكون فى أى منهما أسرع من الآخر . والدليل

---

(١٥) د. على ليـــله ، كفاءة الاتجاه الوظيفى ... ، مرجع سابق ، ص ١٢٣ .

(١٦) M. Herskovits : Cultural Anthropology, op. cit., p. 475.

(١٧) د. على المكاوى ، المعتقدات الشعبية والتغير الاجتماعى ، مرجع سابق ، ص ٣٥٣ .

على ذلك أن التغير فى العناصر المادية من ثقافة سكان استراليا الأصليين يسير بمعدل أقل من نظيره فى العناصر المعنوية كالتنظيم الاجتماعى والدينى . وفى المجتمع الأمريكى تزداد سرعة التغير فى الشق المادى عن الشق اللامادى للثقافة . وفى مجتمعنا المصرى نلاحظ أن التغير فى العناصر المادية يفوق فى سرعته التغير فى العناصر اللامادية . وسوف نحاول فيما يلى توضيح أنماط التغير الثقافى .

١ — التغير الثقافى الخارجى :

يطرأ هذا النوع من التغير الثقافى بفعل مجموعة من العمليات الثقافية التى تفد الى المجتمع من خارجه ، ومن هذه العمليات الاتصال الثقافى والتثقف والاستعارة والانتشار[١٨] . ومن الممكن أن نجمل هذه العمليات تحت فئتين من العوامل وهما الانتشار والتثقف . وعلى هذا يلعب هذان العاملان دورا بارزا فى عملية التغير الثقافى . ولعل ما حدث فى المجتمع المصرى ، والمجتمع الخليجى[١٩] والمجتمع الهندى[٢٠] أمثلة توضح ما نقول . وفيما يلى نعرض لهذين العاملين :

(أ) التثقف Acculturation

وهو عملية التغير التى تنجم عن الاتصال الثقافى الكامل بين ثقافتين، مما يؤدى الى زيادة أوجه التشابه بينهما . ويتضمن التثقف العديد من المتغيرات والعمليات، مثل درجة التباين الثقافى ، ومواقف السيطرة والتبعية ، والقائمين بالاتصال واتجاه التأثير ، وظروف الاتصال ذاته وكثافته حسبما يؤكد رالف بيلز وهارى هويجر[٢١] .

---

(١٨) المرجع السابق ، ص

(١٩) راجع الفصلين الثامن والتاسع من هذا الكتاب لتقف على التغير الذى طرأ على مجتمع الخليج .

(٢٠) George Foster : Traditional Cultures and Technologicla Change, New York, 1973, p. 112.

(٢١) Ralph Beals and H. Hoijer : An Introduction to Anthropology, 3rd edition, New York, 1966, p. 736.

أما بالنسبة لدرجة التباين الثقافى فانها تعنى الاهتمام بدرجات اختلاف الثقافات فيما بينها فى القيم والأيدولوجيا والتكنولوجيا والبناء الاجتماعى • على حين تركز مواقف السيطرة والتبعية على توضيح موقف الثقافات من السيادة أو الخضوع نظرا للقهر أو التفـوق التقنى أو الضغوط الاقتصادية • ويهتم القائمون بالاتصال واتجاه التأثير بمعرفة اتجاه التثقف نحو الأفضل أم نحو الأسوأ ، والبحث عن عمليات التثقف الأخرى كالتكيف والرفض والتعويض ... الخ[٢٢] ، كذلك التعرف على المكانة التى يشغلها هؤلاء القائمون بالاتصال ومنهم التجار والموظفون الحكوميون والمبشرون •

اذن يعتمد التثقف على الاتصال الثقافى ، فالاتصال من ناحية أخرى يعنى التثقف • وموضع الخلاف يكمن فقط فى المصطلح الذى يسـتخدم للتعبير عن العمليـة • فالأنثروبولوجيـون البريطانيون يميلون نحـو استخدام مصطلح الاتصال الثقافى بدلا من مصطلح التثقف ، وذلك لأن الاتصال يتم غالبا بين ثقافات أوربية متقدمة ، وبين الشعوب البسيطة أو البدائية كما كانوا يصفونها • وبالتالى تكون التأثيرات الناجمة عن هذا الاتصال ذات نوعين :

النوع الأول : يبدو فى صورة انتشار العناصر الثقافية والمركبات الثقافية ، اذا كان الاتصال الثقافى محدودا • ويدور الاهتمام هنا حول تبادل العادات والأفكار والعناصر المادية بين ثقافتين مختلفتين[٢٣] •

أما النوع الثانى : فانه يعنى عمليات التغير التى تتم داخل ثقافتين تتفاعلان معا ، خاصة اذا كان الاتصال الثقافى شاملا لكلتا الثقافتين اللتين

(٢٢) انظر : Beals and Hoijer, Ibid pp. 737-738.

(٢٣) ايكه هولتكرانس ، قاموس الانثولوجيـا ... ، مرجع سابق ، ص ١٤ •

تتداخل كل منهما فى الأخرى وتتفاعل معها[٢٤] • وعلى هذا تطرأ التغيرات الثقافية على مستوى البناء والاتجاه العام للثقافة •

(ب) الانتشار Difusion

وهو يشير الى نقل العناصر الثقافية على المستوى الأفقى من مكان الى مكان آخر • وهذا هو المعنى الذى أرســاه تايلور ، وفسر به أسباب تشابه الكثير من العناصر الثقافية فى مجتمعات متباعدة عن بعضــها • ويتلخص تفسيره فى أن انتشار الثقافة وانتقالها من مصدر واحد ، أو من عدد من المراكز المشتركة هو سبب التشابه بين تلك العناصر[٢٥] • ومن ناحية أخرى فان هجرة العناصر الثقافية ـــ أو الثقافة ككل ـــ تحدث نتيجة للاتصال الثقافى • وقد تكون هجرة العنصر الثقافى كاملة ، وقد تكون جزئية تقتصر على بعض معالمه فحسب •

والملاحظ أن هناك بعض تعريفات الانتشار تركز على أهم النتائج المترتبة عليه ، على حين تؤكد تعريفات أخرى على دور الانتشار كعملية ثقافية مستمرة • ومن التعريفات الأولى التى تركز على النتائج تعريف رالف لينتون R. Linton للانتشار بأنه عملية أصبحت الانسانية قادرة بمقتضاها على استقطاب قدرتها الابداعية • بينما يرى هيرسكوفيتس Heroskovits أن الانتشار هو دراسة النقل الثقافى الذى أنجز فعلا •

والواقع أن المدرسة الانتشـــارية تعتبر أن التغير الثقـــافى نتاج لانتشار عناصر أو سمات ثقافية من مجتمع أصلى الى مجتمع آخر عن

---

(٢٤) على المكاوى ، المعتقدات الشعبيـــة والتغير الاجتماعى ، مرجع سابق ، ص ٣٥٧ .

(٢٥) د. أحمد ابو زيد ، تايلور ، مرجع سابق ، ص ٣٥ و ٦٨ .

طريق الاستعارة أو الغزو أو النقل . وعلى هذا تتخذ الانتشارية من الجغرافيا مجالا لها ، وتقسم العالم الى مجموعة من الخرائط التى توضح الأصول الأولى التى ظهرت فيها السمات والعناصر الثقافية ومنها انتشرت الى المناطق الثقافية الأخرى(٢٦) .

وقد يتم الانتشار عن طريق الهجرة أو عن طريق الاستعارة . فالهجرة تعمل على انتشار وحدات ثقافية كبيرة . أما الاستعارة فهى نقل وحدات ثقافية بسيطة دون حدوث حركات شعبية ، أو انتقال شعوب بأكملها(٢٧) . وعلى هذا يرى الكسندر آلاند A. Alland أن التغير الثقافى يعتمد على التجديد وعلى الاستعارة أى الانتشار(٢٨) .

ولا يؤمن الانتشاريون بالانتقال الكلى للمجتمعات ، وانما يحدث هذا الانتقال لبعض العناصر الثقافية ، ولذلك يرى برى Perry أن أية حضارة معاصرة ما هى الا تراكم من العرف الذى خلفته السنون وأن التصنيف الواعى لها قد يكشف عن شرائح تنتمى الى مجموعة من الثقافات المختلفة .

والجدير بالذكر أن النظرية الانتشارية تعتمد على جهود ثلاث مدارس ساهمت فى ارساء الفكر الانتشارى . المدرسة الأولى هى المدرسة الهليوليثية Heliolithic School التى تزعمها اليوت سميث E. Smith وترى أن مصر هى الأصل الذى ظهرت منه الحضارة . ومنها انتشرت فى كل أنحاء العالم . أما المدرسة الثانية فهى المدرسة

---

(٢٦) د. على ليله ، كفاءة الاتجاه الوظيفى ، مرجع سالف الذكر ، ص ١١٦ .

(٢٧) د. على المكاوى ، المعتقدات الشعبية ... ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٥٧ .

(٢٨) A. Alland : Adaptation in Cultural Evolution New York, 1970, p. 155.

التاريخية الثقافية الألمانية النمساوية التى يتزعمها فوى E. Foy وجرايبنر Graebner • وتذهب هذه المدرسة الى ضرورة فهم الحياة البسيطة كما يعيشها البسطاء والأسلاف أنفسهم من قبل ، وذلك من خلال مبدأ التعاطف النفسى Einfuhlung أو التقمص ، حيث يضع الباحث نفسه فى الحالة النفسية التى يعيشها المبحوث ، بقصد اعادة بناء الثقافات الأولى ، التى تتمثل فى الراقات الثقافية ، وتقدم مفتاح اعادة البناء التاريخى لعمليات الاتصال التى تمت بين الثقافات المعاصرة[٢٩] • وتأتى المدرسة الأمريكية ثالثة المدارس حيث وضع أسسها فرانز بواس F. Bous وسابير Sapir وألفرد كروبر A. Kroeber

وتميز هذه المدرسة بين ثلاث مراحل لانتشار العناصر الثقافية • المرحلة الأولى هى تعرض العنصر الثقافى بعض الوقت للتأثير Exposure قبل تقبله • والثانية هى استقرار Establishment العنصر فى بيئته الثقافية الجديدة • والثالثة هى الانتشار Dissemination بعد ذلك •

٢ — التغير الثقافى الداخلى :

ويحدث هذا التغير بفعل مجموعة من الميكانيزمات الثقافية النابعة من المجتمع نفسه • ومن تلك العمليات والميكانيزمات الاختراع والتجديد والاكتشاف[٣٠] • ونداول فيما يلى الاشارة الى كل منها بايجاز :

(أ) الاختراع :

وهو اضافة ثقافية تحدث نتيجة لعمليات مستمرة داخل ثقافة معينة • ويرى لينتون أن الاختراع هو تطبيق جديد للمعرفة • أما وليام

---

(٢٩) انظر : M. Herskovits : Op. cit., pp. 462-465.

(٣٠) على المكاوى ، المعتقدات الشعبية ، مرجع سابق ، صص ٣٥٣ — ٣٥٦ •

أوجبرن W. Ogburn فينظر الى الاختراعات على أنها توليفات بين عناصر ثقافية قائمة فعلا فى شكل جديد • ويعتبر الاختراع والاكتشاف ميكانيزمين للتجديد الداخلى فى أية ثقافة — من وجهة نظر هيرسكوفيتس — وهما اللذان يحدثان التغير الثقافى • ويكمن التمييز بين الاختراع والاكتشاف فى وجود الغرض أو غيابه ، وبالتالى يكون الاختراع اكتشافا هادفا[٣١] •

وإذا كانت « الحاجة أم الاختراع » ، فانها تدفع المخترع لتقديم الجديد فى الغذاء والمسكن والزى والزراعة ، ولا تقتصر على الجانب المادى ، وانما تشمل الجانب اللامادى أو الروحى أيضا • فهناك مخترعون قدموا — أو اخترعوا — تصنيفا جديدا لمصطلحات القرابة أو مظاهر الابداع الفنى أو الدينى أو الاجتماعى •

ومن ناحية أخرى فان الاختراع يعد بمثابة « خلق غرضى لشىء ما ، جديد كلية من جذوره » • ويرى ديكسون Dixon بأننا لو سلمنا بوجود شىء ما فى البيئة يمكن استغلاله لتحقيق هدف ما (الفرصة Opportunity) ، وتعرف أحد الأشخاص على هذا الشىء وأدركه (الملاحظة Observation) عن طريق ما يتمتع به من ذكاء (التقدير Appreciation والعبقرى Genius) فيكون الدافع للمعرفة الجديدة هنا هو (الضرورة أو الحاجة Necessity) وهكذا يظهر الاختراع ويسبب التغير الثقافى •

(ب) التجديد :

وهو يشير الى أى عنصر ثقافى جديد تقبله الثقافة • وهو العملية التى تؤدى الى هذا القبول ، ويمكن اعتبارها صورة من صور التغير

(٣١) انظر : M. Herskovits : Op. cit., pp. 453-454.

الثقافى الذى يرتكز على التجديد والاستعارة أى الانتشار[٣٢] . ويرى بارنت Barnett أن التجديد هو « أى فكرة أو سلوك أو شىء يكون جديدا ، لأنه يختلف نوعيا عن الأشكال القائمة » . أما هيرسكوفيتس فيرى امكانية وصف عملية التجديد بأنها اختراع واكتشاف وانتشار . ويضرب مثالا على ذلك بأن الاستفادة من الخشب فى بناء قارب أو صنع مجداف جديد يعد تجديدا[٣٣] .

ويشير شوميكر وروجرز الى التجديد باعتباره مجموعة الأفكار الجديدة التى تنبع من داخل النسق الثقافى الاجتماعى نفسه ، أو من خارجه، ويضربان مثالا على ذلك بما حدث فى بيرو فى قرية لوس مولينوس Los Molinos ، وما أسفرت عنه حملات الصحة العامة من نتائج[٣٤].

والواقع أن المجدد Innovator هو انسان هامشى يجنح عما تألفه الجماعة — على حد قول بارنيت Barnett — ولا يرضى بما يسودها من طرق تقليدية ، ويرفض الامتثال لها فى نفس الوقت[٣٥] . وهذا الصنف من الناس يعتبر أداة التغير الثقافى الداخلى ونقطة بدايته .

(جـ) الاكتشاف :

وهو عملية الاضافة الى الثقافة من خلال ملاحظة الظواهر الموجودة فعلا ، ولم يلتفت اليها أحد من قبل . ويرى لينتون أن الاكتشاف هو أية اضافة للمعرفة ، بينما يذهب هوبل Hoebel الى أن الاكتشاف هو عملية الوعى بشىء قائم بالفعل ، ولكن لم يسبق ادراكه من قبل[٣٦] .

---

(٣٢) انظر : Alexander Alland : Op. cit., p. 155.

(٣٣) M. Herskovits : Cultural Antropology, op. cit., p. 454.

(٣٤) د. على المكاوى ، الانثروبولوجيا الاجتماعيــة ، مرجع سابق ، ص ص ٢٩٤ — ٢٩٥ .

(٣٥) George Foster : Traditional Cultures, op. cit., p. 12.

(٣٦) هولتكرانس ، قاموس الاثنولوجيا ، مرجع سابق ، ص ٤٠ .

والواقـع أن الشـق المادى من الثقـافة حظى باهتمام علمـاء الأنثروبولوجيا الثقافية ، على حين لم يحظ الشق اللامادى (الروحى أو المعنوى) Nonmaterial باهتمام مناظر ، وان اقتصر مجاله على اكتشـاف النظـم القرابيـة فى المجتمعـات البدائيـة التى درسـها الأنثروبولوجيون ، وعلى المعتقدات السحرية فى هذه المجتمعات[٣٧] .

والمكتشفون هم أشخاص موهوبون غالبا ، ولا يعبأون برد فعـل المجتمع تجاه خروجهم على التراث . وهم ينقسمون الى فئتين تتخذان القرارات المعجلة باحداث التغير الثقـافى الداخلى ، سـواء من خلال مواقعهم القيادية الرسمية أو غير الرسمية . **أما الفئة الأولى** فهى تضم الأشخاص الهامشيين Marginal الذين يجنحون عما تألفه الجمـاعة وتعرفه . ومن أعضاء هذه الفئة ــ من وجهة نظر بارنيت : الشـخص المخالف Dissident والمحايد Indifferent والفاتر Disaffected والمتعض Resentful . وهم جميعا أكثر اسـتعداداً للتجـديد ، واستجابة له وادراكا لوجوده . ويطلق عليهم هيرسكوفيتس مصـطلح الانحراف الثقافى Cultural drift الذى يعـد منبها يصـدر عن الجماعة ، أو يأتى من خارجها[٣٨] .

على حين تضم الفئة الثانية الأشخاص ذوى الهيبة Prestige laden وهم أكثر فاعلية فى التمهيد لحدوث التغير ، نظرا لما يتمتعون به من هيبة وقوة تأثير فى المجتمع . والملاحظ عموما أن الناس تتقبـل أفكار الشخص ذى الهيبة (المهيب) أفضل مما تتقبل أفكار الشخص الجانح عن الجماعة .

* * *

(٣٧) د. على المـكاوى ، المعتقدات الشعبية ، مرجع سـابق ، ص ٣٥٥ .

(٣٨) M. Herskovits : Cultural Anthropology, op. cit., p. 452.

رابعا ــ عوامل التغير الثقافى :

تتعدد العوامل التى تحدث التغير الثقافى ، وتتنوع ما بين عوامل نابعة من داخل النسق الثقافى ذاته ــ وهذا ما أشرنا اليه سابقا حول التغير الداخلى ــ وعوامل أخرى وافدة على النسق الثقافى من خارجه ــ وهى ما تشير الى نمط التغير الخارجى ــ فتغيره • وبصرف النظر عن داخلية العوامل أو خارجيتها ، فاننا نتناولها هنا تحت عنوان واحد وهو عوامل التغير الثقافى ، وفيما يلى استعراض موجز لها :

١ ــ التكنولوجيا :

تساهم التكنولوجيا بدور بارز فى احداث التغير الثقافى من خلال تيسير الاتصال بين المجتمعات والقضاء على الحواجز الطبيعية بينها ، وتذويب الفوارق السلالية والتباينات العرقية • ولذلك قضت التكنولوجيا على العزلة الثقافية ، فصار العالم كله أسرة واحدة •

والواقع أن التكنولوجيا لم تترك مجالا من مجالات الحياة الاجتماعية والثقافية الا وطرقته وأسهمت فيه بقدر • فقد دخلت مجال التعليم والزراعة والصناعة والاعلام والطب والحياة المنزلية والمعتقدات والترويح وسائر مجالات الحياة • لقد قدمت التكنولوجيا الآلات والأدوات الطبية التى أتاحت تقدم الطب الرسمى ، وزيادة فاعلية الوقاية وكفاءة العلاج[٣٩] ، وعلى هذا زاد تقبل الأفكار الجديدة وتبنيها ، وبالتالى تزيد حصيلة التغير الثقافى[٤٠] •

ومن جانب آخر ، فان التكنولوجيا تحدث تغيرا تزداد سرعته فى العناصر المادية عن العناصر المعنوية (اللامادية) ، وهنا يحدث التخلف

(٣٩) A. Alland : op. cit., p. 159.

(٤٠) د. على المكاوى ، المعتقدات الشعبية ، مرجع سابق ، ص ٣٦٠ •

الثقافى • كذلك قد تفوق سرعة تغير العناصر اللامادية ، سرعة التغير فى العناصر المادية ومهما كان الأمر فان التغير الواقع قد يكون للأفضل (تغير ارتقائى أو تقدمى) ، كما قد يكون للأسوأ (تغير نكوصى أو تخلف) • وقد يكون التغير تقدميا فى عنصر من مركب العناصر ، أو يكون نكوصيا فى جزء من المركب الثقافى وهكذا •

٢ — التعليم : يعجل التعليم باحداث التغير الثقافى من خلال مايتضمنه من اكساب العقل مهارات فكرية وقدرات ابداعية وتنمية الملكات الذهنية ، فيكتسب المتعلمون القـدرة على ربط الأسباب بالمسببات ، والمقـدمات بالنتائج • والواقع أن التعليم يعتبر عاملا داخليا للتغير الثقافى ، وعاملا خارجيا فى نفس الوقت •

ويظهر أثر التعليم واضحا فى احداث التغير الثقافى فى مجتمعات العالم(القبلى منها والحضرى الصناعى) ، فى القبائل الأفريقية والأحراش الأسيوية والمدن الأوربيـة • ولعل مظاهر هذا التغير يتضـح فى تبنى الأساليب الطبية الحديثة،وغلبة النظرة الموضوعية الى العادات والتقاليد بقدر الامكان ، وتغير المكانة الاجتماعيـة للمرأة ، واضطلاعها بدور فى المجتمع الذى تنتمى اليه • كمايؤدى التعليم الى تغيير اتجاهات الأشخاص نحو الخرافات ، ويساعد على احلال «حكمة المتعلمين» محل «حكمة المسنين غـير المتعلمين » • ولعل هذا الاحلال يتضـح من خلال ارتفاع المكانة الاجتماعيـة للمتعلمين فى الأسرة والمجتمـع المحلى ، وزيادة فاعلية دورهم فيه •

٣ — وسائل الاعلام : يذهب البعض الى أن التغير الثقافى ماهو الا ثمرة من ثمار وسائل الاعلام[٤١] • وهذا يدل على خطورة هذه الوسائل

(٤١) Communication of Innovation, op. cit., p. 7.

الاعلامية المسموعة والمقروءة والمرئية ، وعمق تأثيرها فى المجتمع وتغير ثقافته • واذا كانت الوسائل الاعلاميـة المقروءة قاصرة على المتعلمين والملمين بالقراءة والكتابة ، فان غير المتعلمين عموما أهم كثر اعتمادا على الوسـائل المسموعة والمرئية • فالمذياع والتلفاز يوفران عناء القراءة ، ويقدمان الخدمة الاعلامية جاهزة يسيرة •

ومن ناحية أخرى فان وسائل الاعلام تلعب دورا بارزا فى تغيير طرز الزى حينا ، وبعض الأنماط السلوكيـة حينا آخر • علاوة على هذا فهى تكسب المجتمع عادات جديدة ، هى غالبا عادات الطبقات الأعلى ونجوم المجتمع • والجدير بالذكر أن العبرة ليست بوسائل الاعلام بقدر ما هى مرتبطة بالمضمون المذاع أو المنشور أو المبث • وبالتالى تحمل هذه المادة بصمات المشرفين على تلك الوسائل ، وتعكس طريقة تفكيرهم ، ونظرتهم للثقافة •

وقد يكون دور وسائل الاعلام فى احداث التغير ، واضحا فى اكساب المجتمع عناصر ثقافية جديدة ، والتخلى عن عناصر ثقافية قديمة • كماقد يكون هذا الدور تدعيما للثقافة السائدة فى المجتمع • ويتمثل الدور الأول لوسائل الاعلام (اكساب العناصر الجديدة) فى أنها تكسب الانسان المعرفة بالصحـة والمرض ، فيستقى منها أفكاره عن العلاج والوقاية والعادات الضارة والعادات الصالحة ، علاوة على تزويده باطار من المعرفة يساعده على اكتساب الوعى الصحى • أماالدور الثانى (تدعيم الثقافة السـائدة) ، فهو يتمثل فى نشر الأفكار الداعية الى التمسك بالمعتقدات الشعبية السائدة المضادة للرعايةالصحية ، أوللمنطق والعقل مثلتصوراتنا عن العالم فوق الطبيعى أو عن البيئة أو الصحة ••• الخ •

٤ ـ **ديناميت الأجيال :** يطرأ التغير الثقافى بفعل ديناميات الأجيال ، حيث تلعب الجماعات العمرية دورها البارز فى هذا الصـدد ، لاطلاع

المحدثين على الأســاليب الجديدة للحياة • وقد صــك كارل مانهايم K. Mannheim مفهوم « الاتصال بالخبرات الجديدة » Fresh Contact ويعنى به استقبال المحدثين أو الشبــاب للعالم بطرق جديدة ، وابتداع أســاليب جديدة للحياة ، وايجاد بدائل ثقافية فريدة مما يعجل باحداث التغير الثقافى(٤٢) • وسبب ذلك كله هو نقص خبرتهم بالحياة وقلة تجاربهم الاجتماعية التى خبرها المسنون واكتسبوها •

وتتضح معالم دينامية الأجيال ، فى احداث التغير الثقافى ، من خلال اعادة المحدثين النظر فى أهمية بعض العادات والتقاليد ، وتبنى الأفكار الجديدة ، والتحمس للقيم الجديدة ، وزيادة الاتصال الثقافى بالثقافات الجديدة ، بمعدل أسرع من معدل تبنى المســنين لتلك الأفكار الجديدة والقيم الجديدة •

٥ — **الانفتــاح على العالم الخارجى** : لقد غزت وســائل الاعلام العالم كله ، وأذابت الفروق والحواجز ، وقضت على العزلة • وعلى هذا زادت عمليــات الاتصال بالمجتمعات الأخرى ، والانفتاح على العوالم الأخرى • والاطلاع على تجارب الآخرين ، والاستفادة من خبراتهم ، وزيادة معدلات الهجرات الريفيــة الحضرية (الداخلية) ، والهجرات الخارجية المؤقتة (كالهجرة الى المجتمعات العربية البترولية للعمل فترة ثم العودة) أوالهجرة الدائمة (كالهجرة الى المجتمعات الغربية والأمريكية والبقاء فيها وعدم العودة مرة أخرى الى المجتمع الأصلى) •

لقد لعبت كل هذه العوامل دورها الواضح فى احداث التغير الثقافى، حيث يكتسب الانســان قيما جديدة كالانجاز والسرعة واحترام الوقت

(٤٢) Vern Bengtson and Other : «Time, Aging and The Continuity of Social Structure», in : Journal of Social Issues, Vol. 30, 1974, p. 25.

ومراعاته • كما صار أكثر حرصا على التعليم — وتعليم البنات أيضا — وعمالة المرأة ونوالها المكانة المناظرة لمكانة الرجل • وعلاوة على هذا تتعدل نظرة الانسان الى الحياة والعالم ، وتتسع آفاق معرفته ، ويكتسب ثقافة خاصة جديدة[٤٣] • ولذلك يساعده انفتاحه على العالم الخارجى ، على التعامل مع مواقف الحياة الاجتماعية والثقافية من منظور ثقافته الجديدة المكتسبة ••

* * *

(٤٣) د. على المكاوى ، المعتقدات الشعبية والتغير الاجتماعى ، مرجع سابق ، ص ٣٦١ .

الفصل السادس

المجالات التقليدية فى الأنثروبولوجيا التطبيقية

الفصل السادس

المجالات التقليدية فى الانثروبولوجيا التطبيقية

مقـــــدمة :

لقد استفاد الكثيرون — على مدار تاريخ علم الانثروبولوجيـــا — من تطبيقات هذا العـــلم . ففى الوقت الذى كان التركيز فيه على المجتمعات البـــدائية استغل المستعمرون معارفه فى توطيد حكمهم ، وعندما تطـــرق لدراســة المجتمعـــات الريفية والتقليدية استعان رجال وهيئات التنمية به فى تنفيذ مشروعاتهم ، وتحقيق التغير الاجتماعى ، واخيرا حينما امتد نطاقه ، اتجه صـــوب دراسة المجتمعات الحـــديثة والصناعية ، فدرسـها ابتداء من علاقة الادارة بالعمال فى المصـــانع ، وحتى وصل الى دراسـة حـــالات الامتزاج والصراع بين الاقليـــات Miniorities والســـلالات Races فى تلك المجتمعـــــات .

والانثروبولوجيـــا التطبيقيـــة Applied هى التطبيق العملى للنظريات والنتائج الانثروبولوجية الثقافية والاجتمـــاعية فى الادارة والتعليم والخـــدمة العسكرية والخـــدمة فى المستعمرات والتخطيط والتنظيم الصناعى والتجـــارى . وقد قدم برنتون D. G. Brinton هذا المصطلح ســـنة ١٨٩٥ . وهو يعرف أهداف الانثروبولوجيا التطبيقية بأنها (تحديد معايير الحضـــارة ، وما تقدمه العناصر الفردية والاجتماعية من مساهمة لها فى المـــاضى ، وكيفية استمرار وتقوية هذه الاسهامات ، وما هى القـــوى الجـــديدة — ان وجدت — التى يمكن أن تستخدم للتعجيل بالتقدم) (1) .

الا أن الانثروبولوجيا التطبيقية فى شكلها الحـــالى ليست الا حركة مستحدثة لا تربطها صلة بتعريف برينتون مباشرة ، ذلك لانها ظهـــرت فى بريطانيا من واقع الاهتمام بأمور القبائل البدائية الموجودة داخـــل حـــدود

---

(1) قاموس الانثولوجيا والفولكلور ، مرجع سابق ، ص ٥٤ .

امبراطوريتها ، ونفس الشيء في الولايات المتحدة ، شكلت العلاقات المتبادلة بين الحكام والأقليات المختلفة — ولا سيما الهنود الحمر — حافزا من نوع آخر . وعلى هذا الاهتمام البريطاني ، أنشيء المعهد الافريقي الدولي سنة ١٩٢٦ ، وبالمثل انشئت في الولايات المتحدة جمعية الأنثروبولوجيا التطبيقية سنة ١٩٤١ ، متخذة لنفسها هذه الأهداف :

(ا) تدعيم البحث العلمي عن الأسس التي تتحكم في علاقات الكائنات البشرية ببعضها .

(ب) تشجيع تطبيق هذه الاسس على نطاق واسع في حل المشاكل العملية .

ان علم الفلك من العلوم العريقة والمتقدمة ذات الثراء العلمي في المناهج والتصميمات والنظريات ، ولذلك استعين بهذه المعارف في تحسين الملاحة . وكذلك الحال في علوم الطب والهندسة وغيرها ، تقاس مدى تقدمها بالنتائج التطبيقية التي تحققها . ولا نغالي اذا قلنا بأن الانثروبولوجيا هي الاخرى — بعد ان عمها الثراء العلمي ، وسادها التشعب وكثرة المجالات — اصبحت اهلا للتطبيق . وتطلق كلمة تطبيقي — على العلم اذا استعنا بمبادئه في حل مشكلة معينة ، او في معالجة شيء ما . وحينما تكون الأنثروبولوجيا الاجتماعية هي العلم المقصود بالذات ، اذن فمجال التطبيق هو المجتمع (٢) .

والآن يحق ان نتساءل عن **العوامل التي ادت الى ظهور الأنثروبولوجيا التطبيقية** . ويمكن القول — ازاء التساؤل — بأن **ثراء العلم الأنثروبولوجي** واحد من تلك العوامل . **وثانيها** أن القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين كان عصر الاستعمار ، ولذلك انصب اول تطبيق لعلم الانسان على هذه المستعمرات كمساعدة المبشرين وموظفي الحكومات

---

(٢) Lucy Mair, op. cit , p 255.

الاستعمارية على اداء اعمالهم وتهيئة الظروف لرجال الاعمال واصحاب رؤوس الأموال من المستعمرين من ناحية ، ومن ناحية اخرى العمل على تكييف هذه المجتمعات التى تخضع للمستعمر على وضعها ، حيث تردد فى المحافل الدولية كالأمم المتحدة أن هذه المجتمعات عاجزة عن تنمية نفسها ، وبالتالى فهى تشكل مطلبا للحضارة متدنيا .

ويعتبر الاتصال الثقافى **Culural Contact** بين المجتمعات المتخلفة والمجتمعات الغربية **ثالث** العوامل ، اذ ترتب عليه ظهور مجموعة من المشاكل الملحة التى تحتاج الى شرح وتفسير (٣) . ومن هذه المشاكل تنظيم الأسرة (ضبط السكان سواء بالحد او الزيادة) ، وتفسير علاقات الجنس والزواج ، ومصطلحات القرابة **Kinship Terms** ، والحمل ورعاية الطفل **Child Care** ، ومشكلات استغلال الأرض ، وحقوق الرؤساء والأفراد والجماعات والمجتمع ككل ، والطريقة التى بمقتضاها يؤثر بناء القرابة **Kinship Structure** وقواعد الميراث فى انتاجية الأرض وكذلك المشكلات التى تنجم عن الاشتغال بالصناعة ، والعمالة الوافدة من القرى النائية (٤) . وما تركته وراءها من نساء واطفال ، والترابطات الجديدة التى شكلها العمال فى مراكز العمل الجديدة ، والأنماط المعتدة لتوزيع الأجور ، وحصول عمال الصناعة على حاجاتهم من منتجات الريف ، والاستثمار والاقتراض والنظام الراسمالى ومشكلات صفقات الزواج كالمهر **Bride - price** واستخدام الماشية فى اغراض غير اقتصادية ، والشعوذة **Witchcraft** واخيرا تحقيق الانسجام بين مدارس التعليم وبين حاجات البيئة .

وكان الأنثروبولوجيون هم اولى العلماء بتفسير وشرح هذه المشكلات ، ولاسيما وهم فى حالة تركيزهم على المجتمعات البدائية ، ولذلك اضطلعوا

---

(٣) د. على المكاوى ، الانثروبولوجيا الاجتماعية ، مرجع سابق ، ص ٢٣٨ .

(٤) روبرت ردفيلد ، المجتمع القروى وثقافته ، ترجمة د. فاروق العادلى ، الهيئة المصرية للكتاب ، الاسكندرية ، سنة ١٩٧٣ ، ص ص ١٤ — ١٥ .

بهذا الدور وقدموا الكثير . غير ان المستعمرين استغلوا هذه المعلومات فى توطيد حكمهم فى هذه المجتمعات ، ومن ثم حرصوا على أن يأخذ موظفوهم ومعاونوهم دورات تدريبية فى الانثروبولوجيا ، هذا فى الوقت الذى اسس مالينوفسكى المدرسة الوظيفية **Functionalism** وابدى استعداده لتفسير اية ظاهرة تبدو غريبة فى نظر الغربيين .

ولقد اخذ المستعمرون بتوصيات مالينوفسكى وتلاميذه وعرفوا الكثير عن البناء الاجتماعى لتلك المجتمعات البسيطة . مما كان له دور كبير فى تدعيم سلطاتهم عليها . ومن أبرز مانادت به مدرسة مالينوفسكى هو عدم المساس بأية معتقدات محلية او التهكم من التقاليد الوطنية (٥) . ومن امثلة ذلك (المقعد الذهبى) **The Golden Stool** لدى جماعة الاشانتى **Ashanti** حيث يعتقدون انه هبط من السماء ، على الرغم من انه من المقاعد العادية ، غير انه مطلى بالذهب . وقد ثار الحاكم الاستعمارى لان الاشانتى لم تتح له الجلوس على المقعد ، كممثل للملكة فيكتوريا . ولذلك ساهم فى اخفائه . وهاج الناس وثاروا . وبعد عشرين عاما كان احد العمال يحفر مصادفة فوجد بقايا المقعد فذهب ليبيعها فعلم رؤساء القبيلة بالحادث وتذمروا وطالبوا باعدام الجناة . وقد اوضح ادوين سميث **E. Smith** — الذى روى ذلك فى كتابه حاملا نفس الاسم — ان الحاكم عاد فسلم الجناة للرؤساء ليحاكموا بأنفسهم ، واخيرا خففوا الحكم من الاعدام الى العقاب العادى . وهنا ايقن هذا الحاكم ان المقعد يمثل القبيلة ، ويرمز لها واعلن باظهاره وعدم مسه بأى سوء بعد .

كما حظيت المدن الصناعية بتطبيق معارف الانثروبولوجيا ومنها مدينة يانكى **Yankee city** التى درسها لويد ورنر **L. Warner**

---

(٥) Lucy Mair, op - cit., pp. 525 - 256.

وزملاؤه عن المدينة الحقيقية . وتعني كلمة يانكي **Yankee** ابناء البلد **Natives** . وقد استخدم الباحثون الملاحظة بالمشاركة والمقابلة وسلاسل النسب والسير والصحافة والصور الفوتوغرافية ، وقدموا تحليلا وافيا للطبقات الاجتماعية **Social Classes** التي قسموها الى ست هي :

النسبة ٪	الطبقة الاجتماعية	
١٫٤٤	**Upper Upper Class**	الطبقة العليا ــ العليا
١٫٥٦	**Lower Upper Class**	الطبقة العليا ــ السفلى
١٠٫٢٢	**Upper Middle Class**	الطبقة الوسطى العليا
٢٨٫١٢	**Lower Middle Class**	الطبقة الوسطى السفلى
٣٢٫٦٠	**Upper Lower Class**	الطبقة الدنيا العليا
٢٥٫٢٢	**Lower Lower Class**	الطبقة الدنيا السفلى
٠٫٨٤	**Unknown**	غير معلوم

ثم قدم وصفا تفصيليا اجتماعيا لكل طبقة اجتماعية . كما قدم لنا وورنر وزملاؤه ايضا دراسة أخرى مشابهة عن جونزفيل **Jonesville** ولم تقتصر دراسات الانثروبولوجيا وتطبيقاتها على المدن الصناعية ، بل تعدتها الى مدن اخرى (٦) .

ولكن هذا لا يعني أن عالم الانثروبولوجيا مشترك في استغلال هذه المجتمعات مع المستعمرين ، انه يقدم معلوماته فحسب للحكام يتصرفون فيها كيفما شاءوا . وقد يتذرع بعضهم بأنهم سيستغلونها في انهاض

---

(٦) R. Bernard. The Human Way, New York , Macmillan Publishers. 1975. P. 348.

وتطـــوير هذه المجتمعــات حتى يحصلوا عليهـــا . كمـــا ان ذلك لا يعنى وقوف العـــلماء مكتوفى الأيدى ، وانما هم ينقدون ، وقد انتقد مالينوفسكى السيـــاســـة التى تنتهجهـــا حـــكومة جنـــوب افريقيـــا فى عصره ، بنفس الطريقة التى ينتقـــد بهـــا الكتـــاب الليبراليون عصرهم ، ولم يكن يعتمد على معـــارفه الخـــاصة كانثروبولوجى .

وفى العقد الثالث من هذا القرن أحس الانثروبولوجيون بانهم لا يساوون الملـــح ، وستظـــل قيمتهم فى الهبوط ما لم يقـــدموا حلولا للمشـــكلات الملحة (٧) . ومن ثم اتجهت الانثروبولوجيا التطبيقيـــة نحـــو تنمية هـــذه المجتمعـــات البدائية وغيرها من المجتمعـــات المتخلفة بعـــد دراسة وافية للعـــادات **Customs** والتقـــاليد **Tarditions** لمعـــرفة ما يعمل منهـــا على نجـــاح المشروعات ، وما يؤدى منهـــا الى احباطها . ولذلك تركز دور الانثروبولوجى فى تفسير تقبل المواطنين للتحسينـــات الواضحة فى الوســـائل الفنية لاول وهلة كمـــا يتوقع الفنيون ، وكذلك تعليل تباطؤهم فى الاخذ بالادلة التى لا يعتريهـــا الباطل .

وبصفة عامة ، يمكن أن نجمل تطبيقـــات الانثروبولوجيـــا ــ فى هذه الفترة ــ فى ثلاثة مجالات هى :

(أ) مشروعات تنمية المجتمعات المحلية **Community Development projects.**

(ب) حملات الصحة العـــامة **Public Health Campaigns.**

(ج) مشروعات التوطين **Settlement projects**

هذا بالاضـــافة الى مجموعة اخرى من المجـــالات سيحين ذكرها .

(أ) **مشروعات تنمية المجتمعـــات المحلية** من المجـــالات التى أظهرت الانثروبولوجيا فيها جـــدواها الكبرى ، حيث يقف علمـــاء الانثروبولوجيـــا

---

(٧) د. على المكاوى ، الانثروبولوجيا الاجتماعية ، مرجع ســـابق ، ص ٢٤١ .

الميـدانيون على رأس فريق الفنيين الذين ينمون تلك المجتمعات ، ثم ان دراساتهم لهـا تعـد بمثابة قطب الرحى التى تدور حولها ما يمكن ان تقدمه المنظمـات الدولية من معونة فنية . فقد تكون الخطة سليمة تماما من الناحية التكنولوجية البحتة ، ولكن اسـاليب تنفيذها تتعـارض مع قيم المجتمع موضوع التنمية فتفشل الخطة . ويعد سبايسر **E. H. Spicer** من ابرز من كتب فى هذا الصـدد ، فاهتم بالوقوف على معوقات التقدم التكنولوجى فى الجماعات المتخلفة . وتفيد المعرفة الانثروبولوجية ايضـا فى تطـوير الوسـائل التكنولوجية ، ووسـائل الانتاج والاستغلال ، فى حدود الانماط الثقافية المـألوفة ، كما تسهل على اصحـاب رؤوس الأموال والمستثمرين الحصول على اصلح العمال ملاءمة للنواحى الانتاجية بتكلفة اقل وبادنى اجر ، وايضـا تسـويق السـلع المصنعة .

كما تساهم الأنثروبولوجيا فى تقييم المشروعات التنموية وابراز عوامل النجـاح وعوائقه . ومن هذه الدراسات تقييم الدكتور محى الدين صابر لعملية التغير الحضـارى وتنمية المجتمع (٨) ، وريموند فيرث **R. Firth** عن تيكوبيا **Tikopia** ، وتقييم الدكتور احمد ابوزيد لمشروع الزاندى بالسودان بعنوان « التنمية الاقتصـادية والتغير الاجتمـاعى فى افريقيا : مثـال من السـودان » .

ومن بين المعوقات فى جنوب افريقيا ظـاهرة المهر **Bride - price** التى اقترح احد الغربيين الغـاءها ، واطـلق عليهـا خطيئة شراء الزوجات بيد أن محـاولته باءت بالفشـل لأن هذه الظـاهرة ترتبط بقيم المـراكز الاجتماعية . فالزوجة ذات المهـر المرتفع تحتل منزلة اجتماعية مرتفعة ، هى وابنـاؤها فيما بعد ، على اسـاس المـركز الاجتمـاعى المـوروث

---

(٨) د. محيى الدين صابر ، التغير الحضارى وتنمية المجتمع ، مركز تنمية المجتمع فى العالم العربى ، سرس الليـان ، ١٩٦٢ .

Ascaibed Status الذى يختلف عن المركز الاجتماعى المكتسب **Achieved Status** .

(ب) ولقد ادلى علماء الانسان بدلوهم فى **مجال الصحة العامة** **Public Health** فشرحوا وفسروا الافكار المتعلقة بالصحة وبالمرض ولذا اعتمدت عليهم الهيئات الدولية التى تتولى تنفيذ المشروعات الصحية . وترجع اهمية الاعتماد على الانثروبولوجيا فى مجال الصحة العامة الى اعتبارات منها : —

* ان الاطار الاجتماعى والثقافى (٩) — باعتباره انعكاسا صادقا لمعرفة كيف يعيش الناس ، وماذا ياكلون ، ويعتقدون ، وقيمهم ومستواهم التكنولوجى — يعد مؤشرا هاما فى معرفة حال المجتمع وانفصاله من الناحية الصحية .

* ان الصحة العامة هى نشاط اجتماعى وثقافى ، فهى تؤدى الى انجاز الافراد لادوارهم الاجتماعية داخل البناء الاجتماعى (١٠) .

ولذلك يقوم علماء الانثروبولوجيا برسم وتخطيط برامج الصحة العامة . ويحتوى هذا التخطيط على دراسة شاملة لمصادر الثروة القائمة ، واحوال الناس الصحية ، ومستوى التعليم ، وانماط العائلة . ومن الممكن ان تكون الامكانيات الصحية موجودة ، غير ان النسق القيمى يحول دون استغلالها . ففى جزيرة جاوة **Jawa** تعتقد المراة ان السمك المجفف ضار بصحة الأطفال ، على الرغم من انه البروتين الحيوانى الرخيص الوحيد الذى يمكن الحصول عليه . وكذا المستشفيات لا تقدمه للمرضى معتقدين نفس الاعتقاد . وغير السمك فى جاوة ، هناك البيض فى افريقيا ، حيث يعتبر من الأطعمة المحرمة **Food Taboo** على النساء

---

(٩) د. على المكاوى ، الجوانب الاجتماعية والثقافية للخدمة الصحية ، مرجع سابق ، الفصلان الرابع والخامس .

(١٠) د. على المكاوى ، الانثروبولوجيا الطبية ، مرجع سابق ، تحت الطبع .

بالرغم من حاجتهن الماسة اليه . وقد تضطر المرأة — تحت الاغراء — ان تأكله وتأكل الاطعمة المحرمة وتنظر الى هذا الفعل على انه نصر وبعد عودتها الى بيتها لا تذق له طعما بعد ذلك ، وتعود الى ما كانت عليه . ومن هنا وقف علماء التغذية فى افريقيا ضد نظام المحرمات Toboo . وقد تحتم قواعد الصحة العامة تسخين الماء Biol water كما يبين البحث فى بيرو Beru - غير أن الامكانيات المحدودة لهذا المجتمع تحول دون ذلك . ومن ثم تفشل حملات الصحة (١١) . ولاشك أن توصيات الانثروبولوجيين ذات اثر بالغ فى نجاح مثل هذه الحملات والمشروعات وفى التنبيه على المعوقات التى لا يعرفها غيرهم .

(ج) وفى مجال **التوطين والاستقرار** تنبه الانثروبولوجيا التطبيقية الى المشكلات التى تنبثق عن اغفال الارضية الثقافية التى قد تساعد او تعوق تنفيذ الخطط ، أو تنبىء باحتمالات النجاح او الفشل . فيدرس العلماء انماط الثقافة **Patterns of culture** وتجسيداتها فى سلوك اعضاء المجتمع . ومن ثم يقفون على الموضوع الاساسى **Theme** لثقافة المواطنين موضوع التوطين . وتراعى أن تكون المستوطنات على درجة تسمح بتقبل المستوطن لها . ومن الامثلة فى هذا الصدد النوبة قبل وبعد التهجير (١٢) . حيث أن نزوح هؤلاء او هجراتهم يحتم بالضرورة تطوير العلاقات الاجتماعية فى المراكز الجديدة ، أو خلق مجتمع محلى جديد من الوجهة المثالية . وليس الحال فى مصر فحسب بل اجريت مثل تلك الدراسة فى مشروعات التوطين فى ايطاليا وجنوب أوربا .

بالاضافة الى هذه الميادين الرئيسية للانثروبولوجيا التطبيقية ، **هناك مجالات اخرى فرعية** ، فلقد افادت كثيرا فى مجال حديث وهو

---

(١١) Lucy Mair, op. cit., pp. 264 - 265.

(١٢) د. عاطف وصفى ، الانثروبولوجيا الثقافية ، مرجع سابق ، ص ص ٢٠٩ — ٢٣٥ .

الأنثروبولوجيا الطبية . اذ تبين أن كثيرا من العادات والعرف لها تأثيرها فى انتشار بعض الأمراض وعلاجها بالطريقة العلمية ، وكذلك طرق التغذية وطرق تربية الأولاد . حيث أجرى الأنثروبولوجيون أبحاثهم على أطفال المستعمرات لمعرفة استعداداتهم وأذواقهم وعاداتهم ، ومراحل نموهم العقلى .

ولقد حظى ميدان اللغات بمزيد اهتمام الأنثروبولوجيين ، حيث ركزوا على نشأة اللغة فى الجماعات الانسانية عامة ، ثم تتبع تفرعها الى لهجات وانتشارها ، والصراع الذى يدور بين اللغات . ولذلك تخصص جمهور غفير منهم فى لغة الجماعات المنعزلة والبدائية ، واللهجات المحلية والاقليمية **Dialeology** والمأثورات الشعبية **Folklore** . وقد أتاحت معرفة اللغات المحلية والبدائية معرفة كثير من اللغات المحلية التى لم تكن معروفة نظرا لأنها لا تتصل بالأصول اللغوية الكبرى فى الجماعات التاريخية أو المجتمعات الحديثة .

وساعد ذلك على معرفة اللغة الآنامية — لغة أهالى انام فى الهند الصينية — واللغة الدرافيدية التى كان شعب الهند الأصلى يتكلم بها . ومن أشهر العلماء فى هذا الصدد وندت وانطون توماس **A. Tomas** . ويبدو تطبيق هذا الفرع فى محاولة السودان تحقيق وحدة أثنولوجية ثقافية بين قبائل الجنوب (١٣) ، ولذلك استعانت بفقهاء اللغة وبالدراسات المتخصصة . كما يبدو تطبيق الأنثروبولوجيا واضحا فى برامج تعليم القراءة والكتابة ، وتحسين عيوب النطق ، وادخال التعديلات المقصودة .

وفى المجال العسكرى تجلى دور الأنثروبولوجيا التطبيقية منذ الحرب العالمية الأولى ١٤ — ١٩١٨ حيث أجريت اختبارات ذكاء

---

(١٣) د. عاطف وصفى ، الأنثروبولوجيا الثقافية ، مرجع سابق الذكر ، ص ١٣٦ — ١٤٥ .

على المطلوبين للتجنيد اثنـــاء هذه الحـرب . كمـا تستغل المعـرفة الأنثروبولوجية فى تدريب الوحدات الخـاصة التى تقوم بمهام عســكرية كبرى (١٤) . فتلقن عادات وتقاليد وانماط ثقـافة المجتمع الذى سيمارسون نشاطهم فيه . ويمكنهم بذلك ايضا ان يجتذبوا الوطنيين أنفسهم فى صفوفهم ويستلبوا منهم اسرارا عســكرية ويوصلوها الى أعدائهم ، وكذلك استمالتهم للتجسس . وتفيـد ايضـا فى التفرقة بين القتلى عن طريق السمـات الفيزيقية . ولقد برز هذا الفن التطبيقى فى بداية عهد الاستعمـار ؛ اذ كانت قواته تغزو المجتمعـات البدائية ، وتحمل معهـا التوتم **Totem** الذى تدين به القبيلة او المجتمع المغزو ، فلا يقاوم ، ويخر ساجدا للتوتم ، ومن ثم يسـهل الغـزو .

ولا ننسى دور الأنثروبولوجيا التطبيقية فى مجـال الصنـاعة ، اذ ساهمت فى اكتشـاف وفهم وعـلاج اسبـاب الاحتكاك بين الادارة والعمـال ، والحصـول على اكفأ العمـال باقل الاجـور ، وزيادة الانتاج وتسـويق السـلع وادخـال التحسينات التكنولوجية فى وسائل الانتاج . وكذلك اكتشـاف التنظيم غير الرسمى **Informal** فى المصنع ، ووسائل الضبط الاجتمـاعى غير الرسمية ، وانفضـل الأوقات للعمل ، واحسن الظروف لزيادة الانتاج ، وهى وجود الجماعة الاجتماعية المتكيفة والمتفاعلة معـا ، وادخـال نظـام فترات الراحة والترويح ، وكشف اسبـــاب الاضطرابات . ومن اشهر الدراسـات التى اجريت على مدن غير صناعية ، نجد دراسة **Bent Bralin** عن مدينـة شـاندجارة **Chandigarh** فى شمال غرب الهند (١٥) . وعنوانها « لقد خطط الخبراء مدينة شاندجاره ،

---

(١٤) **R. Bealss, H. Haijer, Introduction to Anthropology New Yerk. 1956.**

(١٥) **B. Bralin. Chandigarh was Planned by experts bus somehting has Come wrong, in R. Bernard The Human Way, New York, Macmeillan Publishes, 1975. p. 350.**

ولكن وقع خطـــا ما فى التخطيط » . وتدور هذه الدراسة حول هذه المدينة التى لم تحظ باى تطوير على مدار القرون ، على عكس ســـائر المـدن الهندية ، وبعـد انفصـــال الهند وفقدان بنجـــاب Punjab القديمة عاصمة لاهور فى باكستان سنة ١٩٤٧ . لذا قررت حكومة الهند ان تبنى مدينة جديدة من اجل بنجــاب Punjab ، او بقول نهرو ان تكون مدينة متحررة من اغلال تقـاليد المـاضى . وبالفعل خطط المـدينة مهنـدسون معـاريون من فرنســا مثل Le Cabusier والامريكى ماير A. Mayer ونائبه Nowciki . وجهزت المســاكن بكل الوســائل الحديثة كالمــاء الســاخن والبـارد والكهرباء ، وحجرات النوم والأفنية والشرفات المريحــة ، حتى صـار الاهــالى ســعداء ، غير انهم تحسروا على انهم فى شدنجارة الآن لا يشــاركون الآخرين افراحهم ولا اتراحهم مثلمــا كان الحــال فى المـدن القـديمة . ولكن الخطــا الكبير — والذى يرجع الى التبــاين الثقــافى — يرجع الى تقسيم المكان ومســاحات الحجرات ، ولذلك مثلا يحتاج اثنان من الهنود الى قدم ونصف بعدا عن بعضهما بتحـدثان ويتصـــافحان فى حين فى امريكا يتطلب الأمر قدمين واكثر كما لا يتصافحان ابدا . والذى حدث ايضـــا هو ان السكان استخـدموا حجرات المعيشة فى النــوم ووضعوا الاسرة فيها ، وعلقوا المــلابس على مسامير فى الحوائط . وعموما يرجع ذلك الى عدم وضع عادات وتقاليد الناس فى الاعتبــار لدى تصميم الخطة وبعبارة اخــرى تجاهل ثقافتهم وتجاهل دور الانثروبولوجيا فى حل مشـــكلة كهذه قبــل ان تقع .

كذلك استخدمت المعـارف التكنولوجية فى فهم مشــكلة الســكان ووضع تقرير شــامل عن ثقافة المجتمع المقصــود . وكان ذلك فى جــزر ياب Yab فى الباسفيك Pacific . فعندما هبطت القوات الأمريكية ارض الجزيرة سنة ١٩٤٥ صــار عدد ســكانها ٢٥٠٠ نسمة بعد ان كان عددهم ٥٠ الفا فاصبح العمل الذى يحتاج عشرة افراد لا يتوفر له سوى فردين او ثلاثة ، وهنا عبر اهل الجزيرة عن رغبتهم بضرورة التحرك لعمــل شىء ما يزيد الســكان . وتشكل فريق البحث مباشرة من اربعة ، ورأوا ان

السبب يرجع الى عوامل ثقـافية حيث تبين فى البداية ان نسبة تقدر ٣٤٪ من بين نسـاء ياب ممن تتراوح اعمارهن بين ٢٦ ــ ٥٠ سنة لم يبقين على طفل واحـد حيـا .

وفى هذا الصـدد يعرض دافيد شنيدر **D. Scheinder** البحث المعنون « بالاجهـاض وتناقص السـكان فى جزيرة بالباسفيك » (١٦) . واتضح تشخيص المشكلة فى ان القيم الثقافية والاجتماعية وطريقة الحياة فى مجتمع ياب ، كل ذلك مسئول عن المشكلة . حيث تبعد المـراة الحامل عن الجماعة كالمنبوذة حتى تنتهى فترة الحيض ، ثم تعود . وكذلك لأن المراة لن تحصل على مركز رئاسى او قيادى ، ولن تحصل على منزلة الرجـال الاجتماعية ، ولذلك فان الاجهـاض يريحها من الارتبـاط بالاولاد ، وييسر لهـا حياة اللهـو التى لن تحصل عليهـا ما لم تحتل مركزا اجتماعيـا مرموقا ولن يحـدث ذلك .

ويستعين مصمموا الأزيـاء بعلم الانثروبولوجيـا الطبيعيـة وعـلم الانثروبومترى (القياس الجسمى) **Anthropometry** فى تصميم الأزياء (١٧) وبالمثل فى تصميم الاجهزة الفنية الاكثر تكيفا مع جسـم الانسـان ، وفى التأهيل الاجتمـاعى .

واخيرا تلعب الانثروبولوجيا التطبيقية دورا بارزا فى تصحيح ، واختبار مدى صحة النظريات العلمية السـائدة . ومن ذلك مثلا نظرية الغـرائز التى توضحهـا ستروديك **Strodtbeck** (١٨) . ومركب اوديب

---

(١٦) **D. Schneider, Applied Anthropology. Abortion and Depopulation On a pacific Island. in. R. Bernard, The Human way. ibid, p 365.**

(١٧) دكتور عاطف وصفى ، الانثروبولوجيا الاجتماعية ، مرجع سابق الذكر ، ص ٢١ .

(١٨) دكتور مصطفى سويف ، مقدمة لعلم النفس الاجتماعى ، مرجع سبقت الاشـارة اليه ، ص ص ٦٢ ــ ٦٤ .

Odiepus Complex الذى دحضته دورثى ايجــــان **D. Eggan** فى دراستهـــا عن قبائل الهـــوبى **Hobbi** فى شمال اريزونا (١٩) . وكذا دراســـــة مرجريت ميد **M. Mead** عن المراهنة فى سموا **Samoa** وابطـــال المزاعم المرتبطة بهذه المرحلة فى المجتمعات الحديثة (٢٠) . ثم دراسة روث بندكت **R. Benedict** على قبائل الاسكيمو ، متتبعــــة بالفحص والتحليل ظاهرة الحرب . وقد اسفرت الدراسة عن ابطال زعم اعتبـــار الحـــرب من الغرائز الفطرية ، كما ابانت ايضا عن عدم ســـماع الاسكيمو للفظة الحرب من قبل ، ولم يدركوا معناها .

* * *

---

(١٩) دكتور عاطف وصفى ، الثقافة والشخصية ، مرجع سابق ، ص ٣٤ .

(٢٠) **Margaret Mead. Coming of Age in Samoa. Morrow Quill Paperbacks, New York. 1961.**

الفصل السابع

الأنثروبولوجيا التطبيقية والتغذية

الفصل السابع
الانثروبولوجيا التطبيقية والتغذية

مقدمـــة:

تهتم الانثروبولوجيا بدراسة الإنسان من النواحى الفيزيقية أو البيولوجية، والاجتماعية والثقافية. ولذلك فهى العلم الذى يمثل حلقة الوصل بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية والإنسانية . ويعد مفهوم الثقافة culture من أبرز الإسهامات الانثروبولوجية منذ صاغه تايلور tylor عام ١٨٧١ وحتى الآن، حيث تستند إليه العديد من العلوم الاجتماعية كعلم النفس والاجتماع والتربية والاقتصاد والسياسة والقانون... الخ.

وإذا كنا بصدد الانثروبولوجيا البيولوجية أو الفيزيقية، فإننا نتعرض بالضرورة لقضايا الصحة والمرض وارتباطها بالثقافة تأثيرا وتأثرا. ولعل هذا المجال الجديد يمثل الاهتمام الرئيسى لاحد الفروع الانثروبولوجية، وهو الانثروبولوجيا الطبية Medical Anthropology التى تعنى" الدراسة الكلية المقارنة للثقافة ومدى تأثيرها على المرض والرعاية الصحية" . وقد لاقى هذا الفرع المزيد من الاهتمام نظرا لتزايد الوعى بدور الثقافة فى القضايا الصحية ومنها تطور المرض، وتوزيعه الجغرافى، والأساليب الثقافية المختلفة لمواجهته فى المجتمعات المختلفة، وطرق تحسين وتطور الطب الحديث فى المجتمعات التقليدية.

والثقافة تعنى" ذلك الكل المركب الذى يتضمن العرف والعادات والدين والأخلاق والقانون والمعتقدات وكل سلوك يكتسبه الإنسان باعتباره عضوا فى مجتمع". كما تعنى الثقافة باختصار "طريقة الحياة " Way of life . وتضم الثقافة الآلاف من العناصر المادية والمعنوية ذات الارتباط بصحة الإنسان ومرضه. ويمثل الطعام أحد العناصر المادية، أما العادات الغذائية Food Habits فهى تمثل العناصر المعنوية فى موضوعنا الحالى.

ولاجدال فى أن الثقافة تزداد أهميتها فى مجال الصحة والرعاية الصحية، لأنها تتحكم فى نمط انتشار المرض وطريقة الناس فى تفسيره وعلاجه، وكيفية الاستجابة لانتشار الطب الحديث والتفاعل معه. وسوف نقتصر فى هذه الورقة على العادات الغذائية والصحة فى المجتمعات المختلفة ، تمشيا مع موضوع المؤتمر حول" الانثروبولوجيا والتغذية ".

وفى ضوء ذلك تتناول الورقة الموضوعات التالية :

أولا : الغذاء محور اهتمام علمى وعالمى.
ثانيا : العلوم الطبية والتغذية .
ثالثا : نماذج البحث فى علم التغذية.
رابعا : مظاهر اهتمام الانثروبولوجيا بالغذاء والتغذية.
خامسا: ما الذى يقدمه الانثروبولوجى فى مجال التغذية ؟

• • •

أولا : الغذاء محور اهتمام علمى وعالمى :

الغذاء عنصر أساسى فى حياة الانسان ، وعامل من أهم العوامل التى تحدد صحته وتكوين بنيته. وفى ضوء هذه الاهمية ، يعد الغذاء معيارا تصنيفيا يميز بين المجتمعات المتقدمة والاخرى النامية ، فهو المحدد الرئيسى لمستوى النمو الجسمى والعقلى للبشر، والمقياس الذى يكشف عن القدرة الانتاجية، والمرآة التى تعكس مقاومة الأمراض . ولعل الواقع يؤكد صحة الحكمة القديمة " العقل السليم فى الجسم السليم"، حيث أن السلامة هنا مردها الغذاء فى الغالب.

وتتعدد الفوائد التى يحققها الغذاء للانسان فيما يلى (١) :

١- بناء خلايا الجسم فى فترة النمو حيث تتكاثر الخلايا لإضافة خلايا جديدة تساعد على النمو. وتظل هذه العملية مستمرة بعد البلوغ واكتمال بناء الجسم بفعل الغذاء نفسه.

٢- امداد الجسم بالطاقة الحرارية اللازمة للقيام بالمجهود البدنى والوظائف الفسيولوجية٠
٣- المحافظة على حيوية الجسم ونشاطه من خلال استمرار نشاط الخلايا ذاتها، وبالتالى تتمكن الاجهزة والانسجة من مزاولة وظائفها على الوجه الاكمل٠

ولكل عنصر من العناصر الغذائية فائدته ووظيفته للجسم واذا زاد أو نقص عن مقدار معين، تظهر أعراض سوء التغذية٠ وبالتالى ينبغى توافر الاحتياجات الغذائية كل يوم حفاظا على الجسم، ووقاية من نقص التغذية٠ ولذلك يعد الغذاء أسلوبا علاجيا فى حالات مرضية عديدة، يأمر به الاطباء حديثا فى علاج امراض السكر وارتفاع ضغط الدم والتهاب القولون٠٠٠الخ٠ومن المعروف أن الغذاء علاج فى الطب القديم، حيث قال أبو قراط-(أبو الطب) منذ أكثر من خمسة آلاف سنة- " ليكن غذاؤك دواءك ، وعالجوا كل مريض بنباتات أرضة فهى أجلب لشفائه"(٢) فالغذاء هنا أساس الدواء وأساس الوقاية٠

ومن خلال هذه الأهمية صار الغذاء موضوعا محوريا على مستوى الاهتمام العلمى والعالمى٠ فقد أبرزت علوم البيولوجيا والطب والاقتصاد والاجتماع والانثروبولوجيا والسياسة وأخيرا التغذية، أهمية الغذاء وشروطه وفوائده وتنظيمه وكيفية الاستفادة المثلى به٠

وعلى المستوى العالمى أجريت البحوث والدراسات حول الغذاء والصحة والمرض والسياسة والاقتصاد، كما أنشئت الادارات الصحية التابعة لمنظمات دولية، تتابع الخدمات الصحية ومجالاتها٠ ومن ذلك منظمة الصحة العالمية التى صنفت خدمات الصحة العامة الى فئتين أولاهما هى خدمات تقدمها الادارات الصحية منفردة أو مشتركة مع الادارات الأخرى، ومنها مجال صحة البيئة، والصحة الفردية والاجتماعية، ومكافحة الامراض المعدية٠ والمجال العام(وتأتى على رأسه التغذية Nutrition) ومجال التعليم المهنى والابحاث(٣) ٠ أما الفئة الثانية فهى تتضمن الخدمات الاخرى التى تساعد على الارتفاع بالمستوى الصحى كالرعاية الاجتماعية والتعليم والعمل والترويح والنقل والمواصلات ورعاية الشباب والنظافة٠

ثانيا : العلوم الطبية والتغذية:

أفردت العلوم الطبية جانبا كبيرا من اهتمامها لموضوع الاطعمة

وتصنيفها وقيمها الغذائية وحاجات الجسم اليها ضمن ماأسمته بالغذاء الصحى. وتشترك علوم الحياة والطب والتغذية فى تقسيم الاطعمه المختلفة الى أربع مجموعات تتشابه أو تتقارب فيها القيمة الغذائية لاطعمة كل مجموعة، بحيث يحتوى غذاء كل انسان على صنف واحد على الاقل من كل مجموعة يوميا ، وعلى النحو التالى(٤):

١- الأغذية التى تبنى الانسجة وهى الغنية بالبروتينات كاللحوم والدواجن والاسماك والبيض، وتضاف اليها البقول كالفول والعدس.
٢- الأغذية التى تبنى العظام كاللبن ومنتجاته مثل الجبن والزبادى وهى الغنية بالكالسيوم والمواد البروتينية.
٣- الأغذية التى تحفظ للجسم حيويته ونشاطه كالخضروات والفواكه وهى غنية بالفيتامينات والأملاح.
٤- الأغذية المولدة للطاقة وتشمل الأطعمة النشوية كالخبز بأنواعه والارز والمكرونه والبطاطس والبطاطا ، والمواد السكرية كالحلوى والمربى والشربات ، والدهنيات من الزيوت والدهون بأنواعها المختلفة سواء كانت طبيعية أو صناعية .

وفى ضوء هذه الاهمية، وضعت العلوم الطبية والبيولوجية مجموعة من الشروط تحدد مواصفات الغذاء الكامل ، ومن أهمها:

١- أن يكون كافيا للطاقة اللازمة لكل فرد حسب عوامل السن والوزن والنوع.
٢- أن يكون كافيا بالنسب اللازمة من البروتينات والكربوهيدرات والدهون والفيتامينات والمعادن والأملاح.
٣- أن يكون الطعام جيدا، ومحفوظا وغير فاسد ، وبعيدا عن العدوى والسميات أو أى تلوث داخل أو خارجى.

وقد تناولت العلوم الطبية علاقة بعض الأمراض بالتغذية وطريقة الحياة والعوامل الاجتماعية. ومن تلك الامراض ارتفاع ضغط الدمHypertension ، والامساك

Constipation والأنيميا Anaemia لدى الحوامل فى المجتمع المصرى. ونعرض بإيجاز لما خلصت اليه تلك الدراسات الطبية المتاحة.

١- ارتفاع ضغط الدم : وقد أجريت الدراسة على مجموعة من التلاميذ مابين ١٢-١٥ سنة بالمدارس الحكومية والخاصة، نظرا لأن بدايات المرض توجد فى مرحلة الطفولة. واستهدفت الدراسة التعرف على العوامل السلوكية الفاعلة، فاختارت عينة عشوائية قوامها ٢٣٤ تليمذا وخلصت الى أن ٢٣ تليمذا كان معدل ضغطهم ١٣٠/٨٥ وأكثر، وأن ٢١١ تليمذا قل معدل الضغط لديهم عن ١٣٠/٨٥ واختبرت الدراسة علاقة ذلك بنمط المدرسة والسن والنوع(٥). وبالاضافة الى المتغيرات الحاكمة كالوزن والطول والسمنة، خرجت الدراسة بمتغيرات آخرى جوهرية ترتبط معظمها بالعادات الغذائية كشرب الشاى والقهوة والافراط فى استخدام ملح الطعام وأكل المخللات pickle .

٢- الامساك ومسبباته لدى البالغين(٦) ، وهى دراسة فى علم الصحة العامة، حاولت التعرف على أهم الاسباب المؤدية الى الامساك بالتطبيق على عينة قوامها ٤٠٠ شخص بالغ من كلية طب الازهر . وقد خلصت الدراسة الى أهمية تأثير نوعيات الطعام والعادات الغذائية- وخاصة تناول الخبز البلدى، والخبز الافرنجى (الفينو)، والمشروبات الغازية- على حركة التبرز، وبالتالى تؤدى الى الامساك. هذا علاوة على تأثير الضغوط النفسية فى هذه الحالة. وأظهرت نتائج الدراسة أن ٢٥٪ من العينة يعانون من الامساك بسبب العادات الغذائية ، وأن الامساك عرض وليس مرضا، وهو ظاهرة اجتماعية ترجع الى العادات الغذائية، وطريقة الحياة.

٣-الانيميا لدى الحوامل وهى دراسة تؤكد على انتشار الأنيميا بين سكان العالم بنسبة ٣٠٪ تقريبا، وأن معظم هذه النسبة تتركز فى فئة النسوة الحوامل، نظرا لمتطلبات الجنين من الحديد والفيتامينات خلال فترة الحمل. وبالتالى فان تزويد الأطعمة المختلفة بكميات من الحديد، والتعديلات الغذائية يعد طريقة مثلى لبرامج مكافحة الأنيميا(٧) . وقد طبقت

الدراسة على عينة عشوائية قوامها ١٧٨ من النسوة الحوامل فى الثلث الثانى من الحمل (٣-٦أشهر) اللاتى يترددن على مركز هليوبوليس الصحى بمدينة القاهرة٠ وانتهت الدراسة الى أن نقص الحديد يرجع الى عدم تناول الأطعمة الغنية بالحديد(حسب العادات الغذائية) ، أو الى رفض تعاطى الادوية المقوية الغنية بالحديد والفيتامينات (والتى ترتبط بمعتقدات شعبية فى مصر والهند وتايلاند خلاصتها تضخم جسم الجنين وبالتالى صعوبة الولادة)٠ كذلك أظهرت الدراسة أن نسبة ٣ر٣٨٪ من النسوة يعتقدن بأن الأملاح تضر الحامل، ونسبة ١ر١٣٪ منهن يعتقدن بضرر التوابل spices بينما كانت نسبة من يعتقدن بضرر الأطعمة المطبوخة خلال الفترة المذكورة ٣ر١٠٪ (٨)٠

ثالثا: نماذج البحث فى علم التغذية:

من المعروف أن الأطعمة وما يرتبط بها من تغذية، تعد قضية ثقافية بيولوجية Biocultural الى حد كبير٠ فامتصاص الطعام تترتب عليه عمليات بيولوجية، وهكذا يتأثر الاداء الوظيفى البيولوجى للفرد بامتصاص الغذاء على مدى حياته٠ غير أن طبيعة استيعاب الغذاء- ومايأكله الناس، وكم يأكلونه، وأين يأكلونه، وبأية كمية، وفى أى وقت- تحددها مجموعة من العمليات الثقافية والسياسية والاجتماعية(٩)٠ والواقع أن المتغيرات الاجتماعية تعد جزءا مكملا لنتائج التغذية، وذلك من خلال تقييم توزيع العنصر الغذائى على المستوى القومى ، وتحليل توزيع الأطعمة فى داخل المجتمعات والأسر٠

ومن ناحية أخرى، توجد بعض المشكلات المنهجية والنظرية التى تعوق تحقيق التكامل فى اجراء البحوث حول الجوانب البيولوجية والاجتماعية للتغذية ٠ ولعل مراجعة البحوث التى أجراها علماء التغذية والانثروبولوجيون تلقى الضوء على طبيعة تلك المشكلات٠ وتدلنا النظرة السريعة فى بحوث التغذية الى أنها تأخذ شكلا من الاشكال التالية(١٠) :

١- دراسات علماء الكيمياء الحيوية Biochemists للوظائف الفسيولوجية لبعض المواد الغذائية٠ وتحرص هذه الدراسات على اختبار علاقة مستويات مختلفة من العناصر الغذائية (كالفيتامين والمعادن والدهون٠٠٠الخ) بالتمثيل الغذائى ، أو ببعض مظاهر النمو أو بالمرض٠ وبالتالى يعتمد منهجها على تجميع معلومات عن مفردات - من البشر او الحيوانات-

مع التطبيق التجريبى لبعض المقاييس ذات الصلة بالموضوع. وهكذا يتم تحليل العلاقات القائمة بين المتغيرات المختارة، للوصول الى تعميمات عن العمليات الفسيولوجية لدى الانسان.

٢- المسوح السكانية واسعة النطاق Large-scale surveys of Population التى تستخدم المقاييس البيولوجية الكيميائية والاكلينيكية لتحديد الوضع الغذائى، أو اجراء مقابلات لاستنباط المعلومات عن امتصاص الغذاء ، أو أنماط التغذية ، أو كفاية الغذاء، أو عنهم جميعا. وفى هذه الفئة من البحوث ، يجمع الباحث معلوماته من الافراد ليصل الى تعليمات وصفية عن السكان على المستوى الأصغر (المجتمع المحلى) ، أو الأكبر(الدولة). وتتخذ التعليمات صورة نسب مئوية تشخص الحالات الغذائية الخاصة (مثل مستويات مصل الفيتامينات والمعادن) ومستويات استهلاك الطعام أو الكفاية الغذائية له .

٣- مسوح عادات الطعام Food Habit Surveys وهى تركز على الأطعمة التى يتناولها الأفراد والاسر الصغيرة والعائلات الكبيرة أو الجماعات الفرعية الاثنية والاقتصادية فى المجتمعات المحلية، خلال فترة معينة(يتم فيها تسجيل مايأكلونه على مدى يوم واحد، أو ثلاثة أيام، أو اسبوع) لتحديد عادات الطعام والاستهلاك الغذائى. ومع ذلك ، فهذه المسوح لاتعطى الاهتمام الواجب للمحددات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية المؤثرة فى الممارسات الغذائية.

رابعا : مظاهر اهتمام الانثروبولوجيا بالغذاء والتغذية :

على الرغم من اهتمام علوم عديدة بموضوع الغذاء كالطب والأحياء والانثروبولوجيا، الا أن الانثروبولوجيا الطبية تبرز اهتماما ملحوظا بالتغذية، ولا سيما أثر الثقافة والعوامل الاجتماعية المختلفة فى تحديد أنواع الطعام المقبول والطعام المرفوض، وتفصيل المحرمات الغذائية، والغذاء المناسب من وجهة نظر الجماعة ، والمعايير التى تحدد تناول الطعام والوقت المناسب والحجم المناسب، علاوة على ماتتبناه الجماعة من مفاهيم وتصورات عن السمنة والنحافة والجوع والبطنة، والشهية وفقدان الشهية.

ويلقى الانثروبولوجى أيضا الضوء على الرموز التى ترتبط بالاطعمة (كالخبز والملح ومنتجات الألبان) ، والأشربة (كالشاى والقهوة واللبن)، والأطعمة والتى تجسد الروابط والعلاقات الاجتماعية (مثل الكعك والبسكويت)٠ ومن ناحية أخرى فقد أبرزت الانثروبولوجيا الطبية علاقة الثقافة بالصحة والمرض، والعلاج والتغذية وتنظيم الأسرة، وسوء استخدام الأدوية والعقاقير(١١) ، بالاضافة الى علاقة الثقافة بكفاية التغذية ٠ فالثقافة تحدد أطعمة معينة، وتمنع أطعمة أخرى، وترسم طريقة وكيفية تناول الطعام ربما بأسلوب يحول دون الاستفادة البيولوجية منه٠ ولعل الاسهام الأكبر الذى قدمته الأنثروبولوجيا هنا يتمثل فى توضيح العلاقة بين الأطعمة والصحة والمرض، وبالتالى احتياجات الانسان فى مراحلة العمرية المختلفة من الغذاء اللازم لبناء الجسم٠ فاذا كانت الثقافة تسمح بتلبية هذه الاحتياجات بشكل صحيح، نما الجسم وتحسنت الصحة، وان كانت تحول دون ذلك تعثر النمو وساد نقص التغذية وسوء التغذية كما هو الشأن فى المجتمع الهندى الذى تحرم ثقافته الهندوسية ذبح الأبقار وتحريم اللحوم الحمراء ومنتجات الألبان(١٢)٠

وفى النهاية يتم الأنثروبولوجى بالتغير الاجتماعى والثقافى وانعكاساته على الطعام والتغذية، وماينتج عنه من مشكلات صحية وسوء التغذية٠ كذلك تتناول المشكلة فى علاقتها بالثقافة- وخاصة العادات الغذائية- وبالأوضاع الطبقية فى مختلف المجتمعات٠ وقد ركز بعض الأنثروبولوجيين على تأثير نقص عنصر غذائى كالبروتين مثلا عى الصحة ٠

<u>خامسا</u> : ما الذى يقدمه الأنثروبولوجى فى فى مجال التغذية ؟

كان نموذج البحث الأنثروبولوجى <u>قديما</u> يعتمد على وصف النسق الثقافى للمجتمع حتى وان كان قبيلة أو جماعة إثنية ethnic group - كالناڤاهو أو النوير- فيركز الباحث على بضعة اخباريين informants ثقات يمدونه بمعلومات شفوية حول " طريقة عمل الأشياء " ، أو" الاعتياد على فعل الأشياء " (١٣)٠ أما <u>حديثاً</u> فقد اعتمد البحث على دراسة ميدانية أو عمل ميدانى فى مجتمع محلى لوصف أنماطه

الثقافية ، والميل إلى الوصف المعيارى للقيم والمعتقدات والمعانى الرمزية للممارسات الخاصة ، وأنشطة الحياة اليومية وتدريب الطفل والصحة والمرض ، والمظاهر الخاصة للحياة فيه مثل حل الصراعات والتبادل الاقتصادى والعلاقات القرابية .

والواقع أن الأنثروبولوجيا تولى اهتماماً ملحوظاً بالتغذية ، إلا أن هناك بعض المشكلات المنهجية التى تعترض تكامل الجوانب البيولوجية والاجتماعية للتغذية فى مجال البحث الأنثروبولوجى ومنها :

(١) إن الأنثروبولوجيين وعلماء التغذية يستخدمون وحدات تحليلية مختلفة ، ويسعون نحو أنواع مختلفة من التعميمات . وهو ما يشبه موقف الأنثروبولوجيا الفيزيقية والأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية بما يصعب معه الوصول إلى أنثروبولوجيا بيولوجية ثقافية حقيقية . إلا أن البحوث البينية Interdisciplinary تساعد على التقريب بين العلوم والإفادة المشتركة التى تتجاوز الاختلاف فى وحدات التحليل والبناءات النظرية .

(٢) يتصور علماء التغذية أن العمليات الاجتماعية والثقافية سهلة القياس وبسيطة التركيب ، وبالتالى فمن السهل عليهم تحديد المستويات الطبقية وعادات الطعام من خلال سؤال الناس عن دخولهم ، أو عما يأكلونه فى وجبة الإفطار مثلاً ، فيحصلون على معلومات وفيرة وكافية لتحديد الكفاية الغذائية لهذه الوجبة . وكذلك الحال ينظرون إلى الإقامة فى مجتمع هامشى، أو فى قرية ، بمثابة المؤشر الكافى الدال على المكانة الاقتصادية المنخفضة . إلا أن كلاً من التقرير اللفظى (عن وجبة الإفطار) ، ومكان الإقامة يفتقدان الكفاءة والمهارة ، وإن كانا يحددان بعض الفروق فى المواقف الاقتصادية للأسر ، مما يؤثر على الحصول على الطعام وعلى امتصاص العنصر الغذائى . وبالتالى تتأثر المقاييس البيولوجية باختيار أسلوب القياس أو المقياس ذاته ، وهو ما يعد متغيرات اجتماعية وثقافية بالدرجة الأولى . ومن هنا فإن الأنثروبولوجى وعالم التغذية يحتاجان إلى تقدير متبادل للمشكلات المنهجية والنظرية فى علمى الأنثروبولوجيا والتغذية على حد سواء .

(٣) يهتم الأنثروبولوجى بالوصف المعيارى للمجتمع والثقافة فى مصطلحات عامة . وهنا يصعب على عالم التغذية الإفادة منها . ولكن تجاوز هذه المشكلة يستدعى أن يركز الأنثروبولوجى على بؤرة التنوع الثقافى فى السلوك والمعتقدات ، وبطريقة تعكس السلوك الفعلى للأفراد فى

حياتهم اليومية . وهنا يصف المجتمعات والثقافات فى ضوء معدلات التنوع وأشكال التباين التى تحكم حياة الإنسان فى مجالات الاقتصاد والسياسة والأسرة والقرابة والصحة والمرض والقانون والعرف والتربية والترويح ....الخ . ومن هنا تقيس المتغيرات الاجتماعية والثقافية سلوك الأفراد، كما تقيس المتغيرات والعوامل البيولوجية سلوكهم أيضاً . وبهذا يمكن ربط المعلومة الأنثروبولوجية بالمادة العلمية لدى علماء التغذية .

إلا أن السنوات الأخيرة تشهد/بعض المشكلات المنهجية فى الأنثروبولوجيا الثقافية والتغذية وذلك من خلال التعاون البينى فى دراسة الاختلافات فى استهلاك الطعام Food consumption، والكفاية الغذائية Nutritional adequacy والمكانة الغذائية Nutritional status (١٤). وقد أثمرت هذه الدراسات استراتيجية للبحث تعتمد على أهمية التنوع الثقافى الداخلى Intracultural diversity فى فهم العلاقة بين استهلاك الطعام وبين العوامل الاجتماعية والثقافية الأخرى . ومن هنا تمثلت أهم إسهامات الأنثروبولوجيين فى مجال التغذية فيما يلى :

١- فهم العلاقة بين استهلاك الطعام والعوامل الاجتماعية والثقافية .

٢- الكشف عن علاقة العادات الغذائية بالصحة .

٣- إبراز تأثير المعتقدات الغذائية على صحة الإنسان .

٤- الثقافة والدور الوقائى والعلاجى للأطعمة .

(١) فهم العلاقة بين استهلاك الطعام والعوامل الاجتماعية والثقافية :

قدمت الأنثروبولوجيا تفسيراً لطبيعة العلاقة من خلال بعض الدراسات التى تنتهج التنوع الثقافى داخل المجتمع . ومنها على سبيل المثال دراسة جيروم Gerome عن أنماط استهلاك الطعام لدى الأسر السوداء ذات الدخل المنخفض فى مجتمع ميلواكيه Milwaukee بوسكنسن Wisconsin بالولايات المتحدة . وقد طبقها على ثلاثة وعشرين اسرة . ومع تشابه الظروف التى تخضع لها تلك الأسر ، مثل العوامل القومية والسلالية والمكانة الاجتماعية والتعليم والمهنة والدخل والوضع الطبقى ، إلا أن الدراسة لم تصل إلى أية صورة متجانسة ، فى حين خلصت إلى تنوع واضح فى المأكولات وتفضيلات الطعام . وهنا يحتاج التنوع إلى تفسير ،

والاختلافات بين الأسر إلى تحديد الأسباب .

لقد انتهت الدراسة إلى تأثير عدد من العوامل الاجتماعية والثقافية الفارقة في استهلاك الطعام، ومنها خلفية الأسرة ، وطول مدة الإقامة في الجنوب ، ووقت الهجرة ، وطول مدة الإقامة في الشمال ، بالإضافة إلى ملكية المنزل ، وعضوية الكنيسة وغيرها . ولكن المهم في هذه الدراسة أنها ألقت الضوء على عملية الهجرة والتكيف الثقافي مع الثقافة والمجتمع الجديد ، وأوضحت كيف يتخلى المهاجرون عن الأساليب القديمة لاستهلاك الطعام ، كما يتعلمون في نفس الوقت استخدام موارد البيئة الجديدة واستغلالها .

أما الدراسة الثانية فقد أجراها دى والت DEWALT وبيلتو PELTO على مجتمع محلي مكسيكي للتعرف على العوامل المؤثرة في اختلافات استهلاك الطعام وتعقد عملية التغذية ، وهي تباينات تتدرج من خبز الذرة والحبوب وصلصة الفلفل الحار، إلى الأطعمة عالية التوازن والتنوع. وخرج الباحثان إلى أن معتقدات الناس حول الأطعمة تؤثر على استهلاكها ، وبالتالي يبدو أن النظام الغذائي المعقد يحكمه – إلى جانب المعتقدات – تركيب الأسرة والمهنة ومساحة الأرض ودرجة القرب منها . ومن ثم فهي تكشف عن العلاقة بين المعتقد والسلوك الغذائي ، وأنها ليست بدرجة البساطة التي نتصورها .

(٢) الكشف عن علاقة العادات الغذائية بالصحة :

العادات الاجتماعية Customs والعادات الفردية Habits جزء من الثقافة ، وبالتالي فهي تمارس تأثيرها الواضح على حياة الإنسان في سلوكه مع الآخرين وفي غذائه وفي صحته ومرضه ، وعلاجه ووقايته . والملاحظ أن القدر الأكبر من العادات في هذا المجال يرتبط بصحة الأم والطفل من ناحية ، والعادات الغذائية من ناحية أخرى . وسوف نعرض بإيجاز لأهم تلك العادات الغذائية في علاقتها بالصحة في مجتمعات مختلفة :

١- عادات الحمل والرضاعة والغذاء وهي تكشف عن عمق التأثير الواضح بين الثقافة وصحة الأم والجنين . وهناك شواهد إثنوجرافية تدل على ذلك فالأم في نيجيريا تحد من التغذية في أثناء الحمل ، وتفطم طفلها بشكل مفاجئ . وفي جيبوتي تحضها العادات الغذائية على الحد من تناول الغذاء الغني بالبرتين كالسمك والبيض ولحم الإبل (١٥). وفي بعض الأحيان تقلل الحامل

من الطعام خشية القئ أو تضخم حجم الجنين . ونفس الشئ يحدث فى مصر حسبما أكدت الدكتورة سلمى جلال (١٦). وفى مناطق أخرى أفريقية تمتنع الحوامل عن تناول الأطعمة الباردة كالأرز واليخنى والموالح والسمك المقلى والمملح ، لأن العادات والمعارف الشعبية السائدة تؤكد أن الطعام البارد يوقف إدرار اللبن ، أو يؤدى إلى طفيليات فى المعدة .

والواقع أن معظم العادات الغذائية هنا ترتبط بدور المرأة فى المجتمع ، لأنها المسئولة عن إعداد الطعام والحفاظ على ثقافته Food lore ، ولارتباط دورها أيضاً بميلاد الأطفال ورعايتهم وإرضاعهم وتنشئتهم على العادات الغذائية فى صغرهم ، سواء كانت عادات سيئة تضرهم أو حسنة تنفعهم . ومن العادات الغذائية النافعة للحامل فى الصومال إطعامها بالكبد نصف المطبوخ وخاصة إذا كانت تعانى من الأنيميا ، كما تحث العادات هناك أيضاً على تقديم اللبن بكميات كبيرة للحوامل والمرضعات . وهنا يصدق تأكيد الأنثروبولوجيا على أن التغذية هى حجر الزاوية فى الصحة .

٢- العادات وصحة الطفل وهى تؤكد على أن الفرد لا يولد مريضاً ولكنه لديه الاستعداد الفطرى للإصابة بأمراض محددة . فالوالدان المصابان بالبول السكرى ، قد يصاب ابنهما بهذا المرض مع تقدم السن ، أو تحت تأثير ظروف أخرى أهمها العادات الغذائية الضارة . ومن ناحية أخرى هناك عادات تدور حول مرض الحصبة الذى ينتشر بشكل وبائى بين أطفال جنوب السودان، نظراً للعادات السائدة التى تقضى بألا يلامس الطفل المصاب الماء ، ولا يخرج فى ضوء الشمس ، وبالتالى تموت غالبية الأطفال بالحصبة لحدة المرض وضعف المقاومة (١٧) .

٣- العادات وصحة الكبار ونشير هنا إلى بعض العادات الضارة التى تسبب المرض كالإمساك الناتج عن الإفراط فى تناول المشروبات الغازية ، والاعتماد على الخبز الأبيض (الفينو)، والاعتماد أساساً على الخبز فى معظم الوجبات الغذائية . كذلك هناك عادات التدخين والاعتماد على الأطعمة المحفوظة ، وعلى الزراعات الغذائية المعتمدة على الأسمدة النيتروجينية ، وما يترتب على مادة " نايتروسامين " ذات التأثير السرطانى من أورام (١٨) . ولعل ما أثارته علوم الطب والبيولوجيا والإيكولوجيا عن السرطان وارتباطه بالغذاء والشراب، ليؤكد دور العادات الغذائية فى صحة الكبار والصغار معاً . وتذهب الدراسات فى هذا المجال إلى أن المسرطنات

تنقسم إلى مسرطنات جوانية كالعرق (السلالة) والوراثة والعمر والنوع (الجنس) ، ومسرطنات خارجية وأهمها ما يحيط بنا ويشكل البيئة الخارجية للفرد ، ويتأثر بمختلف ملوثات الوسط المحيط (١٩) . وقد أسفرت هذه الدراسات عن نشأة فرع جديد يسمى "علم السرطان الغذائى " Nutritional Cancerology .

٤- العادات والصحة العامة : الصحة العامة نشاط اجتماعى وثقافى ، يؤدى إلى إنجاز الأفراد لأدوارهم الاجتماعية فى المجتمع . ولذلك يعكس الإطار الاجتماعى صحة الأفراد ، لأنه يحدد كيف يعيشون ، وماذا يأكلون ، وفيم يعتقدون ، وأية قيم يتصورون ، وهنا ساعدت الأنثروبولوجيا فى رسم وتخطيط برامج الصحة العامة، ومنها برنامج تدريب القابلات القرويات فى مدينة أم درمان بالسودان منذ عام ١٩٢٠ وحتى الآن ، مما يشير إلى احترام المخطط الصحى لعادات الناس (٢٠) .

إلا أن هناك برامج للصحة العامة لا تراعى عادات الناس فتفشل . ومن ذلك الحملة الصحية الداعية إلى غلى الماء قبل شربه حفاظاً على الصحة العامة فى قرية لوس مولينوس Los Molinos فى بيرو . فقد فشلت بسبب عادات التغذية السائدة ، والتى تقسم المأكولات والمشروبات إلى ساخن يشير إلى المرض والضعف ، وبارد يشير إلى الصحة والقوة . وبالتالى فغلى الماء غير مستساغ ، كما أنه يقلل من المكانة الاجتماعية لشاربه ويرمز إلى مرضه وضعفه (٢١) .

(٣) إبراز تأثير المعتقدات الغذائية فى صحة الإنسان :

أبرزت الأنثروبولوجيا دور المعتقدات Beliefs - المرتبطة بالأطعمة - فى صحة الإنسان فى مجتمعات مختلفة .ولعل ذلك الدور يزداد وضوحاً فى مجال المحرمات الغذائية Food taboos، وأساليب تغذية الأطفال ورعايتهم .

أ- فقد أوضح وايتنج J. Whiting أن نظام المحرمات والفطام المتأخر Late weaning قد تقى الأطفال من الهزال الشديد kwashiorker أو تساعد على انتشاره . وينتشر هذا الهزال فى البيئات الحارة الرطبة التى تنمو فيها المحاصيل الغذائية النشوية قليلة البروتين ، وبالتالى يعتمد عليها المجتمع فى الغذاء . إلا أن الأم المرضعة قد تعوض رضيعها عن نقص البروتين الغذائى بلبن الرضاعة طالما لم تحمل . غير أن طول مدة الرضاعة يقل فيها برتين لبن الأم ، وينقص

البروتين بالفعل فى الغذاء النشوى ، مما يؤدى إلى الهزال الشديد . ..

ب- وهناك معتقدات تسود شعوب أمريكا الجنوبية وجنوب شرق آسيا ، مستمدة من نظرية الأخلاط لأبوقراط ، ومعتقدات أخرى فى الهند خلاصتها أن الصحة تعتمد - فى جانب منها - على توازن واضح بين الساخن والبارد Hot and cold complex . وفى جواتيمالا توجد طرق للوقاية من الرعشة Chilling تتمثل فى تجنب شرب الماء البارد ، والإكثار من الأغطية والملابس الثقيلة (٢٢) .

جـ- وفى مجتمعنا المصرى تحدد المعتقدات والعادات تغذية الطفل الرضيع بالعناصر النشوية كالبطاطا والبطاطس والأرز ، دون تغذيته بالبروتينات فيحدث فقر الدم . كذلك يسود الاعتقاد بأن الرضاعة الطبيعية تشوه جمال الجسم ورشاقته فى بعض الأحيان ، فيزداد الاعتماد على الرضاعة الصناعية فتكثر النزلات المعوية بين الرضع . وفى الريف المصرى تعتقد الأمهات أن الرضيع لا يستطيع تناول غذاء مساعد مع الرضاعة قبل الشهر الرابع ، فى حين يمكن له أن يتناول الغذاء السائل الخارجى منذ شهره الثانى مباشرة .

د- وعلى نفس المنوال ، هناك معتقدات لدى نساء ريف وبادية الجيزة بمصر تجعلهن يرفضن إعطاء عينة دم فى الوحدة الصحية ، اعتقاداً بأن خروج نقطة دم من الوريد تعنى المرض والضعف . وبالرغم من أن هذه العينات ضرورية للتحليل وتطعيم الحوامل ضد التيتانوس ، إذا دعت الضرورة ، والحفاظ على صحة الأم والطفل ، والاستفادة من خدمات تنظيم الأسرة ، إلا أن المعتقدات السائدة تعرقل هذه الخدمات (٢٣) . كذلك تعتقد النسوة هناك بأن حبوب تنظيم الأسرة تؤدى إلى العقم أو السرطان ، وبالتالى يرفضنها .

هـ- وفى جزيرة جاوا Jawa بأندونيسيا تعتقد المرأة بأن السمك المجفف ضار بصحة الأطفال ، على الرغم من أنه البروتين الحيوانى الرخيص الوحيد الذى يمكن الحصول عليه . وكذا المستشفيات لا تقدمه للمرضى لنفس المعتقد (٢٤) . وغير السمك فى جاوا ، هناك البيض فى بعض مجتمعات أفريقيا الاستوائية ، حيث يعتبر من المحرمات على النساء ، بالرغم من حاجتهن الماسة إليه . وقد تضطر المرأة - تحت الإغراء - أن تأكله وتأكل الأطعمة المحرمة الأخرى فى الخفاء وبعيداً عن بيتها ، وحينما ترجع إلى بيتها لا تذق له طعماً بعد ذلك مراعاة للمعتقدات .

و- تحدد المعتقدات الأسلوب الغذائى للإنسان فى المجتمع ، بما تضعه من قيود على أطعمة، وبما تسمح به من أطعمة أخرى . ولعل تحريم المعتقدات للحوم الحمراء والمصادر البروتينية الحيوانية فى الهند وفى المجتمع الأمريكى مثال على ذلك . حيث يتحمس الناس للحركات والمذاهب التى تنادى بالأطعمة الصحية حسب الاعتقاد ، ومنها حركة الطعام الصحى Healthy Food Movement بالولايات المتحدة ، والمذهب النباتى Vegetarianism الذى تزعمه غاندى فى الهند ، وجورو مهراجى Maharaji G فى المجتمع الأمريكى (٢٥) . وقد سادت بعض التصورات عن هؤلاء النباتيين تصفهم بالوسامة والوجاهة ، والتميز حيث يعرفون بسيماهم من أول وهله .

(٤) الثقافة والدور الوقائى والعلاجى للأطعمة : حددت الثقافة مواصفات خاصة لبعض الأطعمة والأشربة يستخدمها الإنسان فى عمليات العلاج والوقاية ، من خلال رحلته التاريخية الطويلة مع المحاولة والخطأ والحس التجريبى . وقد كشفت الأنثروبولوجيا عن العديد من العناصر الغذائية الطبية ، التى يستخدمها الإنسان فى التداوى وهى تدخل تحت " الطب الشعبى" وتختلف من مجتمع لآخر ، ومن بيئة لأخرى . وقد ساعدت هذه الممارسات على صياغة إحدى نظريات الطب الشعبى وهى نظرية العلامات Signatures التى تذهب إلى أن جميع العناصر الطبيعية (كالنباتات والحيوانات والطيور والأحجار والسوائل وغيرها) ، تحمل إشارة أو علامة معينة تدل على الحاجة الإنسانية ، أو الوظيفة التى يمكن أن تؤديها لخدمة الإنسان (٢٦) ، ومن بينها الأطعمة موضوعنا الرئيسى .

ومن الأمثلة على ذلك استخدام الزعفران (وهو ذو لون برتقالى) فى علاج الصفراء ، والأعشاب ثلاثية الأوراق (على شكل القلب) لعلاج أمراض القلب ، والورود الحمراء توصف لعلاج الدم وتنقيته . أما النباتات كثيرة البذور (كالجوافة والرمان) فهى تستخدم فى علاج العقم، على حين لا تستخدم النباتات غير المزهرة (كالخس والعرعر) حتى لا تؤدى إلى العقم . وعلى نفس السياق فإن أكل التفاح والعنب أو شرب عصيرهما يقاوم ارتفاع ضغط الدم لاحتوائهما على الحوامض العضوية .

وهناك استخدام طبى شعبى لبعض المواد الغذائية فى السودان مثل وضع الجبن الطرى على

الجروح لمنع تورمها ، واستخدام الجبن القديم كعلاج للقروح الردية ، وللمريض بعد العمليات الجراحية (٢٧) . وتتعدد فى المجتمع المصرى الشواهد الثقافية الدالة على ذلك ، وقد سبق لنا تناوله فى دراستنا عن الجوانب الاجتماعية والثقافية للخدمة الصحية . ونأمل أن نعالج المعتقدات الغذائية بالتحديد فى دراسات ميدانية لاحقة بإذن الله .

* * *

أهـــم المراجــــع

(١) د. جبر متولى سيد ، الصحة العامة وطب المجتمع ، غير مبين الناشر ، القاهرة ، ١٩٩٠، ص ١٤٨ .

(٢) د. على المكاوى ، البيئة والصحة : دراسة فى علم الاجتماع الطبى ، دار المعرفة الجامعية، الأسكندرية ، ١٩٩٥ ، ص ١٥٥ .

(٣) د. صلاح أبو طالب وزميله ، التربية الصحية ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة، ١٩٩٠ ، ص ص ٤١ - ٤٥ .

(٤) د. جبر متولى سيد ، مرجع سابق ، ص ص ١٥٤ - ١٥٥ .

(٥) Salma Galal et al , Some Behavioral Factors Determining Blood pressure in 12- 15 years old , Med . J . Cairo Univ . Vol . 59, No . 4 : 1991 , p. 1199.

(٦) Salma Galal et al , Some Determinants of Constipation in Adults , J . Biomed . Sci . Ther., 9 (7) I July 1993 , pp . 87 - 88 .

(٧) Salma Galal et al , Client - Centred Interview Effect on Iron Intake of Pregnant Women , Ain Shams Medical Journal , Vol . 43, No . 10,11,12 , Oct., Nov . , Dec . 1992 , p . 589 .

(٨) Ibid , p . 590 .

(٩) Logan , M . and Hunt , E . , Health and Human Conditions , Wadsworth Publhshing Co . Inc ., California , 1978 , p . 322 .

(١٠) Ibid , p . 323 .

(١١) د. على المكاوى ، الأنثروبولوجيا الطبية : دراسات نظرية وبحوث ميدانية ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٩٦ ، ص ٤٥ .

(١٢) المرجع السابق ، ص ٧٢ .

(١٣) Logan and Hunt , OP . Cit ., p . 323 .

(١٤) Ibid , p . 324 .

(١٥) د. على المكاوى ، الأنثروبولوجيا الطبية ، مرجع سابق ، ص ٥٧ .

(١٦) Salma Galal et al , Client - Centred Interview ..., Op . Cit ., p . 589 .

(١٧) د. حسن بله محمد الأمين و د. ديفيد مورلى ، أولويات صحة الطفل فى العالم العربى ، دار المنارة ، جدة ، ١٩٨٦ ، ص ٢٢٥ .

(١٨) د. على المكاوى ، البيئة والصحة ، مرجع سابق ، ص ٧٤ .

(١٩) د. سعيد الحفار ، البيئة والأورام : علم السرطان البيئى الوقائى ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٩٠، ص ص ٢٣٦ - ٢٣٧ .

(٢٠) د. حسن بله محمد الأمين وآخر ، مرجع سابق ، ص ٢٣٣ .

(٢١) د. د. على المكاوى ، الأنثروبولوجيا الاجتماعية ودراسة التغير والبناء الاجتماعى ، مكتبة نهضة الشرق ، القاهرة ، ١٩٩٠ ، ص ٢٩٥ .

(٢٢) د. على المكاوى ، الأنثروبولوجيا الطبية ، مرجع سابق ، ص ٣١ .

(٢٣) تتفق هذه النتائج مع دراسة الدكتورة سلمى جلال وزملائها لتأثير تناول الحوامل للحديد ، سابقة الذكر ، ص ٥٨٩ . وأنظر دراستنا عن الجوانب الاجتماعية والثقافية للخدمة الصحية، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٨٨ ، ص ص ١٩٦ - ١٩٧ .

(٢٤) د. على المكاوى ، الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، مرجع سابق ، ص ٢٩٤ .

(٢٥) Logan and Hunt , Op . Cit ., p . 326 .

(٢٦) د. محمد الجوهرى ، علم الفولكلور ، جـ ٢ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ٤٧٥ .

(٢٧) د. على المكاوى ، الطب الشعبى فى السودان ، فصل فى الأنثروبولوجيا الطبية ، مرجع سابق ، ص ٢٤١ .

* * *

الفصل الثامن

الانثروبولوجيا الطبية و علاج العقم

علاج العظام
بين المجبّر والطبيب

مقدمة

يتعرض الإنسان فى نشاطه اليومى لتوترات وإصابات عديدة تؤثر على صحته. ولا يخلو مجتمع من تلك الحالات والمواقف التى يصاب فيها الإنسان بالارتطام بأجسام صلبة، أو حوادث السيارات، أو السقوط من أماكن مرتفعة وغيرها. وهنا تحدث أمراض وكسور العظام لأسباب بيئية ناجمة عن طبيعة حياة الإنسان ونشاطه وحركته. وكذلك قد ترجع هذه الأمراض إلى عوامل وراثية. والملاحظ أن زيادة نشاط الإنسان وعمران الأرض، يعقبه زيادة التنافس والصراع لامتلاك الثروة، والاستئثار بالموارد، وبالتالى يزداد السعى للبحث عن موارد جديدة فتتسع دائرة الحركة، وفى ظلها تكثر كسور العظام.

والواقع أن تاريخ الطب يمثل حلقات متصلة ومتعاقبة بدأها الإنسان بالمحاولة والخطأ، والاعتماد على المتاح من الموارد والأساليب العلاجية، ومن هنا بدأ العلاج الشعبى للعظام (التجبير). وفى المراحل الحديثة تقدم الطب، فتقدمت معه الأساليب العلاجية الرسمية (طب العظام). وقد نتوقع تغلب طب العظام الحديث على الطب الشعبى، فى ضوء التقدم العلمى للطب والممارسات الطبية فى مشارف القرن الحادى والعشرين. إلا أن الملاحظ أن التجبير لا يزال يحظى بمكانة واضحة على الخريطة العلاجية فى مصر، إن لم يكن فى اطراد، علاوة على سعة جمهور المجبرين وتنوع فئاتهم، وذيوع شهرتهم، حتى جاوزت الحدود المحلية والإقليمية فى بعض الأحيان. وتصدق هذه الملاحظة على مجتمعات عربية خبرناها وعايشنا الخدمات الصحية فيها عن قرب ومنها مصر والسودان وقطر والسعودية والإمارات العربية.

(*) أستاذ علم الاجتماع والانثروبولوجيا المساعد بكلية الآداب - جامعة القاهرة.

إن السؤال يطرح نفسه مرات، ويلح على المهتمين بالخدمات الصحية من الأطباء والصيادلة والممرضات والاجتماعيين والانثروبولوجيين وغيرهم: لماذا يظل العلاج الشعبى للعظام موجوداً وفى تزايد، على الرغم من تقدم الطب الحديث وكفاءة أجهزته وأساليبه العلاجية؟.

ولعل الإجابة على هذا السؤال تستلزم تناول الموضوعات التالية:

أولاً: مبادئ الطب الشعبى.

ثانياً: أنماط التفاعل بين الطب الشعبى والطب الرسمى.

ثالثاً: الدراسات الانثروبولوجية والفولكلورية والطب الشعبى.

رابعاً: الطب الشعبى وتجبير العظام.

خامساً: المجبّرون فى الوطن العربى: دراسات حالة.

سادساً: أيهما أبقى : المجبر أم الطبيب؟

• • •

أولاً: مبادئ الطب الشعبى

لما كانت الممارسات الطبية الشعبة أسبق ميلاداً من الطب الحديث، فمن الطبيعى أن تكون أوسع إنتشاراً، ويزداد هذا الانتشار اتساعاً وتنوعاً بخلو الساحة من الخدمات الصحية الرسمية، القادرة بإمكانياتها العصرية الهائلة على مواجهة الأمراض والتغلب عليها. ففى مجتمع إبدان Ibdan بنيجيريا، حيث عجزت المستشفيات عن الوفاء بحاجات الناس الصحية، استمر الناس فى اعتمادهم وتعاملهم مع الممارسات الطبية الشعبية المتوافرة [١]. وفى المجتمع اليمنى كان الناس يمارسون وسائل بسيطة سهلة التغلب على مشكلات المرض. غير أن قصور الخدمات الصحية الرسمية جعلهم ينكبون على الممارسات الطبية الشعبية المتاحة للجميع وفى أى وقت، وإن كانت تختلف من بيئة إلى أخرى [٢]، ومنها المعالجات السحرية والنفسية، ومنها المعالجات بالأعشاب الطبية، ومنها كذلك الخبرات العملية فى التعامل مع الكسور والجروح والآلام والحميات والأمراض الجلدية وغيرها، وإن كانت الدراسة التى أجريت فى اليمن حول الخدمات الصحية فى عام ١٩٨١ تشير إلى أن نسبة ١٦٪: ٢٠٪ من

الناس يعتمدون على الممارسات الشعبية والتداوى الشعبى الذاتى لمشكلاتهم الصحية.

وعلى الرغم من اتصال الناس الدائم بالطب الحديث وبالغربيين على وجه العموم فى "جوهانسبرج" بجنوب أفريقيا؛ فإن حوالى ٧٠٪ منهم لا يزالون يتعاملون مع الطب الشعبى، ولا يلجأ إلى الأطباء منهم إلا حوالى ٣٠٪ فقط[٣] فى الوقت الذى تشن فيه السلطات الرسمية فى البلاد حرباً ضروساً على الممارسات الشعبية.

وأما فى مجتمعنا المصرى، فعلى الرغم من توافر الخدمات الصحية الرسمية فى جميع البلاد ولجميع الفئات الاجتماعية، فإن هناك العديد من الممارسات العلاجية الشعبية، فضلاً عن أن المصريين لا يقتصرون على مصدر واحد للتداوى من المرض، بل يلتمسون شتى السبل المتاحة سواء كانت استشفاء بالأولياء، أو بالطب السحرى[٤]، أو بالطب العشبى، والوصفات المنزلية وغيرها من الممارسات والطقوس الشعبية من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنهم يطرقون كذلك - فيما يطرقون - أبواب الخدمات الصحية الرسمية، أى أنهم - فى بحثهم عن العلاج - لا يدعون باباً إلا طرقوه، رسمياً كان أو غير رسمى، طبيباً كان أو ممارساً شعبياً.

وإذا تصفحنا الدراسات المصرية حول الطب الشعبى - دونما تكرار لمحتوياتها - لوجدنا فيها نوعاً من الإجماع العام على النقاط الأساسية التالية :

١- أن إقبال الجمهور على المعالجين التقليديين لم يؤثر بشكل واضح على اتجاههم نحو الخدمات الصحية الرسمية حين تتوافر لديهم باستمرار، كما أنهم لا يرون تعارضاً بين الخدمات الرسمية وغير الرسمية [٥].

٢- أن ممارسى الطب الشعبى يعتمدون فى ممارستهم على خبرة عملية طويلة اكتسبوها عن طريق وراثة المهنة كالحلاق والداية على سبيل المثال، وهم لذلك "حرفيون مهرة"[٦] فى مزاولة العلاج، علاوة على أن بعضهم قد أضاف إلى خبرته الوراثية مهارات جديدة من خلال عمله فى المؤسسات الصحية الرسمية كتمورجية، أو موالدت، أو العمل مع الأطباء فى عياداتهم الخاصة بالمدن والريف حالياً.

٣- أن بعض الممارسين الشعبيين - من غير أبناء الأسر التى احترفت الممارسة الشعبية - قد استطاعوا أن ينموا مهاراتهم وخبرتهم عن طريق اشتغالهم بالمستشفيات، كما استطاع بعضهم أن يفعل نفس الشئ عن طريق العمل فى عيادات الأطباء الخاصة بالمدن والريف

حالياً. ويزاول هؤلاء وأولئك العلاج فى القرى على نطاق واسع وإن كانوا يجمعون فى أساليبهم العلاجية بين الطرق التقليدية، والطرق الحديثة[٧]، فهم يقومون مثلاً بالفصد والخزم والحجامة، وفى نفس الوقت يعطون الحقن ويصفون أنواعاً معينة من الأقراص والشراب... الخ.

٤- أنَّ صراع الإنسان مع المرض مسألة إنسانية يشترك فيها بنو البشر جميعاً، غير أن قصور الخدمات الصحية الرسمية عن مطالب الناس - ولاسيما فى الريف - يحتم وجود نسق طبى غير رسمى، يلجأ المكروبون إليه ينشدون معونته وغوثه، ويلوذون به فى غيبة النسق الطبى الرسمى[٨].

٥- تجمع الدراسات الحالية على ترتيب معين لأنواع الخدمات الصحية غير الرسمية، ولمدى اعتماد الجمهور عليها، على النحو التالى :-

أ- الداية.

ب - حلاق الصحة.

جـ - المجبر.

د - المشايخ (السحرة) رجالاً ونساءً.

هـ - العطار.

و - الاستشفاء بالأولياء.

ويتبين لنا من الترتيب أن أكثر الخدمات الصحية مساساً بالجمهور، هى المهن القائمة على الاحتراف الفنى والخبرة الأوسع، وهذا منطقى لأن النتائج تظهر فوراً كالتوليد أو فتح الخراريج أو التغيير على الجروح.. الخ، بينما لا يلمس الناس نتائج فورية لدى السحرة مثلاً، بل ربما لم تظهر نتائج على الإطلاق، فإذا بدا للساحر ضجر أو برم أو استعجال للنتائج، أنحى الساحر عليهم هم باللائمة وعلى كيفية تنفيذ الوصفة.

• • •

ثانياً: أنماط التفاعل بين الطب الشعبى والطب الرسمى:

إن الخدمات الصحية التى يقدمها الطب الشعبى ليست وهماً أو ثمرة تفكير خرافى أو

غيبى، على عكس معظم العناصر الاعتقادية الشعبية الأخرى. ولذلك فليس لنا أن نتوقع أن تختفى بين عشية وضحاها من مجتمع يأخذ بأسباب العلم الحديث، فهو فى بعض جوانبه يمثل ذخيرة من الخبرة الشعبية المتوارثة التى صقلتها المحاولة والخطأ[١٠]. ولعل هذا البعد هو الذى يحدد شكل المواجهة بين النسقين الطبيين: الشعبى والرسمى ودرجة حدتها.

إن سلوك الإنسان حيال الطب الشعبى سلوك نسبى بين الفقراء والأغنياء، وهكذا فإن الأبعاد الطبقية والتعليمية فارقة فى الجانب العقلانى منه، ولكن الأبعاد ذاتها ليست فارقة فى الجانب الدينى – السحرى ،فالمتعلمون والفقراء والأغنياء يفزعون إلى الممارسات العلاجية الدينية السحرية، مع اختلاف فى البواعث فقط. فإذا كان الباعث للفقراء هو الفقر فإن الباعث للأغنياء هو استعصاء المرض، بينما يدفع المتعلمين إليه فشل الطب الرسمى أو استعجال نتائجه. وإذن فإن الممارسات الطبية الشعبية باقية، ولا يزال ممارسوها موجودين بل إن من اليسير العثور عليها حتى داخل بعض الوحدات الصحية الريفية فى مصر (بمركز العياط/ جيزة)، حيث كشفت دراستنا الميدانية[١١] عن قيام بعض عمال الصحة "بفتح الكتاب" للأطفال المرضى، وعمل الأحجبة والرقى لهم علاجاً لمرضهم، ووقاية من الأمراض الأخرى. ومن ناحية أخرى يقوم بعض السحرة فى القطاعات الريفية والبدوية والحضرية بالجيزة بتقديم العلاج السحرى مع كتابة أدوية حديثة فى قصاصة ورق، وتصرف من الصيدلية. والملاحظ أن المريض أو أسرته تحرص على الجمع بين الخدمات التى يقدمها طبيب الوحدة وبين الخدمات التى يقدمها السحرة. كذلك فإن المريض الذى يكشف عند طبيب الوحدة، يحرص على استشارة الحلاق والساحر حول جدوى الأدوية التى وصفها الطبيب، ولهما الكلمة الأولى فى صرفها أو تغييرها. وأما عن المجبراتى فقد مرض ذات مرة وحُجز بمستشفى أم المصريين، ومع ذلك كان يعالج كسور العظام لبعض المرضى، حتى أقبلوا عليه وحدثت المواجهة بينه وبين الأطباء الذين أعجبتهم مهارته. كذلك مارس المجبراتى نفس الخدمة لبعض المرضى بمستشفى قصر العينى حينما حُجز فيه لعلاج كسر فى عظام الترقوة.

ومع ذلك فإن واقع البلدان المتقدمة يؤكد انسحاب خدمات الطب الشعبى أمام زحف المستشفيات والخدمات الصحية الرسمية، بل إن بعضها – مثل ألمانيا الغربية – قد قام بترشيد معظم عناصر الطب الشعبى، وتطوير المفيد منه، واستبعاد كل ما يثبت علمياً مخالفته للقواعد الصحية. كما استخلص الألمان المطهرات والعقاقير من الأعشاب الطبية – والملاحظ أن هذه الأعشاب ليست كلها محلية، بل يقومون باستيرادها. ويأتى "الشيح" على رأس هذه الأعشاب

...ى يستوردونه من مصر، حيث يزرعه أهل الفيوم ويجففونه. ومن كل هذه الأعشاب يصنع الألمان المطهرات التى لا تغيب عن البيت، ولا يخلو منها مستشفى، وعلاوة على ذلك فإنهم يستغلونها فى صناعة مستحضرات التجميل، وتصديرها إلى مصر ثانية مثل الكريمات (كاميل) وغيرها. أما فى المجتمع الأمريكى فإن ربع الأدوية هناك مستخلصة من الأعشاب الطبية، حتى أقامت جامعة "إلينوى" بشيكاغو محطة تنمو فيها هذه النباتات وتشخص فيها العقاقير وتعالج كيماوياً (١٢). كذلك أنشأت منظمة الصحة العالمية وحدة بحوث للطب الشعبى فىمسكيكو العاصمة لتجرى بحوثاً دوائية على نباتات معروفة فى الحضارات القديمة مثل الأزتيك والمايا وغيرها. ولعل مرد هذا الاهتمام أنهم يعتبرون الحياة بمثابة وحدة تضم الجسم والحواس والعقل والروح معا. وبالتالى فإن تأكيدهم على الجوانب الأخلاقية والروحية هو الذى يعطى هذه الحياة أبعاداً جديدة لنظم الرعاية الصحية، وهذا ما ينقص الطب الرسمى حالياً.

وإذا تأملنا واقع المواجهة بين الطب الشعبى والطب الرسمى فى البلدان النامية – كمصر على سبيل المثال – وجدنا أن هناك بعض ميادين الطب الشعبى استطاعت أن تثبت فى جبهة المواجهة مع الطب الحديث، مثل : أمراض النفس والأعصاب، وأمراض الأسنان والعقم، وهى تتوقف على تعديل البيئة الأسرية والاجتماعية المسئولة عن المرض، مما ليس فى مقدور الطبيب.

وقد تدعم الطب الشعبى أمام الطب الحديث بفضل تفسير الناس لأسباب المرض إذ أن طبيعة التفسير هى التى تحدد نوع العلاج المطلوب، سواء كان حديثاً، أو تقليدياً. ومن ناحية أخرى فإن تحديد نوع العلاج المطلوب يتوامم مع المفاهيم السائدة عن المرض وأسبابه، ويعتمد على تقييم الإمكانيات المتاحة فى كل نسق، فعندما يصاب المواطن فى الريف المصرى مثلاً، فلابد له من أن يطرق كل الأبواب المختلفة لعلاجه بالأساليب الحديثة أو الشعبية أو السحرية – الدينية، وربما تداوى المريض بها جميعاً واحدة بعد أخرى، وربما تداوى بها جميعاً فى نفس الوقت. والملاحظ – برغم ثقة القرويين فىالطب الرسمى – أنهم يهجرونه إلى الوسائل التقليدية، لأن هناك مساحات من الممارسة الطبية يتفوق فيها الطب الشعبى، مثل : التوليد، وعلاج الحسد، والعلاج الروحانى بمختلف مفاهيمه، بالإضافة إلى القصور الواضح فى أداء الخدمات بالوحدات الصحية(١٣)، مما يفسره الجمهور بعدم العناية والإهمال والتعالى.

وعلى أيـة حـال فـإن المواجهـة الحاليـة بين خدمـات الطب الرسمى، وخدمـات الطب الشعبى تتخذ نمطاً - أو أكثر - من هذه الأنماط التفاعلية الثلاثة:-

١- نمط تغلب الخدمات الصحية الرسمية على الخدمات غير الرسمية.

٢- نمط تغلب خدمات الطب الشعبى على الخدمات الصحية الرسمية.

٣- نمط المهادنة والتعايش بين نوعى الخدمات الصحية.

(١) نمط تغلب الخدمات الصحية الرسمية على الخدمات غير الرسمية:

ويبدو هذا النمط من خلال اكتساح المـواد العلاجيـة الحديثـة حاليـاً - كـالقطرة ومراهم العين - للأساليب التقليدية فى علاج التهاب العيون، وبخاصة وأن استخدام هذه المـواد صـار مألوفاً فى إطار العلاج المنزلى، فالقرويون يشترونها مباشرة من الصيدليات ويتداولون بها، ما لم تكن درجة التهاب العين مقلقة، وما لم تكن الحالة ملحة فعـلاً إلى الطبيب. (٢٤) كذلك فقد صار الحصول عليها ميسوراً من المدينة، أو عن طريق سائقى السيارات، بل إنها تتوافر الآن فى الصيدليات التى افتتحت مؤخراً فى القرى، بالإضافة إلى توافرها عند الحلاقين فيمـا قبل، وفى بعض محلات البقالة أحياناً، وانحسرت تبعاً لذلك الوصفات الشعبية لعلاج التهاب العين، مثل استخدام "المحارة وحجر الطرفة"، وتقطير ماء البصل فى العين، والشبم الأبيض مضافـاً إليه لبن ثدى المرضع، واللبخة، وكمادات اللبن الرائب، وتقطير التوتيات الزرقاء أو الحمـراء فى العين.. الخ.

ويشير الدكتور حسن الخولى إلى أن الأساليب التقليدية لعلاج "الإسهال" عند الأطفال قد انحسرت أمام المد الطبى الحديث، حيث عمت الخدمات الصحيـة فـى السنوات الأخيرة، وتقدمت الرعاية الصحية حتى انخفض معدل وفيات الأطفال عما قبل فى مصر، ولذلك صـار مرض الإسهال عند الأطفال يستلزم الإسراع بعلاجه نظراً لخطورته. ولعل لوسائل الإعـلام دوراً كبيراً فى توعية الجمهور بخطورة هذا المرض، وارتباطه بالجفاف، وإرشاد النساء إلـى كيفية التصرف واستخدام محلول معالجة الجفاف.

والجدير بالذكر أن الصراع بين الطب الشعبى والطب الرسمى قائم، وأن انحسار الطب الشعبى -- كما اتضح منذ قليل - راجع إلى تحسن الأوضاع المعيشية وتحسن أساليب الرعاية الصحية، وانتشار الخدمات الصحية وارتفاع معدلات التعليم وسرعة وصول الخدمـة الطبيـة

الحقيقية إلى أصحابها من أبناء القطاعات الشعبية بنفقات زهيدة ومهما بعدت بهم المسافة من مراكز العمران، فإذا كان مصدر هذه الخدمة قريباً قصدوه قبل أى مصدر شعبى دينى - سحرى [١٥]، أما إذا كانت الوحدة الصحية مثلاً بعيدة عنهم أو يصعب الوصول إليها، فإن اللجوء إليها قد يأتى فيما بعد طرق الأبواب العلاجية الأخرى الأيسر منالاً.

وفى القطاع البدوى بالمجتمع المصرى كان البدو يعتمدون أساساً فى العلاج على أساليب طبية شعبية هى الكى والحجامة والأعشاب والسحر والتجبير. إلا أن دخول الخدمات الصحية الرسمية هذا المجتمع، حد من انتشار هذه الممارسات، علاوة على قصرها على فئات محدودة من البدو تتمثل فى كبار السن عادة، وغير القادرين على تكاليف العلاج الرسمى، والمرضى المزمنين بالسكر وارتفاع الضغط والروماتيزم. على حين يسارع شباب البدو باللجوء إلى الخدمات الرسمية سواء بالمؤسسات الصحية العامة أو الخاصة حسب المقدرة الاقتصادية وخطورة الحالة. وهكذا تغلبت الخدمات الرسمية على الخدمات غير الرسمية إلا فى حالة واحدة وهى كسور العظام حيث يفضل الشباب أيضاً اللجوء إلى المجبراتى.

وفى المجتمع السعودى تغلبت الخدمات الرسمية كذلك على الخدمات الشعبية. حتى فى المناطق النائية والبدوية التى تمثل معقل الطب العربى (الشعبى)، فإذا كانوا يعالجون الرمد - فيما قبل - بتقطير عصارة الأعشاب فى عين المريض، أو يبخرونه على نوع من الأعشاب يعتقدون أن دخانه شافٍ للعين، أو يستخدمون الكحل.. إلخ[١٦]، إلا أنهم الآن قد عرفوا طريق المستشفى والمستوصف وسائر المؤسسات الطبية الرسمية.ويرجع هذا التغير الواضح إلى توافر التيسيرات الطبية، وإتاحة الخدمات الصحية لكل الناس، وفى أى موقع ، وبكفاءة فى الأداء المهنى، مما جعل حالات الروماتيزم والأنفلونزا والصداع واضطرابات الهضم وحتى العقم تلجأ إلى تلك المؤسسات، فانحصر الطب الشعبى فى الخدمة العلاجية النفسية أو العضوية التى تبطؤ فيها نتائج الطب الحديث.

على أننا نلاحظ أن الخدمات الرسمية ربما نزلت أحياناً ميدان الصحة بكل ثقلها حتى تستطيع اكتساح الطب الشعبى وسحب البساط من تحته، مما يدفع القوى العاملة الطبية الرسمية إلى محاصرة المطببين الشعبيين، وعدم تأييد ممارساتهم والحد من نشاطهم [١٧]. ولذلك فقد انطلق الأنثروبولوجيين يجرون دراساتهم حول الشامان Shamman، والأطباء السحرة Witch-doctors، كما انكبوا على علوم الأوبئة، وتفسير الأمراض يفكون طلاسمها

ويحلون ألغازها، كذلك فقد انخرط علماء النفس والاجتماع في الاهتمام [illegible] وممارساتهم، ومكانة الممرضة، وبيئة المستشفيات.. كل أولئك بغرض إقرار سيادة الخدمات الرسمية على الميدان الصحي.

(٢) نمط تغلب خدمات الطب الشعبي على الخدمات الصحية الرسمية:

من المؤكد أن طبيعة البيئة القاسية، ونقص الخدمات الصحية الرسمية، يتوجان الطب الشعبي على عرش الخدمة الصحية، وعليه إذن أن يبذل نشاطاً مضاعفاً لسد هذا الفراغ ليس في مجال العلاج فحسب، بل وفي ميدان الوقاية كذلك، حيث يلقى الطب الشعبي بكل ثقله، ويستخدم كل ما أتيح من خبرة ومعرفة ونصائح وأدوية ومعالجات، سواء كانت نباتية أو حيوانية، أو حتى مواداً آدمية (مستمدة من جسم الإنسان نفسه: كالدم والبول واللبن في المعالجات الشعبية، أو مخلفات آدمية: كالعرق والشعر والملابس في المعالجات السحرية)[١٨].

ولعل توضيح هذا النمط بالاستشهاد بالواقع المصري يفيدنا في فهم واقع الخدمات الصحية الرسمية حيال الخدمات غير الرسمية، وفي الوقوف على أبرز المشاكل التي تحول دون وصول الخدمة الرسمية إلى مستحقيها الفعليين: فالريف المصري يعايش كلا النسقين كما أن أهله يتعاملون مع كليهما لتحقيق أقصى قدر من الفائدة[١٩]. ومع ذلك فإن من الملاحظ أن الطب الشعبي لم ينحسر بعد بالقدر الذي يتناسب مع انتشار الوحدات الصحية الرسمية منذ الخمسينيات، وبالذات منذ إنشاء الوحدات الصحية الريفية بدءاً من عام ١٩٦٢ ورغم إلغاء الحكومة لتراخيص الدايات والحلاقين.

وتتيح الظروف الصعبة لبعض المناطق، ونقص الخدمة الرسمية بها، فرصة لازدهار الطب الشعبي بكل ممارساته، بما في ذلك العلاج بالكي بالنسبة للإنسان والحيوان في قرى "أبي ماضي" و "زيان" و "قلبشو" في شمال مركز بلقاس بالدقهلية، كما أن العلاج بالكي لا يزال سائداً بالنسبة للإنسان والحيوان في الوقت الراهن في قرية "الحجر" بمركز إطسا بالفيوم على حافة الصحراء[٢٠] حيث يقوم الأعراب المقيمون بوادي الريان بهذا العلاج للروماتيزم، والأمراض الجلدية، والأمراض الباطنية، وحتى أمراض الأطفال.

وتدل الشواهد الإثنوجرافية على أن المطببين الشعبيين في الريف يضطلعون بعلاج الأمراض البدنية وغيرها، وهم أكثر دراية بمفاهيم الريفيين للصحة والمرض، وأعرف

باحتياجاتهم الفعلية من الخدمات ، ولذلك فإن الغلبة فى القرى دائماً للطب الشعبى على الطب الرسمى، حتى فى تلك التى يتوافر بها الوحدة الصحية والعيادة الخاصة والصيدلية الخاصة.

فعلى الرغم من توافر المؤسسات الصحيـة العامـة والخاصـة فـى بعض القرى، إلا أن الناس لا يزالون يترددون على "المجبراتى" لعلاج كسور العظـام، كمـا أن هنـاك قرى معينـة يشتهر بعض أهلها بهذه الممارسة ، ويؤمها المرضى من المناطق المجاورة بمحافظة الدقهلية. بل ومن خارجها. ويرجع سبب انتشار تلك الممارسات الشعبية إلـى نقص الخدمـات الصحيـة الرسمية فى تلك المنـاطق، وطبيعـة ايكولوجيـا المجتمـع القروى أو البـدوى والخبـرة اليدويـة الممتازة التى يتمتـع بهـا "المجبر"، وتمتعـه بحساسية عاليـة فـى تحسس العظـام والمفاصـل، ومهارته الفائقة فى تحديد أنواع الخلع، وتمزق الأربطة والكسور وإلمامه الواسـع بـالفرق بين الكسور البسيطة والكسور المضاعفة، وكذلك المدة اللازمة لالتئام الكسر(٢١).

ولكن اللافت للنظر أن يغـزو "المجبراتى" المدينـة نفسـها، بل وكبير مـدن الدولـة كلهـا "القاهرة". وقد بدأ المجبرون يمارسون نشـاطهم بشـكل منظـم ويعلنـون عن أنفسـهم وعنـاوين (عياداتهم) على جدران المبانى أو على لافتات، وبحروف كبيرة ومنهـم مـن ذاع صيتـه علـى مستوى القاهرة الكبرى، مثـل "عـدول المجبراتى" بـالجيزة (٢٢). وعلـى الرغـم مـن مزاولـة المجبرين المهنة بلا ترخيص رسمى إلا أن جمهورهم يزداد فى القرى، وفى الأحياء الشـعبية بالمدن، ومعظم هؤلاء من الفقراء الذين ترهقهم تكاليف العلاج عند أطباء العظام.

وتفرض طبيعة الحياة الريفية تدخل "المجبراتى"، حيث تنتشر حـالات الجـزوع والتـواء الظهر هناك بين الكبار نتيجة لصعوبة الأعمال الزراعية، كمـا تنتشـر بيـن الأطفـال، فالطفلـة مثلاً – فى سن الرابعة تقريبـاً – عليهـا أن تحمل أخاهـا الرضيـع، وتجلب المـاء للبيت مـن "الحنفية العامـة"، وتحمـل أثقـالاً فـوق طاقتهـا، فتصـاب بمـا يسـمى محليـاً "مـزأة" (٢٣)، ويقـوم المعالج فى هذه الحالة بتدليك الظهر بزيـت دافئ، ثـم يلـف المريض فـى "شـال" مـن القمـاش السميك. أضف إلى ذلك أن كثرة سقوط الأطفال من الأماكن المرتفعة، وتهدم بعـض الجـدران العالية القديمة، وانتشار الحرائق فى البيوت، واستخدام السلالم الخشـبية الرأسية فـى الصعـود إلى الأسطح، ينجم عنها زيادة إصـابات كسور العظام. والملاحـظ أن تلـك الحـالات لا يتوافـر علاجهـا الرسمـى فـى الريـف، وإن توافـر فبثمـن بـاهظ لا يقدر عليهـا الفقراء. كمـا أن هـذه الخدمات متوافرة فى المدن ولكن تكلفتها تفوق طاقة فقـراء الأحيـاء الشـعبية، عـلاوة علـى أن

العلاج الرسمي لها لا يحظى بما يحظى به علاج "المجبراتي" من ثقة واعتقاد، وبالتالي يزداد اللجوء إليه. والملاحظ أن أبناء ريف العياط وبادية الصف، بالجيزة يعتمدون على "مجبراتي" - بقرية الكداية / الصف - جاوزت شهرته حدود المحافظة ككل، لمهارته وخبرته، واضطلاعه بالعلاج دون أجر نقدي أو عيني. ولذلك ... أطباء العظام بمدينتي الصف والعياط وهدد استمرار عياداتهم الخاصة، حتى حاول أحدهم استقطابه وتشغيله معه في عيادته بالمرتب الذي يحدده هو، فرفض "المجبراتي" العرض.

والواقع أن ممارسة تجبير العظام ليست مقصورة على مجتمعنا المصري، بل تعرفها كذلك بعض المجتمعات التي تتوافر فيها الإمكانيات المادية بسهولة ويسر كالمجتمع السعودي مثلاً، حيث تنتشر سائر الخدمات الصحية الرسمية حتى في المناطق النائية، ومع ذلك فقد دان الميدان الصحي العام بالسيادة لهذا النوع من الممارسة، حتى أن أهل المصاب بكسر في حادث مثلاً لا يوافقون على بقائه في المستشفى - على ما فيه من إمكانيات - ويصرون على أن يتولى علاجه "المجبر" [٢٤]. ويبدو أن التجبير هناك قد أثبت فعالية كبيرة ونجاحاً ملحوظاً في معظم حالات الكسور، باستثناء الكسور في الظهر والجمجمة.

أما أكثر الممارسات الشعبية تغلباً على الخدمات الصحية الحديثة فتتمثل في التوليد على يد الدالية، والعلاج والجراحة على أيدي الحلاقين. فمن السهل في مجتمعنا المصري - ومجتمعات العالم الثالث عموماً - أن نلاحظ مدى تغلب "الداية" على المولدة القانونية ومساعدة المولدة والممرضة. وهذا لما تتمتع به الداية من مهارة في التوليد، وتلقائية في التعامل، وزوال الفوارق الاجتماعية بينها وبين الواضعة، ولما تقوم به من رعاية للأم والوليد بعد الوضع، فضلاً عن أنها تواسي ذات الحمل وتخفف عنها الآلام وتشجعها على تحمل آلام الوضع بترديد الأمثال الشعبية والأغاني والحكم.. إلخ.

وإذا كانت الخدمة الصحية الرسمية قد نشطت لمقاومة الطب الشعبي، فقد راح هو يطور نفسه ويتكيف مع الوضع الجديد، ويستمد منه مقومات رسوخه واستمراره، وهي طبيعة جوهرية تميز الطب الشعبي [٢٥]. والدليل على ذلك أن دخول الخدمات الصحية الرسمية عمق المجتمع الريفي والبدوي بمصر، جعل المعالجين الشعبيين منذئذ يعتمدون على الطب الحديث ذاته في تدعيم مركزهم. وقد تمثل ذلك في اكتساب بعض الحلاقين وعمال الوحدات الصحية مهارة جديدة في خياطة الجروح، وفي إجراء بعض العمليات الجراحية البسيطة كاستئصال

اللوزتين، وفي توليد النساء، حتى صار معظمهم أكثر شهرة من الأطباء فى التوليد مثلاً، وفى علاج الشلل بالحجامة، مع إستخدام الأدوات الطبية الحديثة كالمشرط والسرنجة والإبرة، ونزع كمية دم من المريض لعلاج ارتفاع الضغط والصداع وعلاج أمراض الأطفال المختلفة بالأدوية الحديثة. وصار بعض عمال الوحدات الصحية والعيادات الخاصة بالمدن، يفتتحون عيادات خاصة فى قراهم ويلتبون بالأطباء، ويلجا إليهم المرضى. وهكذا يستمد الطب الشعبى فى مصر معرفته وخبراته من الطب الرسمى ويستفيد منه فى تدعيم استمراره وانتشاره وإن كان فى شكل مهجن يجمع بين الإثنين، مثلما حدث فى نيجيريا مثلاً[٢٦].

(٣) نمط المهادنة والتعايش بين نوعى الخدمات الصحية:

تشير دراسة المعتقدات والمعارف الشعبية حول الجسم الإنسانى وصحته ومرضه إلى أن تعرض المعتقد لرياح التغير العاتية يدفعه إلى أن يتخذ موقف النخيل حين تقاوم الريح وإن كانت تميل معها. حقا لقد راح الطب الشعبى يتشبث بالارض مستمداً رسوخه من جذوره الضاربة فيها، ولكنه تشبث واع فى صورة تكيف متعمد تلجأ إليه العقلية الشعبية لضمان استمراره فى الوسط الجديد وبقائه، صحيح أن الممارسين الشعبيين قد أعلنوا على الطب الرسمى حرباً بحرب، ولكننا رأينا بعضهم كالحلاقين مثلاً يسعون إلى النسق الصحى الرسمى للالتحاق به والإفادة منه. ولذلك فهم يستخدمون المعالجات الشعبية، فى نفس الوقت الذى يستخدمون فيه الأدوية الحديث. ففى وادى إيكا Ika، فى بيرو، انصهرت العناصر الطبية الحديثة مع النظام الطبى الشعبى [٢٧]، ومن تلك العناصر الحقن والأدوية الحديثة، واختلطت الأفكار التقليدية بالأفكار الحديثة عن الفيتامينات والميكروبات، وصار القائمون بالخدمات الصحية الشعبية والرسمية موضع استشارة الناس، ولا يزال ممارسو الطب الشعبى دائبين على نشاطهم فى نيجيريا، بل إن من اليسير أن نلتقى بممارساتهم فى داخل قسم الاستقبال بالمستشفى الحديث، وكذلك فإن للبربر أنشطة وممارسات طبية شعبية، يجدون فيها دائماً[٢٨]، وهم ينتظمون فى جماعة مهنية تحافظ على الممارسة الشعبية ويرأسها أمهرهم أداء وأكبرهم سناً.

وفى أفريقيا الاستوائية أظهرت المؤتمرات الصحية حول الممارسين الطبيين الشعبيين تردد الكثير من أهالى توجالاند Togoland عليهم للخروج من أزماتهم والتخفيف من توتراتهم، وكثيراً ما يوصى الممارسون مرضاهم بالذهاب إلى المستشفى طلباً للعلاج الطبى

الحديث. كذلك فقد ساد الاعتقاد عند النافاهو Navaho، فى أهمية تقديم الخدمات الصحية فى إطار علاجى (طبى حديث) وروحى (تقليدى)[٢٩]. ومن هنا صار مألوفاً أن يلجأ المرضى إلى الأطباء، ويترددوا على المعالجين الروحيين فى ذات الوقت.

وفى ريفنا المصرى فإن الحلاق يضطلع بتشخيص المرض ووصف الدواء، والقيام بعملية العلاج نفسيا، حتى إذا عجز عن العلاج آثر السلامة، وأحال مريضه إلى طبيب المركز، أو المستشفى المركزى بالمدينة، وبالإضافة إلى ذلك، فإن الحلاق يعالج بالطريقة التقليدية والحديثة، بل إنه يستخدم الأدوات الطبية المعاصرة كالمشرط Scalpel والمفصد Lancet، ويستخدم كذلك الميكروكروم، والبنسلين، والحقن المختلفة، وقطرة العين، وماء الأكسوجين والشاش وغيرها، مما يعكس حالة التعايش بين النظامين .

• • •

ثالثاً: الدراسات الأنثروبولوجية والفولكلورية والطب الشعبى :

نعرض فى هذه الفقرة، صورة الطب الشعبى فى مجتمعنا المصرى، من خلال بعض الدراسات المتاحة التى أجراها مصريون أو أجانب قدامى أو محدثون، ودون خوض فى تفاصيلها.

ومن هذه الدراسات دراسة كلونزنجر Klunzinger التى تناول فيها بعض الخدمات الصحية العلاجية التى يقدمها الممارسون الشعبيون لعلاج البواسير مثلاً بعظام الكلب المحروقة مع مرارة الثور ox-gall وبعض مسحوق النحاس، وحبذا لو أضيف إلى الخليط قليل من السلفا[٣٠]، كما يذكر بعض الوصفات المنزلية غير الاحترافية، من خلال ذكر بعض المواد والعقاقير الطبية الشعبية، كالمواد النباتية مثل زيت الزيتون (زيت الطيب) لعلاج الروماتيزم وأمراض الجلد، والكراوية وحبة البركة.. إلخ. ومن بين المواد الحيوانية صفراء الماعز Goat's bile وبراز الكلب والنسانيس، وعظام الأسماك والكلاب والخنافس السوداء، حتى تصل الدراسة إلى أخص خصائص بيئة صعيد مصر، وهى لدغة العقرب، ويسوق كلونزنجر كيفية علاجها بالأساليب المختلفة، منها دعك موضع اللدغة بفص ثوم، أو تدليكها بصمغ الحمير، أو وضع الأحجار الكريمة عليها: كاليشب أو الفيروز.. إلخ.

وعلى نفس الشاكلة تشير دراسة "وليم لين" إلى أمراض معينة وكيفية علاجها، وإن

كانت الدراسة لا تكشف بدقة عن وجود ممارسين محترفين أو تخصصات فى الخدمات نفسها[٣١]. ومن الأمراض التى يذكرها " لين " : الرمد والعقم وبثور الجفن والملاريا واليرقان، وتأخر مشى الطفل، وفيها يستشير المريض أو ذووه الممارس الشعبى ويضطلعون بإجراءات العلاج بأنفسهم.

وأما الدراسة التى قامت بها فاطمة المصرى، فقد تناولت بعض الممارسات الاحترافية العلاجية مثل الزار والأمراض المتنوعة الأخرى التى دأبت الممارسة الشعبية على مواجهتها والتعامل معها، مثل الخمول وتراخى الحركة، والصداع الدائم، والروماتيزم والحساسية، وآلام القدمين، وأمراض العيون، وأمراض النساء والعقم، والأمراض الباطنية والعقلية والنزيف[٣٢]. وتتناول الدراسة التفسير الشعبى لأسباب هذه الأمراض، وموسيقى الزار وأغانيه المختلفة التى تختص كل منها بمعالجة حالة.

وتوضح دراسة الدكتور محمد الجوهرى لقرية غرب أسوان، مكانة الطب الشعبى وتوافر الخدمات الصحية التى يقدمها، نظراً لتوافر الحشائش والأعشاب الطبية من ناحية، والدور الاعتقادى حولها من ناحية أخرى، وغزارة خبرة الأهالى بها عموماً من ناحية ثالثة . وتؤكد الدراسة على خبرة كبار السن والتى تساعدهم على تعديل وإضافة عناصر أخرى [illegible] المسك المحمصة لعلاج المغص، والمحمصة بالزيت وتوضعان على رأس الطفل لخفض درجة حرارته. وتشير الدراسة إلى توافر الممارسات الطبية العامة والمتخصصة فى غرب أسوان لعلاج الصداع، ولدغة العقرب، ونمو الأسنان، والبلهارسيا، وأمراض الكلى ، والبواسير[٣٣].

وتذكر سعاد عثمان بعض الأنشطة العلاجية التى يضطلع بها الأولياء فى حى الخليفة بمدينة القاهرة[٣٤]، مثل علاج أمراض الأطفال التى ينتج عنها كثرة البكاء والتشنجات والصراخ، وكذلك حالات انكفائهم على الأرض، وتعرضهم لأذى الكائنات فوق الطبيعية، وحالات الضعف العام، والكساح ولين العظام وتأخر سن المشى، كما يضطلع الأولياء بعلاج حالات العقم وأمراض العيون والأمراض النفسية والعصبية، وحالات المس واللمس.

ولقد وقفنا فى دراستنا للماجستير على نفس الأنشطة العلاجية التى يقوم بها الأولياء الأحياء والأموات فى علاج الأمراض المستعصية التى عجز الطب الحديث عن علاجها، أو التى يصاب بها الفقراء ولا يقدرون على نفقات العلاج[٣٥]. ومن تلك الأمراض الأنيميا

الحادة، والتخلف العقلي، والصمم والبكم، وأمراض القلب والعيون، وحتى البلهارسيا. كذلك فإن السحرة يقومون بعلاج أمراض أخرى كالعقم والإخفاق في العمل، والضعف الجنسي.

وتخلص دراسة الدكتور حسن الخولي إلى أن هناك معالجين شعبيين متخصصين محترفين، وآخرين غير محترفين. وتتعدد تخصصاتهم لتشمل: أمراض العيون، والعقم، بل وتأخر الحمل، وعلاج أمراض الأطفال، وعقر الكلب، والكسور، والقراع علاوة على الخدمات العلاجية التي يقدمها الحلاقون والمعالجون بالكي.. الخ[٣٦]. وهي خدمات تدخل في دائرة العوز أكثر مما تدخل في دائرة الاعتقاد كما تؤكد الدراسة.

وتشير دراسة فوزي عبد الرحمن إلى انقسام الممارسات الشعبية إلى فئتين أولاهما ذات طبيعة سحرية تركز على استخدام التعاويذ والأحجبة والرقى، وهي تتم في الغالب على يد متخصصين في هذا النوع العلاجي. وتضم الفئة الثانية الممارسات العلاجية ذات الطابع الطبيعي، حيث تستخدم فيها بعض المواد كالأعشاب والمعادن والعناصر الحيوانية.. إلخ. ويقوم بهذه الممارسات معالجون متخصصون، كما تؤدى في المنزل بالاعتماد على النفس والخبرة الموروثة[٣٧]، كما تشير الدراسة أيضاً إلى مقدمي الخدمات الصحية غير الرسمية: كالحلاق، والداية، والمجبراتي، والمعالجين بالكي، والسحرة.. إلخ.

وقد تخيرت الدراسة عشر أسر، وتعرضت للأمراض التي دار حولها البحث في هذه الأسر، بالإضافة إلى المجتمع المحلي (الجفادون – بنى سويف) والمنطقة المحيطة به، واختار الباحث عشرة أمراض يجرى عليها دراسته، هي: تأخر الحمل، والحصبة وإسهال الأطفال، والتهاب العيون، وأمراض الأذن، والروماتيزم، وآلام المفاصل، وأمراض الجلد، والضعف العام للكبار، وكسور العظام، والتهاب بلسع العقرب ولدغ الثعبان.

والخلاصة من وراء هذه الدراسات وغيرها أن الطب الشعبي يلقى مزيداً من الاهتمام على المستوى الشعبي والرسمي، في الريف والحضر، وذلك لأنه يضطلع بتقديم خدمات صحية تراعي أنماط السلوك السائدة، وتحقق نجاحاً واضحاً في مواجهة كثير من المشكلات المرضية ذات الجذور النفسية والاجتماعية، علاوة على أن القائمين بهذه الخدمات يحسنون التعامل معها وفهم ديناميانها، فضلاً عن أنهم موجودون كل الوقت وتحت الطلب، ولا يتقاضون عائداً يذكر بالنسبة لما يتقاضاه الطبيب وسائر مقدمي الخدمات الصحية الرسمية.

وتزداد أهمية الخدمات غير الرسمية كلما غابت الخدمات أو ندرت، أو عجزت –

رغم توافرها – عن مواجهة الحاجات الصحية السائدة نظراً لنقص الأدوية ، أو سوء الأداء المهنى بالمؤسسة الصحية، أو لضياع الوقت بلا فائدة تذكر.. إلخ. كذلك فإن الطبيعة الجغرافية للمجتمع المحلى وموقعه، يحددان مدى أهمية الممارسات الشعبية. ولا يخفى علينا دور البناء الاجتماعي فى تحديد درجة الأهمية، والدور الحاسم الذى تمارسه الثقافة السائدة، ولاسيما إذا كانت ثقافة تقليدية تعتبر معقلاً للتراث الشعبى، وإن كانت المواجهة تزداد الآن حدةً بين الطب الرسمى والطب الشعبى.

* * *

رابعاً: الطب الشعبى وتجبير العظام

نعرض فى هذه الفقرة للطريقة الطبية الشعبية فى علاج أمراض وكسور العظام، وما تستلزمه من مصادر الخبرة، ونوعية الجمهور، ومدى الثقة فى المجبرين. وحجم الشهرة التى حققوها، وطبيعة الأجر الذى يتقاضونه ومسار العلاقة بين المجبر والمريض فى أثناء العلاج. وعلى ذلك، فالاهتمام ينصب هنا على النسق الطبى الشعبى، مما يلقى بالضوء على النسق الرسمى فى علاج العظام، ويجيب على السؤال المطروح على مدى هذه الدراسة.

(١) مصدر الخبرة: تدل الدراسات المتعددة على أن تجبير العظام ممارسة مكتسبة فى المقام الأول، وتعتمد على تدريب ومران طويلين. ولكن الملاحظ – فى المجتمعات العربية العديدة – أن خبرة المجبرين يغلب عليها الطابع الأسرى، حيث يكتسب الناشئ خبرته من والده أو من أمه، أو من عمه، أو من خاله، أو من أحد الجيران المحترفين فى التجبير. وتبدأ الخبرة بالملاحظة ثم مساعدة المجبر فى الإعداد للتجبير، ثم يحدث الانفراد بالممارسة فى لحظات غياب المجبر أو انشغاله. وبعدئذ ينفرد المجبر الناشئ بالأداء العلاجى للعظام.

غير أن هناك مصدراً آخر للخبرة، يذكره أحد المجبرين المشهورين، وهو "الرؤيا". ويعنى ذلك أنه لم يتعلم التجبير من الأب أو الأم أو أحد الأقارب أو الأباء، وإنما مارسه بعد الرؤيا مباشرة. ولكن المؤكد أن هناك مصدراً ما اكتسب منه الخبرة (*).

(٢) نوعية الجمهور : يتعدد جمهور المجبرين فى مجتمعنا المصرى وفى كل المجتمعات العربية التى درسناها. فهو جمهور كبير ومتنوع الخصائص؛ فهناك الرجال والنساء،

والأغنياء والفقراء، وهناك المتعلمون وغير المتعلمين، كذلك فهناك الكبار والصغار، والمتزوجون والشبان وأبناء البادية والريف وأبناء الحضر. والملاحظ أن المجبر له جمهوره حتى في المدن والعواصم التي تتوافر فيها الخدمات الصحية الحديثة والمستشفيات العامة والخاصة، والمراكز الصحية والعيادات، وبالتالي فهو لا يقتصر على سكان المناطق النائية أو المحرومة من الخدمة الصحية الرسمية. ويصدق ذلك على المجتمعات العربية البترولية الغنية وغير البترولية الفقيرة.

(٣) **كيفية العلاج:** يعتمد المجبرون على معطيات البيئة المحلية غالباً في علاج كسور العظام، فهم يستخدمون جريد النخيل، والعراجين (السباط) الليّنة، ويعتمدون على صوف الأغنام كرباط فوق الجريد والعراجين وهناك من يعتمدون على الشاش والماء الساخن والتمر الساخن والزيت والكمادات الساخنة أو الباردة، والملح وصفار البيض والخوص. والملاحظ أنها خامات تسود البيئة – سواء البدوية أو الريفية أو الحضرية – ويسهل الحصول عليها بلا مشقة ولا تكلفة، علاوة على أنها ليست حملاً ثقيلاً ينوء بحمله المريض، ويعجز عن الحركة كالجبس في الطب الحديث. ويتم العلاج عادةً في بيت المصاب إذا كان عاجزاً عن الحركة أو المشي، وإذا قدر على المشي والحركة ذهب إلى المجبر في بيته. وسترد تفاصيل العلاج في ثنايا دراسات الحالة للمجبرين في الفقرة القادمة.

(٤) **الثقة في المجبر:** يحظى المجبرون بثقة كبيرة من الجمهور الذى يقصدهم. والواقع أن هذه الثقة لم تأت من فراغ، وإنما هي محصلة مواقف أثبت فيها المجبرون نجاحهم، وعلاقات ودية خاطبوا مرضاهم أثناءها بلغتهم الخاصة، وشاركوهم همومهم وآلامهم، وأحسنوا معاملتهم، وترددوا في بيوتهم، فكانت النتيجة مزيداً من الثقة والاهتمام. ولعل ذلك يأتي على عكس الطب الحديث الذى تتوافر الشواهد الكثيرة على فشله في علاج كسور العظام والتئامها في غير موضعه الصحيح، وبالتالي كسرها مرة أخرى وإعادة تجبيرها. أضف إلى ذلك أن هذا الأسلوب الطبي الحديث يعوق المريض عن أداء دوره الاجتماعي في الأسرة والعمل، بل ويعزله عن بيئته الاجتماعية الطبيعية ويحجزه في مستشفى يتحول خلالها إلى "رقم" و"تذكرة علاج" و"رقم سرير" و"رقم عنبر".. الخ.

(٥) الشهرة: تدل دراساتنا الميدانية لمجتمعات مختلفة على ذيوع شهرة المجبرين في الغالب

على مستوى المجتمع المحلى والإقليمى. فلا تقتصر شهرة الواحد منهم على القرية أو البادية أو المدينة التى يعيش فيها، وإنما تتعداها إلى القرى والبوادى والمدن الأخرى، وتلعب مهارة المجبر، ونجاحه فى العلاج دورهما فى اتساع دائرة شهرته. وهنا قد تعم المنطقة أو المحافظة (الفيوم مثلاً) أو المدينة العاصمة القومية (الخرطوم مثلاً)، أو مجموعة محافظات (الجيزة وبنى سويف والقاهرة) . وقد تتجاوز الشهرة حدود الدولة، كما هو الشأن فى دول الخليج العربية، بحكم العلاقات القرابية وسهولة الاتصال وصغر حجم الدولة نفسها.

(٦) **الأجر**: يمثل الأجر حداً فاصلاً بين الطب الشعبى (المجبر) والطب الرسمى (الطبيب). فالملاحظ أن المجبر قد لا يتقاضى أجراً على الأطلاق، وقد يأخذ أجراً عينياً غير مشروط ولا محدد كالبدية (ومنها قطعة قماش، أو مسبحة، أو سجادة صلاة، أو طاقية أو بعض الحبوب أو التمور.. الخ حسب معطيات البيئة). وقد يأخذ المجبر أجراً نقدياً ولكنه لا يشترط حجمه ولا يراجع المريض بشأنه، وبالتالى يكون الأجر "ما يجود به". ولعل فى هذا ما يدفع المرضى إلى اللجوء إلى المجبرين، ويبعدهم عن الأطباء.

(٧) علاقة المجبر بمرضاه: ليست علاقة المعالج بالمريض فى الطب الحديث مجرد علاقة بين شخصين ، ولكنها علاقة بين ثقافتين مختلفتين، وبيئتين متباينتين، وموقعين متفاوتين فى مريضه الاوضاع والمراكز الاجتماعية. وبالتالى فهى تلقى الضوء على علاقة الطبيب بالمريض، وتكشف عن الأسلوب الطبى المفضل (الرسمى أو الشعبى) [٣٨]. أما فى الطب الشعبى فإن المجبر والمريض شخصان فعلاً، ولكنهما ينتميان إلى ثقافة واحدة، وبيئة واحدة، وموقع اجتماعى متقارب إلى حد ما. ومن هنا تغلب البساطة على علاقتهما، كما تسود المودة أسلوب العلاج، علاوة على أن مسرح العلاج نفسه يكون بيت المريض أو بيت المجبر. ومن هنا لا يكون دور المجبر دوراً مهنياً occupational role ولا متخصصاً professional ولا خضع للتشكل النظامى institutionalized ولا لمتغيرات النمط pattern variables التى حددها بارسونز Parsons لدور الطبيب كالإنجاز والعمومية والتخصص الوظيفى والحياد الوجدانى. وعلى ذلك يفضل الجمهور اللجوء إلى المجبر دون الطبيب، وتلك النتيجة لا تقتصر على تخصص العظام فقط، وإنما تعم معظم التخصصات الطبية الحديثة.

وعموماً فهي دعوة لأن تتغير علاقة الطبيب بالمريض أو علاقة الطب الرسمي بالمجتمع، حتى لا ينصرف الجمهور عنه إلى الحد الذى تزدهر فيه أساليب وتخصصات الطب الشعبي. إن لغة التفاهم ، مؤشر حقيقي يدل على طبيعة علاقة الطبيب بالمريض، وعلاقة المجبر بالمريض. ونسوق من التراث العربي ما ذكره أبو علقمة حينما مرض فجاءه الطبيب أعين بن أعين وسأله عما يشكو منه قال أبو علقمة:" قد أكلت من لحوم هذه الجوازئ، فطسأت من طسأة أصابني وجع من الوالف إلى العنق، ولم يزل حتى جئت". فقال له الطبيب أعين: أعد عليّ فلم افهم. فأعاد عليه أبو علقمة سرد الأعراض بنفس الطريقة. وهنا لم يجد الطبيب سبيلاً للفهم فقال لأبى علقمة بأن يأتي بورقة وقلم ويكتب العلاج: "خذ حلقة وسلقة، وزهدقه واغسله بماء ورس واشربه". فلم لم يفهم أبو علقمة وصفة الطبيب أعين قال له :"لعن الله أقلنا إفهاماً لصاحبه [٣٩]. إن التفاهم ضروري بين الطبيب والمريض، والعبء ملقى على عاتق الطبيب ومطلوب منه التواضع، والتخاطب مع المريض بثقافته، ومراعاة الخلفيات الاجتماعية والثقافية له.

• • •

خامساً: المجبرون في الوطن العربي : دراسات حالة:

تستعرض هذه الفقرة صورة المجبرين والتجبير في بعض المجتمعات العربية (مصر والسودان وقطر والسعودية)، وتلقى الضوء على مصدر الخبرة والجمهور والمهارات العلاجية والعلاقة بالطب الحديث، والأدوات التي يستخدمها المجبرون في العلاج، والأجر الذى يتقاضونه .. الخ، ولعل في هذا الاستعراض ما يحدد ملامح صورة العلاقة بين المجبر والطبيب، وبالتالي يكشف عن نجاح أو قصور كل منهما .

(١)الحاج محمد عبد الباقي الله يبر بقرية الكداية مركز الصف بمحافظة الجيزة بمصر وهو معالج شعبي محترف ومتخصص في علاج العظام وقد ذاع صيته وشهرته في مركز الصف حتى جاوز حدوده إلى باقي مراكز الجيزة، وخارجها إلى المحافظات الأخرى. وقد لمسنا شهرة هذا المجبراتي في أثناء إجراء الدراسة الميدانية بالقطاع الريفي بالعياط، حيث كان معظم مرضى العظام بقرى الدراسة يلجأون إليه مباشرة ولا يلجأون إلى المستشفى أو عيادة خاصة أو حتى الوحدة الصحية. ونفس الشئ يحدث في

النطاع البدوى بالصف حيث يعتمد كل البدو عليه فى علاج الكسور. وبحكم هذه الشهرة والتفوق آثرنا لقاءه والتعرف عليه وعلى أسلوبه العلاجى ومصدر خبراته.

ولد الحاج محمد بالكداية فى عام ١٩١٣، وشب واشتغل بالزراعة فى أرض الأسرة بها، وتزوج فى عام ١٩٢٤. وبدأ يمارس تجبير العظام وعلاجها بعد زواجه بست سنوات أى فى عام ١٩٣٠ وحتى الآن، على مدى ست وخمسين سنة. والملاحظ أن خبرة المجبراتى بدأت بمعدل لا يزال ثابتا على مدى هذه السنوات الطوال بلا تقدم أو نكوص. ومرد ذلك - كما يقول - إلى أن مصدر هذه الخبرة "إلهى بمقتضى الرؤيا التكريسية" للاحتراف وليس بالاكتساب والتعلم على أيدى مجبراتى آخر (*). ويتميز الحاج محمد بذاكرة قوية بالتاريخ وتفاصيل الأحداث وارتباطها بالسنين، وأن كان لايقرأ ولا يكتب.

والواقع أن لجأنا إلى الوحدة الصحية بقرية الجبراتى، لمقابلة الطبيب والعمال والاستعانة ببعض أبناء القرية، لتقديم صورة عن الحاج محمد وأسلوبه وشهرته وجمهوره وتأثير وجوده فى الكداية على تقديم الخدمة الصحية الرسمية أو تخلفها. قابلت الطبيب، وبدأ حديثه حول مهارة المجبراتى وكيف أنه فاق أطباء العظام فى الصف وفى الجيزة وحلوان، لدرجة أن بعضهم عرض عليه الاشتغال معه فرفض. وأكد الطبيب على أنه قابل الحاج محمد مرات عديدة وجلس معه فى جلسات علاجه لعملائه، ولاحظ فيها كفاءته الدقيقة فى علاج الكسور واعادة العظام المكسورة إلى وضعها الطبيعى لتلتئم باعتدال. وفى نفس الوقت أكد الطبيب على حرص المجبراتى على الاستفادة من الطب الرسمى، بحيث أنه إذا لجأت إليه أحدى الحالات المكسورة والمجروحة فى آن واحد، طلب لجوءها فوراً إلى طبيب مختص ليخيط الجروح أولاً، وبعدها يتولى هو تجبير العظام واصلاحها.

وظل الطبيب يسرد أمثلة واقعية لجأت إلى المجبراتى، فحولها إلى الوحدة الصحية لخياطة الجرح أولاً، ثم يتولى هو تجبيرها. ويسوق الطبيب مثالاً مشتركاً جمع بينه وبين الحاج محمد فى موقف علاجى واحد لاحدى السيدات التى أصيبت بكسور وجروح ورضوض معا. واستدعى المجبراتى الطبيب وطلب منه خياطة الجروح، فخاطها الطبيب بدقة. ثم عالج الكسر بعناية، حيث عدل العظام وربطها بشدة"بسباط بلح" وبعد أسبوعين شفيت الحالة تماماً.

وعند مقابلة العاملين بالوحدة الصحية بالكداية وبعض أبناء القرية، ظلوا يعددون حالات

لكسور العظام، وكيف عالجها الحاج محمد، حتى جاوزت شهرته حدود محافظة الجيزة. ويرشح الطبيب كيف تفوق المجبراتى على الأطباء فى مجال طب العظام وعلاج الكسور. ويسوق بالتالى مثالاً – يؤكد حقيقة وصدق هذا التفوق – عن سيدة وقع عليها حائط البيت بقرية مجاورة، فأرسل أهلها سيارتين إحداهما لاستدعاء الحاج محمد لعلاج الكسور حيث شد رجلى السيدة وأمر بإحضار "السباط"، وسوى العظام وأحسن ترتيبها وتنسيقها فى وضعها الطبيعى. ونجحت المعالجة وشفيت الحالة بسرعة. والمهم فى هذا الصدد أن الطبيب يؤكد على أن هذه الكسور كانت تستدعى مستشفى كبيراً لعلاجها بعملية يضطلع بها ثلاثة أطباء على الأقل ينسقون العظام ويعيدونها إلى مكانها الصحيح. هذا فى حالة وجود بنج (مخدر) كلى يستمر مفعوله على مدى ثلاث ساعات على الأقل فى إجراء العملية. ولكن شيئا من ذلك لم يحدث، واضطلع الحاج محمد بمفرده بإجرائها بعناية ودقة، وبدون بنج تماماً، وشفيت المريضة.

والملاحظ أن معظم حالات الكسور على مستوى الصف والعياط والواسطى ببنى سويف وغيرها، يلجأون إلى المجبراتى وليس إلى طبيب العظام، ومن هنا يحاول أطباء العظام بمدينة الصف وحلوان احتواءه بالاشتغال معهم فى عياداتهم الخاصة نظير أجر يحدده هو (د. سيد المصرى و د.فريد ناشد). ولكن الحاج محمد أبى ذلك لأنه لا يعمل بأجر ولا يتقاضى أجرا من مرضاه على الإطلاق، ويكتفى بالتعيش من عائد أرضه الزراعية التى يعمل بها أولاده، علاوة على النشاط التجارى الذى يزاولونه أيضاً كتجارة المواشى والحبوب والبقول والأعلاف.

ويتنوع جمهور المجبراتى ما بين متعلمين وغير متعلمين، ريفيين وحضريين، وبدو، متزوجين وعزاب، شباب وكهول وأطفال، رجال ونساء وفى مختلف المستويات العمرية. ومن الحالات التى يرويها طبيب الوحدة الصحية بالمشاهدة عند الحاج محمد، حالة سيدة بشرا تعمل مدرسة، وتعانى من ألم فى الكتف، يحول دون سهولة فرد الدراع وانبساطه. وطرقت أبواب الطب الرسمى دون جدوى، حتى جمعت الظروف زوجها المحاسب مع رجل [illegible] حول هذه الحالة فنصحه الضيف باللجوء إلى المجبراتى لعلاجها. وحضرت المدرسة وروجها للحاج، ولم يصرحا بتجوبهما للأطباء وهنا تحسس الحاج محمد الألم، ودلكها بسرعة، وأمر السيدة أن تبسط ذراعها، فترددت خشية الألم، [illegible] [illegible] لا تتألم وظلت تبسط دراعها وهى لا تصدق أنها شفيت. وبذا [illegible]

ـن هذه الحالة أن الحاج "شد العرق" لأن السيدة كانت تعـانيمن "شـلع أى عـرق راكـب علـى عرق"، كما تسود التسمية والتشخيص فى ثقافة القرية.

والجدير بالذكر أن عمال الوحدة الصحية يلجأون إلى المجـبراتى عندمـا يصـاب أحدهـم أو أحد أهلهم أو معـارفهم، حيث يمـارس المجبراتى هذا الاحتراف طـوال ٥٦ سـنة، ولا يتقاضى أجرا. وهو لا يرفض علاج أية حالة تقصده ولا يتأخر عن الذهاب إلى حالـة فـى مكان بعيد بشرط توفير وسيلة الانتقال ذهاباً وإياباً. ومن أسلوب الحاج محمد فـى العـلاج أنـه يتبرك بالبسملة فى كل خطواته. ويكثر من ذكر الله، ويتحسس الكسر برفق حيناً وبشـدة حينـاً آخر. وإذا قال له المريـض: "بالراحـة والنبـى" أو "واللـه لا أنـت عاملهـا بالراحـة" أو "حاسـب والنبى".. الخ صيغ الرجاء والتوسل، فإنه لا يقبل علاجه فى نفس اليوم، بـل يـأمره بالمغـادرة والعودة فى اليوم التالى. وهنـا تسـود الفكـرة بأنـه لا يسـتريح لمـن "يحـدد لـه"، ويقولـون لأى مريض لاجئ إليه "ماتحددش عليه".

وعندما سألنا الحاج محمد عن مصدر خبراته بالتجبير وعلاج الكسور، أكد على أنه لـم يكتسب خبرته بالوراثة ولم يتعلم مـع مجـبراتى وليـس فـى أسـرته مجـبراتى مـن قبـل. وإنمـا اكتسبها بمقتضى رؤياه بأن جماعة من الفرسان يلبسون لباس الحرب، يتقدمهم فارس مهيـب، يأمرون الحاج بالذهاب معهم إلى الحرب ولكن الفارس "مهيب عارضهم وقـال لـه :"لا خليـك أنت تحارب هنا". ولا يجزم الحاج بأن آمره هو الرسول عليه السلام، ولكن يظن ذلـك حسـب ما يروى. ويقول أيضاً أنه منذ هذه الرؤيا فى عام ١٩٣٠ - وبعد زواجـه بسـت سـنوات - وهو يمارس علاج العظام بكفـاءة مشهودة. والواقـع أن معظـم المعـالجين الشـعبيين ينسـبون لأنفسهم ما ليس فيهم لتدعيم الثقة فيهم ولزيادة شهرتهم وجذب الجمهور، ولكن الحـاج محمـد غير ذلك كما رأينا وبالتالى يمكن القول بأنه اكتسب خبرتـه بمقتضـى "رؤيـا تكريسـية".. إذا جاز هذا التعبير - بمعنى أنه لم يستمد معرفتـه مـن مجـبراتى ولا حـلاق ولا طبيـب عظـام، وإنما وهبه الله هذه المعرفة بعد الرؤيا مباشـرة. ومـن اللافت للنظـر أن أبنـاء الحـاج يلحـون عليه بضرورة تقاضى مقابل ما يقوم به من علاج، مثل العمال بالوحدات الصحية علـى الأقل، ولكنه يرفض باصرار هذا المسلك. ويعتبر أن قيامه بالعلاج أمانـة كلـف بهـا فـي الرؤيـا، ولا ينبغى المتاجرة بها. وعندما كان يـؤدى فريضـة الحج بدعـوة مـن ابنـه العامل بالسـعودية، انتهز أحد الأبناء الآخرين فرصة غياب الأب وحاول عـلاج الحـالات الوافدة بـالاجر. ولكنـه فشل فى هذه المهمة وأضر بالعظام وضاعف أمراضها، فخاف من مغبة الاستمرار، وتوقـف

عن الممارسة. وعندما عاد الحاج محمد من الحج وعلم بما حدث عنف ابنه بشدة ونهاه عن ذلك.

ومما يزيد الحاج محمد شعبية وشهرة، أنه تتردد عليه حالات كثيرة ولأغراض علاجية شتى، إلا أنه يرفض علاج الحالات الخارجة عن تخصصه. أما إذا تضمنت الحالة كسوراً وجروحاً فإنه يطلب منها اللجوء إلى المستشفى أو إلى الوحدة الصحية أو طبيب خاص، لخياطة الجروح، وبعدها يعالج العظام. وبالتالى فإذا لجأت إليه حالات تعانى من الأمراض النفسية أو العصبية أو حتى الشلل ، فإنه يسارع باحالتها إلى أسرة أبى أمام بالقبابات لعلاجها، ولا يعنى ذلك تحويلاً متبادلاً من أبى أمام إلى الحاج محمد.

(٢) الشيخ عبد الرحمن المجبر : وهو من قرية النصر حديثة التوطين بمركز سفاجا بمحافظة البحر الأحمر. وتمثل قبيلة المعازة سكان هذه القرية الموطنة والتى تبعد عن مدينة سفاجا بمسافة ٨٥ كم وعن قنا ٥٠كم، وتقع عند الكيلو ٨٥ على طريق سفاجا/ قنا[٤٠]. وينتمى الشيخ عبد الرحمن لنفس القبيلة ويقيم بنفس القرية.

وقد اكتسب هذه الخبرة من خلال والده وعمه، وهو يعتمد على تجبير الكسور بوصفات بيئية. فهو يأتى بنبات الصبار ALOE SPP ويجففه ويصحنه وينخله ويعجنه بالليمون والبيض ثم يضع العجين على صوف الغنم (فى الشتاء للتدفئة) أو صوف الماعز (العنزة) (فى الصيف للتبريد) ويلفه حول الكسر. ثم يفكلها بعد مدة تتراوح ما بين أسبوعين وثلاثة أسابيع.

كذلك يستخدم المجبر الأخشاب يربطها على الكسر ولا يعتمد على الجريد. وهو يقدم العلاج مجاناً لابناء القبيلة وذلك لأنهم أقارب، علاوة على بساطة تكاليف التجبير فالأخشاب هى فروع الأشجار البيئية التى يربطها بالحبال الصوفية، ثم يفكها مع إلتئام الكسر ويستخدم نفس الفروع الخشبية فى علاج الحالات الأخرى.

والواقع أن الشيخ عبد الرحمن فى سن الخمسين وهو متزوج ولديه ستة أبناء، ويمارس العلاج فى أى مكان دون تقيد إذ تغلب البساطة على أدواته العلاجية. ويرى المجبر أن نسبة الإصابة بكسور العظام قليلة نسبياً فى القبيلة نظراً لعدم ارتفاع البيوت وندرة الأنشطة والألعاب الرياضية التى يمارسها الأطفال وتعرضهم للإصابة بالكسور، وبالتالى ترجع الإصابات إلى التردى من فوق أحد الجبال المنتشرة أو حوادث السيارات على طريق قنا/سفاجا، كما يرى المعالج أن وجود وحدة الإسعاف على الطريق قربها من المدينة قلل من

لجوء المرضى إليه ، لأن الوحدة مزودة بسيارة تنقل المصاب إلى مستشفى سفاجا أو قنا أو الغردقة إذا عجزت عن إسعافه وعلاجه. ولعل ذلك يؤكد على أهمية توفير الخدمة الصحية الجيدة وإمكانات الاتصال والمواصلات السريعة فى إحداث تغيير الممارسات والعادات الشعبية الصحية العلاجية والوقائية.

(٣) شكرى عبد المسيح "المجبراتى" وهو معالج مشهور من راس غارب بمحافظة البحر الأحمر، ويقصده جمهور كبير من مدينة الغردقة، على الرغم من أنه يبعد عنهم بمسافة ١٦٠ كم. وقد تجاوزت شهرته حدود محافظة البحر الأحمر لتصل إلى محافظة السويس. والواقع أننا لم نقابله فى دراسة ميدانية مباشرة معه، ولكننا اعتمدنا على الإخباريين من حى العرب وحى الزهار بمدينة الغردقة، فى تحديد المعالجين لكسور العظام، ومدى شهرتهم وحجم ونوعية جمهورهم.

يبلغ شكرى خمسة وخمسين عاماً، وهو يقرأ ويكتب، واكتسب الخبرة بتجبير العظام من والده الذى كان مجبراً أيضاً وقد ذاع صيته فى رأس غارب وتجاوزها إلى المدن المجاورة كالسويس والغردقة وقنا والقصير وغيرها، ويقصده جمهور كبير من الرجال والنساء لعلاج كسور العظام، ولعل ذلك مرده إلى نقص الخدمات الصحية الرسمية، وتباعد المسافات بين التجمعات السكنية والمستشفيات وصعوبة الوصول إليها، ومهارة المعالج أيضا، ويتولى المجبر علاج الكسور بتدليكها وتحسسها ثم ربطها بجبيرة من الجريد أو السباط، ثم يلفها بخيط من الصوف، وهو معتد بنفسه وبمهارته العلاجية ولا ينصح مرضاه باللجوء إلى الطب الرسمى[٤١].

والواقع أننا قابلنا طبيباً بمستشفى الغردقة العام وتحدثنا معه حول العلاقة بين الطب الرسمى والطب الشعبى فى حى العرب والدهار الذى توجد به "مستشفى، فأكد على مهارة بعض الممارسين الشعبيين فى ضوء خبرة مباشرة حيث أصيب الطبيب بكسر فى يده فلجأ إلى عبد المسيح فى راس غارب فعالجه وشفى.

(٤) والمعالجة الرابعة هى "أم على" المجبرة، فوق الخمسين من العمر، أمية لا تقرأ ولا تكتب: وتقيم فى حى العرب، تمارس تجبير العظام ويقصدها جمهور كبير من نساء الحى- ومدينة الغردقة بصفة عامة- علاوة على الرجال أيضاً. والملاحظ أن سكان الحى والغردقة عموماً يفضلون لجوء المرأة عندما تمرض إلى معالجة من النساء سواء

كانت تمارس الطب الشعبى أو الرسمى، وهذا يتفق مع التقاليد السائدة وترى المجبرة أن ممارستها تنطوى على أهمية كبيرة، وأنها لا تعتمد على الجبس الذى تعتمد عليه المستشفيات والأطباء، وأن نتائج معالجاتها ناجحة دائماً وغير مؤلمة للمريض كما فى الطب الرسمى.

وقد ورثت المجبرة معرفتها بتجبير العظام من خلال والدتها التى كانت تمارسه، وتتقاضى المعالجة أجراً لقاء ممارستها، وإن كانت لا تحدده للمرضى، فقد يكون عينياً أو نقدياً، كثيراً أو قليلاً، حيث تتركه لظروف المريض. وتستخدم المجبرة أدوات بسيطة تتمثل فى خيوط الصوف أو الكتان، والجريد الذى ينتشر فى البيئة الصحراوية. كما أنها تمارس العلاج فى بيتها بالحى، أو تنتقل إلى بيت المريض(٤٢). وترى المجبرة أن معدل الإصابة بكسور العظام قليل نسبياً فى البيئة، علاوة على أنه يتركز فى فئة الأطفال من الذكور والإناث. أما الشباب والمسنون فاصابات العظام قليلة لديهم وقد ترجع إلى حادث سيارة، أو السقوط من فوق أسطح البيوت أو الجبال المجاورة للحى.

(٥) عبد الرحمن أحمد عبد الرحيم : المجبر بمدينة أبو سعد التابعة لمدينة أم درمان بالسودان. والواقع أن تجبير العظام فى السودان يطلق عليه محلياً كلمة "البصارة"، ويسمى المجبر هناك "بصيراً" والبصارة ممارسة علاجية شعبية واسعة الانتشار فى المجتمع السودانى، فلا يخلو حى سكنى فى المدينة ، ولا تخلو قرية من "بصير" يتولى علاج كسور العظام، و"القطيعة" وهى ما يصيب عضلات الجسم من التواء أو ارتخاء أو غيره، علاوة على مداواة ما يصيب العظام من فصل أو شق. ويحظى البصير بثقة مطلقة من الجمهور، أكثر مما يحظى به أطباء العظام. ويوجد فى مدينة "أبو سعد" وحدها ستة بصراء أشهرهم عبد الرحيم أحمد عبد الرحيم يليه الأمين البصير ثم عبد الله عثمان الصديق فأحمد الأمين والنور محمد، وأقلهم شهرة عبد الملك. وسوف نلقى الضوء على أشهرهم لنعرف مصدر خبرته والحالات التى يعالجها والجمهور الذى يقصده ، علاقته بالطب الرسمى (٤٣).

ينتمى العم عبد الرحيم إلى قبيلة الزنارقه ذات الأصول الرباطابية (نسبة لقبيلة الرباطاب)، ولد فى عام ٩٤٣ وتزوج فى عام ٩٦٧ وهو من مواليد مدينة أبو سعد ويسكن مربع ٨. أما مصدر خبرته فهو موروث من الأب عن الجد، فجده عبد الرحيم هو

ب من مارس مهنة البصارة فى الأسرة. ويذكر أن جده سافر فى عام ١٩٦٨ للحج وكان معه فى ركب المسافرين رجل من شمال السودان يحمل يده فساله عن السبب فذكر له أنه وقع عليها فانفصلت (أى فارق العظم مكانه) فأخذها الجد بين يديه وعالجها فى الحال بإرجاع العظم إلى مكانه. وبعد فترة ذهب الجد إلى أحد مشايخ الصوفية واخبره بأنه يعالج العظام فقال له الشيخ "مبروك عليك" (٤٤). ويؤكد المجبر على أن مصدر خبرته "وهبى" من عند الله، وبالتالى فهو لا يتقاضى "بياضاً" (أجراً). والواقع أن هذا التأكيد على المصدر "الوهبى" للخبرة لمسناه فى دراستنا للمجبر فى قرية "الكداية" بمحافظة الجيزة بمصر، حيث أكد هو الآخر على "الرؤية التكريسية" التى رآها فقام بعدها يمارس علاج العظام دون سابق تجربة أو خبرة. وهذا نوع من إضفاء القداسة على الممارس والممارسة ذاتها.

ويمارس العم عبد الرحيم البصارة فى منزله، حيث يخصص حجرة مستقلة يقابل فيها مرضاه ويقوم بعلاجهم ، كما أنه يذهب إلى المريض أينما كان وفى أى وقت دون تردد، ولا تقيد بمكان ولا بموعد، ولعل هذه التيسيرات العلاجية إلى يتمتع بها النسق الطبى الشعبى تجعل الجمهور ينصرف عن الطب الرسمى ولا يثق فيه.

وهو لايتقاضى أجراً حسبما يقول، لأن مصدر الخبرة وهبى من الله تعالى، وإن أخذ أجراً فهو لا يشترط له قدراً ولا نوعاً. فقد يعطيه المريض مالاً، أو سلعاً نادرة ومرغوبة كالروائح والسكر والشاى والأقمشة.

ويعالج البصير أمراض العظام كالكسور، والفصل والقطيعة والشق. وهو يتخصص فى هذا العلاج الشعبى فقط ولا يجمع معه أسلوباً أو تخصصاً علاجياً آخر، على عكس الفقير (الساحر) أو شيخ الزار، أو الفكى (المعالج بالأعشاب).

ولم يسبق للبصير أن اقام علاقة مع الطب الحديث، ولم يسبق له اللجوء إليه، وإن حاول الاستفادة منه فى علاج مرضاه بالطريقة الشعبية. فهو يأمر المريض بشق فى العظم بأن يذهب إلى المستشفى لتجرى له أشعة على العضو المصاب ويتأكد التشخيص، ثم يزاول العلاج بطريقته بعد ذلك. ويرى العم عبد الرحيم أن الطب الحديث لا يقوم بالعلاج الطبى اللازم لكسور العظام، وإنما يضع الموضع المصاب فى الجبس دون إرجاع الكسور أو الفصل إلى مكانه، فلا ينجح العلاج الحديث. كذلك يؤكد على مضار الجبس، حيث يضعف العضو المصاب، ويساعد على تكاثر القمل بينه بين الجلد، كما أنه يسبب "الأكولة" أو

"الحكاك" (الهرش)، ويكون هناك فراغ بين مكان الإصابة والجبس مما يعنى أنه لا يقوم بمهمة الضم المطلوبة بعد أن يجف فلا يلتئم العظم.

ويدلل البصير على قصور الطب الحديث فى علاج العظام بواقعتين الأولى لأمه التى إنزلقت على قشرة موز فسبَّبت لها فصلاً فى رجلها. وكان ذلك فى غيابه، فذهبوا بها إلى المستشفى فوضع الأطباء رجلها فى الجبس فقط. وعندما عاد قطع الجبس بالسكين وعالجها العلاج اليدوى فشفيت. والواقعة الثانية لطفلة وقعت على رجلها فانفصلت فذهبت بها أمها إلى طبيب العظام ليعالجها فلم تتحسن. وبعد فترة رأتها إمرأة وهى تحمل ابنتها على كتفها إلى نفس الطبيب فنصحتها بالذهاب إلى عبد الرحيم، فجاءته فارجع العظم إلى مكانه فصرخت الطفلة وظلت تهرول حتى وصلت إلى بيتها بعد أن كانت محمولة على كتف أمها، حسبما تقول.

وتتمثل طريقة البصير فى علاج القطيعة، فى تحسس المواضع المحيطة بالألم عن طريق الأصابع حتى يحدد الموضع بدقة. ثم يدلكه بالزيت حتى يستخرج العضلة المسببة للألم ويطرحها فى مكانها. أما علاج الشق فى العظم، وخاصة شق الترقوة، فيضع البصير لفافة من القماش تحت إبط المصاب فتعود إلى حالتها الطبيعية بعد قليل. والشق عند الأطفال يبرأ دون علاج. بينما يعالج الفصل بتحريك المفصل فى إتجاهه الصحيح حتى يقع فى "الخن" (ملتقى المفصلين) كما يقول [٤٥].

ويقصد البصير جمهور كبير من جميع الفئات الاجتماعية بالمدينة ومن الأحياء المجاورة لها مثل باتت وأبو كدوك. ويأتيه الكبار والصغار الرجال والنساء، المتعلمون وغير المتعلمين، خاصة وأن العلاج لا يستغرق الدقائق المعدودة ولا يستخدم الجبس، علاوة على عميق الثقة فى قدراته وخبرته، ناهيك عن زهادة الأجر أو عدمه.

(٦) **تجبير العظام فى قطر** : ويمارس هذا اللون العلاجى فى مدينة الدوحة رجل وامرأة، حسبما أشارت دراستنا الميدانية هناك. فالرجل فى سن الستين، والمرأة فى الخمسين. وهما غير متعلمين، فالرجل أمي والمرأة تقرأ وتكتب. أما مصدر الخبرة فهو موروث عند المرأة ومكتسب عند الرجل. وإذا كانت هذه [illegible] تكشف عن انحسار لممارسة تجبير العظام، أمام موجات التحديث، إلا أن [illegible] الخليجية يؤكد على رسوخ هذه الممارسة الشعبية وصمودها أمام [illegible] وتغلب [illegible] فى بعض

الأحيان(٤٦). وبالتالى فقد تكون عملية المسح غير شاملة للمجبرين.

والواقع أن جمهور المجبر والمجبرة - فى المجتمع القطرى - كبير ومتنوع الخصائص، ولكنه يتفق على ثقته بالعلاج الشعبى لكسور العظام، على الرغم من دور التحديث فى نشر وتعميم الخدمات الصحية وتيسيرها. والواقع أن المتعلمين والأغنياء من الرجال والنساء والشباب يثقون فى التجبير، ويقصدون المجبر للعلاج. ولعل ذلك يرجع إلى عوامل منها بساطة أدوات وطرق التجبير (الماء الساخن والشاش والزيت والتمر الساخن والكمادات الساخنة أو الباردة والزمدته والتليان والكركم والملح وصفار البيض والجريد والخوص). كذلك يفضل الجمهور المجبر حتى لا يحجزوا فى المستشفى أياماً طويلة وتجرى لهم عمليات جراحية وأشعات، وهذا يؤكد تفوق التقليد على الحداثة، كما يؤكد نوعاً من التعايش بين النمطين العلاجيين فى نفس الوقت.

(٧) **تجبير العظام فى المملكة العربية السعودية:** كان لعلاج كسور العظام مجبرون محترفون يعالجونها بدهان الموضع المكسور بالسمن البلدى، ووضع جبائر خشبية فى ثلاث جهات وتشد بالقماش وينصح المريض بالسكون وتناول كميات كبيرة من صفار البيض والسمن البلدى ونبات الدفاء، وعسل النحل أحياناً. ويستمر الحال مدة تتراوح بين أسبوعين وثلاثة اشهر حسب الحالة. ويزور " جبر "مريضه مرات عديدة ليدهن مكان الكسر، ويعيد ربطه.

والواقع أن تجبير العظام ممارسة واسعة الانتشار فى المنطقة الغربية، والمنطقة الشرقية، ومنطقة الجنوب، ومنطقة الشمال بالسعودية. كذلك يقصده جمهور كبير من الرجال والنساء والأطفال، منهم المتعلمون ومنهم دون ذلك. ومن الملاحظ أن الخدمات الصحية الحديثة عمت أرجاء المجتمع السعودى حيث انتشرت المستشفيات والمراكز الصحية والمستوصفات (٤٧). ومع ذلك فلم تتغير الممارسة الشعبية فى علاج العظام، بل ورسخت وصمدت فى مواجهة الطب الحديث، إن لم تتغلب عليه فعلاً. ولعل هذا راجع إلى ثقة السكان فى المجبر أكثر من ثقتهم فى الطبيب. والدليل على ذلك أن أهل المصاب بكسر فى حادث، لا يوافقون على بقائه فى المستشفى، فيخرجوه منها ليعالجه المجبر بالأسلوب الشعبى المعروف. ويبدو أن مهارة التجبير وممارساته ناجحة للغاية، ما عدا حالات الكسور فى الظهر أو الجمجمة.

• • •

سادساً: أيهما ابقى : المجبر أم الطبيب؟

إن الإجابة على هذا السؤال تعتمد على فهم مشترك لكلا نسقى الطب (الشعبي والرسمى)، وتاريخ كل منهما، وطريقة أداء الممارسة الطبية فى كليهما، علاوة على ميكانيزمات البقاء حسبما يراها الجمهور وتحددها الثقافة السائدة. وإذا كانت الفقرات السابقة أشارت ضمناً لكل هذه الأبعاد الحاكمة، ودلت على مقومات استمرار ورسوخ الطب الشعبي فى علاج العظام، على حساب الطب الرسمي، إلا إننا نلقى الضوء.هنا على المستقبل المنتظر وملامح الصورة القادمة لكل من المجبر والطبيب، من خلال ما يلى :

(١) إن الطب الشعبى أسبق من الطب الحديث سواء فى مصر أو فى العالم ككل، وبالتالى فهو حلقة فى سلسلة تطور الطب الحديث، وإحدى بداياته الأساسية ومن هنا فله السبق التاريخى. أما الطب الحديث فى مصر فيرجع إلى القرن التاسع عشر ١٨٢٧ حيث أنشئت أول مدرسة للطب فى مصر فى معسكر الجيش بأبى زعبل.

(٢) إن الطب الشعبى يعتمد على خامات ومواد بيئية بسيطة غير مكلفة وغير مجهدة للمريض وبالتالى يلاقى القبول والاستمرار على عكس الطب الحديث الذى يستخدم – من بين أدواته وأساليبه – الجبس، وهو لا يحظى بقبول كامل، علاوة على إعاقته للحركة.

(٣) إن تكاليف العلاج لدى المجبر قليلة أو لا تذكر، وبالتالى فهى فى تناسب – حتى مع حصوله على أجر نقدى أو عينى – مع الأوضاع الاجتماعية الاقتصادية لعامة الناس. أما أجر العلاج الحديث فهو مكلف ومرهق لهم، علاوة على الشك فى نتائجه.

(٤) إن الثقة فى الطب الشعبى والمجبر، لا تزال عالية، على عكس الثقة فى الطبيب والتى لا تزال فى بداياتها. ولعل التاريخ الطويل للطب الشعبى، والاستناد إلى التجربة هما أساس قوى لبناء هذه الثقة بل وتزايدها.

(٥) إن صورة الجمهور عن الطبيب، لا تدل على مهارة وخبرة فى علاج العظام، حيث لا يحدث الالتئام على الوجه الصحيح، فيُعاد العلاج مرة أخرى، وبالتالى تقل الثقة فيه. ويزداد الانصراف عنه.

(٦) إن طريقة أداء النسق الطبى الرسمى عموما يغلب عليها إتباع النموذج البيولوجى

Biological Model حيث ينظر الطبيب للمريض على أنه جسم مادى (مثلاً)، ولا يراعى خلفياته الاجتماعية ولا يعيه [illegible] ولا يقوم معه حواراً، ولا يخاطبه بلغته وثقافته. ومن هنا يتعالى الطب الحديث على الجمهور فينصرفون عنه. أما في الطب الشعبى (مع المجبر وغيره) فإن المرض أوالكسر هو آخر ما يحظى [illegible] بمعنى أن المجبر يراعى كل ما سبق، ثم ينطلق بعدها إلى ممارسة دوره المهنى العلاجى، الذى تسبقه الثقة،ويدعمه المعتقد الشعبى، وتسانده الثقافة الشعبية.

(٧) إن علاج المجبر لا يقلل من الدور الاجتماعى Social role للمريض، ولا يعوق حركته، علاوة على أنه يجعله يعيش فى بيته بين أهله وأقاربه ومجتمعه المحلى. أما فى الطب الحديث فإن العلاج يعتمد على حجز المريض فترة فى المستشفى، ويعوق حركته، ويقلل من دوره ونشاطه الاجتماعى، ويسبب إرباكاً لحياة الأسرة والجماعة القرابية ككل. وفوق هذا وذاك فهو يتشيأ (يصبح مثل أى شئ مادى فى المستشفى كالسرير والكرسى والتذكرة .. الخ)، وبالتالى ينفر الجمهور من هذا اللون العلاجى.

(٨) يتفوق الطبيب فى مجالات تخرج عن نطاق المجبر، ومن هنا يلجأ الناس إلى الطب الحديث، ومن ذلك كسور الجمجمة والعمود الفقرى وبهذا يثبت كفاءته ويدعم الثقة فيه بمرور الوقت فى المجالات الأخرى.

(٩) إن المعركة لا تزال سجالاً حتى الآن، والنصر النهائى فيها سيكون – فى ضوء كل ما سبق – لصالح الأكفأ والأقدر على العلاج، وبمقابل ميسور يقدر عليه الغالبية، وبطريقة لا تحد من النشاط الاجتماعى للمريض، ولا تتعالى عليه وتنتقص من آدميته وقدره. وليت الطب الحديث يستفيد من هذه اللمحات لتساعده على كسب المعركة، والفوز الأكبر؛ ألا وهو ثقة الإنسان فى ملائكة الرحمة ورموز الحكمة.

* * *

أهم المراجع

(١) د. على المكاوى، الأنثروبولوجيا الطبية: دراسات نظرية وبحوث ميدانية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٦، ص٨٦.

(٢) د. عبد الرحمن اسحق القطب، الطب الشعبى فى الجمهورية العربية اليمنية، مجلة الصحة، وحدة البحوث الصحية، جامعة صنعاء، العدد الأول، فبراير ١٩٨٤، ص٦.

(٣) Una Maclean, Magical Medicine; A Nigerian Case- Study, Benguin Books, London, 1971, p. 137.

(٤) على المكاوى، المعتقدات الشعبية والتغير الاجتماعى مع دراسة ميدانية على قرية سيف الدين بمحافظة دمياط، رسالة ماجستير (غير منشورة)، جامعة القاهرة، ١٩٨٢، ص ص ٢٠٩-٢١٥، و ص ص ٢٢٥-٢٣٢.

(٥) Nawal El Messeri, "Rural Health Care in Egypt", International Development Research Centre, Ottawa, 1980, p.5.

(٦) د. على المكاوى، الأنثروبولوجيا الطبية، مرجع سابق، ص٨٧.

(٧) د. حسن الخولى، الريف والمدينة فى مجتمعات العالم الثالث، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢، ص ٣٨٠.

(٨) فوزى عبد الرحمن، الممارسات الطبية الشعبية فى الريف المصرى مع التطبيق على إحدى القرى، رسالة ماجستير (غير منشورة)، جامعة عين شمس، القاهرة، ١٩٨٤، ص ص ب - جـ.

(٩) على المكاوى، المعتقدات الشعبية، مرجع سابق، صفحات ٣٠٨ و ٤٧٦ و ٥٠٩.

(١٠) د. محمد الجوهرى ، علم الفولكلور، جـ٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠، ص٥٢١.

(١١) د. على المكاوى، الجوانب الاجتماعية والثقافية للخدمة الصحية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٨، ص ص ٣٩٦-٤٠٠.

(١٢) د. على المكاوى الأنثروبولوجيا الطبية، مرجع سابق، ص٩٤.

(١٣) أنظر: Nawal El Messeri, Op. Cit., p.37

(١٤) د. حسن الخولى، مرجع سابق، ص ص ٤٢٧-٤٢٩.

(١٥) د. على المكاوى ، الأنثروبولوجيا الطبية، مرجع سابق، ص٩٧.

(١٦) د. على المكاوى ود. فوزى عبد الرحمن، دراسات فى الأنثروبولوجيا الثقافية، مطبعة الفجر الجديد، القاهرة، ١٩٩٨، ص ص١٩٩.

(١٧) George Foster, Medical Anthropology, John Wiley & sons, New York, 1978, pp. 163-164.

(١٨) على المكاوى، المعتقدات الشعبية والتغير الاجتماعى، مرجع سابق، ص ٢٢٥ ومابعدها.

(١٩) انظر: Nawal El Messeri, Op. Cit., p.5.

(٢٠) د. حسن الخولى ، مرجع سابق، ص٤٠٤.

(٢١) د. على المكاوى ، الأنثروبولوجيا الطبية، مرجع سابق، ص ١٠٠.

(٢٢) راجع التفاصيل فى دراستنا الميدانية عن الجوانب الاجتماعية والثقافية للخدمة الصحية، سابقة الذكر، الفصل الخامس خاصة ص ص ٣٧٧-٤٠٧.

(٢٣) أنظر Nawal El Messeri, Op. Cit., P.33.

(*) راجع التفاصيل فى الفقرة "خامساً" اللاحقة.

(٢٤) د. على المكاوى، الثبات والتغير فى العادات والتقاليد والمعارف الشعبية مع الإشارة إلى مجتمعات الخليج، بحث مقدم إلى ندوة التخطيط لجمع ودراسة العادات والتقاليد والمعارف الشعبية، مركز التراث الشعبى لدول الخليج، الدوحة، يناير ١٩٨٥، ص٣٢.

(٢٥) د. على المكاوى، المعتقدات الشعبية، مرجع سابق، ص ٢٤٥.

(٢٦) د. على المكاوى، الطب السحرى، الكتاب السنوى لعلم الاجتماع، العدد الرابع، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣، ص٤٨٠.

(٢٧) أنظر : Una Maclean, Op. Cit., p. 141.

(٢٨) د. على المكاوى، الطب السحرى، مرجع سابق، ص ٤٧٩.

(٢٩) د. على المكاوى، الأنثروبولوجيا الطبية، مرجع سابق، ص ١٠٧.

(٣٠) C.B. Klunzinger, Upper Egypt: Its People And Its Product, London, 1878, pp. 398-400.

(٣١) وليم لين، المصريون المحدثون: شمائلهم وعاداتهم، ترجمة عدلى طاهر نور، ط٢، دار نشر الجامعات المصرية، القاهرة، ١٩٥٠، ص ص ٢٦٦-٢٧٢.

(٣٢) د. فاطمة المصرى، الزار: دراسة نفسية وأنثروبولوجية، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٧٥، ص ص ٦٧-٧٢.

(٣٣) د. محمد الجوهرى، بعض معالم التغير فى مجتمع غرب أسوان، مطبعة جامعة القاهرة، القاهرة، ١٩٧٥، ص ١٥٤ وما بعدها.

(٣٤) سعاد عثمان، النظرية الوظيفية ودراسة التراث الشعبى، رسالة ماجستير (غير منشورة)، كلية بنات عين شمس، القاهرة، ١٩٨١، ص ص ٥٨٦-٥٩٠.

(٣٥) على المكاوى، المعتقدات الشعبية، مرجع سابق، ص ص ٢١٤-٢١٥.

(٣٦) د. حسن الخولى، مرجع سابق، ص ص ٣٧٣ - ٤٠٢.

(٣٧) د. فوزى عبد الرحمن، مرجع سالف الذكر، ص ص ٢٣-٢٩.

(*) أسمينا هذا المصدر "بالرؤيا التكريسية" التى يصبح الشخص العادى بعدها ذا خبرة أو معرفة بالممارسة. ولكن المؤكد أن الخبرة لابد أن يكون لها مصدر. راجع التفاصيل فى دراستنا عن الجوانب الاجتماعية والثقافية للخدمة الصحية، مرجع سابق، ص ص ٣٧٧-٣٧٨.

(٣٨) د. على المكاوى وآخرون، دراسات فى علم الاجتماع الطبى فى الوطن العربى، مؤسسة الأهرام، القاهرة، ١٩٩٨، ص٩١.

(٣٩) د. على المكاوى وآخرون، نفس المرجع السابق، ص ١٠٠.

(*) لا شك أنه يوجد مصدر ما اكتسب منه المجبر خبرته ومهارته، إلا أنه ينفى تماماً الكشف عن هذا المصدر، ويكتفى بالإشارة إليه بأنه مصدر إلهى بالرؤيا المذكورة.

(٤٠) د. على المكاوى، البيئة والصحة: دراسة في علم الاجتماع الطبى، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٩٥، ص ١٣٠.

(٤١) نفس المرجع السابق، ص١٨٧.

(٤٢) البيئة والصحة، المرجع السابق ونفس الصفحة.

(٤٣) د. على المكاوى، الطب الشعبى فى السودان، دراسة منشورة فى كتاب الأنثروبولوجيا الطبية ، سابق الذكر، ص ٢٥٦.

(٤٤) من المعروف أن الطرق الصوفية واسعة الانتشار فى السودان، وتلعب دوراً ملحوظاً فى الممارسات العلاجية الشعبية. وبالتالى فالعبارة تشير إلى نوع من التكريس "للبصير" الجديد، والدعاء له بالتوفيق فى علاج العظام، وللظاهرة امتدادها فى مصر، وفى مجال التجبير أيضاً. راجع دراسة الحالة الأولى فى هذه الفقرة.

(٤٥) د. على المكاوى، الأنثروبولوجيا الطبية، مرجع سابق، ص٢٥٩.

(٤٦) د. على المكاوى، الثبات والتغير، مرجع سابق، ص٢٠٠.

(٤٧) د. على المكاوى وزميله، دراسات فى الأنثروبولوجيا الثقافية، مرجع سبق ذكره، ص٢٠٠.

* * *

الفصل التاسع

الثقافة والتوائم

الثقافة والتوائم *

الثقافة وشخصية التوائم

مقدمة :

تحوى كل الثقافات عناصر عديدة حول بعض الفئات الاجتماعية الخاصة كالأقزام ، والتوائم ، والحلاقين ، والنجارين ، والخياطين ، والغوازى ، والجزارين ، والمراكبية ، والصيادين ، والصيارفة ، والمسحراتية ، واللحادين ، والمكارية ، والإسكافية ، والفقهاء (جمع فقى) ، والزبالين وغيرهم .

والغالب أن الثقافات - وكل الثقافات تقريباً - تضع بعض المعالم الدالة على شخصية كل واحد من هؤلاء الناس ، ضمن مجموعة من الملامح التى تشكل مركب الشخصية . ومن هنا تتضمن الثقافة عناصر عديدة حول العادات التى تتبعها تلك الشخصية ، والمعتقدات الشعبية التى تدور حولها ، ومجموعة الآداب الشعبية التى تتناولها كالأمثال والقصص والحكايات والأساطير والأغانى الشعبية .... إلخ . وفى نفس الوقت تستعرض الثقافة بعض الموتيفات الدالة على مهنة الطائفة وانعكاسها على سلوك شخصية أصحابها ، وكذلك مجموعة الآداب التى يستخدمونها فى العمل والترويح ، والانتقال والاتصال ، علاوة على بعض الفنون الشعبية المرتبطة بها كالرقص الجماعى ، والتحطيب وغيرها .

ومن ناحية أخرى ، فإن الثقافة تذخر بالعديد من الأفكار والتصورات والمعارف الشعبية التى تدور حول شخصية أتباع كل طائفة ، وخاصة من الناحية الجسمية ؛ والإنسانية والفيزيقية العامة وهى تعرض تفاصيل ترتبط بخلق الإنسان ، وخُلقه ، وطبائع البشر ، ولغاتهم ، وذكاء الإنسان ، ومزاجه فى مراحل حياته المختلفة من الطفولة حتى الكهولة . والمعروف أن هذه التفاصيل لا تقتصر فقط على المعتقدات والمعارف (بما تتضمنه من أفكار وتصورات) ، ولكنها تتضمن أيضا عديدا من العناصر التراثية حول العادات والتقاليد والآداب الشعبية ، والفنون الأدائية المختلفة ، وتلك خاصية غالبة على التراث الشعبى وترابطه ككل .

والملاحظ أن التوائم ظاهرة قليلة الانتشار نسبياً ، بالقياس إلى غيرها من الظواهر

---

* أستاذ علم الإجتماع والأنثروبولوجيا المساعد بجامعة القاهرة .

البشرية الأخرى ، ولكنها مع ذلك تحفل بالمزيد من العناصر الثقافية التى تدور حولها فى كل ثقافات العالم ، علاوة على أنها مثار اهتمام الشعوب ، وساحة تحوى اتجاهات ومواقف متباينة، وموضع يحظى بالتعليقات والتفسيرات العلمية والشعبية المتنوعة . ومما يزيد من أهمية الظاهرة فى الوقت الحاضر سببان رئيسيان أولهما ارتباطها بقيم الخصوبة والعزوة والقوة بكل أنواعها ، وثانيهما أن هذه الظاهرة تتزايد الآن باستمرار ، مع زيادة الاهتمام بمواجهة مشكلات العقم ، والإجهاض المستمر ، وما يعقبهما معاً من أدوية ومنشطات للمرأة ترفع من خصوبتها ، حتى صرنا نسمع - فى مصر وقطر وبلدان أخرى عديدة - عن ولادات توائم يتراوح عددهم ما بين الثلاثة والخمسة .

وفى ضوء هذة الزيادة ، لم تعد الظاهرة الآن نادرة ، وإنما صارت متزايدة وتسترعى الانتباه بالتناول والدراسة . كما تستلزم أن نتناولها بنظرة تكاملية تجمع بين وجهات نظر علوم الأنثروبولوجيا الطبية ، والوراثة ، والفولكلور ، والاجتماع ، وعلم النفس ، وهذا ما تسعى دراستنا الحالية إليه .

ومن خلال ذلك نتناول العناصر التالية :-

أولاً : تحليل التوائم : اعتبارات عامة.

ثانياً : التوائم فى دراسات الوراثة .

ثالثاً : نشأة التوائم .

رابعاً : أنواع التوائم .

خامساً : التوائم والبيئة والوراثة .

سادساً : الزواج القرابى والوراثة .

سابعاً : نظريات التوائم .

ثامناً : صحة التوائم .

تاسعاً : الآداب الشعبية وشخصية التوائم .

عاشراً : المعتقدات الشعبية وشخصية التوائم .

حادى عشر : العادات وشخصية التوائم .

ثانى عشر : الاستنساخ والتوائم : الواقع والمستقبل .

• • •

أولاً : تحليل التوائم : اعتبارات عامة :

التوم : الواحدة تُومَةٌ ، والتَوْم أسم لولد يكون معه آخر فى بطن واحد ، ولا يقال تَوْمٌ ، إلا لأحدهما وهو فو عل ، الأنثى تَوْمَةٌ ، على وزن جوهر وجوهرة ، والولدان توءمان والجمع توائم وتؤام (على وزن دخان) . وأتْأمَت المرأة (على وزن أكرمت) : وضعت اثنين فى حمل واحد فهى متئم بغيرها[1] . وإذا كان فى الأدميين فلا يمنع من ذكره بالواو والنون " توأمون " ، وجمع مؤنثه بالألف والتاء " توأمات " والتوأمة مؤنث التوأم ، ومركبه من مراكب النساء المكشوفة . وتواءم تواؤماً : الشخصان توافقا [٢] . وكلمة توأم فى اللغة الإنجليزية Twin مشتقة من الألمانية القديمة Twina وتعنى "معاً " .

والواقع أن موضوع التوائم تدور حوله العديد من الحكايات والأساطير والمعتقدات ، نظراً لأن التوائم كانت نادرة عند بنى الإنسان ، وبالتالى كان الناس يتكتمون عليها اعتقاداً منهم أن إنجاب التوائم سلوك حيوانى لا علاقة له بالبشر . والمعروف أن نسبة مواليد التوائم تكون بين ١ ٪ و ١,٥ ٪ مع بعض الاختلاف بين السلالات البشرية . فهذا المعدل فى اليابان منخفض بشكل غير طبيعى ، ويصل إلى ٠,٦٥ ٪ ولذلك كانت العائلات الأرستقراطية فى اليابان تتكتم على خبر إنجاب طفلين توأم ، وكثيراً ما كانت تقدم واحداً منهما لأية دار لرعاية الأطفال . غير أن ذلك المعدل مرتفع نسبياً بين السود فى الولايات المتحدة . أما الأفريقيون فهم أعلى معدلا [٣] . وغالباً فإن اختلاف السلالات يرجع إلى التباين فى معدلات التوائم ثنائية الزيجوت dizygous Twins .

والملاحظ أن نسبة حمل التوائم تقل دون سن العشرين ، وبعد سن الأربعين ، وتكون فى قمتها عند الأمهات فى سن ما بين ٣٠ - ٤٠ سنة . وتكون معظم الاختلافات فى معدل التوائم المتباينة أو غير المتطابقة ، Fraternal أو ثنائية الزيجوت ، مع اختلاف قليل فى معدل التوائم المتشابهة أو المتطابقة ، Identical أو أحادية الزيجوت Monozygous [*]. وقد يكون هناك مكوّن وراثى ضعيف لمعدلات التوائم ، وخاصة التوائم غير المتشابهة ، وإن كان سفورزا Sforza وبودمر Bodmer يعتبران أن النتائج غير نهائية .

ومن ناحية أخرى ، فإن العائلة كلما كانت أكبر عدداً ، كلما زاد احتمال إنجاب التوائم فيها ، كذلك فكلما أكثرت الأم من الإنجاب ، كلما كثر احتمال حملها بتوأمين . وهناك علاقة وراثية للحمل بتوأمين ، تنتقل إلى الأبناء عن طريق الأم لا الأب ، غير أن احتمال نقلها إلى

الابنة أكثر منه إلى الابن ، وأن توقع الحمل بتوءمين أمر وارد إذا توفر وجود حمل بتوأمين في سلالة الأب أو الأم . ومع حمل التوائم تزداد معدلات وفيات الأطفال في أثناء الحمل ، أو فيما بعد الولادة Pre - Natal Mortality بأسبوع . فتصل إلى أربعة أو خمسة أضعاف نسبة وفيات الحمل بطفل واحد .

ومن الاعتبارات الأخرى في دراسة التوائم ، ضرورة التمييز بينها ، والحكم عما إذا كان التوأم المدروس متطابقاً، Mz أو غير متطابق Dz بكل وضوح (٤) . وفي الغالب تكون الملامح الخارجية للتوائم Mz واضحة ، بمقارنتها بالتوائم Dz ، حيث تزيد الأخيرة من ناحية التشابه الوراثي عن الأخوة غير التوائم . وإذا كان هذا التشخيص يتضمن بعض الذاتية، فإن التشخيص الحقيقي يعتمد على مقياس التماثل الوراثي ، من خلال بعض أشكال التعدد المظهري المعروفة مثل فصائل الدم ، والإنزيمات ، وبروتينات السيرم ، وعمى الألوان الخاص باللونين الأحمر والأخضر ، وقابلية تذوق الفنيل ثيوكاريميد . فإذا كان التصنيف متطابقاً لعدد كبير من الصفات ، كانت التوائم أحادية الزيجوت أو متشابهة Mz . وكذلك يمكن استخدام البصمات في عملية التشخيص .

ومع كل هذه الدراسات الدقيقة للتمييز بين توائم Mz , Dz فإن الطريقة المبسطة باستخدام الصفات المرئية ، تكون غالباً في نفس كفاءة التمييز باستعمال فصائل الدم وبعض أشكال التعدد المظهري الأخرى (٥) . وقد أجريت دراسات عديدة على التوائم في الدانمارك ، للتمييز بينهم ، وكانت دقة نتائجها تتراوح ما بين ٩٠ ٪ و ٩٥ ٪ وكانت أسئلة الاستبيان تدور حول لون العين ، ولون الشعر وملمسه ، وطول القامة ، والوزن والبنيان الجسمي ، وإمكانية أن يخلط الأباء والأصدقاء المقربون - وغير المقربين - بين التوأمين .

• • •

ثانيا : التوائم في دراسات الوراثة :

تحدد دراسات الوراثة في تناولها للتوائم مجموعة السمات أو الصفات تقع في فئتين أولاهما فئة الصفات الحدّية Threshold Traits ، وثانيتهما فئة السمات أو الصفات ذات التباين المتصل أو المستمر Continiuos Variation Traits . وسوف نلقي بعض الضوء على كل فئة ونوضح مدى ارتباطها بالشخصية .

(١) التوائم والصفات الحدّية : وهي صفات يمكن عن طريقها تصنيف البشر إلى أفراد

يمتلكون صفة ما ، وآخرين لا يمتلكونها . وقد يتمثل ذلك في نسبة حدوث التشوهات الخلقية المعروفة ، وبعض أشكال الشذوذ الكروموسومى . أما بالنسبة للتشوهات الخلقية فهى تشكل فى مجموعها ١,٢ ٪ من مجموع المواليد فى المجتمعات الصناعية المتقدمة ، وبالتالى فهى تعد مصدراً هاماً للمرض فى هذه المجتمعات الغربية فى الوقت الحاضر ، حيث تقل نسبياً معدلات الوفاة فى الطفولة . وتعد تشوهات غياب المخ Anencephaly ، والعمود الفقرى Spina Bifida من تشوهات الجهاز العصبى المركزى المؤثرة فى السلوك (٦) .وكذلك حال الشفة الارنبية Cleft lip ، وسقف الحلق المشقوق Cleft Palate ، والأرجل المعوجة ، إذا لم تعالج جراحياً ، فإنها تؤدى إلى نتائج سلوكية واضحة .

وتدل دراسات الوراثة على أن الشفة الأرنبية وسقف الحلق المشقوق تبلغ نسبتهما بين الإخوة ٣٥ ضعف حدوثها فى العشيرة ، وتشوهات غياب المخ والعمود الفقرى حوالى ٨ أضعاف . ومن هنا نعرف دور الوراثة فى الإصابة بالمرض عامة بين العشيرة ، وبين التوائم على وجه الخصوص . ولعل الجدول رقم (١) يوضح نسبة انتشار هذه التشوهات بين المواليد فى بريطانيا على سبيل المثال :

التشوه	النسبة لكل ١٠٠٠ مولود
غياب أجزاء من المخ والأغشية السحائية والجمجمة	٣
تشوه العمود الفقرى	٣
تشوهات بالقلب	١
الشفة الأرنبية وسقف الحلق المشقوق	١
الأرجل المعوجة	١
ضيق الفتحة البوابية بالمعدة	٣
تشوه موضع مفصل الفخذ	١

وفى كل الحالات فإن النسبة بين الأخوة غير التوائم ، لا ترتفع عن ٥ ٪ ، والتى تقل بمقارنتها بالنسبة المتوقعة فى حالة الأمراض المتنحية البسيطة بين الإخوة غير التوائم للشخص المصاب والتى تبلغ ٢٥ ٪ . وعلى الرغم من عدم قطع الدراسات الوراثية بوجود عوامل بينية

خاصة كعوامل مسببة ، إلا أن هناك بعض العلاقات بين نسبة حدوث الإصابة وبين بعض العوامل الاقتصادية والاجتماعية والديموجرافية الخاصة .

فقد اكتشف إدوارد Edward فى اسكتلندا أن نسبة غياب المخ تصل إلى ٠,٩ ٪ بين المهنيين ، و ٣,٦ ٪ بين العمال المهرة . كذلك توجد بعض الاختلافات بين المواقع والبيئات ، والتباين بين الفصول التى تتم فيها الولادة ، بما يتراوح بين ٣٠ ٪ ، و ٥٠ ٪ وكثير من التشوهات الخلقية تتباين فى حدوثها على حسب ترتيب المولود ، واختلاف النوع (ذكور وإناث) ، وعوامل أخرى مثل تعرض الآباء للإشعاع والمواد الكيماوية ، والعدوى والإصابة عند الميلاد . وعلى سبيل المثال ، فقد أدت الزيادة الواضحة فى العلاج بالإشعاع خلال الحمل، إلى صغر حجم الجمجمة عند الطفل . ومن بين ٢٠٥ من الأطفال الذين تعرضوا للانفجار الذرى فى هيروشيما فى اليابان حينما كانوا فى منتصف فترة الحمل بالرحم (٤ : ٤,٥ أشهر من الحمل) ، ظهر فى ٧ منهم صغر حجم الجمجمة ، وكانوا متخلفين عقلياً .

وفيما يتعلق بالتوائم والصفات الحدّية ، يكون زوج التوائم متوافقاً Concordant إذا كان كلا الفردين يحملان الصفة ، أو لا يحملها كلاهما ، أى إذا كانا متشابهين . ونسبة التوافق هى الجزء من أزواج التوائم المتوافقة ، لكل التوائم التى تحمل السمة أو الصفة Trait ولو تضمنت فرداً واحداً فقط . وعلى هذا فنسبة التوافق العالية التى توجد فى التوائم المتطابقة Mz أكثر من التوائم غير المتطابقة Dz ، مما يؤكد على أهمية العامل الوراثى فى التحكم فى الصفات ، وحسبما يشير الجدول رقم (٢) .

جدول رقم (٢) يوضح توافق التوائم لمختلف الأمراض العقلية [٩]

المرض العقلى	نوع التوائم	الأزواج المتوافقة		الأزواج غير المتوافقة	مجموع الأزواج
		العدد	٪		
التصور العقلى	Mz	١٢	٦٦,٦٧	٦	١٨
	Dz	صفر	صفر	٤٩	٤٩
الصرع	Mz	١٠	٣٧,٠٤	١٧	٢٧
	Dz	١٠	١٠,٠٠	٩٠	١٠٠
الذهان الانبساطى الاكتئابى	Mz	١٠	٦٦,٦٧	٥	١٥
	Dz	٢	٥,٠٠	٣٨	٤٠

(٢) التوائم والصفات ذات التباين المتصل أو المستمر : وهى تشير إلى الاختلافات بين فردى كل زوج من أزواج التوائم Mz , Dz فى صفة إنسانية يمكن قياسها كالطول والذكاء . ففيما يتعلق بصفة الطول ، كشفت دراسات نيومان وفريمان وهولزنجر , Newman Freeman & Holzinger أن التوائم المتطابقة Mz أكثر تشابهاً فى الطول من التوائم غير المتطابقة Dz ، والإخوة غير التوائم [٨] . ولعل الجدول رقم (٣) التالى يلقى الضوء على هذه الإختلافات المتصلة .

جدول رقم (٣) يوضح الإختلاف فى صفة الطول

النوع	العدد	الاختلاف بين فردى الزوج فى الطول
توائم متطابقة Mz	٥٠	١,٧ سم

توائم غير متطابقة Dz	٥٢	٤,٤ سم
إخوة غير توائم	٥٢	٤,٥ سم

وأما بالنسبة لصفة الذكاء فإنها تقاس بمعامل الذكاء (IQ) الذى تحدده إحدى طرق الاختبار القياسية مثل اختبار استانفورد - بينيه Stanford - Binet . ومعامل الذكاء يتكون من معامل العمر العقلى للفرد (من خلال الاختبار) مضروباً فى ١٠٠ ، ومقسوما على العمر الزمنى . وناتج الاختبار ١٠٠ تقريباً يمثل متوسطاً للعشيرة .

ومن هنا فالمعدلات العليا تمثل ارتفاع الذكاء ، والمعدلات الدنيا تمثل انخفاضه . والملاحظ أن أقل الاختلافات فى معامل الذكاء ، تكون بين التوائم Mz بمقارنتها ، بالتوائم Dz ، والأخوة غير التوائم . ومن ناحية أخرى ، فإن تربية توائم Mz بعيداً عن بعضها ، يضيف بُعداً جديدا فى التحليل والصفات ، حيث ندرس تأثير بيئتين مختلفتين على تركيب وراثى واحد . كما يمكن أن نقارن بين توائم متطابقة رُبيت بعيداً عن بعضها (MZA) Apart ، بتلك التى رُبيت معا Together (MZT) . وبالتالى يمكن تقدير تأثير اختلاف البيئات على نفس التركيب الوراثى .

• • •

ثالثا : نشأة التوائم :

تظهر ولادة التوائم المتطابقة Identical فى الانسان كشذوذ طبيعية ، وهذه الصفة مستقلة فى حدوثها ، وليس لها علاقة بعمر الأم ، ولا توجد فى عائلات معينة دون الأخرى ، وأن نسبة تكرارها - فى العائلة الواحدة - بسيطة جداً ، أو تكاد تكون معدومة . الأمر الذى يدعو إلى الإعتقاد بأن حدوث التوائم المتطابقة لا يرتكز على أساس وراثى .

أما فى حالات التوائم غير المتطابقة Fraternal ، فقد دلت نتائج بحوث ودراسات عديدة لنسبة ظهورها واختلافها من عائلة إلى أخرى ، ومن جنس إلى آخر ، أنها تعتمد على أساس وراثى ، ولم يدرس دراسة وافية حتى الآن [٩] . ولكن يمكن الجزم بأن الأم هى المسئولة أولاً وأخيراً فى ظهور توائم غير متطابقة حيث أنها مسئولة عن إفراز بويضتين فى نفس الوقت . وإن دلت بعض البحوث على أن عمر الأم يعتبر عاملاً هاماً فى ظهور توائم

غير متطابقة . فقد بينت بحوث ستوكس Stokes أهمية هذه العلاقة ، من خلال دراسته للسلوك الوراثى لظهور التوائم المتطابقة وغير المتطابقة ، وعلاقة ذلك بعمر أمهاتها . لقد تناول ستوكس فى دراسته ما يقرب من سبعة ملايين حالة ولادة فى انجلترا وويلز ، من بينها ٨١١٣٣ توائم أى بنسبة ١,١٦ ٪ وتكشف الدراسة عن أهمية عمر الأم فى إنجاب توائم غير متطابقة ، وخاصة فى السن ما بين ٣٢ و ٣٧ سنة . كذلك فقد بلغت نسبة التوائم غير المتطابقة حوالى ٣,٣٠ لكل ألف ولادة عند عمر ٢٣ سنة ، تزداد إلى ١٠,٨ توائم غير متطابقة لكل ألف ولادة عند عمر ٣٧ سنة ، ثم تأخذ هذه النسبة فى الإنخفاض حيث تبلغ ٢,٦ توأم لكل ألف ولادة عند عمر ٤٦ سنة .

والملاحظ أن نشأة التوائم تمر عبر عملية الإخصاب بين حيوان منوى من الأب ، وبويضة من الأم . وهنا تلتقى خلية واحدة يسهم بها الأب ، وخلية واحدة تسهم بها الأم ، وهى ما يطلق عليه الزيجوت Zygote أو الجينات Genes ، وهى التى توجد فى الكروموسومات وتحدد الصفات الموروثة [١٠] . ولكن يحدث أحياناً أن تنقسم البويضة النامية المخصبة - نتيجة لنوع من الشذوذ التكوينى أثناء إنقساماتها الأولى - فتكوّن جنينين منفصلين بدلاً من الجنين المفرد العادى . وينتمى التوأمان الناتجان بهذه الطريقة إلى مجموعة صنوية واحدة ذات تركيب عاملى واحد ، وهو ما يسمى بالتوائم الصنوية أو المتطابقة أو أحادية الزيجوت . كما يحدث أحياناً أخرى أن ينشأ الزوج التوأمى من بويضتين مختلفتين من الأم ، أثناء التبويض Ovulation ، يخصب كل منهما إسبرم (حيوان منوى) مختلف ، وهنا تنشأ التوائم الأخوية أو غير المتطابقة ، لأن الجاميطات المختلفة للأب الواحد ، تحمل عادة هيئات جينية مختلفة .

والواقع أن الإهتمام بالتوائم يرجع إلى فرانسيس جالتون Francis Galton (١٨٢٢- ١٩١١) - وهو ابن عم تشارلز دارون Charles Darwin - حيث يعد أول من صاغ مصطلح علم تحسين النسل Eugenics .وقد نشر جالتون فى عام ١٨٧٥ دراسة عن " تاريخ التوائم كمعيار للقوة النسبية للطبيعة والبيئية " ورأى فيها أن الروابط الوثيقة بين التوائم قد تجعل من السهل تتبع الصفات الوراثية . وبالتالى فقد أنفق معظم حياته فى العمل على العائلات والتوائم ، محاولاً حل بعض الأمور المعقدة التى كشفت عنها دراسته .

وفى عصر جالتون ، زاد الجدل حول نصيب كل من الوراثة والبيئة فى إحداث التباين فى بعض صفات الإنسان كبيرة الأهمية كالذكاء ، والمزاج ، والكفاءات الخاصة ، والسلوك ، والاستعداد للإصابة بالأمراض . وهنا اعتبر البعض أن هذه الصفات ترجع إلى التركيب

العاملي ، واعتبرها البعض الآخر نتيجة للبيئة . وفي هذا الجدل استخدم جالتون تعبيرى الوراثة Nature والبيئة Nurture للدلالة على هذين النوعين من التأثيرات (١١) .

وتولد التوائم بمعدل ميلاد واحد من كل مائة ميلاد . وحوالى ثلثى هؤلاء التوائم تقريباً، هم توائم أخوية أى غير متطابقة ، بمعنى أنها أطفال ولدت للأم نفسها فى الوقت نفسه. ولكن كل طفل منهم هو نتاج بويضة مختلفة قد أخصبت بحيوان منوى مختلف. فالتوائم الأخوية (غير المتطابقة) ليست نسلاً متجانساً ، ومجموعات الجينات فيها تختلف لأنها ثنائية الزيجوت Dz . إن التوائم الأخوية قد لا يكون لها بالضرورة الأب نفسه ، وهذه حقيقة تضحت بطريقة مثيرة من حالة إمرأة ألمانية أنجبت توأمين أحدهما أسود والآخر أبيض . ومن هنا فالتوائم الأخوية تشترك فحسب فى الوقت الذى تشغل فيه الرحم (١٢) وفيما عدا ذلك فهى مجرد إخوة أشقاء أو شقيقات تتشابه ، مثلما يتشابه الأخوة الذين يولودون فى ظروف تقليدية أكثر.

وقد أشارت دراسات الوراثة إلى بعض العوامل المؤثرة على ظهور التوائم ، نظرا لإرتفاعها فى مناطق ، وإنخفاضها فى مناطق أخرى . فنسبة التوائم غير المتطابقة ترتفع فى أفريقيا وتقل فى بلدان الشرق الأقصى ، وتتوسط نسبتها فى أوربا والولايات المتحدة والهند . ففى أوربا تبلغ نسبة التوائم واحداً فى كل ٨٠ ولادة ، وتزداد النسبة لتصل فى أفريقيا إلى توأم فى كل ٢٥ ولادة (كما هو الحال فى غرب نيجريا) . أما نسبة التوائم الثلاثية ، فتبلغ توأماً ثلاثياً فى كل خمسمائة ولادة (١٣) . وتبلغ التوائم الرباعية نسبة مرة واحدة فى كل نصف مليون ولادة . والتوائم الخماسية مرة واحدة فى كل خمسين مليون ولادة .

وتتعدد العوامل البيئية والوراثية فى التأثير على إنجاب التوائم ، ومنها عمر المرأة ، وغذاؤها ، والفصل السنوى ، وعدد الأطفال . ومن الغريب أن بعض الباحثين وجدوا علاقة بين طول المرأة أو وزنها وولادة توائم ، فكلما زاد طول المرأة أو وزنها زاد احتمال ولادة توائم غير متطابقة . ويبدو وجود استعداد وراثى عند بعض العائلات لإنجاب التوائم .

وفى العادة تنتبه المرأة إلى حملها التوأم بكبر حجم رحمها وبسرعة زيادة الوزن ، وفى آخر الحمل بالتميز الفعلى لأجزاء الجنين المتعددة خلال الفحص الإكلينيكى ،وبالموجات فوق الصوتية . ويعتبر التشخيص المبكر مهماً - بالرغم من ندرة حدوثه - حيث تحتاج حاملة التوائم لعناية ورعاية أكبر . كذلك فإن عدم تشخيص التوائم قبل بداية المخاض ،قد يشكل خطورة على الوليد الثانى لعدة أسباب منها الضرر المتسبب من الأدوية المتسعملة لتضييق الرحم بعد الولادة (١٤) ، علاوة على عدم توقع ولادة توأم آخر مع المولود الأول.

رابعاً : أنواع التوائم :

التوائم على نوعين فهى إما متطابقة تنشأ من بويضة واحدة مخصبة ، فتكوّن زيجوتاً Zygot واحداً ، وتنقسم فى خلال أربعة عشر يوماً بعد التخصيب إلى جنينين منفصلين وهنا تكون أحادية الزيجوت Monozygotic ويرمز لها بالرمز MZ ، ولها نفس العوامل الوراثية ، والإستعداد الوراثى .

والنوع الثانى هو التوائم غير المتطابقة أو الأخوية ومنشؤها من تخصيب بويضتين بحيوان منوى واحد (إسبرم) لكل منهما . وللتوائم هنا زيجوتان ولذلك فهى تسمى ثنائية الزيجوت Dizygotic ، ويرمز لها بالرمز Dz ، ولا يكون تشابهها الوراثى أكثر من التشابه بين الأخوة والأخوات الإعتياديين .

والتوائم Mz تنتج عن إخصاب واحد - كما سبق - ومع ذلك يمكن ملاحظة وجود أربعة هيئات مختلفة للحمل تبعاً لأشكال الأغشية الجنينية الموجودة فى الرحم ، توجد منهما هيئتان فى حالة التوائم Dz أيضاً (٥٠) :

١- Mz أو Dz بأمنيون وكوريون ومشائم منفصلة .

٢- Mz أو Dz بأمنيون وكوريون منفصلين ومشائم متحدة .

٣- Mz بأمنيون وكوريون ومشيمة مفردة .

٤- Mz تشترك فى أمنيون وكوريون ومشيمة مفردة .

وبعد حوالى ٤٨ ساعة من بدء الحمل ، تنقسم الخليتان اللتان تكونتا فى التفلج الأول Cleavage (الانقسامات الخلوية التى تتنامى لينمو الإنسان من البويضة) مرة ثانية، ويتسارع التفلج ، وتتجمع الخلايا المتزايدة من ١٦ إلى ٣٢ خلية ، فيما يسمى بمرحلة " التوتة" Morula وهى كلمة مشتقة من اللاتينية وتعنى التوت . وبعد أربعة أيام من الحمل تتكون العلقة Blastocyst ثم القرص الجنينى Embryonic disc أو المضغة Blastoderm الذى سيصبح الجنين نفسه . أما الخلايا المتبقية ، والتى تتوزع كطبقة رقيقة حول بقية الكرة ، فإنها ستكون غشاء الكوريون Chorion أو غطاء الجنين .

تتخلق الخلايا بداخل البلاستوديرم فى طبقتين : خارجية غليظة (أو إكتوديرم) Ectoderm وستصبح الجهاز العصبى والجلد ، وأعضاء الحس . وطبقة داخلية (أو

الإندوديرم) Endoderm ، وهذه ستكون بطانة القناة الهضمية . والطبقة الثالثة وسطى (أو الميزوديرم) Mesoderm . وهى أساس لتكوين أعضاء كثيرة مثل أجهزة الهيكل والعضلات[١٦] .

وقد ابتكر الطبيب الهولندى سيمنز طريقة لتحديد نوع التوائم ، وهى تتمثل فى اختبار التوأمين لسلسلة اختبارات فى الصفات المعروف عنها أنها وراثية . فالأفراد التى تختلف فى أى صفة من هذه الصفات ، فهى توائم غير متطابقة . وفى الصفات واضحة الإختلاف ، تكون العين أو الشعر ، وشكل الأنف أو الأيدى أو الأظافر ، إذا اختلفت تدل على أن التوائم غير متطابقة [١٧] . وتعتبر فصائل الدم ، وبصمات الأصابع من وسائل تحديد نوع التوائم . وإذا كانت بصمات الأصابع لا تتشابه على الإطلاق إلا أن التوائم المتطابقة لهما نفس البصمة إلا أنها عكسية كصورة فى المرآة . وقد أثار التمييز بين التوائم اهتمامات العلماء للبحث عن التكوينات الوراثية المتطابقة فى هذه الأزواج من التوائم ، حتى تفتحت الأفاق عن عديد من الدراسات حول التوائم المتطابقة التى عزلت عن بعضها ، ومقارنة التوائم المتطابقة بالتوائم الأخوية التى لها جينات مختلفة ، ولكن لها وقت الميلاد نفسه وظروف البيئة نفسها.

وفى الماضى وقعت أخطاء كثيرة فى تحديد نوع التوائم . فقد أظهرت إحدى الدراسات أن حوالى ٢٥ ٪ من التوائم التى سبق اعتبارها متطابقة Mz ، كانت ثنائية الزيجوت Dz ، بينما ظهر أن ٢٠ ٪ من الذين سبق اعتبارهم Dz كانوا Mz . ومن الإختبارات الأكثر دقة للتوائم اختبار القبول وعدم رفض الجسم لزراعة الجلد بصفة دائمة . ولكن هذا يستلزم عملية جراحية نادراً ما يتم إجراؤها إلا إذا كانت الحاجة ماسة إليها [١٨] . ويمكن إجراء اختبار قبول الزرع فى حالة إصابة التوأم .

وإذا كان جالتون Galton وقع فى كثير من الأخطاء فى دراساته الأولية على التوائم - خلال القرن التاسع عشر - لبحث الوراثة الكمية ، إلا أنه فتح الطريق أمام هذه الدراسات . كما ابتكر تطبيق الإحصاء فى البيولوجيا ، وعلم الإحصاء البيولوجى Biometry. وقد استخدمت التوائم بنجاح فى دراسة العوامل الوراثية والبيئة فى التباين البشرى .

• • •

خامساً :-التوائم والبيئة والوراثة :

من الملاحظ أن التحكم الوراثى لبعض أشكال الشذوذ السلوكى عند الإنسان ، فى طريقه إلى الزيادة ، إلا أن مشكلة التوائم تكمن فى نقص التحكم فى البيئة ، مما يمثل عائقاً فى جميع دراسات الصفات الكمية فى الإنسان ، وذلك للصعوبات الكامنة فى مقارنة التباين البيئى بين التوأم وتوأمه ، وبينهما وبين الأفراد الآخرين بعيدى القرابة .

وهناك مكونات وراثية تمارس تأثيراً على التوائم ، أكثر من تأثير البيئة ، كما فى حالة التدخين كمثل سلوكى . وهنا تكون التوائم Mz شديدة الإتفاق ، سواء معاً أو بعيدة عن بعضها، ولكنها تختلف إجمالا عن توائم Dz [١٩] . ومن هنا تعطى دراسات التوائم معلومات هامة عن المكونات الوراثية والبيئية للصفات الكمية ، وخاصة فى الحالات التى انفصلت فيها التوائم Mz عند الميلاد .

وفى دراسة ولسون Wilson عن التماثل الوراثى للتوائم ، بالتطبيق على توائم لويس فيل Lewis Ville ، فى أعمار ٣و٦و٩و١٢و١٨و٢٤ شهراً حول النمو والتكوين ، استنتج ولسون أن التعرض للظروف البيئية فقط هو الذى يؤدى إلى اضطراب التكوين العقلى للأطفال، والذى يحكمه أساساً البرنامج الوراثى (الطبعة الزرقاء Blueprint) للتوائم . وهذه الأوضاع قد تتضمن تعرض أحد التوأمين لبطء النمو ، أو التعرض لبيئة فقيرة أو حدوث صدمات عند الميلاد . وحينما طبق ولسون دراسة أخرى على التوائم أعمار ٤و٥و٦ سنوات، وجد أن تنوع البيئات المنزلية ، يجعل الطبعة الزرقاء الوراثية تؤثر على نماذج الإدراك والتكوين . كذلك لاحظ أن معاملات الذكاء IQ اللفظية Verbal والأدائية Performance تتشابه عند التوائم Mz . ولكن تلازمات التراكيب الوراثية مع البيئة ، تبدأ فى الظهور ، حيث أن الحالة الإجتماعية ، والوضع الطبقى ، وذكاء الآباء ، أعطت تلازما مع معاملات الذكاء للتوائم عند عمر ٦ سنوات .

كذلك فقد دلت البحوث على أن الآباء كثيراً ما يتفاعلون بأوجه التشابه فى التوائم المتطابقة Mz إما بالعمل على تقوية الصفات المتطابقة ، وإما بحث الأطفال على الحرص على التميز والإختلاف . ولذلك يبدو أن التوأمين المتطابقين يتقاسمان فيما بينهما جانبى الشخصية المتكاملة ، بحيث يصبح أحدهما النصف النشط العدوانى ، بينما يتقبل الآخر دوراً سلبياً .

وفى عام ١٩٧٩ التقى عامل صلب ببلدة إليدا بولاية أوهايو يدعى جيم لويس Jim Lewis ، بتوأمه جيم سبرنجر Jim Springer بمدينة دايتون ، بعد إنفصالهما عام ١٩٣٩ . وبعد أربعين سنة واجه كل منهما الآخر فتصافحا وهما مشدودان ، ثم انفجرا ضاحكين وأخذا يحددان ما بينهما من اختلاف : كان سبرنجر يحمل نظارة طبية ويصفف شعره فوق جبهته ، أما لويس فلم يكن يستعين بنظارة وكان ينظم شعره جانباً . وهنا خلع سبرنجر نظارته ، ودفع لويس بشعره للأمام ، وبدا الإثنان نسختين متطابقتين .

التقط عالم نفس يدعى توماس بوتشارد Thomas Bouchard ، هذا الموقف ، ليعرف أثر البيئة ، ويفترض أن الفيصل فى تكوين الشخصية والسلوك هو تربية الطفل . أما الجينات فمكانها جانبى ودورها ثانوى . إلا أن ما وجده بوتشارد فى توائم جيم كان مدهشاً[٢٠].

- فكلاهما كان يفضل دروس الرياضيات فى المدرسة ويكره التهجى .
- كلاهما تدرب على الإجراءات القانونية واشتغل بهوايات الرسم والميكانيكا والنجارة.
- يمضيان أجازتهما منذ شبابهما بشاطئ فلوريدا نفسه ،ويذهبان إليه ، ويعودان منه فى سيارتين شيفروليه .
- تزوجا وطلقا إمرأتين تسميان ليندا .
- كل منهما تزوج ثانية وتدعى الزوجتان الثانيتان بتى .
- سمى كل منهما إبنه الأول جيمس آلان.
- لكل منهما كلب يدعى تويى .
- تتطابق عاداتهما فى التدخين والشراب.

وقد أمدت توائم جيم ، أطباء مدينة مينيابوليس ، فاهتموا هم الآخرون بمعرفة دور البيئة أم الوراثة فى تحديد المستوى الصحى للتوائم . لاحظ الأطباء أن التوأمين مصابان بالبواسير ، وأن كلاً منهما مصاب بارتفاع ضغط الدم ، وقد مر كل منهما بأزمتين كان يعتقد أنها نوبات قلبية . وكل منهما زاد وزنه عشرة أرطال فى الوقت نفسه تقريباً من حياتهما ، وتوقف كل منهما عن اكتساب زيادة فى الوزن . كما كان كل منهما يشكو من صداع متقطع فى سن الثامنة عشرة ، وهو صداع توتر يتحول إلى صداع نصفى . لقد كان الأطباء يردون الصداع لأسباب بيئية فقط ، ولكن بعد توائم جيم ، تأكد دور الوراثة والتراكيب الوراثية .

وعلى نفس النمط اقترح كاتل Cattell مدخلاً لدراسة تفاعل الوراثة والبيئة ، يتمثل فى طريقة تحليل التباين المتعدد المجرد Multiple Abstract Variance Analysis (MAVA) وهى طريقة تحتاج إلى وقت وجهد وتكلفة . فهى تحتاج حسب تقديرات كاتل ٢٥٠٠ زوجاً من الأطفال للتحليل الموسع . كما أنها طريقة صعبة التنفيذ . كذلك فهى تدور حول المجموعات الأساسية لأنواع العائلات التالية (٢١) :

١- توائم متطابقة Mz رُبيت معاً .

٢- توائم متطابقة Mz رُبيت منفصلة .

٣- أشقاء رُبوا معاً .

٤- أشقاء رُبوا منفصلين .

٥- إخوة غير أشقاء رُبوا معاً .

٦- إخوة غير أشقاء رُبوا منفصلين .

٧- أطفال غير أقارب رُبوا فى نفس العائلة .

٨- أطفال غير أقارب رُبوا فى عائلات مختلفة .

ومن هذه المجموعات يمكننا الحصول على المعلومات الخاصة بالتلازم بين التوارث والبيئة . فمثلاً أمكن الحصول على تلازم + ٠,٢٥ بين التأثيرات الوراثية والبيئية على الذكاء وهذه القيمة تقترب تماماً من القيم المتحصل عليها + ٠,٢٢ إلى + ٠,٣٠ للتلازم بين الذكاء والوضع الإجتماعى .

• • •

سادساً : الزواج القرابى والوراثة :

تذهب نظريات الوراثة إلى وجود طريقتين للتزاوج ، أولاهما هى زواج الأقارب Inbreeding ، وهو ما يسمى فى الأنثروبولوجيا بالزواج القرابى Kinship Marriage أو الزواج الداخلى Indogamy وثانيهما هو زواج الأباعد Outbreeding أو الزواج الاغترابى Exogamy فى علم الأنثروبولوجيا . ويعنى الزواج القرابى – من الناحية الوراثية

- اشتراك الزوجين فى عدد من الأجيال القليلة السابقة مباشرة جيلهما . أما الزواج الاغترابى فيعنى عدم وجود آباء مشتركة مباشرة أو غير مباشرة للزوجين (٢٢).

والواقع أن دراسات الوراثة وضعت تصوراتها حول جزئات الوراثة ، وأوضحت كيف تسير الخصائص الوراثية وتتناقل بين الأجيال . وعلى سبيل المثال ، فقد وضعت ماك كيوسيك Mckusick التصور المبدئى لحوالى ١٨٦ جين فى ترتيبها المناسب داخل كروموسومات الإنسان ، وعلى الأقل وضع زوج من الجينات على كل من الأتوسومات Autosomes الاثنين والعشرين وكر وموسوم x . المعروف أن الكروموسومات التى تتشابه فى الإناث والذكور تعرف بالكروموسومات الجسمية أو الأتوسومات .. كذلك أوضحت كيوسيك نسبة كبيرة من ٢٨١١ جينا سائداً ومتنحياً ومرتبطاً بالجنس ، وحددتها على كروموسومات . كما بلغ عدد المواقع الجينية التى أمكن إحصاؤها فى الإنسان حوالى ٥٠,٠٠٠ موقع (٢٣) . ومن خلال توصل البحوث الحالية سيمكن تحديد موقعها الخاص ، وموقعها على الكروموسوم.

ومن المعروف أن الزواج الاغترابى يزيد من الخلط الوراثى وبالتالى يؤدى إلى منع الأليلات Alleles (*) المتنحية من إظهار تأثيرها. بينما الزواج القرابى يزيد من الأصالة الوراثية ، وتزداد احتمالات إظهار تأثير الأليلات المتنحية فى العشائر المغلقة . ومن خلال إجراء الدراسات الوراثية على الأسر القائمة على الزواج القرابى ، لوحظ ظهور جينات أمراض عديدة فى عدة أجيال ومنها : ضيق فى عظام المخ ، تمدد فى الغدد فوق الكلوية ، حساسية الجهاز التنفسى للإصابة ، الشعر الهش ، تضخم أصبع القدم الكبير ، ضعف الذاكرة قبل الشيخوخة ، التقزم ، التحام سلاميات الأصابع ، اليرقان (٢٤) . كذلك أظهرت دراسات أخرى على أمراض معينة نفس النتائج حيث يظهر تعبير الجينات المتنحية فى الأطفال الناتجين عن الزواج القرابى . ومن ذلك مرض تاى ساكس Tay - Sacks وهو تخلف عقلى مصحوب بعمى نتيجة ضمور العصب البصرى . ويورث هذا المرض كصفة أوتوسومية متنحية ، تتحكم فى تراكم المادة العقدية العصبية فى المخ.

وتنتقل الصفات الوراثية للأبناء من خلال انقسام الخلية فى الإنسان ، حيث يوجد ٤٦ كروموسوماً ، تترتب فى ٢٣ زوجاً مختلف بالحجم والمظهر . ويوجد فى الإنثى ٢٣ زوجاً متماثلاً من الكروموسومات . أما فى الذكور فيوجد ٢٢ زوجاً من الكروموسومات المتماثلة ، بالإضافة إلى زوج من الكروموسومات غير المتماثلة فى الطول وهى X و Y . أما فى الأنثى فهى X و X .

وخلال تكوين الأمشاج أو الجاميطات Gametes (البويضة المخصبة بحيوان منوى)، يختزل عدد الكروموسومات إلى النصف . ومعنى هذا أن جاميطات الذكر إما أن يوجد بها كروموسوم X أو Y وليس الاثنين معاً (بالنظر إلى X و Y كزوج) . وفى الإخصاب تتحد جاميطتان تحتوى كلتاهما على ٢٣ كروموسوم لتكوين خلية مخصبة بها ٢٣ زوجاً أو ٤٦ كروموسوماً مرة أخرى .

إذن تنتقل الصفات الوراثية عبر عملية الزواج والإخصاب ، وما يترتب عليهما من نوعية المادة الوراثية Quality of Hereditary Material أو ما يسمى الجِبِلّة الجرثومية Germ plasm . ومن المعروف أن الأخطار البيئية مثل التلوث وخاصة الإشعاع وبعض الأدوية ، وبعض الفيروسات المعدية تسبب كسوراً فى الكروموسومات وتحدث طفرات ، من خلال التأثير فى نوعية الجاميطات المسئولة عن الأجيال القادمة . ومن هنا فإن الجينات الشاذة التى تنتج أمراضاً عقلية أو تشوهات جسدية ، تقلل من نوعية الجاميطات المسئولة عن خصائص الوراثة . وبالتالى وجب على المجتمع كله المساهمة فى تحديد القرارات المسئولة عن حل المشكلات الاجتماعية الناشئة . ولعل ذلك ما دفع جالتون فى الماضى إلى البحث فيما أسماه بتحسين النسل Eugenics . وسنعرض لهذا الموضوع بالتفصيل فى الفقرة الثانية عشرة والأخيرة القادمة .

• • •

سابعاً نظريات التوائم :

تدور حول التوائم نظريات متعددة ، منها ما يركز على كيفية حدوث التوائم أو نشأتها، ومنها ما يهتم بالعلاقة بين الوراثة والبيئة فى حالات التوائم المتطابقة وغير المتطابقة ، ومنها ما يهتم كذلك بمعدلات توافق وعدم توافق التوأمين . وإذا كانت قضايا هذه النظريات ، وردت فى الفقرات السابقة ، إلا أننا سنعرض هنا بإيجاز لأهم قضايا نظرية الكروموسومات ونظرية التوائم والتوافق والشخصية .

(١) نظرية الكروموسومات :

أوضحت الدراسات العديدة التوازى التام فى السلوك بين الجينات والكروموسومات - التى توجد فى أنوية الخلايا ، بذلك كانت الإشارة إلى الكروموسومات وهى أجسام مادية

موجودة بالخلية - على أنها جهاز الوراثة المادى ، وذلك على أيدى ستن Sutton وبوفيرى Boveri منذ بداية القرن الحالى .

وأن نواة الجاميطة تحتوى على العدد الفردى haploid ونواة الزيجوت على العدد الزوجى diploid من الكروموسومات . كذلك من المعروف أن عدد الكروموسومات ثابت فى جميع خلايا أفراد النوع الواحد . وقد بينت الدراسات السيتولوجية أن فى الخلايا الجسمية Somatic ، توجد الكروموسومات فى أزواج ، كل منها يتماثل فرداه فى الشكل والحجم وباقى المميزات . بينما تحتوى الخلايا الجنسية على فردة واحدة من كل زوج من أزواج الكروموسومات (٢٥) .

وقد قدمت الدراسات الخاصة بسلوك الكروموسومات ، أثناء تكوين الجاميطات . معلومات هامة ساعدت على فهم ما هية الجهاز المسئول عن انتقال الصفات الوراثية ، وهكذا يكون للكروموسومات شخصية مستقلة ، علاوة على أنها تتوازى مع الجينات فى السلوك .

ومن هنا ظهرت نظرية كروموسومات الوراثة Chromosome Theory of Inheritance بفضل جهود العالم توماس مورجن T.Morgan وتقول النظرية إن الجينات موجودة بالكروموسومات وإن القواعد والقوانين التى تتحكم فى وراثة الجينات ، هى نتائج بسيطة ومباشرة فى الغالب لسلوك الكروموسومات . ويعتبر الانعزال والتوزيع الحر ، من أهم ما تقوم به الكروموسومات من حركات أثناء الإنقسام الميوزى Meiosis للخلية(*).

(٢) نظرية التوائم والتوافق والشخصية :

تعتبر المقارنات النوعية للصفات المختلفة فى أزواج التوائم المتطابقة وغير المتطابقة أبسط أنواع البيانات التى يمكن الحصول عليها من دراسات التوائم . ويُقال عن فردى الزوج التوأمى أنهما متوافقان ، إذا أظهرا ، أو لم يظهرا معاً ، الصفة موضوع الدراسة . ويُشار إلى ذلك بالرموز (+ + أو − −) . أما إذا أظهر أحدهما فقط الصفة ، فيقال إنهما غير متوافقين، (ويستعمل الرمز + −) . ومن الواضح أن التوائم المتطابقة تكون دائما متوافقة فى جميع الصفات الوراثية تامة النفاذ ، فى حين أن التوائم غير المتطابقة تكون أحيانا غير متوافقة لمثل هذه الصفات (٢٦) . وتستعمل هذه الحقيقة فى تمييز التوائم المتطابقة من غير المتطابقة . فإذا كان التفاوت فى الصفة يرجع كليةً إلى البيئة فيجب أن يقارب عدد حالات التوافق ، وعدد حالات عدم التوافق فى نوعى التوائم المتطابقة وغير المتطابقة .

ويعرض لنا سترن Stern وفرشوير Vercmuer نطبقاً نضية التوافق (+ +) وعدم التوافق (+ −) بين فردى أزواج من التوائم المتطابقة وغير المتطابقة ، من خلال مجموعة الصفات الشخصية الصحية فى الجدول رقم (٤) التالى : -

الصفات الشخصية الصحية	أزواج التوائم التى در ت		النسبة المئوية			
	متطابقة	غير متطابقة	متطابقة		غير متطابقة	
			+ +	− +	+ +	− +
الحصبة	١٨٩	١٤٦	٩٥	٥	٨٧	١٣
الحمى القرمزية	٣١	٣٠	٦٤	٣٦	٤٧	٥٣
السل	١٩٠	٤٢٧	٧٤	٢٦	٢٨	٧٢
أورام (من كل نوع)	٦٢	٢٧	٦١	٣٩	٤٤	٥٦
أورام (أنواع معينة)	٦٢	٢٧	٥٨	٤٢	٢٤	٧٦
البول السكرى	٦٣	٧٠	٨٤	١٦	٣٧	٦٣
الضعف العقلى	١٢٦	٩٣	٩١	٩	٤٥	٥٥

* * *

ثامناً : صحة التوائم :

دلت دراسات الوراثة على أن صحة التوائم المتطابقة تخضع لنفس العوامل الوراثية ، ونفس الاستعداد الوراثى للإصابة بمرض ما ، بينما التوائم غير المتطابقة لا يكون تشابهها الوراثى أكثر من التشابه بين الإخوة والأخوات الاعتياديين .

ومن المعروف أن درجة التوافق (+ +) بين فردى التوائم المتطابقة تبلغ أعلاها ، يليها التوائم غير المتطابقة ، ثم يليها الاخوة ، وتصل درجة التوافق إلى أدناها (+ −) بين أفراد المجتمع الذين لا تربطهم علاقة قرابية . وقد وصفت دراسات التوائم النسب المئوية للتوافق فى بعض الصفات الوراثية ، والأمراض بين أفراد التوائم المتطابقة ، وغير المتطابقة والتى يمثلها الجدول رقم (٥) التالى [٢٧] .

الصفة الوراثية والأمراض	التوائم المتطابقة ٪	التوائم غير المتطابقة ٪
لون الشعر	٨٩٪	٢٢٪
لون العيون	٩٩,٦٪	٢٨٪
ضغط الدم	٦٣٪	٣٦٪
معدل النبض	٥٦٪	٣٤٪
القدم المشوهة	٣٢٪	٣٪
الصرع	٧٢٪	١٥٪
شلل الأطفال	٣٦٪	٦٪
مرض انفصام الشخصية	٨٠٪	١٣٪
مرض داون	٨٩٪	٧٪
الشفاه المشقوقة	٤٢٪	٥٪
الجذام	٨٣٪	١٧٪

• • •

تاسعاً : الآداب الشعبية وشخصية التوائم :

تدور حول التوائم مجموعة من الآداب الشعبية فى التراث الشعبى العالمى، من قصة وأسطورة وأغنية ومثل شعبى .. إلخ . والملاحظ عموماً أن نظرة الأدب الشعبى للتوائم تقترن بالخوف والحذر ، ولذلك فقد تصدى رندل هاريس ، ليتقصى هذا الخوف فى شتى أنحائه وتعبيراته فى الحضارات المختلفة .

إن ميلاد التوائم خروج على المألوف ؛ وبالتالى نظر إليه عامة الناس بشئ من الخوف والفزع ، مما دفع بالبعض - فى مناطق مختلفة من العالم قديماً - إلى القضاء على التوائم ، أو الأم ، أو قتلهم جميعاً ، ليتجنب المجتمع العواقب الوخيمة التى يخافونها ، وحتى لا ينتشر الأذى . كذلك فقد كانت الشعوب البسيطة تهدم الكوخ الذى وُلدت فيه التوائم ، أو الذى اعتادت الأم أن تسكنه . وفى أحيانٍ أخرى كانت بعض الشعوب البدائية تظن أن الموت وحده لايكفى لمحو آثار هذا الميلاد المشئوم ، أو أن الموت يزيد الأمور سوءاً ،ولذلك كانوا ينفون الأم والأبناء إلى مكان بعيد ،لايصل إليه الناس ، مثل الجزر النائية فى المحيط الهادى . ومن هنا تحولت تلك الجزر إلى مأوى للخارجين على القانون ، والهاربين من الثأر ، أكثر مما كانت

عزلاً للتوائم وَالخوف منهم [٢٨] . وهكذا نشأت مدن التوائم وأشهرها مدينة روما نفسها ، التى تحيط بتأسيسها قصة أسطورية كهيكل للتوائم.

ولعل هناك بعض القصص الخرافية التى تدور حول التوائم فى مجتمعات البحر المتوسط فى العصور القديمة . فالأصل المقدس ، لم يمنع من تعذيب التوائم مثل أمقيون، وزيتوس ، وبيلياس ، ونيليوس . كذلك فهناك الكثير مما حدث للتوائم الرومانية ، وأن الشرف الذى يتحقق من الزواج بزوج مقدس ، لم يحم التوائم مثل أنتيوب Antiope أو تيرو Tyro من سوء المعاملة ، كما لم يدفع عن ريا سيلفيا Rhea Silvia الميتة المفزعة [٢٩] . وتكثر القصص الخرافية ـ فى أوربا فى العصور الوسطى ـ التى تروى وقائع التنكيل بالتوائم وأمهاتهم وتعذيبهم. ومن الواضح أن التوائم الذين كانوا يتعرضون للإضطهاد والخوف ، كانوا يتمتعون بشرف القداسة . والدليل على ذلك أن كاستور Kastor وبوللوكس Pollux الإسبرطيين كانا مقدسين ، شأنهما فى ذلك شأن التوأمين أشغنز الفيديين .

وقد حظى الإخوة ـ التوائم وغير التوائم ـ بنصيب وافر من اهتمام الأدب الشعبى ، كما فى الأمثال الشعبية ، حيث تؤكد تلك الأمثال على علاقات الرحم بين الإخوة وأهميتها التى تفوق سائر العلاقات الأسرية الأخرى . ولذلك يقول المثل الشعبى " الإبن مولود والجوز مردود والأخ منين يعود " . وبحكم قانون الحياة ، فإن الإخوة يكبرون ويستقلون بأسرهم حتى يصير كل واحد منهم مستقلا عن باقى إخوته فى المسكن والمعاش والعمل ... إلخ . ومن هنا يقول التعبير الشعبى " كل مانوا فى حاله " ، أو كما يقول المثل : " مصيرك يا أخ جار " ، و " إحنا أخوات وربنا خلق وفرّق " .

وتعلى الأمثال الشعبية من شأن الوراثة والصفات الوراثية التى يحملها الأبناء عن الأباء. وفى هذا يقول المثل : " قبل ما شافوه قالوا حلو القوام زى أبوه " ويطلق على الأب حسن الصفات البدنية وربما الأخلاقية عموماً . وأما إن كان الأب غير ذلك فإن المثل يقول : " قبل ما ولدوه قالوا عريض القفا زى أبوه " [٣٠] . وهذا يدل على توقع المجتمع لصفات الإنسان ـ قبل ولادته ـ بناءً على الصفات التى يحملها عن أبيه بالوراثة.

• • •

عاشراً : المعتقدات الشعبية وشخصية التوائم :

يحفل التراث الشعبى الإعتقادى بالعديدمن المعتقدات حول التوائم، وشخصيتهم ، بالرغم من أن التوائم ليست هى القاعدة فى الإنجاب ،وإنما هى الإستثناء أوهى الصورة النادرة . ومن هنا ينظر المعتقد الشعبى إلى إنجاب التوائم بإعتباره خارقة من الخوارق ، ولذلك نسج الخوف منها مجموعة من المعتقدات الخرافية ، كما أنتج مجموعة أخرى من الشخصيات الأوليمبية الأصيلة فى التراث اليونانى القديم .

ولم تقتصر هذه الفكرة على التوائم فقط ، ولكنها امتدت لتشمل كل ما يخالف الطبيعة والقياس عند ميلاد كل طفل . فبعض الأطفال يولدون ، وفى أفواههم نتوءات تشبه الأسنان ، أو يولدون أحياناً وأسنانهم نامية ، مما يشير إلى ندرتها وخروجها على المألوف ، وبالتالى استقطابها للعديد من التصورات والمعتقدات الشعبية (٣١) . ولكن تلك المعتقدات تتراوح ما بين التفاؤل بالتوائم ،و التشاؤم الشديد منها. والملاحظ أن موجات التشاؤم أكثر انتشاراً من موجات التفاؤل .

ففى المجتمعات البدائية ساد الإعتقاد بتوقيع العقوبات الصارمة ضد التوائم ،و بالتالى فقد كانت تصيب العم ، فإذا كان العم ميتاً ، أصابت شقيق المرأة المتكوبة بولادة التوائم . ومن هنا نشأت القصص الخرافية حول قسوة الأخوال ،وامتدت من ليكوس الطيبى ، إلى أموليوس الرومانى ،وأرمانارتش التيوتونى ، وما يلحق بهم فى أمريكا الجنوبية وبولينيزيا . ومن المعتقدات الأخرى ، أن للأخوين التوأمين أبوين مختلفين ،وأن كل أب منهما مسئول عن إبنه. كذلك فهناك اعتقاد آخر بأن الأم ارتكبت جريمة الزنا .

ومن الخرافات الكبرى التى تدور حول التوائم ، أن والد أ.. التوأمين كان ... حار القوة - أو كان إلهاً - وخرافة أخرى تقول بأن وا.. التوأمين أ. معدس " . وهكذا اتيح معرفة " الأصل المقدس " - فى الأساطير الإغريقية - لتوائم هرقل ، و... اسبر... والديسكورين المسينيلين . وكذلك الأصل المقدس لموليونس ، وبلياس ، ونيوليوس ، ورومولوس ، وريموس وغيرهم (٣٢) .

وهناك اعتقاد بأن إنجاب التوائم دليل على زيادة فى رجولة الأب ،وذلك فى المجتمعات الأحدث والأقرب إلينا . وعلى العكس من ذلك ، تسود معتقدات أخرى فى المجتمعات البدائية بأن التوائم يجب التخلص منها ، وأن على المرأة أن تتطهر لفترة من الوقت بعد أن تتخلص

منهما (٣٣) . ولهذا السبب تحرص تلك المجتمعات على تجنب أكل الثمار المزدوجة مثل لوزتين ملتصقتين ببعضهما ، أو موزتين ملتصقتين ... الخ . حيث يسود الإعتقاد بأن أكل هذه الثمار يؤدى إلى إنجاب التوائم . فإذا اضطرت المرأة أو الفتاة لأكلها ، فلابد أن تتفوه ببعض الأدعية والتعاويذ ، لتتجنب إنجاب التوائم .

ولكن هناك تفاؤلاً بالتوائم فى مجتمعات ومواقف أخرى . فعند الهنود الحمر ، يسود الإعتقاد بأن التوائم تتمتع ببصيرة نافذة ، أو يتمتعون بقوة خارقة ناتجة عن جمعهم بين شخصين فى نفس الوقت . كما ترى إحدى القبائل الأخرى - الهندية الحمراء - أن التوائم تستطيع رؤية الأرواح وغيرها من الكائنات فوق الطبيعة ، على نحو لايقدر عليه الناس العاديون . ولكن التوائم يمكن أن تفقد هذه القدرة إذا ما تناولت طعاماً من إعداد إمرأة حائض(٣٤).

ومن المعروف أن التفاؤل بالتوائم ، والتشاؤم منها ، موقفان عامان فى الثقافة الأفريقية، وخاصة فى غرب أفريقيا ، ومنها انتقلت تلك المعتقدات إلى زنوج العالم الجديد . ففى نيجيريا ، يحب اليوروبا وقبائل ساحل غينيا التوائم ويتفاءلون بهم ، على حين يتشاءم منهم الإيبو وزنوج الدلتا ، والكاميرون . وبالإضافة إلى ذلك ، هناك بعض المعتقدات المرتبطة بالطفل التالى بعد ولادة التوائم ، حيث ترى الثقافات الزنجية أنه يتميز بقوة جسمانية فائقة ، وأنه يجب أن يلقى معاملة خاصة . ولعل هذا المعتقد هو الأصل الذى انتشر فى مجتمعات العالم الجديد كالبرازيل وكوبا وجيانا وهاييتى وغيرها من شعوب البحر الكاريبى ، حول ما يسمى The dosu ، أى الطفل التالى بعد ولادة التوائم .

ومن الحكايات ذات الدلالة الإعتقادية المرتبطة بالتوائم فى مدينة شلاتين المصرية ، حكاية القطة وقلى السمك ليلاً . تقول الحكاية إن سيدة قامت ليلاً لتقلى السمك فى طاسة الزيت فقدمت قطة لتأكل السمك فوضعت رجلاها الخلفيتان فى الزيت المغلى فأصابتهما حروق شديدة(*). نامت السيدة بعد الأكل ، فصحت فى الصباح لتفاجأ بأن قدمى توأميها الصغيرين أصابتهما الحروق . وهنا تربط الحكاية بين الأذى الواقع على القطة ، وبين الأذى الذى حل بالتوأمين وبالتالى ضرورة التحوط بعدم إيذاء القطط وخاصة ليلاً ، حتى لا يتعرض أحد الأبناء - وخاصة الصغار - للأذى .

ومن الممارسات الإعتقادية السائدة فى شلاتين ، الحرص على إرضاع التوائم لبن النوق، حتى لا تتحول تلك التوائم إلى قطط . ونلاحظ هنا الإرتباط الإعتقادى بين التوائم

والقطط، ورمزية كثرة الإنجاب ، ونجاة القطط من الهلاك مرات عديدة لأنها " بسبعة أرواح " ونلاحظ أيضاً ارتباط إسم القطة " بسة " بالمعبود الفرعوني " بس " ولذلك فهم في شلاتين لا يقولون القطط ولكن يقولون "البسات " " جمع بسّة " .

• • •

حادى عشر : العادات وشخصية التوائم :

لا تتوافر معلومات كافية ، تغطى موضوع العادات المرتبطة بالتوائم . ويدلنا التراث النظرى فى علم الوراثة ، على أن العوامل الوراثية أكبر تأثيراً من العوامل البيئية فى بعض العادات لدى التوائم كالتدخين على سبيل المثال . وترى تلك الدراسات أن التوائم المتطابقة أو أحادية الزيجوت MZ شديدة الإتفاق فى عادة التدخين ، سواء تربت معا فى بيئة واحدة . أو تربت فى بيئات مختلفة . وفى نفس الوقت تختلف التوائم غير المتطابقة أو ثنائية الزيجوت DZ ، عن التوائم MZ اختلافاً كبيراً فى هذه العادة [٣٥] وعلى هذا ، فإن دراسات التوائم تعطى معلومات هامة عن المكونات الوراثية والبيئية فى توافق أو عدم توافق التوائم .

وهناك شواهد أخرى ، ساقها توماس بوتشارد Bouchard عالم النفس فى جامعة مينيسوتا ، عن توائم متطابقة تتشابه بينها عادات التسمية وعادات الزى وعادات الزينة . ومن هذه الحالات التى ساقها شقيقتان بريطانيتان (توأمتان متطابقتان MZ) .تشابهتا معاً فى عادات التسمية ، فقد أسمت الأولى إبنها باسم ريتشارد أندرو Ritchard Andrew وأطلقت الثانية على إبنها إسم أندرو ريتشارد Andrew Ritchard ،وسمتا بنتيهما كاترين لويس C.Louise وكارن لويس K. Louise (وكانت كارن ستسمى كاترين لولا تدخل من ضغوط عائلية) . وقدمت الشقيقتان البريطانيتان على بوتشارد ،ترتدى كل واحدة منهما سبعة خواتم وإسورة فى يد ، وإسورتين وساعة فى اليد الأخرى ، وبالتالى كانت عادات الزينة بينهما متطابقة . أما عادات الزى فقد تشابهت بينهما هى الأخرى ، حيث لبست كل منهما ثوباً يشبه ثوب الأخرى [٣٦] .

والواقع أننا نسعى إلى إجراء دراسات ميدانية فى هذا المجال تغطى جميع عناصر الثقافة لدى التوائم فى مجتمعنا المصرى حتى تكون البيانات الواردة والشواهد الواقعية ، مستمدة من واقعنا وهذه الخطوة سبقها خطوة أخرى فى المجتمع القطرى ولعل الأيام القادمة تتيح لنا كتابة التقرير النهائى للدراسة المقارنة بين المجتمعين بإذن الله .

ثانى عشر : الاستنساخ والتوائم : الواقع والمستقبل :

من المعروف أن الأخطار البيئية مثل التلوث وخاصة الإشعاع وبعض الأدوية ، وبعض الفيروسات المعدية ، تسبب كسوراً فى الكروموسومات وتحدث طفرات ، وبالتالى تؤثر فى نوعية الجاميطات المسئولة عن الأجيال القادمة . ومن ناحية أخرى ، فإن الجينات الشاذة التى تسبب أمراضاً عقلية أو تشوهات جسدية تقلل من نوعية الجاميطات المسئولة أيضاً عن الأجيال القادمة .

وقد أدى التفكير فى هذا الموضوع إلى التطبيق العملى لما أسماه فرانسيس جالتون Galton بتحسين النسل Eugenics ، وهو أن يصمم السلوك الإجتماعى لتحسين التركيب الوراثى للعشيرة فى الإنسان وذلك من خلال المتطلبات التالية [٣٧] :

١- الدراسة المستمرة لوراثة الإنسان ، وفروع المعرفة الإنسانية الأخرى التى تقدم المعلومات عنه .

٢- التعليم العام لنشر الأراء المبنية على الحقائق السليمة ، حيث يتطلب تحسين النسل معلومات دقيقة .

ما أيسر القول والرأى ، ولكن ما أعقد الفعل والمبدأ ؟ إن القول يدعو إلى أن ينتج أصحاب التراكيب الوراثية المتفرقة ، الجزء الأكبر ، وينتج أصحاب التراكيب الوراثية المتخلفة الجزء الأصغر ، أو لا ينتجون من الجيل التالى . ولكن كيف يكون ذلك ؟ ومن يصدر بشأنه القرارات ؟ ومن يتحمل المسئولية الأخلاقية ؟ وأية أخلاق تدعو إلى ذلك ؟ أضف إلى كل هذا أن الجزء الأكبر من الجينوتايب غير معروف ، وأسس انتخاب أنسب الأنواع للبيئات الحاضرة والمستقبلة لم تستقر بعد . والأكثر من ذلك ، فإن التكاثر لا يمكن التحكم فيه بالإرادة. فالعقم قد يتدخل مع أحسن الخطط . إن فرانسيس جالتون . مؤسس علم تحسين النسل - كان موهوباً ، كرس نفسه لمبدأ أن أحسن المؤهلين يجب أن ينجبوا على الأقل نصيبهم من أطفال الجيل التالى، ولكنه مات دون أن ينجب طفلاً واحداً ! سبحان الله " لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء ° يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور * أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيماً إنه عليم قدير " [٣٨] .

إن الساحة تموج الآن بتيارات عديدة حول تحسين مورثات Germ Plasm الجيل التالى ، أى تقوية نوعية الجبّلة الوراثية . ويمكن تقسيم تلك التيارات وأصحابها المختلفين إلى مجموعتين هما : (٣٩) :

(١) مجموعة أنصار البيئـة : وهم يؤكدون على أن الجينات لا تلعب إلا دوراً تافهاً بالنسبة للذكاء والشخصية . والجينات هى ببساطة مما لايمكن أن يُعزل أو يُفحص . أما التنشئة والتربية فنفوذهما يتخلل كل شئ ، بحيث أنه إذا كان هناك أى نظام للسلوك يتصل بالجينات ، فإنه يمكن ربطه أيضاً بالبيئة .

(٢) أما مجموعة البيولوجيين الإجتماعيين : فيؤكدون على أن الجينات هى القوة الكامنة خلف العرش السلوكى . فالكائن البشرى هو مجرد أسلوب حامض DNA's Way لإنتاج المزيد من حامض DNA . والشخصية والذكاء هما مركبات وراثية للبقاء . والبيئة تمدنا فقط بمجموعة من المتغيرات تقوم الجينات بالإختيار منها . ويحذر أصحاب هذا الرأى من رفض إجراء الإختبارات على الجينات ، لأن عاقبته هى قطع طريق البحث عن المعرفة .

وقد غالى هؤلاء البيولوجيون الإجتماعيون فى دعواهم . حيث نجد أحدهم ، وهو وليام شوكلى William Shockley الحائز على جائزة نوبل ، يوافق على السماح باستخدم حيواناته المنوية فى برنامج للتلقيح الصناعى Artificial Insemination ، يتم فيه تلقيح نساء متفوقات فى ذكائهن بجينات من حائزى جائزة نوبل للعلوم (وليس للأدب أو السلام) . ولكن هذا الحماس وذلك الرأى ينتهك القواعد الأخلاقية ، علاوة على انتهاكه لأساسيات الإرث الجينى . ومما يعيد الفكر إلى رشده وصوابه ، أن شوكلى نفسه له عدة أطفال من نسله ، كلهم متوسطون إلى درجة مذهلة . وعندما سُئل عن السبب ، أنحى بالمسئولية على قدرة الذكاء المحدودة عند زوجته الأولى !

وعلى عكس هاتين المجموعتين ، هناك " جماعة العلم للشعب " فى كمبريدج بماساتشوستس ، ذات الحافز السياسى ، ترى أن أمور العلم كله والبحث كله ، ينبغى أن تكون مسئولة أمام الجمهور . وبالتالى فهم يدققون فى كل دراسة وراثية تدور حول الإنسان ، ويهبون لمواجهتها إذا كانت تتعارض مع القيم أو الأخلاقيات . وقد تتدخل الصحافة لتقلب الموازين وتشوّش المعلومات الحقيقية ، وتُحيّر الجمهور فلا يميز بين الغث والسمين .

وبصرف النظر عن هذه الأراء والمجموعات ، فإن هناك رابطة واضحة ومتزايدة بين الجينات والذكاء ، تتوافر عليها البراهين . فالطفل المصاب بمتلازمة داون Down's

Syndrome (أى بكروموسوم ثالث يضاف إلى الزوج الحادى والعشرين) يظهر عليه تفلطح فى مؤخرة جمجمته بصورة مميزة واتساع فى المسافة ما بين العينين ، وقصر القامة مع امتلائها ، وكثيراً ما يظهر عليه تخلف عقلى شديد . ومن المعروف أيضاً أن الوراثة هى العامل الهام فى إصابة الأطفال بمرض تبول الكيتون الفينولى (PKU) . ويمكن حماية هؤلاء الأطفال من التخلف بتغيير طريقة تغذيتهم . ومن المعترف به أن السبب فى ثانى أنواع التخلف ذيوعاً بين الرجال ، هو متلازمة (إكس الهش : Fragile X'syndrome) وهو مرض تنفصل فيه أحد أرجل كروموسوم X بعيداً عن جسم الكروموسوم الأساسى ، وتتدلى منه متصلة بخيط رفيع فحسب من حامض DNA [٤٠] . وفى هذه الأمثلة يتضح أن الذكاء هو ما حُرم منه المصابون بهذه المتلازمة أو الأعراض بدرجة أو بأخرى فى كل قياس : فى قدرة الكلام ، والذاكرة ، والمنطق ، والقدرة الفراغية . علاوة على أنهم لا يستطيعون حماية أنفسهم فى أى مجتمع أو بيئة .

وفى ضوء مجموعة الآراء الداعية إلى تحسين مورثات الإنسان Germ Plasm أو ما سمى بتحسين النسل Eugenics ، ظهرت فى المجتمعات الغربية - وبريطانيا على رأسها - ثلاث دعاوى لثلاثة أساليب بيولوجية ، نجح بعضها عملياً لدى الحيوانات الأدنى ، وبعضها لايزال موضع بحث وتجريب . ولكن لا يزال الأمر خلافياً من الناحية القانونية والأخلاقية والاجتماعية والدينية فى هذه المجتمعات . فما بالنا بمجتمعاتنا العربية الإسلامية ؟ ! وما بالنا بسرعة إنتشار الأفكار والإنجازات البيولوجية - مهما كان التحفظ عليها - فى مجتمعاتنا فى ظل الإتصال الحديث ووسائله المتعددة ؟ ! المهم سنشير إلى هذه الأساليب فيما يلى [٤١] .

(١) <u>التلقيح الصناعى Artificial Insemination وبنوك الحيوانات المنوية Sperm Banks</u> : أعلن مولر H.J.Muller منذ سنوات طويلة ، أن الموهوبين الأكثر قدرة مع المجتمع ، يجب أن يكونوا أسراً ضخمة ، بينما أولئك الأقل قدرة ، ويتخذون موقفاً ... المجتمع ... ، يجب ألا ينجبوا ، أو ينجبون أقل من نصيبهم فى النسل وادعى مولر بأنه سيعتمد على التعليم ، وتنوير الرأى العام ، والاختيار الارادى لإيجاد الرغبة فى تقوية المورثات Germ Plasm للجيل التالى .

ولتسهيل الخطة ، اقترح مولر التلقيح الصناعى للحالات التى تكون فيها المرأة طبيعية وسليمة صحياً وترغب فى الأطفال ، ولكن غير متزوجة أو متزوجة من رجل عقيم ، أو غير مؤهل وراثياً . وفى هذه الحالة ، سوف نستخدم بنوك الحيوانات المنوية ، والمجمد فيها

الحيوانات المنوية بطريقة سليمة محمية من أية إشعاعات أو أخطار بيئيـة أخرى . ولكن مرة أخرى كيف يكون ذلك فى ضوء المجتمع والثقافة والدين ؟ ومتى يكون وهى لا زالـت موضوعات محل جدل وخلاف ؟

(٢) الهندسة الوراثية Genetic Engineering: حققت الهندسة الوراثيـة تراكمـاً معرفيـاً عالياً فى الوقت الحاضر حول فعل الجين والتحكم الوراثى ، بما يسمح بعمل تغيرات صناعية فى المادة الوراثية فى حيوانات التجارب . ولكن الموقف عند الإنسان يختلف ، ويثير العديد من القضايا الأخلاقية الدينية والأخلاقية والاجتماعية . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إن طرق الإستشارة الوراثية فجَّرتَ العديد من التساؤلات الخلافيـة ، حـول : التحديد المسبق للجنس ، والجراحة الوراثيـة ، والإنجاب عن طريـق النسـخ الوراثـى (الاستنساخ) ، والتكاثر الإنتخابى .

والهندسة الوراثية - على المستوى الميكانيكى - تشمل أساس بيولوجيا الخلية ، وطرق إضافة أو إزالة أو تغيير فعل إنزيم ما داخل الخلية . فالإنزيمات التى تعمل داخل الخلية ، هى مصنوعة فيها ، وبالتالى يمكن لطفرات الصدفة أن تخلق أليلات Alleles جديدة ، تكون إنزيمات جديدة ، والتدخل الوراثى هو الذى يتعمد استحداث هذه التغيرات أو تثبيطها فى الإنسان . إن الفيروسات تحمل حمض DNA أو حمض RNA من خلية بكتيرية أخرى إلى خلاياها العائلة . وهى بالتالى تستبدل جيناً أو جينات قليلة . ومع حمض DNA السليم بدلاً من DNA التالف ، فى عملية تحول ، أمكن شفاء المرضى الذين يعانون من العيوب الوراثية بالعلاج الجينى أو الجراحة الجينية . ولكن تعدد خلايا الإنسان ، تمثل أكبر عقبة فى طريق الجراحة الجينية ، فلا يكفى نقل أو تحويل معظم أو كل خلايا الكبد ، لعلاج مرض " تبول الكيتون الفينولى " ، كما أن أحسن أنظمة البكتريا لا تكفى بالمرة لهذا العلاج .

(٣) الاستنساخ (التكاثر عن طريق الكلون) Clonal Reproducton : وهو صيغة متطرفة من الهندسة الوراثية ، إذا أمكن تطبيقها فى الإنسان فى أى وقت ، وهى تعنى إنتاج توائم أو مجاميع من التوائم عن طريق صيغة من صيغ التكاثر اللاجنسى . وعموماً هو موضوع لا يزال خلافيا ، ولم تستقر عليه المجتمعات كلها بعد . وإذا كان إلدون جاردنر E.Gardener وبيتر سنستاذ P.Senstaz – فى دراستهما عن مبادئ علم الوراثة عام ١٩٨٧ فى الطبعة السابعة – يذكران الاستنساخ باعتباره صيغة من الهندسة الوراثية فى المستقبل البعيد ، فإن محاولات الاستنساخ فى بريطانيا واسكتلاندا قد نجحت

فى عام ١٩٩٦ على الحيوان فيما يسمى بالنعجة دوللى . إلا أن هذه المحاولات لم نبدأ بعد مع الإنسان وإن كانت الصحف تحمل بين حين وآخر عناوين مثيرة حول استنساخ الإنسان فى المستقبل ، واستنساخ إنسان بلا رأس ، ليكون قطع غيار آدمية للمرضى من البشر . لقد التهب المجال بالنيران والمناظرات قبل أن يبدأ فما بالنا لو بدأ بالفعل ؟ وماذا ينتظرنا بعد عبث العابثين بالهندسة الوراثية ؟

والكلون Clone هو مجموعة من الخلايا أو الأفراد المتماثلة وراثياً ،كلها نتجت من خلية واحدة ، أو من فرد واحد عن طريق الانقسام الميوزى Meiosic فالمستعمرة البكتيرية التى تنتج من خلية بكتيرية مزروعة على طبق بترى هى كلون. لقد تمكن جوردون J.B.Gurdon من انتاج ضفادع أفريقية بطريق غير تكوين الجاميطات والإخصاب . فقد حصل على بويضة ضفدعة غير مخصبة ، وحطم نواتها بالإشعاع (وفى تجارب أخرى إزيلت الأنوية بجراحة دقيقة) ، ثم بدل نواة البويضة الأحادية بنواة ثنائية من خلايا أمعاء فرخ الضفدع . وبدأ البيض الذى يحتوى على المجموعة الكروموسومية الثنائية المكتسبة فى الإنقسام كما لو كان قد أخصب ومر بالأطوار الجينية إلى أن وصلت فى بعض الأحيان إلى ضفادع بالغة .

لقد كان إستنساخ الحيوانات المستأنسة بعيد المنال فى عقد الثمانينات ، ولكنه صار حقيقة فى عام ١٩٩٦ ، بفعل تقدم البيولوجيا التجريبية . أما الإستنساخ فى الإنسان فقد يبدو ممكناً من الناحية الفنية خاصة فى بريطانيا . ولذلك صار إدوارد R.G.Edward وستبتو P.C.Steptoe ينميان بويضات الإنسان فى المزرعة ، ويلاحظان الإخصاب بالحيوانات المنوية ، ويتابعان الزيجوت لعدة أطوار انقسامية . وأمكن تطبيق زرع جين (بلاستوسيست أى دور ٦٤ خلية) من إمرأة فى جدار رحم إمرأة أخرى ، وتم الحمل والوضع بشكل طبيعى ، وهذا ما يُسمى بأطفال الأنابيب ، ومضى عليه ما يزيد على العشرين عاماً الآن .

لقد أثار الاستنساخ الخيال عن مستقبل البشرية . هل يمكن نسخ توأم أو عدة توائم من فنان أو عالم أو سياسى عظيم ، وبالتالى يستمر بقاء مادته الوراثية ، ولو لدرجة من عدم الفناء الطبيعى ؟ هل يمكن إنتاج توائم نسخية كثيرة ، وبالتالى يمكن إمداد مجتمع أو أمة بأفراد متماثلين ؟ ماذا سيكون الحال فى عالم كهذا ؟ لا شك فى أن مواجهات حادة ودامية ستحدث قبل أن نصل إلى هذا العالم ، وربما يكون من بينها نهاية العالم ذاته . ولله الأمر من قبل ومن بعد.

* * *

أهم المراجع والحواشي

(١) أحمد بن محمد الفيومي ، المصباح المنير ، المكتبة العلمية ، بيروت ، د.ت ، ص ٧٩.

(٢) خليل الجر ، معجم لاروس ، باريس ، د.ت ، ص ٣٥١.

(٣) لي . إرمان وبيتر بارسونز ، الوراثة السلوكية والتطور ،ترجمة د. أحمد شوقي حسن وآخرين ، دار ماكجر وهيل للنشر ، القاهرة ، ١٩٨٥ ، ص ١٩٦ .

(*) مراعاة للإختصار- سنشير في الفقرات القادمة إلى التوائم المتشابهة أو المتطابقة أو أحادية الزيجوت Monozygous بالحرفين MZ ،والنوع الآخر ثنائي الزيجوت أو التوائم غير المتطابقة Dizygous بالحرفين .DZ .

(٤) Nelson , Text Book of Pediatrics , Vol. I , New York , 1979 , p. 291.

(٥) إرمان وبارسونز ، مرجع سابق ، ص ١٩٧.

(٦) المرجع السابق ، ص ١٩٨.

(٧) إرمان وبارسونز ، المرجع السابق ، ص ١٩٩.

(٨) إلدون جاردنر وبيتر سنستاذ ، مبادئ علم الوراثة ، ترجمة د. أحمد شوقي حسن و آخرين، الدار العربية للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٧ ، ص ٤٦٤.

(٩) د. عبدالعظيم طنطاوي ، علم الوراثة ، الناشر غير مبين ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص ١٤٢.

(١٠) د. علي المكاوي ، الأنثروبولوجيا الطبية: دراسات نظرية وبحوث ميدانية ، دار المعرفة الجامعية ، الأسكندرية ، ١٩٩٦ ، ص ٢٩٠.

(١١) أ.سينوت ول .دن و ث .ديزانسكي ، أساسيات علم الوراثة ، ترجمة الدكتور عبدالعزيز مصطفى عمر وآخرين ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٥ ، ص ٢١٥.

(١٢) زولت هارسنياي وريتشارد هاتون ، التنبؤ الوراثي ، ترجمة د. مصطفى إبراهيم فهمي، عالم المعرفة ، العدد ١٣٠ ، المجلس الوطني للثقافة ، الكويت ، أكتوبر ١٩٨٨ ، ص ١٩٤.

(١٣) د. محمد الربيعي ، الوراثة والإنسان : أساسيات الوراثة البشرية والطبية ، عالم المعرفة، العدد ١٠٠ ، المجلس الوطني للثقافة ، الكويت ، إبريل ١٩٨٦ ، ص ١٦٩ .

(١٤)المرجع السابق ، ص ١٧٠.

(١٥) إرمان وبارسونز ، مرجع سابق ، ص ١٩٦ . وانظر أيضاً : إلدون جاردنر وزميله ، مبادئ علم الوراثة ، مرجع سابق ، ص ٤٦٤ .

(١٦) ريتشارد جولدز بى ، البيولوجيا ، الجزء الثاني، ترجمة الدكتور عدنان علاوى وزملاؤه ، مجمع اللغة العربية الأردن ، عمان ، ١٩٨٠ ، ص ٢٣٧ .

(١٧) د. عبدالحليم طنطاوى ، مرجع سابق ، ص ١٤٠

(١٨) إلدون جاردنر وزميله ، مرجع سابق ، ص ٤٢٦.

(١٩) الوراثة السلوكية والتطور ، مرجع سابق ، ص ٢٠٢.

(٢٠) التنبؤ الوراثى ، مرجع سابق ، ص ١٩٨.

(٢١) إرمان وبارسونز ، مرجع سابق ، ص ٢١٠.

(٢٢) د. على المكاوى ، الأنثروبولوجيا الطبية ، مرجع سابق ، ص ٢٩٤.

(٢٣) إلدون جاردنر وبيتر سنستاد ، مرجع سابق ، ص ٨٤٨.

(*) الأليل Allele هو الجين البديل لجين آخر ، أو هو عكسه ، فى الصفات الوراثية فالجين s هو شكل بديل للجين S فيقال عنهما أليلان . والجين S أليل للجين s وهكذا . راجع التفصيل في :

د. عزيز الخشن ، الوراثة ، ط٣ ، بدون ناشر ، القاهرة ، ١٩٧٩ ، ص ٣٢.

(٢٤) مبادئ علم الوراثة ، مرجع سابق ، ص ٨٤٩.

(٢٥) د. عزيز الخشن ، الوراثة ، مرجع سابق ، ص ٨٢.

(*) الإنقسام الميوزى Meiosis وهو العملية التى تحدث فى الغدد الجنسية أثناء عملية تكوين الجاميطات المذكرة ، وعملية تكوين الجاميطات المؤنثة . وهى أيضا تقوم بها المجموعة الكروموسومية الثنائية للإختزال ، لتعطى مجموعة فردية .

(٢٦) أساسيات علم الوراثة ، مرجع سابق ، ص ٢١٨.

(٢٧) د. محمد الربيعى ، الوراثة والإنسان ، مرجع سابق ، ص ١٠٨.

(٢٨) الكسندر هجرتى كراب ، علم الفولكلور ، ترجمة رشدى صالح ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ٣٣٤.

(٢٩) نفس المرجع السابق ، ص ٣٣٦.

(٣٠) أحمد تيمور ، الأمثال العامية ، ط٣ ، لجنة نشر المؤلفات التيمورية ، مطابع الأهرام التجارية ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ٣٧٧.

(٣١) الكسندر هجرتى كراب ، مرجع سابق ٣٣٦.

(٣٢) المرجع السابق ، ص ٣٣٥.

(٣٣) د. محمد الجوهرى ، علم الفولكلور ، جـ ٢ ، دراسة المعتقدات الشعبية ، دار المعارف، القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ٥٦٠.

(٣٤) د. محمد الجوهرى ، نفس المرجع السابق ، ص ٥٦١ .

(*) رواية الإخبارية عوضية عوض الله من مدينة شلاتين المصرية ،لبعثة مركز الفنون الشعبية بالقاهرة، لمحافظة البحر الأحمر ، خلال الفترة من ١٩ مارس إلى ٣١ مارس ١٩٩٧.

(٣٥) إرمان وبارسونز ، مرجع سابق ، ص ٢٠٥.

(٣٦) التنبؤ الوراثى ، مرجع سابق ، ص ١٩٩ .

(٣٧) مبادئ علم الوراثة ، مرجع سابق ، ص ٨٥٠.

(٣٨) القرآن الكريم ، سورة الشورى ، الآيتان ٤٩ و ٥٠ .

(٣٩) التنبؤ الوراثى ، مرجع سابق ، ص ٢٣٥.

(٤٠) نفس المرجع السابق ، ص ٢٣٦.

(٤١) جاردنر وسنستاذ ، مرجع سابق الذكر ، ص ص ٨٥١ - ٨٥٣.

الفصل العاشر

التـــراث الشــــــعبى
والتربية المجتمعية

التراث الشعبى والتربية المجتمعية

التراث الشعبى Folk Tradition هو عبارة عن المعتقدات والعادات الاجتماعية الشائعة وكذلك الأدب الشعبى . ويدل التراث الشعبى بصفة عامة على موضوعات الدراسة فى علم الفولكلور أو دراسة التراث الشعبى . وتغلب الوحدة على هذه الموضوعات ، علاوة على أنها تجسّد جميع جوانب الثقافة .

كذلك فإن التراث الشعبى هو مجموعة العادات والتقاليد والقيم والآداب والفنون والحرف والمهارات وشتى المعارف الشعبية التى أبدعها المجتمع عبر تجاربه الطويلة ، والتى يتداولها أفراده ويتعلمونها بطريقة عفوية ، ويلتزمون بها فى سلوكهم وتعاملهم ، حيث إنها تمثل أنماطاً ثقافية مميزة تربط الفرد بالجماعة ، كما تصل الماضى بالحاضر ، وتمهد للمستقبل . وبذلك فالتراث يشكل هوية المجتمع وشخصيته الحضارية .

ولسنا فى حاجة إلى التأكيد على أن من لا ماضى له ، لا حاضر له . وهذا يحتم علينا أن نفهم الماضى ونستوعب التراث، فنستمد منه مقومات وجودنا ، وندرك من خلاله ملامح حاضرنا، ونرسم عن طريقه معالم مستقبلنا . وهذا لا يتحقق إلا إذا تعرّف المواطن العربى على حقيقة تراثه، وتاريخه وشعبه ومجتمعه .

وفى ضوء هذه الأهمية ، كان لابد من دراسة التراث الشعبى – بالجمع والتصنيف والتحليل والنشر والعرض – حتى يمكن استخلاص الدروس ، والاستفادة من العبر التى تعكس خبرات السابقين وتجاربهم الطويلة . وعلى هذا فالتراث كنز يحوى حلولاً لمشكلات تعترض حياتنا اليومية، ورؤى متنوعة تلقى الضوء على كوامن السلوك والمسار والمصير ، علاوة على أنه يتضمن فوائد اقتصادية وثروات كامنة يمكن إزالة النقاب عنها واستثمارها فى تحقيق دخل قومى إضافى كما فعلت الصين – مع الحرف والصناعات الشعبية – وكما تفعل معظم دول العالم مع المتاحف والمزارات التراثية .

وفى ضوء هذه الأهمية ، وتلك الخصوصية ، كانت الاستجابة السريعة ، والرؤية الثاقبة للمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بالجمهورية العربية السورية ، لعقد ندوة " التراث الشعبى العربى " باعتباره أحد عوامل الوحدة وأصل الآمال المشتركة التى تكفل

تحقيق الهدف العربى . وفى هذه المحاولة – التى نقدمها – نتناول أحد معالم الاستفادة من التراث الشعبى العربى ، فى مجال تزداد أهميته بمرور الوقت ، خاصة فى تكوين الشخصية العربية وصقلها بالخبرات والتجارب ، ألا وهو الدور التربوى لهذا التراث فى المجتمع العربى . والمجال هنا واسع وممتد ، والتراث أكثر اتساعاً وامتداداً ، ولذلك فسوف نسعى لالتقاط بعض اللمحات السّريعة التى تكشف عن عمق هذا الدور فى التربية المجتمعية ، وبالتالى نشير إلى دور العادات والتقاليد ، ودور المعتقدات والمعارف ، ثم الأدب الشعبى وفنون المحاكاة ، وأخيراً الفنون الشعبية والثقافة المادية . ونحن فى علم الاجتماع والأنثروبولوجيا نسمى هذه الاستفادة بالنظرة الوظيفية أو النزعة الوظيفية Functionalism التى تفرض علينا دراسة الظواهر الثقافية والاجتماعية من حيث الوظيفة function التى تؤديها والدور role الذى تلعبه فى حياة المجتمع . غير أننا فى علم الفولكلور نسميها بالوظيفية فى علم الفولكلور أو الفولكلور الوظيفى functional folklore: أى دراسة التراث الشعبى طبقاً للمنهجين الوظيفى والسوسيولوجى .

مما تقدم ، فإننا نتناول – فى بحثنا – العناصر التالية :

أولاً : موضوعات التراث الشعبى التى يدرسها علم الفولكلور .

ثانياً : النظرية الوظيفية فى علم الفولكلور .

ثالثاً : الوظيفة التعليمية للتراث الشعبى العربى: صور تراثية .

رابعاً : الوظيفة التربوية للتراث الشعبى العربى : نماذج توضيحية .

خامساً : التراث الشعبى والتحديث (المعاصرة).

سادساً : دور المؤسسات التراثية فى الوطن العربى : نماذج مختارة .

أولاً : موضوعات التراث الشعبى التى يدرسها علم الفولكلور:

تعد الثقافة التقليدية Traditional Culture أو التراث الشعبى Folk.Tradition محور اهتمام علم الفولكلور . وبالتالى فإن الثقافة بكل جوانبها الروحية والاجتماعية والمادية هى بؤرة الاهتمام .

وعلى هذا فقد ساد الأوساط الأكاديمية تقسيم رباعى لموضوعات التراث الشعبى ، بعد أن كان تقسيماً سداسياً . أما التقسيم السداسى ، فقد كان يتضمن الموضوعات التالية :

١- العادات الشعبية . ٤- الأدب الشعبى .

٢- المعتقدات الشعبية . ٥- الفنون الشعبية .

٣- المعارف الشعبية. ٦- الثقافة المادية .

غير أن التقسيم الرباعى لموضوعات التراث الشعبى اختصر العدد ، فأدمج الموضوع الثانى فى الثالث (المعتقدات مع المعارف) ، كما أدمج الموضوع الخامس فى السادس (الفنون الشعبية مع الثقافة المادية) باعتبار أن الفنون الشعبية لا نتناولها فى علم الفولكلور باعتبارها منتجات فنية ذات قيمة جمالية فى ذاتها ، وإنما باعتبارها منتجات تدل على ثقافة معينة ، وعلى شخصيات مبدعيها ، ومستخدميها وما بينهما من علاقات . وعلى هذا يصبح التقسيم الرباعى على النحو التالى :

١- العادات والتقاليد الشعبية .

٢- المعتقدات والمعارف الشعبية .

٣- الأدب الشعبى وفنون المحاكاة .

٤- الفنون الشعبية والثقافة المادية .

وفى ضوء هذا التقسيم ، فإننا سنتخير نماذج من التراث الشعبى العربى من كل موضوع - حسبما تسمح به حدود البحث - حتى ندلل على الدور التعليمى والتربوى لهذا التراث الشعبى فى المجتمع ، وكيف أن هذه الأدوار تعكس الرؤية الوظيفية التى يحرص عليها موضوع الندوة ، ويحرص عليها كاتب هذه السطور للتأكيد على أهمية التراث الشعبى ، وعلى أن التحديث والتنمية لا تستطيع القضاء عليه ، ولا حتى الاستغناء عنه .

ثانياً : النظرية الوظيفية فى علم الفولكلور :

انتقلت الوظيفية من علمى الاجتماع والأنثروبولوجيا إلى علم الفولكلور على يد كل من فان جنب Van Gennep وشرينين Schrijnen و وليام باسكوم W. Bascom . لقد أكد هؤلاء على أن هذا العلم يدرس التراث الشعبى وفقاً للمنهجين السوسيولوجى والأنثروبولوجى ، وأن هذا التراث ليس مجرد رواسب على حد تعبير إيكه هولتكرانس A. Hultkrants . وفى ثنايا الاهتمام

الوظيفى بالتراث الشعبى ، يرى باسكوم أن هذا الاهتمام يتركز فى ثلاثة عناصر أساسية هى [١]:

١- السياق الاجتماعى لعناصر التراث الشعبى .

٢- علاقة التراث الشعبى بالثقافة (السياق الثقافى).

٣- وظائف التراث الشعبى .

١- السياق الاجتماعى Social Context لعناصر التراث الشعبى : وهو يشير إلى التناول السوسيولوجى (من خلال وجهة نظر علم الاجتماع) - أى دراسة موقع هذه العناصر فى الحياة اليومية لمن يتداولونها ويتعاملون بها . وقد جرى العرف - فى هذا المجال - على التركيز على الأدب الشعبى أو الفنون القولية Verbal Arts، للكشف عن العلاقة بين عناصر التراث الشعبى والثقافة ، أو وظائف عناصره المختلفة ، أو الدور الخلاق للراوى والرواية . وهنا يكون الاهتمام بالبنود التالية :

- متى وأين تتم رواية الأشكال المختلفة للتراث الأدبى ؟
- من الذى يقوم بروايتها، ومن هو الجمهور المستمع ؟
- الأساليب والوسائل الدرامية التى يستخدمها الراوى كالإيماءات والحركات التعبيرية ، والمحاكاة .
- مشاركة الجمهور للراوى وتفاعله بالضحك أو التشجيع أو الانتقاد .
- أنواع التراث الشعبى التى يعترف بها الشعب نفسه .
- اتجاهات الناس نحو هذه الأنواع الشعبية .

٢- السياق الثقافى Cultural Context لعناصر التراث الشعبى : وهو يعنى العلاقة بين هذه العناصر وبين بقية جوانب الثقافة ، وبما يفوق السياق الاجتماعى فى الأهمية . وهنا يركز الباحث على إبراز كيف تعكس عناصر التراث الشعبى ثقافة الجماعة ، وتتضمن وصفاً تفصيلياً للشعائر الدينية والنظم الاجتماعية والأساليب التكنولوجية المستخدمة ، وتعبر عن المعتقدات والمعارف والاتجاهات السائدة فى الثقافة . وبهذا فإن عناصر هذا التراث تكشف عن أسلوب معيشة الناس وطريقة حياتهم Way of Life [٢].

٣- وظائف التراث الشعبى Functions of Folk Tradition : وهى عديدة وفقاً لتعدد عناصر التراث نفسه ، وتعدد استخداماتها فى الحياة اليومية فى المجتمع . فالأمثال الشعبية تساعد على اتخاذ القرار – حتى فى المحاكم – والفوازير تشحذ الأذهان لأنها تتحدى الفكر ليجتهد فى الوصول إلى الحل ، والأساطير الخرافية تضفى الشرعية على الممارسات السلوكية المختلفة ، والأغانى الهجائية تنفس عن مشاعر العداء المكبوتة وتأكيد بعض العادات والمحرمات Taboos فى نفوس الناس ، والتنفيس عن بعض مشاعر العداء عن طريق الخيال ، وتقديم بعض التفسيرات التعليمية للعالم الطبيعى ، وممارسة الضغوط للالتزام بالسلوك التقليدى (٣).

ثالثاً : الوظيفة التعليمية للتراث الشعبى : صور تراثية :

تجب الإشارة فى هذا المقام إلى أن الفصل بين الوظيفة التعليمية ، والوظيفة التربوية للتراث الشعبى ليس فصلاً واقعياً ، ولكنه فصل تحليلى بغرض إظهار دور التراث فى عملية التعليم فى المجتمع العربى فى وقت لم تظهر فيه المدارس كمؤسسات تعليمية حديثة . كذلك فنحن نفصل هنا لإعتبار آخر ، وهو أن التعليم التقليدى كان يتم من خلال ما يشبه المؤسسات فى عالمنا المعاصر ، ولذلك وجب إفراد مكانة خاصة واهتمام خاص بهذا الجانب من التراث الشعبى . ونعرض فى هذه الفقرة لبعض صور هذا التراث فى مجال التعليم – أى الوظيفة التعليمية – فى بعض المجتمعات العربية : فى مصر ، والسودان ، وقطر ، والإمارات العربية .

(١) الوظيفة التعليمية " للكُتّاب " فى مصر : لعبت " الكتاتيب" دوراً تعليمياً بارزاً فى التراث الشعبى فى المجتمع المصرى . فقد كان الكتاب أول مؤسسة يتعامل معها الطفل خارج نطاق الأسرة الممتدة أو العائلة الكبيرة التى كانت سائدة فى الماضى وتزاول بعض الأدوار التعليمية لأبنائها . ففى سن الرابعة أو الخامسة يلتحق الطفل بالكتاب ، فيبدأ بحفظ القرآن الكريم ، وبعض الأحاديث النبوية ، على يد معلم يسمى " الفقى " (أى الفقيه)، ومساعد له يسمى " العرّيف" .

وقد كانت هذه الكتاتيب هى المدرسة الأولى لكل أطفال الشعب غنيهم وفقيرهم قبل أن تنشأ رياض الأطفال (٤) . ويتولى " الفقى " قراءة " اللوح " لكل طفل وتحفيظه ، ومراجعة الأجزاء الماضية " تسميع الماضى ". وكانت الكتاتيب تضم الأطفال من الذكور غالباً ، ومن الذكور والإناث أحياناً ، كما كانت هناك بعض الكتاتيب للإناث تقوم فيه سيدة أو آنسة – تُسمى معلمة أو شيخة – بتحفيظ الفتيات القرآن الكريم .

ويتعلم الطفل القراء والكتابة – في الكتاب – علاوة على حفظ القرآن الكريم . كما كان للكتاب دور تعليمى تكافلى تعاونى آخر ، حيث يحضر كل طفل من بيته رغيفاً ، ويدفع قرشاً "للفقى" الذى كان يجمع هذه القروش ، ويشترى بها عند الظهر طعاماً ، ويجلس هو و " العريف " والأطفال جميعاً ، فيأكلون معاً . وبذلك فهم يتدربون على التعاون والمشاركة ، ويكتسبون سلوك المساواة فيما بينهم ، كما يتعلمون احترام الكبير " الفقى والعريف " ويدركون معنى التدرج الاجتماعى فى الحياة من خلال صور التدرج بين الأطفال حديثى الدخول فى الكتاب ، والأقدم منهم ، ومن أتم حفظ القرآن الكريم، ومن لا يزال فى منتصف المرحلة، وهى درجات من الترتيب والمكانات الاجتماعية يدركها الطفل فيفهمها ، ويعيشها فى المجتمع الأكبر فيتكيف معها.

إن أول ما يتعلمه الأولاد فى الكتاتيب حروف الهجاء ، ثم الشكل ، ثم يتعلمون القيمة العددية لكل حرف من حروف الهجاء ، وقد جرت العادة – قبل وصول التلميذ إلى تلك المرحلة الثالثة فى تعليمه – أن يزين المدرس (الفقى) اللوح باللون الأسود والأبيض والصبغ الأخضر ، ثم يكتب حروف الهجاء بترتيبها العددى ويرسلها إلى والد التلميذ ، فيعيدها هذا إليه وعليها قرش أو قرشان . وهكذا يكرر ذلك فى مراحل التعليم اللاحقة ، عندما يأخذ فى تعلم القرآن ، ويتدرج فى حفظه. وفى كل مرة يكتب الدرس التالى على اللوح . وعندما يحفظ الولد القيمة العددية للحروف، يتمرن على قراءة الكلمات السهلة مثل أسماء الرجال ، ثم أسماء الله الحسنى التسع والتسعين (٥). وبعد ذلك يحفظ الفاتحة فيكررها حتى يعيها تماماً ، ثم يشرع فى حفظ السور الأخرى على الترتيب العكسى من قصار السور إلى السور الطويلة .

والجدير بالذكر أن الكتاتيب كانت كثيرة العدد فى مصر ، لا فى القاهرة العاصمة فقط ، بل فى كل مدينة كبيرة . كما يلحق بكل مسجد وسبيل وحوض فى العاصمة " كتاب " يتعلم فيه الأطفال بأيسر الأجور ، كما كانت تؤخذ هذه الأجور من أموال موقوفة ويستفيد منها التلاميذ والمدرسون فى صورة ألواح (أدوات تعليمية) وملابس (طربوش وعمامة وطاقية وحذاء ...الخ).

(٢) **الوظيفة التعليمية " للخلاوى" فى السودان** : كانت الكتاتيب تسمى فى السودان باسم الخلاوى، وهى المكان الذى ينتظم فيه الأطفال الصغار فى حفظ القرآن الكريم ، وتعلم القراءة والكتابة والمعارف البسيطة والحساب ، وذلك قبل وجود رياض الأطفال والمدارس الحديثة .

وقد اضطلع الشيوخ بالقيام بالدور التعليمى فى السودان – وحتى الآن – حيث قامت

الخلاوى بتعليم النشء وتحفيظهم القرآن الكريم وتعريفهم بمبادئ دينهم الإسلامى ، علاوة على تعريفهم بالطرق الصوفية الرئيسية كالمهدية على سبيل المثال . ويعد أجر التعليم قليلاً ، وقد يتكفل به شيوخ وأتباع الطرق الصوفية ، بالإضافة إلى الأموال الموقوفة لهذا الغرض .

وتضم الخلاوى أطفالاً فى مراحل عمرية مختلفة تبدأ من السادسة ، وحتى الثانية عشرة أو تزيد ، حتى يكمل الطفل حفظه للقرآن الكريم . وهناك خلاوٍ للذكور من الأطفال ، وأخرى للإناث ، تتولى القيام بدور المعلم فيها إحدى السيدات ، وثالثة مشتركة إلى حد ما . ويُقام احتفال كبير عندما يتم الطفل حفظه للقرآن كله ،وهنا ترتفع مكانته الاجتماعية فى مجتمعه المحلى .

(٣) **الوظيفة التعليمية " للمطوع " فى قطر :** لعب التراث الشعبى دوره التعليمى فى المجتمع القطرى من خلال " المطوع " وهو الشيخ الحافظ للقرآن الكريم ، والذى يتولى تحفيظ الأطفال الذكور ، وتعليمهم القراءة والكتابة . أما البنات فقد قامت بهذا الدور معهن " المطوعة " وهى امرأة تحفظ القرآن الكريم كله أو معظمه ، كما تعرف القراءة والكتابة ، وبالتالى فقد كانت المطوعة تقوم بما يقوم به المطوع . ولم يكن نظام " المطوع " يسمح بالاختلاط بين الأطفال ولذا كان عدد المطوعين أكثر من عدد المطوعات (٦) . ويحوى التراث الشعبى القطرى عديداً من الطقوس والممارسات الشعبية التى كان يمارسها القطريون عندما يتم أبناؤهم أو بناتهم حفظ القرآن الكريم .

(٤) **الوظيفة التعليمية " للمطوع " فى الإمارات العربية :** اضطلع المطوعون بمهمة التعليم فى مجتمع الإمارات ، فيما قبل التحديث وإنشاء المدارس الحديثة التى واكب ظهورها الحقبة النفطية فى مجتمع الخليج العربى . ولقد لعب المطوعون هذا الدور التعليمى بكفاءة ، حيث كانت الساحة خالية فى هذه الفترات القديمة . وكان التعليم يتم فى البيوت والزوايا والغرف الملحقة بالمساجد فى كثير من الأحيان . ولذلك عرف مجتمع الإمارات العربية " المطوع " بأنه الرجل الصالح الذى يوظف نفسه لخدمة الناس (٧). وتتعدد المسميات التى تطلق عليه ومنها " الملا " ، و " الشيخ " ، و " الفقيه " .

الواقع أن التراث الشعبى فى مجتمع الإمارات ، قد حوى أنواع التعليم التقليدى التالية (٨):

١- تعليم الكتاتيب الذى كان يمارسه المطوعون فى البيوت والزوايا والغرف الملحقة

بالمساجد. ويقدم هذا النوع الدروس الدينية ، والنحو والصرف ، والفقه ، وتعليم الخط ، والإملاء ، وإتقان الحديث ، والخطابة .

٢- تعليم سلفي ديني وهو يقتصر على تقديم العلوم الدينية المعتمدة على القرآن الكريم والسّنة النبوية . وكان المطوعون يقومون بهذا النوع من التعليم الديني في بيوتهم معتمدين على اجتهاداتهم ورؤاهم الخاصة .

٣- التعليم الفقهي (الحلقات العلمية) الذي كان يتصدر له العلماء في المساجد والجوامع ، فيعلمون الناس أصول الدين ، والتاريخ الإسلامي ، والعقيدة والفقه .

وإذا كنا قد عرضنا بعض الصور التراثية في مجال التعليم في مصر والسودان وقطر والإمارات ، فمن المؤكد أن مجتمعات بلاد الشام والمغرب العربي كان لديها من الكتاتيب والخلاوي والمطوعين ما يقوم بهذه الوظيفة التعليمية التي حافظت على الثقافة العربية والدين الإسلامي قروناً طويلة .

لقد حافظت هذه المؤسسات التراثية التعليمية في الماضي على كتاب الله تعالى ، وتحفيظه للنشء ، وتدريبهم على تلاوته وفهم معانيه وتفسيره . كما جسّدت وعد الله تعالى بحفظ الذكر الحكيم ، من خلال حفظه في صدور الأجيال المتعاقبة التي التحقت بهذه المؤسسات لهذه الغاية النبيلة ، أضف إلى ذلك ، الاهتمام أيضاً بالسُّنة النبوية والأحاديث النبوية ، والتاريخ الإسلامي . وبهذين الهدفين تحقق هدف ثالث ، ألا وهو الحفاظ على اللغة العربية وصيانتها عبر الأجيال ، وما ساهم به كل ذلك في تكوين الشخصية العربية الإسلامية وتنشئتها التنشئة الصحيحة ، ووصل الماضي بالحاضر ، والمحافظة على الهوية بكل عناصرها وجذورها [9]. وهنا لعب التراث الشعبي دوره البارز في تربية الشخصية العربية ، والحفاظ على مقوماتها ، وتبصيرها بأمور دينها ، وربط الدين بالحياة ، والدنيا بالآخرة .

رابعاً : الوظيفة التربوية للتراث الشعبي العربي : نماذج توضيحية :

من الواضح أن عوامل الوحدة بين العالم العربي تفوق عوامل التفرق والتباعد . فهناك وحدة اللغة والدين ، ووحدة التاريخ والمصير المشترك ، كما أن هناك أصولاً وأهدافاً واحدة وموحدة في نفس الوقت على الأرض العربية . وإذا كانت الثقافة Culture بشكل عام تجسّد بالفعل هذا

الطابع الوحدى ، وتقيم أواصر القربى بين المجتمعات العربية ، فإن التراث الشعبى هو الدماء التى تجرى فى شرايين الجسم العربى ، والإحساس الذى يجمع الكيان العربى ، والجذور التى تثبّت الجذوع مهما تنوعت الفروع وتباينت الأوراق .

إن الوظيفة التربوية للتراث الشعبى العربى – بالتالى – تزداد أهميتها فى المجتمع العربى ككل ، لعظم تجذره فى الثقافة ، وعمق ارتباطه بالماضى ، ووثاقة اتصاله بالحاضر . إننا نعتمد عليه فى الصمت والكلام ، والحل والترحال ، والإنتاج والاستهلاك ، والأفراح والأحزان ، والطعام والشراب ، والمسكن والملبس ، واليقظة والمنام . إنه طريقة حياة ، كما أنه الإطار الذى يصبغها بصبغته الخاصة .

وفى ضوء هذه الطبيعة الثرية ، تزداد الوظائف التربوية للتراث الشعبى فى المجتمع العربى ، بزيادة وتعدد عناصره ومواده . وعلى هذا لا يتسع المقام للحصر ، ولكن يمكن الاقتصار على نماذج ممثلة لهذا التراث فى مجال التربية المجتمعية . وإن كنا نؤكد أساساً على أن هذا التراث متنوع فى العالم العربى ، غير أننا سنتخيّر نماذج منه من مجتمعات عربية نعرفها ، وسبق أن درسنا تراثها ، وعايشناه فى حياة يومية . ويصدق ذلك على مجتمعات مصر والسودان وقطر والإمارات العربية (*) وبالتالى سنشير إلى :

(١) العادات والتقاليد الشعبية : عادات دورة الحياة والتنشئة الاجتماعية .

(٢) المعتقدات والمعارف الشعبية : الحكايات الخرافية والكائنات فوق الطبيعية .

(٣) الأدب الشعبى : الألغاز ، والأمثال ، والأغانى الشعبية .

(٤) الثقافة المادية والفنون الشعبية : الموسيقى والرقص الشعبى والألعاب الشعبية.

(١) العادات والتقاليد الشعبية العربية : وهى تتضمن عادات دورة الحياة ، والأعياد والمناسبات المرتبطة بدورة العام كالأعياد الدينية ، والأعياد القومية ، والمواسم الزراعية ، وعادات الفرد فى المجتمع المحلى كالمراسم الاجتماعية والعلاقات الأسرية ، وعادات الطعام ، واللائق وغير اللائق، والموقف من الغريب ، وفض المنازعات والتحكيم والروتين اليومى . ونركز هنا على عادات الميلاد والتنشئة الاجتماعية والأعياد الدورية وعادات الطعام .

أ– التراث الشعبى والتنشئة الاجتماعية **Socialization:** التنشئة الاجتماعية هى العملية التى

تساعد الفرد على التكيف والتلاؤم مع بيئته الاجتماعية، ويتم اعتـراف الجماعـة بـه ، والمحاكـاة والتوحد مع الأنماط العقلية والعاطفية والأخلاقية عند الطفل والراشد (١٠). والتنشـئة الاجتماعيـة – من جانب آخر – عملية تهدف إدماج عناصر الثقافة فى نسق الشخصـية ، وتبـدأ مـن المـيلاد ، وتستمر فى المدرسة ، وتتأثر بجماعات الرفاق ونسق المهنة (١١). وترتبط التنشئة أيضـاً بعمليتـى التثقف Acculturation ، والتوافق الاجتماعى ، حيث تنتقل فيها ثقافة جيل سابق إلى جيل لاحـق عن طريق الأسرة والمؤسسات الاجتماعية الأخرى ووسائل الاتصال المختلفة ، وبذلك يتيسـر لـه الاندماج فى الحياة الاجتماعية .

ويلعب التراث الشعبى دوره البارز فى عملية التنشئة الاجتماعية من خلال ما يتضمنه مـن عادات دورة الحياة (ومنها عادات الميلاد والتسمية) وعادات الـزى والتـرويح ، والأدب الشـعبى (بما فيه من قصص وحكايات وأساطير وألغاز وغيرها)، واللغة واللهجـة . كمـا يحـوى التـراث أيضاً القيم الاجتماعية التى ينشأ عليها الأطفال من احترام الكبار وطاعة الوالدين ، وإجلال العمـل، والحرص على التعليم الدينى وحفظ القرآن الكريم والأحاديث النبويـة الشـريفة ، والشـفقة علـى الحيوانات – الأليفة والمستأنسة – والطيور . ويتضمن التراث الشعبى أيضاً ما يدعم الحفـاظ علـى البيئة وإماطة الأذى عن الطريق ، وإعطاء الطريق حقها ، وغرس الأشـجار التـى يسـتظل بهـا الإنسان والحيوان ، ويأكلان منها أيضاً . وفى هذا تتعدد عناصر التراث التى تتكامـل معـاً حـول تدعيم هذا السلوك عند الصغير والكبير ، وذلك بالآداب الشعبية والعادات والمعتقـدات والمعـارف وعناصر الثقافة المادية .

(ب) الأعياد الدورية والتربية المجتمعية : يحوى التراث الشعبى العربى مجموعة من الأعياد الدينية الإسلامية والمسيحية ، التى تمثل عاملاً وحدوياً يقرب بين المجتمعات العربية ، ويقوى أواصر المحبة بين أفرادها . ومن تلك الأعياد الإسلامية رأس السنة الهجرية وعيد الفطر وعيد الأضحى ، والمولد النبوى والإسراء والمعراج ونصف شعبان وعاشوراء وشهر رمضان والحج . ومن الأعياد المسيحية عيد الميلاد المجيد وعيد القيامة ، وشم النسيم (خاصة فى مصر) . والواقع أن الأعياد الدينية تقوم بدور هام فى التربية المجتمعية فهى :

- تربط الفرد بالمجتمع ، والمجتمع بالمجتمعات الأخرى ، وتحقق التضامن الاجتماعى .
- تخلق شعوراً جمعياً عاماً يؤلف بين القلوب وينشر المحبة والتسامح .

- يتمثل فيها الدور الترويحى العام خاصة فى الاحتفال ببعضها .
- تعد زاداً روحياً يعبئ المجتمع للتوائم مع المواقف والتكيف مع الأزمات والإعداد لتجاوزها والتغلب عليها .
- تساهم فى تكامل الشخصية الاجتماعية .
- تزيل الخلافات وتحل الصراعات بين الأفراد والجماعات والمجتمعات من خلال تناسى الأحقاد وإذابة التوترات .
- تجديد النشاط الاجتماعى ، والخروج بشحنات تمد المجتمع بزاد يستمر دوره وفاعليته حتى العيد القادم .

أما الأعياد القومية فهى عديدة على مستوى عالمنا العربى ومنها أعياد الاستقلال ، وأعياد التحرير والنصر ، وأعياد الجلوس ، وعيد الأسرة وعيد العمال ... الخ . وهى تضطلع بدورها الواضح فى تجديد الولاء الوطنى ، واستيعاب التاريخ والاستفادة منه ، وتدعيم الصلة بين الحاكم والمحكوم ، والتعبئة القومية لمواجهة المخاطر الخارجية والتحديات الداخلية . أضف إلى ذلك أنها تنشر المودة بين الحكام العرب ، وخاصة عند تبادل التهانى والزيارات ، والمشاركة فى الاحتفالات الوطنية . إنها إذن تربية وطنية للمجتمعات العربية ككل حكاماً ومحكومين ، لنبذ الخلافات وتعبئة الطاقات للهدف الأكبر .

على حين تساهم المراسيم الاجتماعية – كمراسيم الاستقبال والتوديع والعلاقات بين الكبير والصغير ، والغنى والفقير ، والذكر والأنثى والعلاقات بين الفرد والمجتمع ، وبين الطبقات الاجتماعية وأصحاب المهن المختلفة – تساهم فى تدعيم العلاقات الاجتماعية ، وتزود الفرد بما يجب عليه سلوكه ، وما يتضمنه من الحقوق والواجبات ، وتحدد له نظرته للجنس الآخر ، وآداب التحية والمجاملات الاجتماعية . وهكذا تتأسس وظائف التراث الشعبى فى التربية المجتمعية [١٢].

وتلعب العادات دورها التربوى – بشكل آخر – فى مجال العلاقات الأسرية ، حيث توضح للأبناء مركز الأب والأم والأبناء ، وكيف تكون العلاقة بين الأكبر والأصغر ، وبين الأبناء والآباء ، وبالتالى يكتسبون القيم التى تحدد لهم السلوك اللائق وغير اللائق ، وينشأون على استيعاب العرف ، واستهجان الخروج عنه . ويزداد الدور التربوى للعادات تبلوراً فى فض

المنازعات وحل المشكلات عن طريق العُرف السائد ضمن ما يسمى " مجلس العرب " ، وما يظهر فيه من طرق للتحكيم وطقوس اعتقادية تساعده فى أداء دوره فى التربية المجتمعية وتحقيق الضبط الاجتماعى .

(ج) عادات الطعام وآداب المائدة : وفيها يظهر الدور التربوى بكل وضوح حيث يحوى التراث الشعبى العربى كله عادات طعام وآداباً للمائدة ، فينشئ المجتمع أفراده عليها ويطبّعهم بها، كما تبدو فيها لمحات عديدة من الدين الإسلامى من حيث الحلال والحرام من الأطعمة ، وكيفية تناولها وآداب التناول ذاته من تسمية الله تعالى قبل الأكل ، والأكل مما يلى الإنسان مباشرة ، وحجم ما يؤكل ، وأوقات الأكل ، وما يستحب البدء به ...الخ. وهنا تتجلى التربية المجتمعية كما يحددها التراث الشعبى فى العادات والتقاليد .

(٢) **المعتقدات والمعارف الشعبية Flok Beliefs:** المعتقدات جزء أساسى من التراث الشعبى ، يضرب بجذوره فى عمق التاريخ وصدور الناس ، ويقدم صورة للعالم الطبيعى الذى يعيشونه ويدركونه ، والعالم فوق الطبيعى الذى يتصورونه ولا يدركونه. وبهذا فالمعتقدات تعد بمثابة مفاتيح فهم نفسية الشعب وسلوكه وخصائصه الثقافية ، مما يفيد فى رسم المشروعات العامة ، وإنجاح خطط التنمية . كما أن تلك المعتقدات والمعارف الشعبية هى أكثر موضوعات التراث الشعبى إفصاحاً عن طبيعة البنية الثقافية والكشف عن شخصية المجتمع [١٣].

والواقع أن المعتقدات والمعارف الشعبية تضم عشرين موضوعاً رئيسياً ، ويضم كل موضوع منها مئات وآلاف التفاصيل الفرعية [١٤] . وهى جميعاً تمارس وظائف تربوية متنوعة، وبالغة الأهمية ومنها مثلاً الطب الشعبى والسحر ، والأحلام والكائنات فوق الطبيعية والأولياء والزمن والروح . وفى نفس الوقت نجد تلك المعتقدات تتنوع بتنوع البيئات البدوية الصحراوية ، والريفية الزراعية ، والحضرية، والصناعية ، والساحلية التجارية . وعلى هذا فهى تتنوع فى الشكل ، ولكن المضمون يظل واحداً . ولنضرب على ذلك أمثلة فى مجالين فقط ، وهما الطب الشعبى Flok Medicine ، والكائنات فوق الطبيعية Supernatural beings فى التراث الشعبى العربى عموماً .

(أ) **الطب الشعبى** : يحوى المجتمع العربى كله تراثاً طبياً شعبياً غزيراً يغطى معظم مجالات الصحة والمرض ؛ وقاية وعلاجاً . فهذا التراث سائد فى بلاد الشام والخليج ووادى النيل

والمغرب العربى ، نظراً لتوافر المواد العلاجية فى البيئات العربية ومنها الأعشاب والنباتات الطبية ، والعيون الكبريتية ، والطيور والزواحف والحشرات ، والأحجار والمعادن . كذلك فقد حوى الطب الشعبى تخصصات عديدة – كالطب الحديث تماماً – منها الكى أو الوسم والحجامة والتجبير والخزم أو الخرت وأمراض النساء ، وأمراض الأطفال والعلاج العشبى ، والعلاج السحرى...الخ[١٥]. ومن ناحية أخرى فإن هذا التراث سائد لأنه أسبق من الطب الحديث ، ولأنه انفرد فى الساحة الطبية بلا منافس فى الماضى .

والملاحظ أن الطب الشعبى فى المجتمعات العربية يتضمن وصفات جمالية وأخرى وقائية وثالثة علاجية ، ولكل منها مجالاته واستخداماته العديدة لكل الفئات والشرائح الاجتماعية . والسؤال الآن الذى يتبادر إلى الذهن هو : ما علاقة الطب الشعبى بالتربية المجتمعية ؟ والإجابة بسيطة ، إذ تحوى عملية التنشئة الاجتماعية عناصر عديدة من الطب الشعبى حول الصحة والمرض ، والاستشفاء ، وتفسير المرض ، وقواعد التغذية الجيدة ، وشروط السلامة البدنية ، وإجراءات الوقاية من المرض ، وواجبات المجتمع نحو المرضى ، وكذلك عملية الختان ، وصحة الأم والجنين والرضاع والفطام . وفى النهاية ألا نستشعر تأثرنا نحن بهذا التراث الطبى الشعبى فى حياتنا ونستجيب له بشكل أو بآخر ؟ ألا نخضع فى تعاملنا – مع صحتنا ومرضنا – لما نشأنا عليه وتعلمناه واكتسبناه من المجتمع الذى نعيش فيه ؟

(ب) الاعتقاد فى الكائنات فوق الطبيعية : يلعب هذا الاعتقاد دوراً تربوياً بارزاً فى كل المجتمعات ، ولذلك فهو يشغل حيزاً كبيراً فى التراث الشعبى على مستوى العالم بصرف النظر عن درجة التقدم أو التخلف . والكائنات فوق الطبيعية معتقد يشير إلى نوع من المخلوقات التى لا يستطيع المرء رؤيتها ، وهى تتشكل بأشكال مختلفة (إنسان أو حيوان أو طير أو حشرة) وتتعامل مع الإنسان طبقاً لثنائية الخير والشر ،ولذلك فهى قد تفعل له ما يسره إذا كان طيباً خيِّراً ، كما قد تسلك معه ما يضره إذا كان شريراً خبيثاً ، علاوة على أنها تتجاوز حدود المكان وتتخطى حدود الزمان حسب الاعتقاد الشعبى . ومنها الملائكة والجن والعفاريت والغول والمارد والقرين والشياطين ، ونلاحظ فيها اختلاط المعتقد الدينى الشرعى بالمعتقد الشعبى .

وتدلنا خبرتنا ببعض المجتمعات العربية الشقيقة على تنوع هذه الكائنات ، وتباين تصور أشكالها وملامحها ، وتعاظم إسهامها – سواء كانت مخلوقات حقيقية أو تخيلية – فى التربية

المجتمعية لكل من الصغير والكبير والرجل والمرأة على السواء . ويرجع التنوع غالباً إلـى تبـاين البيئات وتنوعها ما بين سواحل وحواضر ، وريف وبواد ، وبالتالى تتنوع الحكايات الخرافية التـى تدور حولها .

ففى المناطق الساحلية – فى المجتمعات العربية ككل – تنتشر حكايات سـحرية وحكايـات الجان عن " عفريت الماء " و " أم الشـعور " ، و " السـبع بنـات " . وفـى المنـاطق الداخليـة الصحراوية – كما فى مجتمعات الخليج العربى – تسود الحكايـات الخرافيـة (الخروفـات) حـول "حمارة القايلة" و "أم الدويس" . ومن المؤكد أن لهذه الحكايات نظائرها فى بـلاد الشـام والمغـرب العربى . وعموماً فإن هذه المعتقدات والحكايات الخرافية تلعب دوراً تربوياً ظـاهراً يعتمـد علـى تخويف الطفل والكبير من الكائنات فوق الطبيعية وأضرارها إذا خالف الضـوابط الاجتماعيـة ، أو عق والديه ، أو خالف أوامر الكبار ، أو غامر مغامرة غير مأمونة العاقبة (١٦).

وفى مجتمعى قطر والإمارات ، إذ عصى الطفل أوامـر الأب أو الأم ، هـدده أحـدهما أو كلاهما " بحمارة القايلة" التى ستخطفه . وهى مخلوق خرافى فى شكل حمارة مخيفة شـرهة يمكـن أن تأكل الإنسان، أو تصيبه بالأذى على أقل تقدير . وإذا خرج الطفل فى قيلولـة الصـيف – فـى الشمس الحارقة – فأصابته بضربة شمس مثلاً ، فإنه يلاقى التخويف والترهيب مـن هـذا الكـائن الخرافى الذى يظهر فقط لمن يخرج عن الطاعة أو يخالف . وهنا يساهم المعتقد الشعبى فى تربيـة الأطفال وتحقيق الضبط الاجتماعى فلا يعرّضون أنفسهم للتهلكة ، خاصة وأن الأسـاليب العقلانيـة فى التربية لا تلقى القبول عامة .

ومن ناحية أخرى تساهم " خروفة " أم الدويس " أو "أم الصبيان" فـى مجتمـع الإمـارات ، و"أم داس" فى المجتمع العمانى ، فى تحقيق الضـبط الأخلاقـى، وطاعـة الله باجتنـاب نواهيـه ، ومخالفة إغراءات الشيطان . فأم الدويس – حسب المعتقد الشعبى – امرأة قبيحة المنظـر ، قـدماها تتشكلان بأشكال مختلفة . فتارة تكونان قدمى حمار ، وتارة أخرى قدمى ماعز ، ويكـون أحـدهما أحياناً قدم حمار والأخر قدم إنسان . أما يدها فهى على شكل الداس أو المنجل الذى تسـتخدمه فـى قتل ضحاياها من الذكور وخاصة الكبار ، بعد أن تظهر لهم فى شكل امرأة جميلة جذابـة تغـريهم وتخدعهم ثم تقتلهم (١٧). ويسود الاعتقاد الشعبى أيضاً بأن هذه المـرأة الشـريرة معروفـة بحبهـا لخطف الأطفال الصغار ، وتتنكر فى أشكال مختلفة حتى تنجح فى تحقيق غرضها مـع الشـاردين

والعابثين . إن الوجدان الشعبى قد أبدع فى صنع آليات الضبط الاجتماعى والأخلاقى لردع العابثين من الرجال، واللاهين من الشبان، حتى يحافظوا على أسرهم ، وعلى العفة وقيم المجتمع.

وفى مصر يسود الاعتقاد فى كائن خرافى اسمه " البعبع " أو " البوبو" وهى كلمة قبطية أصلها "بوبو" وهو اسم عفريت صورته مخيفة للغاية ، اتخذه قدماء المصريين وسيلة لتخويف الأطفال ، ويرمز إلى الشر [١٨]. ولذلك فلا زال المعتقد سائداً فى تربيتنا للأطفال ، وخاصة عندما يعصون الكبار حينما يوجهونهم للسلوك القويم ، فإنهم يهددونهم بهذا " البعبع " . إنها إذن وظائف تربوية تضطلع بها المعتقدات الشعبية فى التربية المجتمعية .

(٣) الأدب الشعبى Flok Fiction أو الأدب الشفاهى Oral Literature : وهو أبرز موضوعات التراث الشعبى ، وأكثرها حظاً من البحوث والدراسات ، وبالتالى فهو فى مكان القلب من علم الفولكلور . والأدب الشعبى هو نوع من الخلق الأدبى الشعبى ، ويتضمن الحكايات الشعبية ، والأغانى الشعبية ، والألغاز ، والأهازيج [١٩]. وهناك تصنيفات عديدة لعل أشملها هو ما يحوى خمسة عشر موضوعاً على النحو التالى [٢٠]:

١- السير الشعرية والنثرية .
٢- الأسطورة .
٣- الحكاية .
٤- الخرافة
٥- الرُّقى
٦- الموال العادى والقصصى
٧- الأغانى .
٨- المدائح الدينية والتخمير.
٩- الأمثال .
١٠- النداءات .
١١- الابتهالات الدينية.
١٢- التعابير والأقوال السائرة.
١٣- النكت والنوادر والقصص الفكاهية .
١٤- الأعمال الدرامية.
١٥- الألغاز.

وبصرف النظر عن هذه التفاصيل ، فإننا نركز على الوظائف التربوية لنماذج منها – فى المجتمع العربى ككل – مثل الألغاز والأمثال والأغانى الشعبية ، لنعرف مدى إسهامها فى التربية المجتمعية .

(أ) الألغاز الشعبية Folk Riddles : اللغز عنصر شعبى تتوافر فيه مقومات جودة الصياغة ، والسجع والتشبيه ، والمشكلة أو السؤال الذى يتطلب الإجابة . واللغز سؤال محيّر ، يلقيه السائل

على فرد أو مجموعة من الأفراد للحصول على إجابة صحيحة . وقد يكون اللغز في جملة ، أو سؤال يحتوى على كلمات متناقضة أو تحمل أكثر من معنى . وقد يكون أيضاً في شكل مسألة حسابية . وغالباً ما تكون الإجابة مختلفة عما يتوقعه المسئول . ولذلك يجب التفكير بسرعة ، وشحذ الذهن ، وتركيز الانتباه ، وتأمل المعنى ، وتدبر الصياغات الجناسية أو التقابلية ، وإطلاق الخيال . ولعل هذه المتطلبات هى الوظائف التى يؤديها اللغز ، وبالتالى الدور الأساسى فى التربية المجتمعية [٢١]. وعلاوة على ذلك، فهناك عدة وظائف أخرى للألغاز ترتبط بالمجتمع والكون ككل ومنها [٢٢]:

- إنها وسيلة هامة لإظهار المهارة الفكرية والذهنية والتدريب عليها .
- تنمى المعرفة الشعبية والوعى الفردى .
- تحوى المحسنات البديعية كالجناس والطباق والتورية ، فتعلم النشء البلاغة .
- الإلمام بمظاهر الحياة وعناصر البيئة والمجتمع .
- تنمى المهارات اللغوية وتكسب الفرد المفردات والمعانى .
- أداة لتنمية الذكاء والتسلية الهادفة .

ومن خلال هذه الوظائف والأدوار التربوية نسوق بعض الأمثلة على الألغاز ، لنتعرف على دورها وتأثيرها فى إكساب المعرفة بالحياة والكون والمجتمع ومنها فى مجتمع الخليج [٢٣]:

١- قبة خضرا وداخلها عبيد ، قفلها من الله ومفتاحها حديد : الجح أو البطيخ.

٢- لازج ولويزج ، وفى كل شئ لازج : الاسم لأنه يلصق بالمسمى .

٣- شئ كشكشى ، أحلى من السكر حشى ، إذا جاك نسيت كل شئ : النوم .

٤- خمسة وخمستين ، وخمسة عشر مرتين : العدد ٤٥.

٥- خالتك خت أمك ، خال ولدها شويبلك : خال له .

٦- من الذى أنذر قومه لا هو من الإنس ولا من الجن ولا من الملائكة ؟ النملة .

٧- ما هو الذى إذا لحقت عليه صار اثنين ، وإذا لم تلحق عليه صار أربع ؟ صلاة الجمعة .

٨- يا فاهم يا فهيم ما هى السورة التى ما فيهم ميم ؟ الكوثر .

٩- ما هى أطهر بقعة على الأرض لا تجوز الصلاة عليها ؟ الكعبة المشرفة .

١٠- ما هو البيت الذى ليس له باب ؟ القبر .

١١- ثلاثة أحياء يحملون ميتاً ، الميت والأحياء لا يتكلمون : القلم والأصابع.

١٢- رجل من امرأة ، وامرأة من رجل : عيسى من مريم وحواء من آدام.

١٣- رجل وبنته ورجل وحرمته ، وعندهم ثلاث خيول بشرط أن يركب كل واحد منهم على خيل : هم ثلاثة وليسوا أربعة لأن الرجل زوج بنت الرجل الآخر .

١٤- ما هو الحق الذى تخافه الناس ؟ الموت .

١٥- شخص يحمل جفير متروس رمان ، وأمامه سبع بيبان ، وكل باب عليه حرس ، وكل حارس على الباب يأخذ نص الرمان ، والباب الأخير السابع يدخل وعنده رمانة واحدة . المطلوب كم عدد الرمان فى الجفير قبل ما يدخل الباب الأول . أى كم مجموع الرمان فى الجفير ؟ ١٢٨ رمانة .

١٦- شو الشئ اللى يخرج من الزجاج بدون ما ينكسر ؟ الضوء (٢٤).

١٧- شو الشئ اللى مهما تم فى الثلاجة ما يبرد ؟ الفلفل الحار .

(ب) الأمثال الشعبية Proverbs : الأمثال نوع من أنواع الأدب الشعبى ، يمتاز بإيجاز اللفظ وحسن المعنى ولطف التشبيه وجودة الكتابة . ولا تكاد تخلو منها أمة من الأمم . ومزيّة الأمثال أنها تنبع من كل طبقات الشعب على عكس الشعر والنثر الفنى ، فإنهما لا ينبعان إلا من الطبقة الأرستقراطية فى الأدب (٢٥). فالعجائز فى البيوت تؤلف الأمثال ، والفلاحون ينبع منهم أمثال ، والصناع والتجار وغيرهم تصدر عنهم الأمثال .

وتعد الأمثال مرآة تعكس أخلاق المجتمع وعاداته ومعتقداته ونظرته إلى الحياة . كما أنها نتاج لطبيعة بيئة . فإذا كانت صحراوية ، كانت الأمثال تعبر عن الصحراء والإبل والخيام والأرض والجدب والخصب والماء والمطر والسحاب والصخر والجبل والوادى . وإذا كانت ساحلية ، عبّرت الأمثال عن الساحل والبحر والسفن والصيد والسمك وهكذا . ومن ناحية أخرى ،

فإن الأمثال تبين لنا ثقافة المجتمع وقيمه وعاداته ، ومن خلال ما تستحسنه وما تستقبحه ، وما تحبه وما تكرهه ، وما تحترمه وما تحتقره . كما تبين الأمثال أيضاً طبيعة العلاقات الاجتماعية بين أفراد الأسرة الواحدة ، وبينها وبين الأقارب والجيران والمجتمع المحلى ، بالرغم من عدم معرفة قائلها أحياناً ، ولا تاريخها حيناً آخر ، ولا الطبقة والبيئة التى نبعت منها حيناً ثالثاً .

إن المقارنة بين أمثال المصريين والشوام والمغاربة والخليجيين يمكن أن تكشف عن الوحدة والتجمع ، وبالتالى يكون التراث الشعبى أحد عوامل التقريب بين المجتمعات العربية ، وتدعيم خطوط التماس والانجذاب بين الشعوب ، واستثمار ما هو عام ومشترك من تجارب وخبرات الحياة اليومية فى إزالة التنافر أو التباعد بينها . ولكن هذه الأهداف لا تتحقق إلا من خلال استثمار الأمثال الشعبية ، ولا يتيسر الاستثمار إلا بتربية وتنشئة للأطفال ليتشربوا هذه الأمثال وما تدعو إليه. وهكذا تتبلور الوظيفة التربوية للأمثال الشعبية فى التربية المجتمعية .

وسوف نعرض بعض الأمثال الشعبية – فى موضوعات اجتماعية مختلفة – من التراث الشعبى المصرى ، لنقف على وظيفتها التربوية الحاضرة والمستقبلية بحكم ما تعكسه من فلسفة الشعب فى التعامل مع المواقف ، والتزود من الأمثال بما يرشد للسلوك القويم ، ويستفيد من تجارب الآخرين . وهى – بلا شك – تتشابه مع نظيرها فى كل المجتمعات العربية مع بعض الاختلاف فى اللهجات أو المفردات.

أمثال شعبية تدعو إلى حسن تربية الأبناء : لقد أخذت الأمثال تقوم بدور المرشد إلى التربية الصحيحة ، وهى تعتمد فى ذلك على مصدرين أساسيين هما العادات والتقاليد – التى تكونت على مدى التاريخ – والأخلاقيات التى شكلها الدين الإسلامى على مر العصور [٢٦]. وهى تدعو إلى الاهتمام بتربية الأبناء لأنهم امتداد للآباء والأجداد ، كما أنهم رجال المستقبل ، وحملة التراث ، وعليهم تنهض الأمة . وكلما حسنت التربية كلما حسن المجتمع ، وسادة الاحترام ، وعلت الهمم ، ومن الأمثال الحاضة على ذلك :

- ابنك حتة من كبدك .
- إبنك إنت زيك إنت .
- إلزم ابنك وربيه .

- من أدّب أولاده ، أرغم حُسّاده .
- من أدّب ولده صغيراً ، سُر به كبيراً .
- أدّب ابنك صغير ، تفرح به كبير .
- أدّب عيالك تنفعهم .
- الأدب أفضل من النسب .
- الدب رأسمال .
- أدب الابن يحفظ كرامة الوالد .
- عيب الولد من أهله.
- من شابه أباه فما ظلم .
- إضرب ابنك واحسن أدبه ، ما يموت إلا ما يفرغ أجله .
- آخر الدلع الندامة.
- اكسر للعيل ضلع ، يطلع له اثنين .
- إبنك فضله فى الأكل والكسوة ، واضربه للتربية والنشوة .

وتدعو الأمثال من ناحية أخرى إلى مراعاة الآباء لطبيعـة المرحلـة العمريـة للأبنـاء ، وبالتالى الدعوة التربوية إلى مصادقتهم ومصاحبتهم . ولهذا تقول :

- إن كبر إبنك خاويه .
- إذا طلعت دقن ابنك ، إحلق دقنك .
- اللى ما يترباش على سفرة أبوه ، عمره ما يشبع .
- إبنك وهو صغير ربيه ، ولما يكبر خاويه .
- إن كان بدك تعرف ابنك وتسيسه ، إعرفه من جليسه .
- إن كان ابنك فى بيتك النهارده ، بكره يبقى جارك .

وفى نفس الوقت تدعو الأمثال الأبناء إلى احترام الآباء مهما كانت الظروف ، والاعتراف بفضلهم ، وطاعتهم ، لينالوا رضى الله تعالى . ولذلك تقول الأمثال [٢٧]:

- الأب رب .
- اللى من غير أب يلطف به الرب .
- اللى ما يعرف أبوه ، إبن حرام .
- الإبن سر أبوه .
- اللى ماله خير فى أباه ، يا غريب ما تسترجاه .
- اللى ما يسع كلام والديه ، غضب الله عليه .
- العز بعد الوالدين هوان.
- وصى بالوالد ، ما وصاش بالمولود .

ويحوى الأدب الشعبى أمثالاً عديدة أخرى تمثل **توجيهات اقتصادية** ترشد الإنسان وتعلمه بحال السوق والبيع والشراء ، وبالتالى فهى تنقل إليه خبرة الآخرين ، وربما يدخل هذا تحت بند "التربية الاقتصادية" إذا جاز لنا التعبير. ومن تلك الأمثال [٢٨]:

- ضيّع سوتقك ولا تضيّع فلوسك .
- الخسارة اللى تعلم مكسب .
- خفّف أحمالها (السفينة) تطول أعمارها.
- لا شجرة إلا وهزها ريح .
- إعط العيش لخبازينه .
- أقل شئ يرضى الخاطر .
- يابانى فى غير ملكك يا مربى فى غير ولدك .
- الشرا (الشراء) يعلّم البيع .

- الشكك (البيع بالأجل) يفلس التاجر الألفى (صاحب الآلاف).
- صبرى على نفسى ، ولا صبر الناس علىّ .
- جبال الكحل تفنيها المراود .
- الفلوس زى العصافير ، تروح وتيجى .

وتتنوع موضوعات الأمثال التربوية ، لتضم المجال السياسى ، وتمارس نوعاً من التربية السياسية كأن توضح مكانة الحاكم ، وعلاقته بالمحكوم ، وملامح السياسة الحكيمة ، وكيفية التعامل مع أبناء الأمراء .. الخ . ومن تلك الأمثال (٢٩):

- السلطان اللى ما يعرفش السلطان .
- سيف السلطة طويل .
- ما تفرحوش فى اللى انعزل ، أما تشوفوا اللى نزل .
- إذا أردت أن تطاع فأمر بما يُستطاع .
- إصلاح الرعية أنفع من كثرة الجنود .
- اللى يبص لفوق ، توجعه رقبته .
- عادى أمير ولا تعادى غفير .
- حكم البلد على تلها (أى لا يضبط أمور القرية إلا حاكم من أهلها).

وفى نهاية الفقرة نقول إن الأمثال الشعبية انعكاس لطبيعة بيئة وثقافة بشكل عام ، وكما يكون البلد ، يكون المثل . وكما يكون الناس ، يكون المثل . ويفسر الأنثروبولوجيون تشابه الأمثال بين الشعوب – إليوت سميث Elliot Smith على سبيل المثال – فى ضوء تشابه الثقافات، وأن الظروف المتشابهة ، تنتج ثقافات متشابهة . وحتى لا نخرج عن صلب موضوعنا ، نقول إن معظم الأمثال الشعبية تحذر من النتائج ، أى نتائج الأفعال . فإذا كانت تعبر عن حقيقة عامة أو تلخص تجربة عامة ، فإنها تنوه بأنماط محددة من السلوك يرضى عنها المجتمع ، وتعلى من شأن فضائل معينة ، وتشيد بالمواقف المختلفة من المشكلات التى تواجه الإنسان ، أو تقلل من

شأنها (٣٠). ولكن الفكرة الغالبة هى التحذير من الشطط والغلو والمبالغة ، وتجعل الأمر الوسط هـو خير الأمور دائماً . وتلك خلاصة وظيفة التراث الشعبى فى التربية المجتمعية .

(ج) الأغانى الشعبية : الأغنية الشعبية هى قصيدة غنائية ملحنة ، مجهولة النشـأة ، ظهـرت بـين الأميين فى الأزمان الماضية ، ولبثت تجرى فى الاستعمال لفترة ملحوظة من الـزمن ، علـى مـا يؤكد الكسندر كراب (٣١) . ومن تعريفاتها الأخرى أنها " الأغنية المرددة التـى تسـتوعبها حافظـة جماعة ، تتناقل آدابها شفاهاً ، وتصدر فى تحقيق وجودها عن وجدان شـعبى " (٣٢) . وهـى تعـدد بتعدد مناسباتها وأشكالها . فمن حيث المناسبات ، هناك ما يرتبط بدورة الحيـاة (أغـانى المـيلاد ، والختان ، والخطوبة ، والزفاف ، والزواج ، والبكائيات) ، وهناك أغانى المناسبات الدينية (المولـد النبوى ، والموالد)، وأغانى الحجيج (فى الذهاب والعودة) ، وأغانى العمل (أغانى منتظمة الإيقـاع، وغير منتظمة الإيقاع) (٣٣). كما تصنف الأغنية أيضاً حسب البيئات والجماعات البشـرية المختلفـة كأغانى البدو ، وأغانى الفلاحين ، وأغانى الصيادين وغيرهم .

ولا يخلو مجتمع عربى – على المستوى المحلى والقومى – من الأغـانى الشـعبية التـى تعبر عن المناسبات المتنوعة ، والبيئات المختلفة ، وما يسفر عنه كل ذلك من توجيهـات تربويـة ، ودينية ، ووطنية تساهم فى التربية المجتمعية ، علاوة على الوظيفة الترويحية والتعبوية . ويحـوى التراث الشعبى العربى أغانٍ شعبية عديدة ساهمت فى الوحدة الوجدانية بين المجتمعـات العربيـة . سواء ما يرتبط بالموالد والأولياء ، أو ما يرتبط بالمناسبات كالزواج بصفة خاصة . ولا ننسى فـى هذا الصدد ما يتغنى به الشعب العربى من الأغانى الشعبية السورية مثل " يا مال الشـام" ، و "قـدك المياس يا عمرى" ، و "طالعة من بيت أبوها رايحة فى بيت الجيران".

(٤) الثقافة المادية والفنون الشعبية : تهتم الثقافة المادية بجوانب السـلوك الشـعبى المنظـورة – وليس المسموعة – التى قامت قبل الصناعات الميكانيكية ، واستمرت موجودة معها جنباً إلى جنـب (٣٤). إذن هى صدى لتقنيات ومهارات ووصفات انتقلت عبر الأجيـال ، وخضـعت لـنفس قـوى التقاليد المحافظة والتنوعات الفردية التى يخضع لها الفن اللفظى . وهنا نركـز علـى كيفيـة بنـاء الناس – فى المجتمع التقليدى – بيوتهم ، وصناعة ملابسهم ، وإعداد طعامهم ، وفلاحة أرضـهم، وصيد أسماكهم ، وحفظ محصولاتهم الزراعية ، وأدوات العمل الزراعى نفسـه ، وأثـاث بيـوتهم وتصميماته ، وأدواتهم المنزلية .

أما الفنون الشعبية فهى تتداخل مع بعضها البعض ، وتظهر غالباً فى الواقع الحى مترابطة أشد الترابط ، وتعبر أصدق تعبير عن "روح الجماعة" وعن الذوق الشعبى ، والقيم الجمالية الشعبية . وعلى هذا تتضمن الثقافة المادية والفنون الشعبية الموضوعات التالية (٣٥):

أ- الموسيقى الشعبية المصاحبة للأغانى والرقص والنداءات والابتهالات والإنشاد ، والموسيقى البحتة ، بالإضافة إلى الآلات الموسيقية (وترية ، إيقاعية ، نفخ).

ب- الرقص الشعبى (رقص المناسبات ، والرقص المرتبط بالمعتقدات كالزار ، ورقص طبقات وفئات محددة كالغوازى مثلاً). والألعاب الشعبية .

ج- فنون التشكيل الشعبى وتضم الأشغال اليدوية ، والأزياء ، وأشغال التوشيه ، والحلى ، وأدوات الزينة ، والأثاث والأوانى ، والعمارة الشعبية ، والدمى ، والوشم ، والرسوم الجدارية.

د- عناصر الثقافة المادية وتشمل أدوات العمل الزراعى ، والأدوات والمعدات المنزلية ، والحرف والصناعات الشعبية .

غير أننا نتناول – إتساقاً مع موضوعنا – **الألعاب الشعبية** لعظم دورها التربوى فى المجتمع لكل من الأطفال والكبار وهى توجد بأشكال تختلف حيناً ، وتتشابه حيناً آخر ، والوظيفة واحدة ، ومن ثم يمكن تناولها بالتمثيل على أى مجتمع عربى . كما نتناول من ناحية أخرى دور فنون التشكيل الشعبى وخاصة الأثاث والأوانى فى التربية المجتمعية .

١- الألعاب الشعبية ودورها التربوى : الألعاب الشعبية أحد عناصر التراث الشعبى فى أى مجتمع بشرى ، وهى نتاج للتكوين الثقافى ، وطبيعة البيئة الاجتماعية والطبيعة ، وانعكاس لطبيعة النشاط الاقتصادى . وهى إحدى الوسائل التربوية التى تغرس القيم ، وتنمى القدرات ، وتلبى الاحتياجات التربوية لجميع الفئات العمرية . وعلى هذا ، فهى تحوى العديد من المضامين التربوية الهادفة التى تهيئ الجو الصحى النفسى الملائم لأن يمارس الإنسان حياته الطبيعية فى المجتمع (٣٦). وتتدرج الألعاب الشعبية لتشمل كل الفئات العمرية ، فلكل فئة منها ألعاب تناسب السن والقدرات الذهنية والبدنية . كذلك فهى تتنوع ما بين ألعاب للذكور وأخرى للإناث ، وثالثة تشترك فيها الفئتان معاً .

يحوى التراث الشعبى لمجتمع الإمارات – على سبيل المثال – رصيداً كبيراً مـن الألعـاب الشعبية ، يتشابه بعضها مع نظيرها فى البلدان العربية وبعض بلدان العالم ، ممـا يشـير إلـى أن اللعب ظاهرة إنسانية عامة . كذلك تختص بعض تلك الألعاب بالصـبية (الأولاد) وبعضـها الآخـر يقتصر على الفتيات ، كما أن هناك نمطاً ثالثاً من الألعاب يشـترك فيـه الأولاد مـع البنـات فـى ممارسته . وسنضرب أمثلة من مجتمعى مصر والإمارات .

أ- **ألعاب الصبية** : هناك عدة ألعاب شعبية يمارسها الصبية ومنها " التيلة " والنشـبيل " ، و "شـير بانيان" (٣٧). وهذه الألعاب معروفة فى مجتمع الإمارات ، ويغلب عليها اللعب الجمـاعى ، وتسـاهم بدور فعال فى اكتساب التعاون وتنمى روح الفريق ، وتغرس روح الانتماء للجماعة (الـوطن) كمـا أنها تدرب النشء على التركيز ودقة تصويب الرمى نحو الهدف وإصابته ، وتـزوع فـيهم الـروح الرياضية فى الفرح بالنصر ، والتعبئة والإعداد لمواجهة الهزيمة وتحقيـق الفـوز فـى أعقابهـا . كذلك فإن هذه الألعاب الشعبية تساعد على نمو الشخصية ، وتنمـى روح الابتكـار والتفاعـل مـع البيئة ، وتعمل على ربط الماضى بالحاضر وتحافظ على استمرارية التراث الشعبى وتؤكـد علـى قيمه ووظيفته الاجتماعية .

ومن وظائف هذه الألعاب الشعبية أيضاً أنها تساعد الطفل على التعبيـر عـن انفعالاتـه ، فيستخدم اللعب الخيالى والتقليدى كمتنفس للقلق والتوتر ، وتفريـغ رغباتـه المكبوتـة ، ونزعاتـه العدوانية (٣٨). وفى اللعب يقوم الأطفال بحل مشكلاتهم وخلافاتهم بأنفسهم بعيداً عن تحكم الكبـار . وتعمل الألعاب على التسامى وتحقيق التوازن والانسجام النفسى أثناء اللعب .

* أما لعبة " **التيلة** " فيمارسها لاعبان أو أكثر ، واللاعب الذى يصيب هدفه ويضرب تيلـة خصـمه ، يكون له الحق فى أن يلعب مرة أخرى ، ويستمر حتى يخطئ ليلعب اللاعـب الـذى يليـه بموجـب الترتيب المتفق عليه . وقد كانت هذه اللعبة تحظى بشعبية كبيرة لدى الصبية ، ولذلك كـان هنـاك مـن يقوم بتشجيع أحد اللاعبين ضد الآخرين (الانتماء إلـى جماعـة) ، والـبعض الآخـر يقـف متفرجـاً (الترويح) أو مؤازراً (التضامن والتشجيع) ، والبعض الثالـث يقـف مراقبـاً ليكـون حكمـاً (الضـبط الاجتماعى والفصل فى المنازعات) إذا حدث اختلاف قد يؤدى إلى شـجار. وتعلـم هـذه اللعبـة قـيم الكسب والخسارة ، (الجدية والمهارة ودقة التصويب والرماية وتقـدير الوقـت والمسـافة والحركـة) ، وبالتالى يتعلم الصبى أن يكون كاسباً فيحافظ على المكسب. أو يكون خاسراً فيجتهد ليعوض خسارته.

* لعبة " **النشيل أو الكرتة** " وهى لعبة يمارسها الصبية فى مجتمع الإمـارات ، وتسـمى فـى الكويت " الدوامة " وفى مصر " النحلة " ، ويشترك مجموعة من الصبيان فى أدائها ، فيلعـب كـل واحد منهم "بكرتته " بجانب الآخر فى مجموعة . ويتفنن الجميع فى التقاطها من علـى الأرض (٣٩) – وهى تدور – بواسطة الخيوط (النشابيل) ، ليضع كل واحد منهم " كرتته " علـى راحـة يـده ، وهى فى حالة الدوران المستمر ، والبعض يلتقطها قبل أن يقـف دورانهـا وتقـع علـى الأرض . وتتطلب هذه اللعبة القوة والفتوة والمهارة ، وهى تمارس عادة فى أمسيات الشـتاء فـى" البراحـة " فى الحارة .

* لعبة **شيربانيان " كتبه لو صنم "** وهى لعبة شعبية خفيفـة وبسـيطة ، يمارسـها الأطفـال والكبار وهى تشبه لعبة " القرعة " فى الوقت الحاضر وتسمى فى مصر "ملك ولا كتابة " وكـل مـا تتطلبه عملة معدنية ذات وجهين مختلفين . أما التسمية فمرجعها إلى كلمة " شير " الفارسـية التـى تعنى الأسد ، و" بانيان " ، وتعنى الصنم أو التمثال عند الصاغة الهنود فى منطقة الخليج . وترجـع التسمية أيضاً إلى الروبية الهندية – التى كانت العملة المستعملة فى الخلـيج فـى أثنـاء الاحـتلال الإنجليزى – وهى عملة معدنية تشبه درهم الإمارات الحالى . يتفق اللاعبان على اللعب ، ويختـار كل واحد منهما وجهاً من وجهى العملة ، ويقوم أحدهما بقذفها إلى أعلى (أو يقوم صبى آخر بـدور الحكم) ، والصبى الذى يصيب تخمينه ، يكسب بضعة " آنات" (قروش) ، لتعاد اللعبة مـرة أخـرى إلى أن تتفق أطراف اللعب على إنهائها . ويزداد الإقبال على هذه اللعبة فى مواسم الأعيـاد حيـث تتوافر (الآنات) التى يحصلون عليها (العيدية).

ب- **ألعاب الفتيـات** : تتعدد الألعاب الشعبية التى تقتصر على الفتيات فى مجتمع الإمارات ، ومنهـا لعبة " أنا الذيب باكلكم " أو " أم الأولاد " ، و " القراحيـف " ، و "أم الأربـع " ، و " العـرائس " وهى ألعاب يمارسنها طوال العام – وغالباً فى الفترات المسائية حتـى غـروب الشـمس – فـى " البراحات " ، ويتدربن فيها على اكتساب الروح الجماعية ، والإعداد للدور المسـتقبلى (دور الأم) . وتمثل قيمة الولاء والانتماء والشـجاعة والـدفاع ، واكتسـاب المهـارات البدنيـة فـى الحركـة (القراحيف) والالتقاط (أم الأربع) .

* أما اللعبة الأولى : " **أنا الذيب باكلكم** " فهى تضم مجموعة فتيات يخترن منهن فتـاة مميـزة أو أكبر سناً لتقوم بدور الذئب ، وأخرى لتقوم بدور الأم ، وثالثة لتقـوم بـدور العـروس . ويبـدأ

اللعب بأن يقفن صفاً واحداً تتقدمه الأم ثم العروس ثم باقى الفتيات يمسكن ببعضهن من الخصر ، فى مواجهة الذئب ، وبين الطرفين مسافة خمسة أقدام . يحاول الذئب التهام البنات الواحدة تلو الأخرى ، ولكن الأم تمنعه من ذلك وتتصدى له وتحميهن . وفى أثناء الهجوم تتحرك الأم ومعها الفتيات، ويدور الحوار الموسيقى التالى بين الذئب والأم (٤٠):

الذئب : أن الذيب باكلكم .

الأم : أنا الأم باحميكم .

الذئب : شاس الذيب على الطليان .

الأم : يا ويلكم يالعيال .

ويحاول الذئب – أثناء ترديد هذا الحوار – الانقضاض على إحداهن متحركاً يميناً ويساراً، والأم تحاول حمايتهن ، حتى يتمكن من الإمساك بإحدى الفتيات فى المؤخرة ، ومن تلمسها تخسر وتخرج من اللعب . ويستمر اللعب على نفس المنوال – وبنفس الحوار – حتى يستطيع الذئب أن يأكل الواحدة ثم الثانية حتى تبقى الأم مع العروس ، ثم يذهب الذئب بعد أن شبع. عندئذ تحنئ الأم ظهرها وترفع يديها على شكل خيمة ، فتمر العروس (من تحت يدى الأم) لتختبئ فى الخيمة، وتذهب الأم إلى السوق لشراء ما يلزمها ، وتبقى العروس مختبئة . تنتهز الفتيات الفرصة فيخبئن العروس ، وتعود الأم فلا تجدها فى مكانها فيدور هذا الحوار :

الأم : وين العروس ؟

البنات : سارت القاهرة .

تدور الأم وكأنها تبحث عنها فى أنحاء القاهرة ، وهى تردد :

القاهرة ... القاهرة ... القاهرة ... ما لقيتها .

فتسأل مرة أخرى : وين العروس ؟

البنات : سارت البصرة .

الأم : البصرة ... البصرة ... البصرة ...

ويستمر بحث الأم عن العروس من بلد إلى آخر ، وهى تسأل البنات فيذكرن – فى كل مرة – إحدى العواصم أو المدن العربية. ويستمر البحث إلى أن تيأس الأم ، فينتهى اللعب . وتعبر هذه اللعبة البسيطة عن قيمة حب الأم لبناتها ، ومدى حرصها على حمايتهن من أى خطر ولو كلفها حياتها ، وكيف أنها خيمة تظلل البنات بالرعاية والحماية . وعلاوة على ذلك فاللعبة مصدر للمعلومات بالعواصم العربية والمعرفة بها ، مما ينمى الحس العربى والانتماء العربى ، والوحدة العربية لدى الأطفال .

* لعبة " **القراحيف** " وتمارسها الفتيات فى مختلف مواسم السنة فى مجتمع الإمارات ، وخاصة فى فصل الصيف ، وتعتمد على القدرة على حفظ التوازن ، والتنافس فى السباق . و"القراحيف" جمع " قرحاف " وهو الحذاء المصنوع من الخشب ويسمى فى مصر "القبقاب" . وتأخذ الفتاة علب الصفيح الفارغة ، وتثبت علبتين بخيط يصل بينهما ماراً بقامتها ويصل طوله إلى حوالى ستة أمتار ، ماراً ما بين أصبعى كل قدم لتمسك به من وسطه وتمشى ترفع قدماً وتضع الأخرى . ويعقد السباق بين الفتيات ، ومن تصل إلى نهايته – دون خلل أو وقوع على الأرض – فإنها تفوز على زميلاتها ، ومن تقع فإنها تخرج خاسرة .

* لعبة " **العرائس** " " **الحيا** " وهى إحدى صور الإبداع الفطرى لدى الأطفال العرب فى صناعة الصور أو الدمى من مخلفات الخياطة أو قطع القماش المهملة . وهى لعبة تنتشر بين الفتيات على مستوى العالم مع اختلافات فى مادة الصنع حيناً ، والإمكانيات التكنولوجية حيناً آخر. ولما كانت الفتيات تبرعن فى صناعة العرائس ، وتحريكها بأيديهن ، فقد سميت " الحيا " فى الإمارات فى بعض المناطق نظراً لظهور حركتها ، وزينتها ، ودورها بالتالى فى التنشئة الاجتماعية ، وتهيئة الفتيات للقيام بالدور المستقبلى للأمومة ، والتدريب على عادات الزواج وحفلات العرس وطقوسه . وهذه الألعاب تنمى القدرات الإبداعية لدى الفتيات ، وتمتص شحنات الانفعال ووقت الفراغ لديهن ، وعلاوة على أنها تغرس فيهن حب الإبداع وحب الإنتاج وبالتالى الانتماء إلى المنتج (الدمية) ، على عكس العنف والرغبة فى التحطيم ، والملل الذى تسببه الألعاب والدمى الحديثة [٤١].

ج– الألعاب الشعبية المشتركة : وهى ألعاب يمارسها الأولاد والفتيات وتعكس طبيعة بعض المجتمعات الصحراوية والساحلية العربية، وتستخدم معطيات البيئة من رمال وهواء وماء . ومن تلك

الألعاب في مصر والإمارات مثلاً : " بيوت الرمال " ، و " هذا بيت منو " ، و " الدوامة " ، و " أكوام رمل " ، وهي تؤدي دورها البارز في تنمية الإبداع التشكيلي ، وفهم الرموز وإدراك العلاقات ، والانتماء إلى المكان ، والاستفادة من معطيات البيئة ، علاوة على التسلية وقضاء وقت الفراغ .

* لعبة "الدوامة " وهي لعبة صيفية – تسمى في مصر " بالمروحة " و "أبورياح " – يمارسها الأطفال حيث يتوافر النخيل والهواء ، فيستخدمون الخوص الأخضر في صورة مروحة السفينة (البروانة) ، ويثبتونه على شوكة النخيل وينطلقون بها بسرعة فيحركها الهواء بشدة ، فيسعدون بهذا الابتكار وهم يلهون .

* لعبة " بيوت الرمل " وهي من الألعاب الشعبية المنتشرة في المناطق الساحلية العربية ، يمارسها الأولاد والبنات على البحر وشاطئه – وخاصة في الصيف – حيث الماء والرمال والرطوبة والمكان الفسيح . كما كان الأطفال في المناطق الداخلية يصنعون بيوتهم الرملية من الرمال الرطبة المبللة بمياه الأمطار شتاء [٤٢]. وتعكس هذه اللعبة مدى تأثر الأطفال بالقلاع والحصون التي تشتهر بها المجتمعات العربية ، علاوة على أنها تنمي الملكات الإبداعية في التصميم المعماري والتنفيذ الإنشائي لديهم نتيجة لتنافسهم حول الأفضل . وقد امتدت اللعبة لتشمل تصميم البروج والحصون وتنفيذها أيضاً بنفس طريقة " بيوت الرمل ".

٢- **الأثاث والأواني وغيرهما من فنون التشكيل الشعبي** ، وهي تلعب دوراً بارزاً في العادات والتقاليد والقيم الاجتماعية . فالتراث المادي ليس مجرد تحف نزيّن بها بيوتنا ،ونثرى بها متاحفنا، بل كان ولا يزال جزءاً لا يتجزأ من تراثنا الشعبي، إذ أن الأشكال ليست وليدة راحة بصرية وجمالية فقط ، ولكنها استجابة لهذا التراث [٤٣]. كما أن لها وظيفة هامة فيه ، إذ العلَمَ رمز لمكان قائد الجيش في المعركة ولمكانته ، وبالتالي الالتفاف حوله والدفاع عنه . والسكن كمأوى للحماية من الطقس المتقلب وأخطار البيئة والضواري . والمآذن لارتقاء المؤذن والنداء للصلاة ، والساعات لمعرفة الوقت ، والملاعق للأكل وهكذا .

ولكن هذا التراث المادي قد اكتسب أدواراً ثقافية رمزية مجردة أخرى ، فالعَلَمَ أصبح رمزاً للوطنية ، والبيوت للتفاخر وإظهار المكانة الاجتماعية والأوضاع الطبقية ، والمآذن زُخرفت تعبيراً عن تقدير الدين وقدسيته . وإذا كان لكل بيئة تراثها – في الماضي – ولم يكن الاتصال ميسوراً بين كل البيئات ، فقد استقر هذا التراث المادي زمناً طويلاً بلا تغيير مفاجئ ، مما أتاح له

فرصة التوافق الواضح بينه وبين العادات والتقاليد والمعتقدات والقيم والآداب الشعبية وغيرها من مكونات التراث الشعبى ككل . ومن ذلك عادات الضيافة وقيم الكرم فى البادية العربية (٤٤).

إن أسفار البدوى الطويلة لا تجعله يحمل زاداً كثيراً ، وبالتالى يكون فى حاجة ماسة إلى الراحة والطعام والشراب عندما يمر بأية قبيلة ، ولذلك صار الكرم أعلى القيم الاجتماعية التى يحافظ عليها البدو عموماً ، وصارت النار والقهوة رمزين يجسدان هذه القيم ، ويفرضان تصميماً معيناً للخيمة بحيث يكون مجلس الرجال مفتوحاً دائماً جهة الظلال ، وبمجرد دخول الضيف والترحيب به ، يبدأ المضيف بإعداد القهوة أمامه لتسليته ، ونشر عبقها فى أجواء الخيمة ، وإظهار التكريم له . وهذه كلها قيم تربوية يكتسبها الصغار من الكبار فيتعلمونها ويمارسونها وينشئون أبناءهم عليها فى المستقبل .

وتجدر الإشارة إلى أن القبيلة العربية ، حينما كانت تريد الانتقال إلى مكان آخر أفضل ، فإنها ترسل أحد أفرادها ليستكشف أفضل مناطق العشب والماء . وبعد عودته للقبيلة، ليحكى لها عن مشاهداته وملاحظاته وتجربته، يجتمع أفرادها – بما فيهم النساء من خلف القاطع – للإصغاء لما يحمله من أخبار وأشعار ، ودون مقاطعة أو تشويش فكأنه مذياع أو تلفاز بلغة العصر . وهنا يسود أدب الإنصات للمتكلم فى المجلس (٤٥). وقد انعكست هذه العادة والقيمة – فى نفس الوقت – فى سلوك رمزى عند الاكتفاء من شرب القهوة حيث يهز الضيف فنجانه حتى لا يحدث إزعاجاً فى المجلس . ولو كان فيه عشرون شخصاً ، وقال كل واحد منهم : كفى ، أو شكراً ، أو جزاك الله خيراً ، لأحدثوا إزعاجاً وجلبة تعكر صفو القص والإنصات اللذين ارتبطت بهما القهوة فى المجلس العربى . وتلك قيم وعادات تربوية لا تزال تسود المجتمع العربى كله حتى اليوم .

خامساً : التراث الشعبى والتحديث (المعاصرة):

يعد التراث الشعبى ألصق عناصر الثقافة بفكر الإنسان وسلوكه وحياته . ولذلك فالانتفاع به أو تكريسه لغرض معين ، ورقة رابحة فى يد أى من صناع السياسة ، سواء فى الماضى أو الحاضر (٤٦) . ومن ناحية أخرى ، فإن هذا التراث يتعرض لتغير اجتماعى وثقافى دائم ، يطرد باطراد عمليات التحديث والتحضر والتصنيع .

وتعتبر عملية التحديث modernization إحدى العمليات النوعية للتغير الاجتماعى

السائد، وهى تشير إلى تحول المجتمعات من الـنمط البسـيط والشـكل التقليـدى -- كالمجتمعـات الزراعية – إلى نمط يتصف بالتعقيد والتصنيع ، حيث تعتبر التغيـرات الاقتصـادية أكثـر أنـواع التغيرات وضوحاً فى عملية التحديث (٤٧). كما أنها تسبق غيرها من حيـث توقيـت الحـدوث ، إلا أن التحديث يمس جميع جوانب الحياة الاجتماعية ، وتشترك جميع المجتمعات الإنسـانية فـى هـذه الخاصية .

والسؤال المطروح الذى يلح علينا منذ القرن الماضى ، يدور حول مصير التراث الشـعبى فى الوقت الحاضر ، وحجم ما يعتريه من تغير ، ووجهة هـذا التغيـر ومسـتقبله فـى النهايـة . فالتغيرات الاجتماعية والثقافية تصاحبها عمليات قبول أو رفض أو مقاومة ، وهنا لابـد أن تكـون العلوم الاجتماعية صاحبة الريادة والتفسير والتنبؤ . ويأتى علم الفولكلور على رأس هـذه العلـوم ، فماذا يرى ؟

إن حديثنا ليس دفاعاً مستميتاً عن التراث وتشبثاً به ، ولا الدعوة إلى هدمه وتـدميره ووأده بين أنقاض الماضى ، ولكن حديثنا هو بالأحرى محاولة للاستفادة من فهم ديناميات الثقافة الشـعبية فى تأسيس حياتنا على ركائز لا تهزها العواصف ولا الأزمات العارضـة ، ولا تخضـع لانفعـال اللحظة . وبالتالى يساند التراث الشعبى ، الثقافة الرسمية فى تحقيـق أهـداف الـوطن ، وإنجـاز طموحاته . ولذا فلا يجب التخوف من واقع التراث فى مواجهة الجديد ، ولا نسـعى لهـدم التـراث باسم التقدم والحداثة .

لقد أدى التحديث إلى تغير فى بعض عناصر التراث الشعبى ، فالتحديث فى مجال الصـحة والخدمات الصحية الحديثة ، ساعد على تغيير فى أساليب العلاج الشعبى كالسحر والطب الشـعبى. كما ساهم الاتصال والتعليم والتكنولوجيا فى انحسار الأدب الشعبى وتغير فى العـادات والتقاليـد . كذلك قضى تحديث التعليم على الكتاتيب ، وسحبت وسائل الاتصال الحديثة وظيفـة الأسـرة فـى الترويح عن أعضائها ، وقضت على القص والقصص الشعبى للأطفال . ومن ناحية أخـرى ، فقـد انحسرت الحرف والصناعات الشعبية أمام زحف التصنيع وطغيان التكنولوجيا . وانحسـرت معهـا الأعراف التى كانت تساهم فى الضبط الاجتماعى ، والتربية ، وحل الصـراعات . وفـى النهايـة نقول إن الدور التربوى للتراث الشعبى صار الآن مهدداً بعد أن تلاشت بعـض آلياتـه ، وتـوارت بعض ميكانيزماته ، فى نفس الوقت الذى لا تقف فيه مؤسسات التحديث – بكل مقوماتهـا – علـى

أرض صلبة فى العمليات التربوية . نحن – إذن – فى حاجة إلى موازنة بين التـراث والتحـديث ؛ مراجعة للتراث وانتقاء التحديث ، حتى لا تضيع الهوية العربية ، ولا نفقد مكاننا بين الأمم .

سادساً : دور المؤسسات التراثية فى الوطن العربى : نماذج مختارة :

سبقت الإشارة إلى أهمية التراث الشعبى – فى الوطن العربـى – فـى التربيـة والاقتصـاد والسياسة والاجتماع والعمل والترويح والتخطيط والتنمية وغيرها . وعلى قدر هذه الأهميـة ، كـان اهتمام معظم الدول العربية بتدوين هذا التراث وحفظه لحمايته من الاندثار أمام زحـف التحضـر، وموجات التصنيع ، وقوى التحديث .

وكانت استجابة معظم الدول العربية سريعة لهذا الطلب القـومى العربـى، فأنشـأت مصـر مركز الفنون الشعبية بالتوفيقية بمدينة القاهرة يتبع وزارة الثقافة ، ليتولى جمـع التـراث الشـعبى المصرى بشكل منظم، وتدوينه وأرشفته . وقد أجرى المركز مسوحاً عديـدة لمنـاطق مصـر ذات الثقافات الفرعية المتنوعة (الريف – البادية– الحضر –السواحل) وسجل تراثها ، وقـدم دراسـات عديدة عبر مجلة علمية متخصصة تسمى "الفنون الشعبية" .

وفى نفس الاتجاه أنشأت العراق "المركز الفولكلورى" بمدينـة بغـداد الـذى يتبـع لـوزارة الإعلام ، يضطلع هو الآخر برصد التراث الشعبى العراقى ، وجمعه وتدوينه ، وذلك للحفاظ عليـه من الاندثار . وقد أصدر المركز دورية علمية أسماها "التراث الشعبى" ظلت تصدر منذ السـتينيات وحتى التسعينيات . وهى تتناول بالتحليل والتفسير مواد التراث الشعبى العراقى والعربى عمومـاً . وكان لها جمهورها خارج العراق، كما كانت مرجعاً هاماً للمشتغلين بالفولكلور.

ونظراً لتلك الأهمية الفائقة ، أنشأت وزارة الاعلام بجمهورية السودان " مركـز الفولكلـور" بمدينة الخرطوم بحرى، وهو يضم أربعة أقسام ، توازى مجـالات الفولكلـور الأربعـة[٤٨]. وقـد أصدر المركز مجلة دورية غير منتظمـة أسـماها "وازا" تهـتم بموضـوعات التـراث وتعـرض لقضاياه.

وعلى نفس الوتيرة ، سارعت دول الخليج بإنشاء "مركز التـراث الشـعبى" لـدول مجلـس التعاون الخليجى بمدينة الدوحة بدولة قطر. وقد بدأ المركز منذ عام ١٩٨٢ يمـارس نشـاطه فـى عقد ندوات متخصصة حول التخطيط لجمع ودراسة التراث الشعبى بكـل فروعـه وموضـوعاته .

وفى الندوة الثالثة (١٣ -١٧ يناير ١٩٨٥) أوصى كاتب هذه السطور بإصدار دورية علمية تهتم بالتراث الشعبى ، وبالفعل أصدر المركز مجلة "المأثورات الشعبية" فى نفس العام، ولا تزال تصدر ، وتغطى موضوعات التراث الشعبى العربى عامة ، والخليجى بشكل خاص.

ولم تقتصر الإمارات العربية على عضويتها فى مركز التراث الشعبى لدول الخليج ، وسارعت بإنشاء مركز زايد للتراث والتاريخ بمدينة العين بإمارة "أبو ظبى" ، فى مارس ١٩٩٩ ، ليتولى مهمة البحث العلمى فى التراث ونشر الوعى بأهميته وقيمته. وقد عقد المركز دورات تدريبية محلية ، وستة مؤتمرات عالمية خلال ثلاث سنوات ، ونشر أعمالها ، علاوة على نشر ما يزيد على ثلاثين كتاباً فى مجالات التراث الشعبى المحلى، والتاريخ والأدب العربى بالإضافة إلى محاضرات الموسم الثقافى سنوياً .

وإذا كان علم الباحث قاصراً على هذه المراكز ، فمن المؤكد أن معظم الدول العربية الأخرى لديها مؤسسات عديدة تهتم بالتراث الشعبى ولم نحط بها علماً . وهنا أختتم هذا البحث بالدعوة إلى ربط مراكز التراث الشعبى العربية ببعضها البعض – فى ظل تقدم الاتصالات – وعقد ندوات مشتركة تثير القضايا المشتركة حول تراثنا الشعبى العربى ، وتعرّف المهتمين بالتراث ببعضهم ، وتتبنى مشروعات توثيقية وتحليلية مقارنة للتراث الشعبى فى مجتمعات عربية متنوعة . ولعلنا بهذا نخطو للأمام فى توحيد الشعوب العربية فى عصر لم يعد يعترف إلا بالتكتلات الكبرى، وهذا ما دعا – ويدعو– إليه التراث الشعبى العربى الذى أورده الهمذانى " لا يعجز القوم إذا تعاونوا " وفى هذا يقول المثل الشعبى المصرى : "إيد على إيد تكيد" ، و"إيد على إيد تساعد"، و " إيد واحدة ما تسقفش".

وعلى الله قصد السبيل ،،،

المراجع والحواشى

(١) د. محمد الجوهرى ، علم الفولكلور ، الجزء الأول ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٩٩، ص ص ١٢١- ١٢٣.

(٢) حول السياق الاجتماعى والثقافى ، انظر دراستنا عن عادات التسمية فى المصدر التالى :

د. على المكاوى ، البيئة والأسماء : المعانى والدلالات ، مكتبة النصر للنشر والتوزيع ، جامعة القاهرة ، ٢٠٠٥ ، ص ص ١١٩- ١٢٥.

(٣) على المكاوى ، المعتقدات الشعبية والتغير الاجتماعى ، رسالة ماجستير (غير منشورة) ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٢ ، الفصل الثالث خاصة ص ص ١٧٦- ١٧٧.

(٤) أحمد أمين ، قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية ، ط٢ ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ١٩٩٩ ، ص ص ٣٩٢- ٣٩٣.

(٥) وليم لين ، المصريون المحدثون : شمائلهم وعاداتهم ، ط٢، ترجمة عدلى طاهر نور ، دار النشر للجامعات المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٥، ص ص ٥٦- ٥٧.

(٦) د. على المكاوى ، الأنثروبولوجيا الطبية : دراسات نظرية وبحوث ميدانية ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٩٦، ص ١٨٩.

(٧) عبدالله على الطابور ، التعليم التقليدى : المطوع فى دولة الإمارات العربية المتحدة ، مركز زايد للتراث والتاريخ ، العين ، ٢٠٠٠ ، ص ١٧.

(٨) المرجع السابق ، ص ١٢.

(٩) د. على المكاوى ، الدور التربوى والتعليمى للتراث الشعبى فى دولة الإمارات ، ورقة مقدمة لندوة " التراث الشعبى فى دولة الإمارات : واقعه وآفاقه " ، مركز زايد للتراث والتاريخ ، العين ، الأحد ٢٣ فبراير ٢٠٠٣ ، ص ص ٥-٦.

(*) أتاحت لنا فرص العمل ببعض الجامعات العربية ، إجراء دراسات ميدانية على الثقافة والتراث الشعبى فى مصر والسودان وقطر والإمارات العربية . ومن تلك الدراسات خارج مصر :

- عادات الزواج فى دولة قطر، مركز التراث الشعبى لدول الخليج العربية .

- البيئة القطرية وعادات التسمية ، جامعة قطر .
- الزواج القرابى والصحة فى المجتمع القطرى .
- الطب الشعبى والتحديث فى المجتمع القطرى .
- الطب الشعبى فى السودان .
- التراث الشعبى والمعاصرة فى مجتمع الإمارات العربية .
- الدور التعليمى والتربوى للتراث الشعبى فى مجتمع الإمارات .

(١٠) د. أحمد النكلاوى وزملاؤه ، علم الاجتماع التربوى ، دار الثقافة العربية ، القاهرة ، ٢٠٠١، ص ٨٩.

(١١) د. على المكاوى ، التنشئة الاجتماعية والاتصال الثقافى : دراسة ميدانية فى المجتمع القطرى ، بحث مقدم إلى ندوة التنشئة الاجتماعية فى مجتمعات الخليج العربية ، قسم الاجتماع بجامعة الإمارات العربية ، العين ، ١٩٩٢ ، ص ٢.

(١٢) د. على المكاوى ، صورة الذكر والأنثى فى الدراسات الأنثروبولوجية ، بحث مقدم إلى المؤتمر العلمى السنوى الرابع عشر " الصفات الأنثروبولوجية فى الذكر والأنثى " الذى نظمته الجمعية المصرية لعلوم الأنثروبولوجيا البيولوجية ، كلية طب جامعة عين شمس ، القاهرة ، الخميس ٢٠٠٤/٤/٢٩ ، ص ص ١٥- ١٧ .

(١٣) شارلوت سيمور – سميث ، موسوعة علم الإنسان : المفاهيم والمصطلحات الأنثروبولوجية ، ترجمة مجموعة من أساتذة علم الاجتماع بإشراف الدكتور محمد الجوهرى، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ١٩٩٨ ، ص ٦٣٨.

(١٤) راجع تقسيم المعتقدات والمعارف الشعبية فى رسالتنا للماجستير سابقة الذكر ، ص ١٨.

(١٥) د. على المكاوى ، الإنسان والبيئة والصحة : دراسة فى علم الاجتماع ، دار النصر للنشر والتوزيع ، جامعة القاهرة ، القاهرة ، ٢٠٠٢ ، ص ص ٢٣١- ٢٣٢.

(١٦) د. على المكاوى ، الدور التربوى والتعليمى ، مرجع سابق ، ص ١٤.

(١٧) التراث الشعبى ، تأليف مجموعة من أساتذة قسم الاجتماع بجامعة الإمارات العربية المتحدة ، ط١، دار العلم للنشر والتوزيع ، دبى ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧م ، ص ص ٦٠- ٦١.

(١٨) د. على المكاوى ، المعتقدات الشعبية والتغير الاجتماعى ، مرجع سابق ، ص ١٧٦.

(١٩) إيكه هولتكرانس ، قاموس مصطلحات الإثنولوجيا والفولكلور ، ترجمة الدكتورين محمد الجوهرى ، وحسن الشامى ، ط٢، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٣، ص ص ٣٢- ٣٣.

(٢٠) د. محمد الجوهرى ، علم الفولكلور ، مرجع سابق ، ص ص ٧٣- ٧٤.

(٢١) د. على المكاوى ، الدور التربوى والتعليمى ، مرجع سابق ، ص ١٤.

(٢٢) عبدالله على الطابور ، الألغاز الشعبية فى الإمارات ، مركز زايد للتراث والتاريخ ، العين، ٢٠٠١ ، ص ص ٣٧- ٣٨.

(٢٣) عبيد راشد بن صندل ، الأمثال والألغاز الشعبية فى دولة الإمارات ، مركز زايد للتراث والتاريخ ، العين ، ٢٠٠١ ، ص ص ١٢٦- ١٣٢.

(٢٤) نجيب عبدالله الشامسى ، الألعاب والألغاز الشعبية فى الإمارات العربية المتحدة ، مركز زايد للتراث والتاريخ ، العين ، ٢٠٠٠ ، صفحات ٣٦، ٥٢ و ٢٠٨.

(٢٥) أحمد أمين ، قاموس العادات والتقاليد ، مرجع سابق ، ص ١٣٢.

(٢٦) إبراهيم أحمد شعلان ، الشعب المصرى فى أمثاله العامية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، ١٩٧٢، ص ص ١٢٤- ١٢٦.

(٢٧) أحمد تيمور باشا ، الأمثال العامية، ط٣ ، لجنة نشر المؤلفات التيمورية ، مطابع الأهرام التجارية ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، صفحات ٥٩، ٦٣، ٣٢١.

(٢٨) أحمد أمين ، مرجع سابق ، ص ص ١٣٧- ١٤١.

(٢٩) إبراهيم أحمد شعلان ، مرجع سابق ، ص ص ٦٩- ٧٢ ، وأحمد تيمور ، مرجع سابق ، ص ١٨٦.

(٣٠) د. أحمد مرسى ، أمثال الشعوب ، فصل فى كتاب : دراسات فــى الفولكلــور ، للــدكتور أحمد أبوزيد وآخرين ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٣، ص ٣٢١.

(٣١) الكسندر هجرتى كراب ، علم الفولكلور ، ترجمة رشــدى صـــالح ، دار الكاتــب العربــى للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٧، ص ٢٥٣.

(٣٢) د. أحمد مرسى ، الأغنية الشعبية ، الهيئة المصرية العامــة للكتــاب ، القــاهرة ، ١٩٧٠، ص ٢٣.

(٣٣) د. محمد الجوهرى ، علم الفولكلور ، مرجع سابق ، ص ٧٣.

(٣٤) ريتشارد دورسون ، نظريات الفولكلور المعاصرة ، ترجمة الــدكتورين محمــد الجــوهرى وحسن الشامى ، دار الكتب الجامعية ، القاهرة ، ١٩٧٢، ص ص ١٩- ٢٠.

(٣٥) د. محمد الجوهرى ، علم الفولكلور ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٨١- ٨٢.

(٣٦) د. على المكاوى ، الدور التربوى للألعاب الشعبية : هل من إحياء له ؟ مجلــة المــأثورات الشعبية ، العدد ٦٢ ، مركز التراث الشعبى لدول الخليج العربية ، الدوحــة ، إبريــل ٢٠٠١، ص ١٨.

(٣٧) نجيب عبدالله الشامسى ، مرجع سابق ، ص ٣٦ ، و ص ٥٢.

(٣٨) د. على المكاوى ، الدور التربوى للألعاب الشعبية ، مرجع سابق ، ص ٢١.

(٣٩) و(٤٠) نجيب الشامسى ، مرجع سابق ، ص ص ٥٢- ٥٣ ، وص ص ١٤٠- ١٤٣.

(٤١) د. على المكاوى ، الدور التربوى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٩.

(٤٢) نجيب الشامسى ، مرجع سابق ، ص ص ٢٠٣ – ٢٠٤.

(٤٣) د. سمير عبدالقادر أكبر ، دور التــراث المــادى فــى اســتمرار الثقافــات ، مجلــة المأثورات الشعبية ، العدد ٥٧ ، مركز التراث الشعبى لدول الخلــيج ، الدوحــة ، ينــاير ٢٠٠٠ ، ص ٧٨.

(٤٤) و(٤٥) د. سمير عبدالقادر أكبر ، المرجع السابق ، ص ٧٩.

(٤٦) د. محمد الجوهرى ، علم الفولكلور ، مرجع سابق ، ص ٥١٣ .

(٤٧) د. أحمد زايد و د. اعتماد علام، التغير الاجتماعى ، ط٢ ، مكتبة الأنجلو المصـــرية ، القاهرة ، ٢٠٠٠ ، ص ٩٧.

(٤٨) د. فوزى عبدالرحمن ، وزميله ، دراسات فـــى الأنثروبولوجيـــا الثقافيـــة ، مؤسســـة الأهرام ، القاهرة ، ١٩٩٩ ، ص ١٥٥.

الفصل الحادى عشر

الدور التربوى للألعاب الشعبية

الدور التربوى للألعاب الشعبية

هــل من إحياء له؟

دكتور على محمد المكاوى (*)

مقدمـــة :

تعد الألعاب الشعبية جزءاً أساسياً من التراث الشعبى لأى مجتمع . فهى نتاج للتكويـن الثقافى ، وطبيعة البيئة الاجتماعية ، وصدى لعناصر البيئة الطبيعية ، وانعكاس لطبيعة النشـاط الاقتصادى السائد . والألعاب الشعبية إحدى الوسائل التربوية التى تغرس القيم وتنمى القـدرات وتلبى الاحتياجات التربوية لجميع الفئات العمرية . وعلى هذا ، فهى تحتوى على العديد مـن المضامين التربوية الهادفة ، والتى تساعد على خلق الجو الصحى النفسى الملائم.

ورغم أن الألعاب الشعبية تختلف من مجتمع لآخر ، تبعاً لاختـلاف البيئـة والثقافـة والسياقات التاريخية ، إلا أنها تتفق فى الهدف وهو تهيئة الإنسان – فى كـل مراحـل حياتـه العمرية – لأن يمارس حياته الطبيعية فى المجتمع . فهى تتنوع لتغطى المتطلبـات التربويـة للطفل ، وتتدرج لتشمل كل الفئات العمرية ، فكل فئة منها ألعـاب تناسـب السـن والقـدرات الذهنية والجسمية .

لقد طرأت تغيرات سريعة – فى ظل التحديث – أدت إلى وجود بيئات جديدة لم تعـد تصلح لممارسة الألعاب الشعبية ، وظهرت بدائل تكنولوجية جديدة أكثر جذباً للأطفال والشباب مما يهدد بقاء هذه الألعاب الشعبية ، والأدوار الحيوية التى كانت تؤديها.

وفى ضوء ذلك نتناول الموضوعات التالية :

أولاً : الألعاب الشعبية مرآة للمجتمع والثقافة.

ثانياً : خصائص الألعاب الشعبية .

ثالثاً : تصنيف الألعاب الشعبية .

رابعاً : وظائف الألعاب الشعبية فى حياة المجتمع.

خامساً : أهم الألعاب الشعبية المصرية .

سادساً : الألعاب الشعبية والتحديث.

(*) أستاذ علم الاجتماع والأنثروبولوجيا بكلية الآداب جامعة القاهرة .

أولاً : الألعاب الشعبية مرآة للمجتمع والثقافة :

الثقافة نسق من الرموز المشتركة بين الجماعات الإنسانية ، تنتقل جيلاً بعد جيل وبالتالى فهى خريطة عقلية تساعد على خلق علاقات سوية مع الناس والأشياء . والإنسان فى تفاعله مع الآخرين ، يحاول أن يوفق بين مطالبه الشخصية وواجباته الاجتماعية . والشخصية السوية هى التى تتوافق مع الرغبات والبيئة والثقافة ، من خلال العادات والتقاليد والهوايات والعلاقات الاجتماعية . وعلى هذا تكون الشخصية مرآة عاكسة لطبيعة الخبرة والبيئة والثقافة(١) .

ويعد اللعب أحد قنوات نقل الثقافة ، وإكساب القيم والخبرات والأنماط السلوكية التى تعبر عن قيم الجماعة . واللعب مطلب إنسانى يحتاجه الصغير والكبير وإن اختلفت الألعاب ، إلا أنها فى النهاية تشبع الحاجات الاجتماعية والثقافية والبدنية والنفسية للفرد. والإنسان يكون إنساناً حين يلعب (٢).

واللعب يحكمه دائماً مبدأ الترويح عن النفس ، وخاصة اللعب الجماعى ، حيث يعد أول مظهر طبيعى لحب الاختلاط بالناس ، كما يتضمن بُعداً تمثيلياً ، حيث يتحرر الخيال من قيود الواقع ، ويعمل على التوازن فى الحياة ، من خلال تجديد النشاط ، وكسر روتين الحياة اليومية . وتتسم الألعاب الشعبية بالبساطة والتلقائية ، علاوة على أن أدوات اللعب ، تصنع عادة من خامات البيئة المحلية فى الريف والبادية والحضر . وتصاحب الأغانى والإيقاعات ، الألعاب الشعبية فتزيد من الوحدة والترابط بين المشتركين فى اللعب ، وتحقق لهم الإشباع النفسى والاجتماعى.

أضف إلى ذلك أن اللعب يشكل أحد المواقف المتكررة فى حياة الطفل ، التى يكتسب من خلالها الكثير من القيم والعادات والآداب ، فهو يتعلم كيف يأخذ ويعطى ، كيف يقود وينقاد ، كيف يعبر عن شعوره فى حالتى الفوز والهزيمة ، كيف ينمى مهاراته العقلية والبدنية، كيف يشبع استعداداته النفسية . وبالتالى يتأكد لنا عمق العلاقة الوثيقة بين الألعاب الشعبية والثقافة والمجتمع .

ثانيا : خصائص الألعاب الشعبية :

تتسم الألعاب الشعبية بالبساطة والتلقائية ، وتحكمها قوانين بسيطة ، وأدواتـــها تعتمـد على المعطيات المحلية للبيئة ، علاوة على ارتباطها بأغانى الأطفال حيث يلعب الإيقاع الـدور الحاسم فيها (٣) . **وهناك مجموعة من الخصائص تميزها وهى :**

١-تمتاز بالطابع الجماعى ، وتعتمد على المشاركة والألفة .

٢-تساعد على نمو الشخصية والقدرة . (٤)

٣-انتقالها وتوارثها جيلا بعد جيل على مدار الزمن.

٤-تنبثق عن الروح الشعبية والبيئة ، وتدل على الابتكار والنقل والتفاعل مع أوجـــه النشاط الإنسانى أينما كان.

ثالثا : تصنيف الألعاب الشعبية :

حاول الباحثون تصنيف الألعاب الشعبية حسب معايير مختلفة منها السن ، والنـــوع ، والعدد المشارك فى اللعبة ، والوظيفة التى تؤديها فى التنشئة الاجتماعية . وفيما يلى عـــرض موجز لها :

١-تصنيف محمد عمران وفيه يقسمها إلى أربعة أقسام رئيسية وهى ألعـــاب عامــة (مثـل ياوابور يا مولع ، والغراب النوحى ، ويا طالع الشجرة ، وهنـــا مقــص) ويحــدد فيـــها الأغانى الشعبية المصاحبة موضحة بالتدوين الموسيقى طريقة الأداء الموسيقية للنصـــوص الشعرية(٥) . والقسم الثانى يختص بألعاب الكرة (ومنها أباليه ، وواحد اتنيـــن تلاتـــة) ، ويضم القسم الثالث ألعاب القرعة (مثل كلوا بامية ، حادى بادى) . أمـــا القســم الرابـــع فيشير إلى ألعاب المناسبات (مثل شم النسيم : الألمبى ، وعاشـــوراء : عيــدى عيــدى ، ورمضان : حالو يا حالو).

٢-تصنيف وهيب لبيب ، وهو يستعرض خمسة أنماط من الألعاب فى ضـــوء دورهـــا فـــى تنشئة الطفل المصرى ، ويعرض النمط **الأول** لألعاب التفكير والتوقع وحســن التصـــرف وتنمية الحواس (ومنها السيجة ، الحجر الدائر ، والكوتشينة) (٦) . ويشير النمـــط **الثـــانى** إلى ألعاب التأقلم مع البيئة وحيواناتها ووسائل النقل (ومن ذلك الثعلب فات ، وعم عنكـب شد واركب ،وأنا الغراب النوحى) . ويحوى النمط **الثالث** ألعاب اللياقة البدنيـــة وتنميـــة

روح الفريق والسباق (ومنها الاستغماية ،واللطة، ونطة الإنجليز ، ونط الحبل ، وكرة القدم ، والحكشة [الهوكى حديثاً]) . ويتمثل النمط الرابع فى ألعاب الإعداد للأدوار والانتماء والترابط الاجتماعي والمناسبات (مثل لعبة العروسة ، والمراجيح ، والفوانيس فى رمضان) . ويضم النمط الخامس ألعاب تنمية القدرات والمهارات اليدوية (ومن ذلك الصيد بالنبلة والضريب أو البلى، والألعاب الورقية كالطائرة ، والمركب ، والدبور والأراجوز) (٧) .

٣-تصنيف فاطمة القلينى للألعاب الشعبية والألعاب المستحدثة فى ضوء دورها الوظيفى وما يناسب كل مرحلة عمرية ، وأول أنماطها هو الألعاب التلقائية التى تغيب فيها القواعد ونظم اللعب ومنها الألعاب الاستكشافية التى يتعرف فيها الطفل على أعضاء جسده والنمط الثانى هو ألعاب القيام بالدور (مثل لعبة العروسة للبنت، والحصان والسلاح للولد). ويشير النمط الثالث إلى الألعاب التركيبية Construction games والمستحدثة التى تقوم على الفك والتركيب مثل الميكانو و Puzzle ويحوى النمط الرابع الألعاب الفنية التى يعبر فيها الأطفال عن الحيوانات والأشجار والمنازل والبيئة. والنمط الخامس يتضمن الألعاب الرياضية والترويحية (ومنها ألعاب الأم Mother game وألعاب الاستغماية ،والثعلب فات وهى نمط جماعى (٨) .ويشتمل النمط السادس على الألعاب الثقافية التى يكتسب منها الطفل قيم التعاون والقيادة والتفاعل الاجتماعى (مثل شد الحبل وكرة القدم) . ويأتى النمط السابع ليشمل الألعاب الإليكترونية المستحدثة (مثل الأتارى ، والتليفزيون ، والفيديو . وهى ألعاب وافدة ، تنتشر على حساب الألعاب الشعبية المصرية وتنطوى على مخاطر واضحة تهدد الشخصية والثقافة والقيم .

رابعاً : وظائف الألعاب الشعبية فى حياة المجتمع :

ينخرط الأطفال فى علاقات وتفاعلات مع الكبار – خلال مواقف الحياة اليومية – فيقلدونهم فى سلوكهم ، ويكتسبون منهم القيم والمعايير . وعلى هذا يبرز دور الألعاب الشعبية فى عمليات التنشئة الاجتماعية ، كما تصبح ضرورة لتكوين الشخصية الناضجة، التى تمثلت القيم والمعايير والعادات والتقاليد . ومن المعروف أنها تختلف باختلاف المراحل العمرية ، والقدرات الغالبة على كل مرحلة (٩) . وتتحدد أهم الوظائف التى تؤديها تلك الألعاب ، فيما يلى:

١-اللعب نشاط ترويحى Recreation activity ، خاصة فى المرحلـــة العمريـــة ٦-١٢ سنة، حيث الانضمام إلى جماعة وممارسة الألعاب معها ، لتحقيق السعادة والبهجة. وهـذا ينعكس فى النهاية على الجوانب البدنية والنفسية والاجتماعية والعقلية للفرد.

٢- اللعب يغرس القيم الاجتماعية فى الشخصية منذ النشأة ، فهو يحقق التفاعل الاجتمـاعى ، والتعاون والترابط من خلال الجماعة . فالحب والأمومة (فى لعبة العروسة) ، والشجاعة والمواجهة (السباحة والملابطة [المصارعة]) ، وقيم الأمانـــة والصـــدق (فـــى لعبـــة الاستغماية) ، والحرية والتعاون (فى لعبة اللطة) ، والانضباط والنظام والســـلطة (فـــى لعبة عسكر وحرامية) ،و دور الأم وحنانها فى حماية الصغار (فى لعبـــة أنـــا الغـــراب النوحى) [١٠].

٣-تحقيق النضج الاجتماعى للشخصية من خلال مشاركة الآخرين فـــى اللعـــب ، وتقاســـم الخبرة والأدوار والالتزامات والمسئوليات والتدريب على مـــهارات الأخـــذ والعطـــاء ، والانتماء للجماعة ، واكتساب مكانة مقبولة بينها . ويعطى اللعب الحر الفرصـــة للفـــرد للقيام باتصالات اجتماعية – نادراً ما تحدث فى المنزل أو المدرسة – تساعد على تنميـــة علاقاته بالأسرة والمجتمع .

٤-الألعاب الشعبية جسر للتواصل بين الأجيال ، تربط الماضى بالحاضر ، وتحـــافظ علـــى استمرارية التراث الشعبى ، وتؤكد على قيمته ووظيفته الاجتماعية . كمـــا أنـــها تعكـــس معطيات البيئة من الأدوات المستخدمة ، والحيوانات والنباتـــات والأمـــاكن التـــى تـــرد بالنصوص الغنائية . ومن ذلك لعبة نط الحبل التى تشترط على اللاعب أن يذكـــر اســـم نبات أو حيوان أو مكان أو فاكهة ، فى أثناء الوثب حسب الاتفاق قبل اللعب .

٥-الألعاب الشعبية تساعد الطفل على التعبير عن انفعالاتـــه ، فيســـتخدم اللعـــب الخيـــالى والتقليدى كمتنفس للقلق والتوتر ، وتفريغ رغباته المكبوتة ، ونزعاته العدوانيـــة . وفـــى اللعب يقوم الأطفال بحل مشكلاتهم وخلافاتهم بأنفسهم ، بعيدا عن تحكم الكبـــار . وتعمـــل الألعاب أيضا على التسامى بالغرائز ، وتحقيق التوازن والانسجام النفسى أثناء اللعب .

٦-ينمى اللعب الجهاز العضلى والدورى والتنفسى والهضمى ، فتقوم هذه الأجهزة بدورهـــا على أكمل وجه ، وتتولى تدريب الفرد وإعداده لحياته المستقبلية . فـــالعقل الســـليم فـــى الجسم السليم . وعلى هذا تزداد اللياقة البدنية مثل التحمل والقـــوة والســـرعة والتـــوازن والمرونة والتوافق العضلى العصبى [١١].

خامسا : أهم الألعاب الشعبية المصرية :

تتعدد الألعاب الشعبية وتتعدد معها الوظائف التى تؤديها . ونتناول فى هذه الفقرة أربعة أنماط من هذه الألعاب وأمثلة توضيحية على كل منها فيما يلى :

١- ألعاب التفكير والتوقع وحسن التصرف : لعبة السيجة ، ولعبة الحجر الدائر.

٢- ألعاب اللياقة وتنمية روح الفريق ومنها لعبة الاستغماية ، ولعبة شبر وشبرين، وكرة القدم والحكشة (الهوكى).

٣- ألعاب أداء الدور والترابط الاجتماعى والانتماء ومنها لعبة العروسة ، ولعبة عسكر وحرامية.

٤- ألعاب تنمية القدرات والإبداع ، ومنها لعبة الضريب أو النيكل أو البلى ، والألعاب الورقية كالمركب والأراجوز .

١-ألعاب التفكير والتوقع وحسن التصرف :

وهى تساهم فى تنمية القدرات العقلية والتدريب على التفكير السليم ومنها :

أ- لعبة السيجة : وهى لعبة شعبية هادفة يمارسها الأطفال والكبار فى معظم المناطق الثقافية فى مصر، وتعمل على تنمية التفكير وحسن التصرف . وهى عبارة عن مربع يرسم على الأرض بالطباشير أو بأصابع اليد على التراب أو الرمال فى الشارع ، ويقسم إلى تسعة مربعات صغيرة بواسطة خطين رأسيين وآخرين أفقيين على الأرض. ويطلق على كل مربع صغير (بيت) . ويخصص لكل لاعب ثلاث قطع من الحجارة أو الزلط أو ما يسود البيئة ، بحيث تتوحد القطع للاعب الواحد ، وتختلف عن قطع اللاعب الآخر . يجلس اللاعبان متقابلين وبينهما السيجة (الملعب) . ويضع كل منهما أدوات اللعب الثلاث فى المربعات الأفقية أمامه . ثم تجرى القرعة لتحديد من سيبدأ اللعب . ثم يبدأ البادئ بنقل قطعة من قطعه الثلاث إلى أى مربع من المربعات الخالية، وفى أى اتجاه بشرط ألا يحركها لأكثر من مربع فى المرة الواحدة . ثم يلعب اللاعب الآخر بنفس النظام . ويتبادل اللاعبان اللعب إلى أن يتمكن أحدهما من تحريك قطعه الثلاث لتصبح على استقامة واحدة فى خط رأسى أو أفقى أو مائل ، وهنا يفوز بنقطة. ثم تبدأ اللعبة من جديد.

ب- **لعبة الحجر الدائر** : وهى لعبة يشترك فيها الأطفال من الذكور والإناث حتى سن الخامسة عشر . وتبدأ اللعبة بإجراء القرعة بين المشتركين - الذين يتراوح عددهم بين ٢٠- ٢٥ لاعبا ولاعبة، والأخير يكون " اللاعب الحائر ". ويجلس اللاعبون جلوس تربيع على الأرض في شكل دائرة ، ويدير " اللاعب الحائر " ظهره للاعبين خارج الدائرة . يتبادل اللاعبون ضرب الحجر بينهم على الأرض ، وعند توقفهم بعد ضربه على الأرض مباشرة يسألون " اللاعب الحائر " عن مكان الحجر . فإذا نجح فى تحديد مكانه يتبادل الأدوار مع اللاعب الذى معه الحجر ، وإذا فشل تستمر اللعبة إلى أن يتعرف على مكان الحجر . وهذا يستلزم حاسة سمع قوية تميز مكان الحجر بناء على درجة الصوت الصادر عن ارتطامه بالأرض ، مما ينمى الحواس [١٢].

٢- **ألعاب اللياقة وتنمية روح الفريق** وهى ألعاب تعتمد على المطاردة الفردية أو الجماعية وتغرس قيم الأمانة والصدق والنجدة وروح الفريق . ومنها الاستغماية ، وشبر وشبرين ، وكرة القدم ، والسبع شقفات (طوبات) ، والحكشة (الهوكى).

أ- **الاستغماية** : يقوم أحد اللاعبين بتعصيب عينيه بقطعة قماش ويدير وجهه للحائط أو شجرة أو مكان بداية اللعب . وتبدأ اللعبة بعمل قرعة لتحديد المساك ، ثم يتحدد مكان "الأمة " التى سيوضع فيها الممسوك . ويشترك فيها عدد يتراوح ما بين ١٠- ١٥ طفلا وطفلة ما بين سن ٩- ١٣ سنة . يأخذ المساك مكانه على الأمة ، وهو مغمض أو معصوب العينين ، وينتشر باقى الأطفال فى الأماكن الملائمة للاختفاء عن المساك. وعندما يسمع كلمة " خلاص " يبدأ فى البحث عن زملائه ، وعندما يرى أيا منهم يكفى أن يقول مثلا فلان خلف الشجرة فيخرج ، وفى أثناء بحثه ، يحاول آخرون الخروج من أماكنهم دون أن يراهم للوصول إلى الأمة منطقة الأمان ، قبل أن يمسكهم المساك وبذلك ينجوا منه . وحينما ينجح المساك فى القبض على واحد من اللاعبين ، يتم تبادل الأدوار بينهما ، وتبدأ اللعبة من جديد .

ب- **لعبة شبر وشبرين** : ويمارسها الأطفال من الجنسين من ٩- ١٢ سنة، وتؤدى فى أى مكان خال يستطيع الأطفال ممارسة اللعب فيه . تجرى القرعة بين اللاعبين (حوالى ١٥) ، والطفلان الأخيران فى القرعة ، هما اللذان يمثلان الحاجز أو العارضة التى سيثب اللاعبون فوقها ، فيجلسان وجها لوجه على الأرض ، ويضع كل منهما

كف اليد اليمنى مفتوحة (شبر) فوق الأخرى لزيادة الارتفاع . ويبدأ قطـار اللاعبيـن بالجرى للأمام والوثب فوق أيدى اللاعبين الجالسين (الشبرين) . وفـى حالـة نجـاح الطفل فى الوثب يستمر اللعب ، وإذا فشل طفل فإنه يستبعد من المحاولـة . وتسـتمر اللعبة بزيادة الارتفاع بوضع الأيادى الأربع بالتبادل فوق بعضها ، ولزيادة الصعوبـة يضعان قدميهما بالتبادل تحت أيديهما . وبزيادة الارتفاع يفوز اللاعب الذى نجح فـى الوثب وتجاوز الحاجز دون أن يمسه . وتعاد اللعبة من جديد بتغيير الطفلين الجالسين.

ج- **كرة القدم** : وهى المادة الأساسية للألعاب الشـعبية ، يمارسـها الأطفـال والشـباب والكبار فى الريف والحضر . ويرجع تاريخها إلى دخول كرة القدم إلى مصر ، ولكـن بدلا من الكرة المصنوعة من الجلد الثمين ، كانت الكرة مصنوعة من الجوارب القديمـة محشوة بعدد من الأقمشة البالية أيضا . وتمارس اللعبة فى الشوارع والأزقة والميـادين وتحكمها قواعد مخففة تتناسب مع ممارسيها (١٣).

د- **لعبة السبع شقفات (طوبات)** : لعبة تنمى القدرة على الرماية وإصابة الهدف ، وتعتمـد على كرة شراب ، و سبع شقفات أو طوبات من البلاط توضع فوق بعضـها، وبعدهـا بثمانى خطوات (٨ م) يرسم خط على الأرض يسمى " خط البداية ". ينقسم اللاعبـون إلى فريقين كل فريق من ٤- ٦ لاعبين ، وتجرى القرعة لتحديد الفريق الـذى سـيبدأ اللعب . وهنا يقف الفائز بالقرعة خلف خط البداية ويتبادل أفراد الفريق تصويب الكـرة نحو الشقفات وبعثرتها . فإذا نجح أحدهم فى ذلك ، ينتشر باقى الفريـق فـى الملعـب ويقوم لاعبو الفريق الثانى بتفريق الشقفات عن بعضها ، لعرقلـة الفريـق الأول عـن إعادتها فوق بعضها - كما كانت فى بداية اللعب - وإصابة أحد لاعبيه بالكرة ، وهنـا يخرج من الملعب فينقص فريقه لاعبا . ولكن إذا نجح فى التقاط الكرة فلـه الحـق أن يقذفها بعيدا قدر المستطاع ، حتى يتمكن فريقه من ترتيب الشـقفات فـوق بعضـها ، فتحسب له نقطة ، ويبدأ اللعب من جديد وتنمى هذه اللعبة روح الفريق واللياقة البدنيـة، والقدرة على الرماية وإصابة الهدف ، والتعاون .

هـ- **لعبة الحكشة (الهوكى)** : وهى لعبة مصرية صميمة ، وهى الأساس الذى اعتمـدت عليه لعبة الهوكى من حيث الشكل والقواعد والأدوات ، مع مراعاة التغيرات الجديـدة وظروف العصر . فالكرة المصنوعة من ليف النخيل فى الحكشة صارت تصنـع فـى

الهوكى من الجلد المضغوط ، والمضارب الجريد ، صارت من الخشب المنتهى بتقوس مفلطح وبطول متر تقريبا . تضم اللعبة فريقين ، يتكون كل فريق من عشـــر لاعبيــن وعريف للجوء إليه أثناء الخلافات التى تحدث فى الملعب . ويتراوح سن اللاعبين بيــن ٩- ١٤ سنة ، ويختارون حكما لإدارة المباراة . والملعب عبارة عن مستطيل يقســـمه خط عرضى إلى قسمين متساويين ، وفى منتصفه دائرة توضع الكرة فوقها والمرمـــى فى منتصف الخط الخلفى للفريقين. وتبدأ المباراة بالقرعة لتحديد الفريق البادئ بـــاللعب، وعندما يعطى الحكم إشارة البدء ، يأخذ كل لاعب مكانه فى الملعب ، وتكـــون الكـــرة بين رئيسى الفريقين بمنتصف الملعب ، وعندئذ يضرب كل منهما عصاه بعصا زميلـــه بالأرض ثلاث ضربات ، ثم يحاول كل منهما ضرب الكرة وتمريرهـــا إلـــى زملائـــه الذين يحاولون تصويبها نحو مرمى الخصم لإصابة الهدف . وعند إحراز هدف ، يبـــدأ اللعب من جديد بوضع الكرة فى منتصف الملعب. وتستمر المباراة شوطين ، مدة كـــل منهما نصف ساعة . والفريق الذى يحرز أكبر عدد من الأهداف يعد فائزا عند انتـــهاء وقت المباراة . والجدير بالذكر أن فريق محافظة الشرقية للهوكى ، قد مثل مصر فـــى بطولات دولية متعددة ، كما أنه ظل بطلا لأفريقيا لمدة عشر سنوات متوالية ، لإجادتـــه لعبة الحكشة التقليدية (الهوكى الحديثة) . ألا يدل ذلك على أن الاهتمام بالتراث يســـاعد على التقدم والتفوق ، وينمى روح الجماعة ، ويكسب الأفراد القيم الاجتماعية كالتعـــاون والتضحية ، ألا يعنى ضياع هذه الألعاب الشعبية أمام الألعاب المستحدثة ، ضياع القيـــم الأصيلة ، وانحسار التنشئة الاجتماعية النبيلة ؟

٣- ألعاب أداء الدور والترابط الاجتماعى والانتماء :

وهى ألعاب تشكل مستقبل الشخصية ، وتدعم الترابط الاجتماعى ، وتعد الطفل مبكـــرا لفهم قواعد أداء الدور الذى سيمارسه فى المستقبل . ومن ذلك لعبة العروسة ، ولعبة عســـكر وحرامية.

أ- **لعبة العروسة** . وهى لعبة محلية قومية وعالمية ، تعتمد على التقليد والمحاكاة الفرديـــة فى مرحلة الطفولة المبكرة لدى البنات من سن ٦- ١٢ تصنع البنت عروستها بنفســـها أو تصنعها لها أمها ، من الخامات المحلية كالقطن والقماش ، وتأخذ شكلا مســـطحا ، والوجه مستطيل الشكل أو دائرى ، واليدان جانبان ، والرجلان متبـــاعدان ، والشـــعر

عبارة عن صوف تريكو ، أو شعر طبيعى مقصوص يلصق علـــى الــرأس ، ويحـــدد الوجه برسم العيون والأنف والفم بـــالحبر أو بـــالقلم الرصـــاص . وتعـــامل الطفلـــة عروستها، كما تتعامل الأم مع طفلتها ، فهى تضعها على حجرها وتهننها ، وتضعـــــها فى فراشها لتنام ، ثم توقظها من النوم ، وتغسل لها وجهها ، وتمشط شـــعرها وتغـــير ملابسها وتعدها للذهاب إلى المدرسة. وبعد فترة تسألها عن يومها الدراسى ، وتطلـــب منها أداء واجباتها المدرسية ، ثم تلاعبها أو توبخها إذا لزم الأمر . إنـــها إذن تحـــاكى معاملة الكبار للصغار ، تتدرب على القيام بدور الأم . غير أن التغير طرأ على هـــذه اللعبة فصارت من البلاستيك ، وتصدر عنها أصوات الضحك والبكاء ، والحركة مـــن خلال الشرائط المسجلة والبطاريات الكهربائية ، كما صارت فى متناول القادرين فقط

ب- لعبة عسكر وحرامية : وهى لعبة تعبر عن طبيعة التعامل بين الســـلطة والخـــارجين على القانون ، من حيث ضبطهم وإيداعهم السجن . ويمارس اللعبة أطفال من الذكـــور بين سن ٩- ١٢ سنة ، وفى الليل تمشيا مع السياق الاجتماعى فـــالضبط يكـــون ليـــلا للإمساك بالمخالف . وينقسم اللاعبون إلى فريقين ، قوام كل منهما من ٦- ٨ أفـــراد ، أحدهما يمثل فريق العسكر ، والثانى يمثل فريق اللصوص . وهى لعبـــة تعكـــس مـــا يتعرض له المجتمع من مخاطر تهدد أمنه . وبالتالى فاللعبـــة تســـاعد علـــى الضبـــط الاجتماعى ، وترسيخ قيم الأمانة والصدق ، واحترام القانون ، ولذلك يستنكف الأطفـــال القيام بدور اللص على الرغم من أنهم يلعبون [١٤] . تجـــرى القرعـــة لتحديـــد فريـــق العسكر ، وفريق الحرامية . ويتحدد مكان الأمة (الأمـــان) ، وبعدهـــا ينتشـــر فريـــق الحرامية، وعندما يسمع فريق العسكر كلمة " خلاص " يبدأ بالإمساك باللصوص وكلمـــا قبض عسكرى على حرامى ، أودعه فى " الامة " ووقف يحرســـه حتـــى لا يـــهرب . وتنتهى اللعبة بالقبض على جميع اللصوص .

٤- ألعاب تنمية القدرات والابداع :

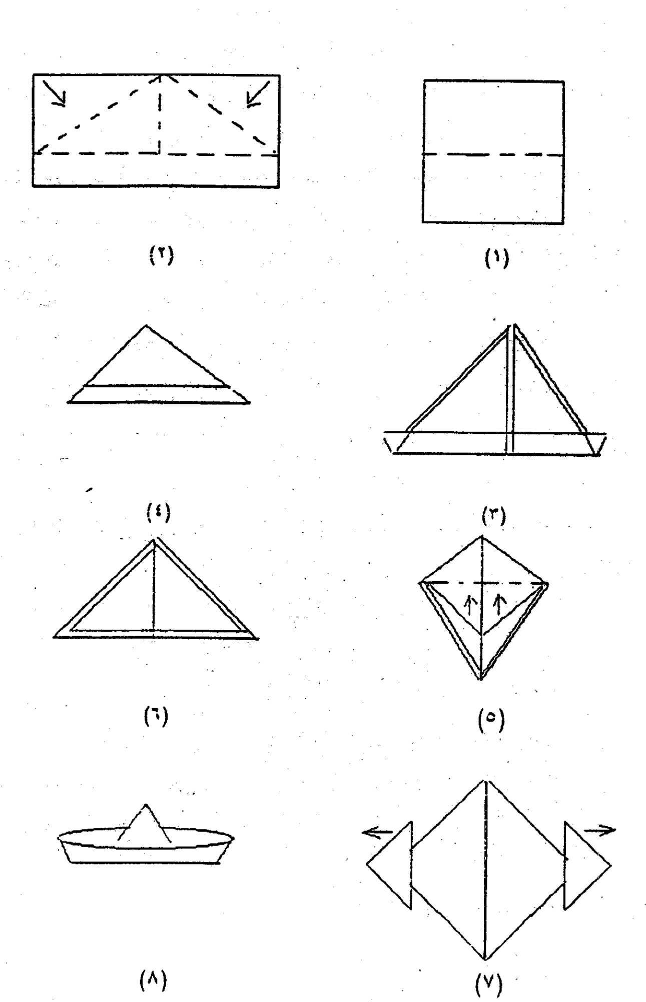
: هى ألعاب فردية وجماعية ، تنمى قدرات الاطفال فى الرماية ، والمهارات اليدويـــة. وتستخدم خامات البيئة فى اللعب ، ومنها الضرب (النبكل - البلى) ، والألعاب الورقية

أ- **لعبة الضرب أو النبكل** وهى من ألعاب الرماية ، وأدواتها عبارة عن كرة من النبكل " تلبه " كبيرة الحجم ، ومجموعة من البلى الزجاجى الصغير . والملعب عبـــارة عـــن

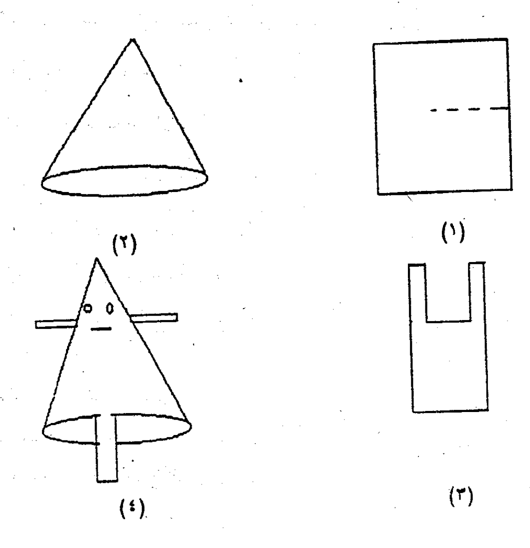
مثلث متساوى الساقين ، أو دائرة مرسومة على الأرض ، ويقع خط البداية على مسافة ستة أمتار منها . ويوضع البلى داخل الدائرة أو على رأس المثلث . وتبدأ اللعبة بإجراء القرعة بين رئيسى الفريقين لتحديد الفريق البادئ ، الذى يقف هو ورئيسه خلف خط البداية . ويبدأ التصويب على البلى فإذا أصاب الرئيس الهدف ، استمر فى اللعب، وإذا فشل يقوم أحد أفراد فريقه بالتصويب ، وتستمر اللعبة حتى آخر فرد من الفريق. وفى حالة فوزه يأخذ جميع البلى الذى فاز به ، وإذا فشل ، فإنه يتبادل اللعب مع الفريق الآخر . والفريق الذى ينهى اللعبة لصالحه تحتسب له نقاط بعدد ما فاز به ، وتبدأ اللعبة من جديد . وتقتصر هذه اللعبة على البنين فى سن ٩- ١٢ سنة . وهى لعبة تنمى التوافق العضلى العصبى ، ومهارة القدرة على التصويب ، واكتساب قيمة الأمانة، وتدعم العلاقات الاجتماعية بين الأطفال ، وتدربهم على أن الحياة مكسب وخسارة ، والتحلى بالروح الرياضية فى مواجهة الفشل ، والسعى لتحويله إلى نجاح[١٥] .

ب- **الألعاب الورقية** : وهى ألعاب إبداعية يزاولها الأطفال من سن ٩- ١٢ سنة ، وحتى الكبار ، وتعبر عن قدراتهم الإبداعية والتشكيلية ، ويعتمدون فيها على خامات البيئة من الورق والخيط ، والبوص والجريد ، فتقل تكلفتها وتحقق أغراضها الترويحية والإبداعية .و من هذه الألعاب المركب والأراجوز .

أما المركب : فهو ورقة مستطيلة الشكل تنصف نصفين ، ويثنى طرفاها العلويان للداخل على شكل مثلث . تثنى القاعدة السفلى لأعلى داخل المثلثين مع وضع طرفيها للداخل ويقلب الشكل من المنتصف للوصول إلى شكل المربع ، مع ثنى الطرفين الأمامى والخلفى لأعلى . ثم يفتح المثلث مع شد الطرفين فيصير مركبا ، والرسم يوضح ذلك .


(٢)
(١)
(٤)
(٣)
(٦)
(٥)
(٨)
(٧)

الأراجوز : وهو لعبة من الورق يمارسها الأطفال من الجنسين من سن ٩- ١٤ سنة ، يقلدون فيها الآخرين ، للتنفيس عما يعانون منه من ضغط الكبار عليهم . واللعبة أحد فنون العرض الشعبية ويشبه مسرح العرائس . والأراجوز عبارة عن قرطاس من الورق وله فتحتان من أعلى ، والورقة الثانية ، يتم ثنيها من كلا الطرفين الجانبيين بالطول حتى منتصفها ، فيتلاقى النصفان مع بعضهما فى المنتصف ، ويقطع من أعلى إلى أسفل حتى تتكون اليدان ، فتوضعان داخل القرطاس ، لإخراج الجزءين المقطوعين من فتحتيه [٦٦] . وبذلك نحصل على الشكل النهائى حسب الرسم.



سادسا : الألعاب الشعبية والتغير :

إن الألعاب الشعبية – شأنها شأن عناصر الثقافة التقليدية الأخرى – لم يعد يمارسـها أو يقبل عليها الأطفال والشباب ، وهجروها إلى ألعاب لا صلة لها بثقافة المجتمـع ، بسـبب عديد من العوامل منها[١٧]:

١- التغيرات الاقتصادية والاجتماعية التى اجتاحت الكثير من المجتمعات التقليديـة ، وما ترتب على ذلك من تبنى أنماط حياتية جديدة ذات طابع عصرى.

٢- وجود الوسائل التكنولوجية التى أغنت الفرد – والطفل على وجه الخصـوص – عن كثير من تلك الأنشطة . فالطفل لا يجد فكاكا من جهاز التليفزيون ، والألعاب المنزلية المصنوعة لكى يمارس ألعابا أخرى مع أقرانه فى الخارج .

٣- إن اللعب خارج المنزل لم يعد مقبولا لدى الآباء والأمهات .

٤- اختفاء ميادين ممارسة بعض الألعاب الشعبية.

٥- صعوبة ممارسة بعض الألعاب – من الناحية العملية – فى البيئة الجديدة.

لقد طرأت تغيرات عديدة على المجتمع والثقافة ، مع بدايـة السـبعينيات ، فصـارت الألعاب مغايرة لألعابنا الشـعبية ، وأصبـح الأطفـال بـلا طفولـة Children without childhood وكان من نتيجة التحديث ، انحسار ألعاب شعبية ، وانحسار مجموعات من القيـم والمعايير معها ، وبالتالى ضعفت أقوى المؤثرات والوسائل التربوية للطفـل وهـى الألعـاب الشعبية ، فأصبح نهبا لألعاب تعزله عن المجتمع ، وتدربه على العنف ، وتقنعه بأن القوة هـى المعيار الوحيد للتفاعل الاجتماعى . أضف إلى هذا ما اعترى النظم المدرسية التربويـة مـن ضعف وتخاذل عن دورها التربوى ، فكانت المحصلة عبارة عـن شـخصيات بـلا هويـة ، وأشخاص بلا جذور.

ومن هنا تجب الإشارة إلى ما جناه التحديث على الألعاب الشعبية ، والدعـوة بالتـالى إلى إحيائها وتفعيل دورها التربوى . ولن نقدر أهمية هذه الدعوة إلا إذا وقفنا على المخـاطر التى جلبها التحديث ومن أبرزها :

١- انتشار النزعة الاستهلاكية ، وتقلص وقت الفراغ ، والتقوقع حول الذات.

٢- تبديد معظم الوقت أمام التليفزيون ، والفيديو ، حتى ضعفـت المشـاركة فـى الألعـاب

الشعبية القديمة بين الكبار والصغار [١٨].

٣-الاعتماد على الألعاب الفردية الجاهزة ، مما قضى على صناعة الأطفال لألعابهم بأيديهم.

٤-كانت الألعاب الشعبية القديمة تعزز روح المشاركة والألفة والتعاون ، ومع الألعاب الحديثة صارت علاقة الطفل باللعب الحديثة باردة ، وتدفعه إلى الملل ، فيحطمها أو يتلفها .

٥-كانت الألعاب الشعبية تساعد الأطفال على تكوين شخصياتهم ونمو أجسامهم، وضبط تصرفاتهم وسلوكهم ، وكانت إحدى ميكانيزمات الضبط الاجتماعى ، والاستفادة من الجماعة كوسيلة لتشكيل السلوك الصحيح ، وتقويم السلوك المعوج.

٦-برزت الألعاب الحديثة غالية الثمن ، فظهرت معها الأعباء الاقتصادية على الأسر لتوفيرها للطفل ، كما اتضحت الفروق الطبقية الصارخة في هذا المجال.

٧-زيادة الآثار النفسية على الأطفال ، وإضعاف حاسة الاتزان الفسيولوجى للطفل ، وإضعاف حاسة البصر ، وفقدان اللياقة البدنية من جراء التركيز على التليفزيون والفيديو[١٩].

٨-عزلة الطفل وضعف انتمائه للمجتمع ، وتدريبه على العنف ، وتعليمه التدخين وتعاطى المخدرات ، وانخفاض مستوى التحصيل الدراسى ، وانعدام ممارسة الهوايات . هذا على عكس الألعاب الشعبية التى تنمى روح الجماعة ، والخلق والإبداع ، ومنح الثقة بالذات ، والقدرة على التعامل مع الآخرين . وفى النهاية تقوى الشعور بالـــ " نحن " وتشعر الأطفال بالانتماء الأسرى للمجتمع الصغير (الحى) ، وتعدهم للتعامل مع المجتمع الكبير (الوطن).

أهم المراجع

(١) وهيب محمد لبيب ، الألعاب الشعبية ودورها فى تنشئة الطفل فى المرحلة السنية من ٦-١٢ سنة ببعض قرى محافظة الشرقية ، رسالة دكتوراه (غير منشورة) ، المعهد العالى للفنون الشعبية ، أكاديمية الفنون ، القاهرة ، ١٩٩٨ ، ص١.

(٢) سوزانا ميلر ، سيكولوجية اللعب ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد ١٢٠ ، المجلس الوطنى للثقافة، الكويت ، ديسمبر ١٩٨٧ ، ص ٥.

(٣) د. محمد الجوهرى ، الطفل فى التراث الشعبى ، مجلة عالم الفكر ، المجلد العاشر . العدد الثالث ، المجلس الوطنى للثقافة ، الكويت ، ١٩٧٩ ، ص ٤٥.

(٤) رضوان الشيخ محمد ، الألعاب الشعبية فى الجولان بسوريا ، مجلة المأثورات الشعبية العدد ٣٢ ، مركز التراث الشعبى ، الدوحة ، أبريل ١٩٩٥ ، ص ٩٨.

(٥) محمد عمران ، ألعاب الأطفال وأغانيها فى مصر ، ط١ ، دار الفتى العربى ، بيروت والقاهرة ، ١٩٨٣ ، ص ص ٧- ٩ ، وصفحات ١٤ ، ٢٥ ، ٢٩، ٥٥.

(٦) وهيب لبيب ، مرجع سابق ، ص ص ٨٥- ٨٨.

(٧) نفس المرجع السابق ، ص ص ١٣٨- ١٥٨.

(٨) د. فاطمة القلينى ، المخاطر الإعلامية والثقافية والألعاب المستحدثة على الطفل المصرى ، <u>دراسة منشورة فى</u>: محمد الجوهرى (محرر) ، الإعلام والمجتمع دراسات فى علم الاجتماع الإعلامى ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٩٨ ، ص ص ٣١٩- ٣٧٠ .

(٩) الصادق محمد سليمان ، الحلقة الدراسية حول احياء الألعاب الشعبية ، مجلة المأثورات الشعبية ، العدد العاشر ، مركز التراث الشعبى لدول الخليج ، ابريل ١٩٨٨ ، ص ص ١٠٤- ١٠٥

(١٠) وهيب لبيب ، مرجع سابق ، ص ص ١٦٤- ١٦٥.

(١١) نفس المرجع السابق ، ص ١٧١.

(١٢) وهيب لبيب ، المرجع السابق ، ص ٨٨.

(١٣) أحمد الصباحى عوض الله ، المهارات والألعاب الشعبية ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ، د. ت. ، نقلا عن : وهيب لبيب ، المرجع السابق، ص ٤٩.

(١٤) الألعاب الشعبية ، مرجع سابق الذكر ، ص ١٠٤ ، وص ١٣٢.

(١٥) المرجع السابق ، ص ١٤١.

(١٦) وهيب لبيب ، المرجع السابق ، ص ١٥٨.

(١٧) الصادق محمد سليمان ، إحياء الألعاب الشعبية ، مرجع سابق ، ص ١٠٥.

(١٨) رضوان الشيخ محمد ، مرجع سابق ، ص ٩٨.

(١٩) د. فاطمة القلينى ، مرجع سالف الذكر ، ص ص ٣٤٠- ٣٤٤.

* * *

الفصل الثانى عشر

صورة الذكر والأنثى
فى الدراسات الأنثروبولوجية

مقدمة :

شغل موضوع النوع الاجتماعي Gender اهتمام العالم – سواء على مستوى الحكومات أو على مستوى المنظمات الأهلية – ودارت حوله العديد من المناقشات ، وعقدت الندوات والمؤتمرات ، وأنشئت الجمعيات الأهلية والمنظمات غير الحكومية . كذلك فقد لاحظنا نوعاً من الاقتران العلمي المعاصر بين النوع الاجتماعي والمجتمع المدني Civil Society ، باعتبار أن المجتمع المدني هو الوسيلة الفعالة في تبني قضايا المرأة والدفاع عنها من خلال الجمعيات النسائية والمنظمات التي تؤكد على حقوق المرأة وعلى دورها في التنمية المستديمة .

ولكن النقطة الفارقة في موضوع النوع الاجتماعي ، ودور المرأة وقضاياها لا تتمثل في الاتجاهات النسوية Femenism (1)، بقدر ما تتجسد في مؤتمر بكين الذي عقد بالصين في عام ١٩٩٥ . فقد شكل المؤتمر مرحلة جديدة من مراحل تناول قضايا المرأة على المستوى العالمي ، ولذلك فقد حرك هذا المؤتمر المهتمين بقضايا المرأة – من الجمعيات والمؤسسات الرسمية وغير الرسمية – لبدء الحركة والفكر بمنطق جديد وأسلوب جديد ، تجسّد المفاهيم والرؤى النظرية المطروحة ، والمقاربات التطبيقية ذات الارتباط بالنوع الاجتماعي . وبدأت في نفس الوقت – وبهذا المنظور – دراسة العلاقات المتداخلة بين الرجل والمرأة ، والعوامل التي تحكمها ، وتأثير ذلك على دور المرأة في المجتمع وإسهامها في مجال التنمية. واللافت للنظر أن هذا الوضع الجديد قد ألقى بالبيولوجيا جانباً ، وركز على علاقات القوة ، والأدوار الاجتماعية في تحديد النوع الاجتماعي . وبمعنى آخر ، لقد صرف النظر عن الثابت ، وبحث في المتغير ، إلا أنه لم يراعي طبيعة الثقافات السائدة ونسبيتها من جانب ، وتاريخ وتراث كل ثقافة من جانب آخر ، وأهمل – بشكل عمدي – ما يدور في المجتمعات الغربية وركز بالدرجة الأولى على المجتمعات النامية ولا سيما مجتمعات العالم الإسلامي في ظل العولمة والنظام العالمي الجديد ، بقصد زعزعة قيمها واجتثاث ثقافتها من الأساس لتتبنى الثقافة الغربية .

لقد ساد استخدام مفهوم النوع الاجتماعي في جميع القطاعات الحكومية والأهلية المهتمة بالتنمية في بلدان العالم ، ومنها مجتمعاتنا العربية . غير أن هناك نوعاً من الغموض، واللبس في هذا المفهوم وخاصة في ترجمته ومدلوله من جانب ، وتبني الرؤية الغربية في تناوله من جانب آخر ، ناسين – أو متناسين – ثقافتنا العربية التي كرمت النساء شقائق

الرجال ، وساوت بينهما فى القيمة الإنسانية وفى العمل الصالح ، وفى المسئولية والتملك ، والأحكام والعبادات .

وفى ضوء هذا الواقع الجديد ، نحاول تناول هذا الموضوع ، من خلال الدراسات الأنثروبولوجية التى أشارت إلى تقسيم العمل ، وصورة الرجل والمرأة فى عدد من مجتمعات العالم ، وعرض ملامح هذه الصورة ، واستنباط الفروق وإدراك التشابه بين عنصرى المجتمع البشرى ، وعلاقة كل ذلك بالبيولوجيا والثقافة والبناء الاجتماعى .

وبالتالى نعرض للموضوعات التالية :

أولاً : مفهوم النوع الاجتماعى Gender .

ثانياً : المجتمعات الإسلامية والنوع الاجتماعى .

ثالثاً : الاتجاهات النظرية فى دراسة النوع الاجتماعى .

رابعاً : المنظور الأنثروبولوجى فى دراسة النوع الاجتماعى .

خامساً : صورة الذكر والأنثى فى مجتمعات مختلفة .

سادساً : مشاركة المرأة العربية فى الحياة العامة (١٩٨٠- ١٩٩٠).

سابعاً : البيولوجيا والثقافة الشعبية : صورة وشخصية الذكر والأنثى .

أولاً : مفهوم النوع الاجتماعى Gender .

أظهر المؤتمر الرابع للمرأة فى بكين عام ١٩٩٥ مدى التزام دول العالم بالنهوض بالمرأة ومساواتها من منظور النوع الاجتماعى . ولذلك فقد أكد فى محاوره الإثنى عشر على ضرورة صياغة الاستراتيجيات والسياسات والبرامج وتحديد الأولويات الإنمائية ، كما أوضح أنها مسئوليات الحكومات الوطنية بالدرجة الأولى ، بالتعاون مع المنظمات الأهلية والإقليمية والدولية .

وقد تبنى صندوق الأمم المتحدة الإنمائى للمرأة (يونيفيم Unifem) برنامج متابعة مؤتمر بكين بتمكين المرأة فى عام ١٩٩٦ ، بالتعاون مع الاتحاد الأوربى، والتى انتهت مرحلته الأولى فى عام ١٩٩٧ ، بتعزيز الآليات المعنية بالمرأة ، وترجمة منهاج عمل بكين

إلى استراتيجيات وخطط عمل وطنية .

وفى المرحلة الثانية – التى بدأت فى عام ١٩٩٨ – استهدف المشروع دعم التخطيط للنوع الاجتماعى ، وإدماج قضاياه فى التنمية الشاملة ، لزيادة مشاركة المرأة فى عمليات صنع القرار التى تؤثر على حياتها [٢] .

وعلى الرغم من شيوع استخدام النوع الاجتماعى فى جميع القطاعات التنموية ، وازدياد الاهتمام بهذا المفهوم ، إلا أنه ما زال غامضاً ، وذلك لتعريبه بمصطلحات عديدة منها الجنس البيولوجى ، والجنس الاجتماعى ، والدور الاجتماعى ، والنوع الاجتماعى ، وكذلك لارتكازه على عوامل ثلاثة وهى :

أ- معرفة وتحليل واختلاف العلاقات ما بين النوعين .

ب- تحديد أسباب وأشكال عدم التوازن فى العلاقة بين النوعين .

ج- تعديل وتطوير هذه العلاقة حتى تتوفر العدالة والمساواة بينهما .

وقد اتفقت مجموعة الخبراء المجتمعين بمركز المرأة للتدريب والبحوث (كوثر) ١٩٩٥ على تعريف للنوع الاجتماعى على أنه " اختلاف الأدوار (الحقوق والواجبات) والعلاقات والمسئوليات والصور ومكانة المرأة والرجل ، والتى يتم تحديدها اجتماعياً وثقافياً عبر التطور التاريخى لمجتمع ما ، وكلها قابلة للتغير [٣].

التمييز بين مفهومى الجنس Sex والنوع الاجتماعى Gender :

يسود اللبس والتداخل اليوم بين مفهومى الجنس والنوع الاجتماعى فى الاستخدام . إن المفهوم الأول (الجنس) ينظر إليه بشكل عام فى ضوء الجوانب البيولوجية للشخص ، بما فى ذلك الخصائص التى تميز الذكر عن الأنثى من حيث حاملات الوراثة (الكروموزومات) والخصائص التشريحية والتناسلية reproductive والهرمونية والفسيولوجية الأخرى . أما المفهوم الثانى (النوع الاجتماعى Gender) ، فهو يتضمن تلك الجوانب الاجتماعية والثقافية والنفسية التى ترتبط بالذكر والأنثى من خلال سياقات اجتماعية خاصة . وفى ضوء هذا التمييز، فإن الجنس ينظر إليه باعتباره مكانة موروثة Ascribed Status ، على حين تسود النظرة إلى النوع الاجتماعى باعتباره مكانة مكتسبة Achieved Status [٤].

إن التمييز البسيط بين الذكر والأنثى يعد خادعاً نسبياً ، بمعنى أنه يتضمن إما الفئة الأولى (الذكور) وإما الفئة الثانية (الإناث) بشكل لا لبس فيه Unambiguous . ولذلك فمن

المؤكد أن تصبح المكانة المرتبطة بالجنس أقل تغيراً من المكانة المرتبطة بالنوع الاجتماعي. ومع ذلك ، فلا يزال هناك البعض ممن يعتقدون بأنهم قد وُلدوا بعيوب عضوية في أجسادهم ، وبأنهم سوف يلجأون إلى إجراء جراحة تغيير الجنس لكي يتيحوا الفرصة لهوية النوع الاجتماعي أن تتسق وتتفق مع جلسهم البيولوجي . وبهذا التحول الجنسي فقط ، يعتقد هؤلاء بأنهم يمكنهم أن يحققوا انسجامهم النفسي من وجهة نظرهم .

ومن ناحية أخرى ، فإن التوجه الجنسي Sexual Orientation ، أو الطريقة التي يعبر الناس من خلالها عن تجارب سرورهم الجنسي ، أو يحققون بها الإعجاب الجنسي تختلف وتتنوع أيضاً . فإن الذكور الذين يوجهون إعجابهم الجنسي وتوجههم نحو الذكور الأخرين ، يعتبرون أنفسهم أكثر ارتباطاً بالذكورة . وليس هذا مجالنا الآن، ولكن المهم أن النوع الاجتماعي – يخضع للتعلم ، فهو مكتسب ، وليس قابلاً للتغير Immutable – إلا أنه قد تعرض للتغير عبر الزمن ، والتنوع بشكل واضح في مجتمعات مختلفة . ولهذا فمن المنطقي والمعقول أن ننظر إلى النوع الاجتماعي بشكل خاص باعتباره متصلاً Continuum من الخصائص التي يمكن للفرد أن يبرهن عليها ويثبتها بغض النظر عن الجنس البيولوجي .

والواقع أننا لو أضفنا كلمة الدور Role إلى الجنس أو إلى النوع الاجتماعي ، فإن المفاهيم ستزداد إرباكاً . فالدور مفهوم سوسيولوجي أو سيكولوجي أساساً ، وبالتالي فسوف نسئ استخدامه إذا ما ربطناه بالمفهوم البيولوجي للجنس على ما ترى شريف (١٩٨٢) . فهي تستبعد استخدام مصطلح الأدوار الجنسية Sex Roles معاً ، وخاصة أنها قد تحمل معها أساطير حول الذكور والإناث من كلا العناصر البيولوجية ، والاجتماعية والثقافية . ويمكن من ناحية أخرى ، أن تكون إضافة كلمة الدور إلى الجنس أو النوع الاجتماعي ، سبباً في تبسيط مناقشة البحوث الوفيرة التي تستخدم مصطلحي الجنس والنوع الاجتماعي بالتناوب Interchangeably بأي حال . هذا في الوقت الذي نجد فيه زيادة ملحوظة وحرية الاختيار في (أدبيات) استخدام مصطلحي الأدوار الجنسية وأدوار النوع الاجتماعي ، بالرجوع إلى الأدوار الجنسية التي لا تزال وفيرة . إن الدوريات العلمية مثل " الأدوار الجنسية والنوع الاجتماعي والمجتمع Sex Roles and Gender & Society ، تتعامل مع قضايا التنظير والبحث ، بالاعتماد على التفاعل المتبادل Interplay لعديد من المتغيرات بما فيها المتغيرات البيولوجية والاجتماعية الثقافية (٥).

والجدير بالذكر أن مقولة " أدوار النوع الاجتماعى Gender Roles يمكن أن تُعرف من خلال الأدوار الجنسية Sex Roles ، وبالتالى فهى تشير إلى الاتجاهات .

وفى ضوء اختلاف مفهوم النوع الاجتماعى عن مفهوم الجنس، الذى يحدد الصفات البيولوجية الثابتة التى لا تقبل التغيير ، تتضح لنا بعض الفروق التالية [٦]:

الجنس Sex	النوع الاجتماعى Gender
طبيعة	ثقافة / اقتصاد / سياسة
ذكر / أنثى	امرأة / رجل
مميزات جنسية أولية / ثانوية	مميزات اجتماعية / ثقافية / وضع صورة / مكانة
أعضاء / وظائف	أدوار / علاقات
ثابتة لا تتغير	متغيرة فى المكان والزمان
أفراد	مجتمع / محيط / مؤسسات

وعلى هذا فإن النوع الاجتماعى هو أدوار وعلاقات ومسئوليات ، وحقوق وواجبات وصور ومكانة يحددها المجتمع للمرأة والرجل ، حسب الإطار الاجتماعى والثقافى والاقتصادى والسياسى ، مكتسب ويتغير بتغير الزمان والمكان .

على حين يختوى المعنى الواسع لكلمة جنس Sex وجنسية Sexuality على مجموع الطبائع الجسمية والفسيولوجية الخاصة بالذكور (الجنس الذكر) ، والإناث (الجنس الأنثوى) ، كما أنها تخلق فروقاً ليست على المستوى المذكور هنا فقط ، ولكن أيضاً على المستوى السيكولوجى. وبالتالى يحدد الجنس بصفة دقيقة بما يلى :

أ- الجانب التشريحى أو التركيب الداخلى للأعضاء التناسلية وخاصة المميزات الأولية التى يمكن تشخيصها منذ الولادة.

ب- الجانب الفسيولوجى أى الذى يخص وظائف هذه الأعضاء ، ومنها القدرة الجنسية والإنسانية أى المميزات الجنسية الثانوية .

جـ- الجانب البيولوجى (الغدد الصماء) التى تسمح بتنشيط هذه الأعضاء وتطويرها منذ ظهور المميزات الجنسية الثانوية وتشغيلها حتى نهاية الحياة ، عبر مراحل الولادة والبلوغ والعجز .

ثانياً : المجتمعات الإسلامية والنوع الاجتماعي:

هل يتلاءم منظور النوع الاجتماعي Gender مع دراسة النصوص التاريخية والثقافية الإسلامية لدى المسلمين رجالاً ونساءً ؟ أو هل يمكن دراسة هذا الموضوع من منظور المرأة المسلمة ؟ الواقع أن الإجابة تقودنا إلى تيارين أحدهما يرفض منظور الجندر برمته لسوء فهم أو لخطأ فى تعريف المصطلح أو الاقتصار على جانب واحد . وثانى التيارين يكتفى بهذا المنظور ودراساته الواسعة ، ويرفض الاعتبارات المرجعية الدينية على أساس أنها تناقض مبادئ دراسات المرأة أو الدراسات النسوية التى تحاول كشف القهر وآلياته، والتهميش والدعوة إلى التحرر منهما (٧).

إن الواجب والموضوعية تحتمان الرجوع إلى التاريخ الإسلامى المبكر للتأمل والنظر لنعرف حقيقة هذين التيارين ، ومدى الصواب والخطأ فيهما . وهنا نشير إلى بعض الوقائع الهامة ومنها :

١- **الواقعة الأولى** : وهى تشير إلى ورود كلمة " الرجل " فى القرآن الكريم ٢٤ مرة ، وهو نفس عدد ورود كلمة " المرأة " فى الآيات القرآنية ، مما يعنى المساواة فى الاهتمام بهما(٨).

٢- **الواقعة الثانية** : وردت فى صحيح مسلم فى " كتاب الفضائل" أن أم سلمة رضى الله عنها سمعت رسول الله (ص) يوماً ينادى من على المنبر : " أيها الناس " فأرادت الذهاب ، فقالت لها الجارية : إنما دعا الرجال ولم يدع النساء ، فردت سريعاً " إننى من الناس "(٩).

٣- **الواقعة الثالثة** : عندما تساءلت أم المؤمنين أم سلمة عن فضل الهجرة ، هل هناك تخصيص الرجال بها دون النساء : يا رسول الله : " لا أسمع الله ذكر النساء فى الهجرة بشئ " فأنزل الله تعالى : " فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله والله عنده حسن الثواب" (١٠).

٤- **الواقعة الرابعة** : عندما رجعت أسماء بنت عميس من الحبشة ومعها زوجها جعفر بن أبى طالب ، ودخلت على نساء النبى (ص) فقالت : هل نزل فينا شئ؟ قلن : لا . فأتت النبى (ص) فقالت يا رسول الله ، إن النساء لفى خيبة وخسارة قال : ومم ذلك؟ قالت : لأنهن لا

يذكرن فى الخير كما يذكر الرجال . فـأنزل الله تعـالى : " إن المسـلمين والمسـلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصـابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصـائمين والصـائمات والحـافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً"[11].

٥- الواقعة **الخامسة** : عندما قالت أسماء بنت يزيد لرسول الله (ص) : يا رسـول الله : أنـا وافدة النساء إليك . إن الله عز وجل بعثك إلى الرجال والنساء كافة فآمنا بـك وبإلهـك . وإنا معشر النساء محصورات مقصورات قواعد بيوتكم ومقضـى شـهواتكم وحـاملات أولادكم ، وإنكم معشر الرجال فُضلتم علينا فى الجمـع والجماعـات وشـهود الجنـائز والجهاد. وإن الرجل منكم إذا خرج حاجاً أو مجاهداً حفظنا لكم أمـوالكم وغزلنـا لكـم أثوابكم وربينا لكم أولادكم ، أفلا نشاركم فى هذا الأجر ؟ فالتفت الرسوا (ص) بوجهـه إلى أصحابه، وقال لهم: هل سمعتم مقالة امرأة أحسن سؤالاً عن دينها من هذه ؟ فقالوا : بلى يا رسول الله، ما ظننا أن امرأة تهتدى إلى مثل هذا . فالتفت رسول الله (ص) إليهـا فقال : " إنصرفى يا أسماء ، واعلمى من وراءك من النساء أن حُسـن تبُعـل إحـداكن لزوجها ، وطلبها لمرضاته ، واتباعها لموافقته تعدل كل ما ذكرت". فانصرفت وهى تهلل وتكبر استبشاراً بما قاله لها رسول الله .

وقد شهدت أسماء بنت يزيد اليرموك وقتلت يومئذ تسعة من الروم بعمود فسـطاطها أى خيمتها، على ما يؤكد ابن حجر فى الإصابة ، والذهبى . ففى هذه المعركة قاتلت نساء المسلمين ، وقتلن عدداً كبيراً من الروم، وكن يضربن من انهزم من المسلمين ويقلن: أين تذهبون وتدعوننا للعلوج- أى للمقاتلين الروم- فإذا زجرنهم لا يملك أحد نفسه حتى يرجع إلى القتال . كما كانت خولة بنت الأزور تقاتل على جوادها وهى ملثمة وتكـر وتفـر ، حتى ظنوها خالداً بن الوليد . ولم يعرفها المسلمون إلا حينما انتهت المعركـة ورأوهـا ورأوها ورأوا خالداً فى نفس الوقت ، وكشفت لثامها . فكان حرص الرسول (ص) علـى تبيان مساواة المرأة بالرجل فى الأجر على هذه المهام من خلال أداء الفرائض والعبادات وطاعة الزوج ، فهى إذن تعدل الجهاد والجمع والجماعات وغيرها .

والخلاصة أن هذه الدلالات والوقائع تعكس لنا حرص النساء فى عصر الرسالة على أن يكون لهن مكان فى الشئون العامة للمجتمع ، وأن يذكرن فى النص القرآنـى حيـث يخاطبهن الله تعالى ويخصهن بالخطاب . كما تعكس حرصهن علـى أن يـنلن المكانـة

والتقدير المعلن لجهدهن . علاوة على أنها تشير إلى مراعاة التنزيل القرآنـــي لإحـــداث التوازن بين شطرى المجتمع (النساء شقائق الرجال) . والدليل الأوثق على ذلك أيضاً أن الله تعالى سمع قول خولة بنت ثعلبة وهى تجادل الرسول (ص) حول الظهار حتى نزلت الآيات من سورة المجادلة استجابة لتساؤلات وهموم وهواجس النساء .

٦- **الواقعة السادسة** : نموذج فى الثقافة الإسلامية للتعبير عن وجهة نظر نسائية ، أو نموذج لإعلان موقف محدد فى طريقة الحياة اليومية بما فيها من عادات وأعراف حيث وقفـــت خولة بنت ثعلبة تجادل رسول الله (ص) حول زوجها أوس بن الصامت الذى ظاهر عليها وتركها وأولادها وتقول له إن لى أولاداً إن تركتهم إليه ضاعوا، وإن تركهم إلىّ جـــاعوا. وكان رده (ص): لا أرى إلا أنك قد حرمت عليه ، حتى نزلت سورة المجادلة " قد ســـمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يســـمع تحاوركمـــا إن الله ســـميع بصير "[١٢].

٧- ذهبت فتاة إلى رسول الله (ص) تشكو أن أباها زوجها من ابن أخيه ليرفع خسيسته، فقال: الأيِّم (من لا زوج لها) أحق بنفسها من وليها . فقالت الفتاة : يا رسول الله قد أمضيت ما فعل أبى ، وإنما قلت ما قلت ليعلم النساء أن ليس للرجال فى هذا أمر [١٣].

٨- **والواقعة الأخيرة** : حينما أمر عمر بن الخطاب رضى الله عنه بخفض المهور فراجعتـــه امرأة وهو على المنبر وذكرته بالآية الكريمة :" وإن أردتم اســـتبدال زوج مكـــان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً " فقال الخليفة المتواضع " أخطأ عمر وأصابت امرأة". وفى رواية أخرى : " الكل أفقه من عمر " .

وفى ضوء كل ما سبق نقول إن الوعى بالهوية النسائية ، وإقرار الحقـــوق والـــوعى بالأدوار للجنسين ، والتنميط الخاطئ لشخصية المرأة أو الرجل ، لا تتعـــارض مـــع الـــنهج الإسلامى فى التفكير ، ولكن المطلوب أن تكون المرأة المسلمة عارفة بدينها، ملمة بالأحكـــام وسياقاتها ، وموضوعية فى مطالبها، أمينة فى عرض مخاوفها وهواجسها، لا تتزلف لسلطة ، ولا تتمسح لمنصب ، ولا تلهث وراء جاه ، ولا تنساق فى مواكب بطانة السوء .

ثالثاً : الاتجاهات النظرية فى دراسة النوع الاجتماعى :

إن قضية النوع الاجتماعى تتقاطع مع كثير من العلوم ، وبالتالى يتسنى لنا الاعتمـــاد على نماذج تفسيرية معينة من علم الحياة ، وعلم النفس والأنثروبولوجيا والتاريخ . ومع ذلك،

فمنذ أن قدمت المفاهيم السوسيولوجية إطار العمل الأساسى Basic Frammork لتناول الموضوع ، صارت النظرية السوسيولوجية هى السائدة . وفى ضوء ذلك ، فإن تناولنا الحالى هو استعراض لكيفية تفسيرنا لأدوار النوع الاجتماعى عبر النماذج النظرية الثلاثة الغالبة فى علم الاجتماع (وهى البنائية الوظيفية، والصراع الاجتماعى والتفاعلية الرمزية).

(١) النظرية الوظيفية :

تبدأ النظرية الوظيفية – والتى تعرف أيضاً بالفكر البنائى الوظيفى – بالمقدمة المنطقية Premise التى تقول بأن المجتمع يتكون من مجموعة من الأجزاء التى يسودها الاعتماد المتبادل ، بمعنى أن كل جزء منها يسهم فى الأداء الوظيفى ككل . وبالتالى فإن الوظيفيين يبحثون عن تحديد هوية العناصر الأساسية أو الأجزاء الرئيسية التى يتكون منها المجتمع ، وتحديد الوظائف التى تضطلع بأدائها هذه الأجزاء ، ومن ثم معرفة كيفية قيام المجتمع الكلى بعملياته ووظائفه . فالسؤال المحورى فى التحليل الوظيفى – كما يرى هيس Hess وزملاؤه – هو كيف يسهم أى عنصر نوعى من عناصر البناء الاجتماعى فى استقرار الكل ؟ ومعنى ذلك ؛ السؤال مرة أخرى عن الوظيفة الاجتماعية لهذا العنصر البنائى. ومن هنا تحاول النظرية الوظيفية أن تكتشف نتائج أى نمط محل اهتمام .

وقد لخص دارندورف Dahrendorf وسيملزر Smelser الافتراضات الرئيسية التى تقوم عليها النظرية الوظيفية المعاصرة فيما يلى [١٤].

١- إن المجتمع نسق من الأجزاء المتكاملة .

٢- إن الأنساق الاجتماعية تميل نحو الاستقرار لأنها تحوى فى داخلها وبنيتها ميكانيزمات للضبط .

٣- قد يوجد الخلل الوظيفى Dysfunction ومظاهره ، ولكنها تميل نحو حل نفسها بنفسها ، أو تتشكل نظامياً (تتأسس) على المدى البعيد .

٤- إن التغير يحدث عادة على نحو من التدرج (بشكل تدريجى) .

٥- يتحقق التكامل الاجتماعى عن طريق اتفاق معظم أعضاء المجتمع على مركب معين من القيم وإقراره . وأن هذا النسق القيمى هو العنصر الأكثر استقراراً فى النسق الاجتماعى .

ومع تأكيد الوظيفية على الانسجام والاستقرار – اللذين يرتبطان بالاجماع القيمى

القوى – إلا أنها تفترض أن النسق الاجتماعى يعمل دائماً على التوازن . فإذا بـدت بعـض المشكلات أو انبثقت بعض الصراعات ، إلا أنها تكون مؤقتة فى طبيعتها ، ولا تعد مؤشـراً يدل على نسق اجتماعى ضعيف أو فاسد Impaired .

وفى ضوء أدوار النوع الاجتماعى ، يطرح الوظيفيون فكرة أن الرجال والنساء فـى مجتمعات ما قبل الصناعة – كتلك التى كانت تعتمد على الصيد والجمع والالتقـاط – كـانوا يقومون بأدوار مختلفة ، ويضطلعون بمهام مختلفة لأن ذلك كان ضرورة لصـالح المجتمـع وللأداء الوظيفى فيه . فالرجال – فى ظل نظام الصيد والقنص – كانوا بالتالى بعيـدين عـن البيت ، ومن ثم تركزت حياتهم على مسئولية إحضار الطعام أو توفير قوت الأسرة . وعلـى الطرف الآخر ، كانت حركة المرأة مقيدة وقاصرة على الحمل ، والولادة ، ورعاية الطفـل ، وبالتالى فقد استلزم أداؤها الوظيفى لدورها أن تظل معظم وقتها وتقضيه فى البيت أو بالقرب منه، تراعى أسرتها وترعى أطفالها وتقوم بمهام تربيتهم . ومع استمرار ورسوخ هذا التقسيم للعمل ، بدأ ينتشر فى المجتمعات النامية والآخذة فى النمو . وحتـى المـرأة نفسـها ، فقـد انخرطت فى الإنتاج الزراعى ، أو كانت النساء يقمن بوظائف الجمع والالتقاط فى حيـازتهم الزراعية ، فإنهن فى هذه الحال كن يعتمدن على الرجال إلى حد كبير فـى تـوفير الطعـام والحماية . وبالتالى كان الدور الأساسى المفترض للرجال ، يخلق وضعاً أو نموذجاً تحظـى فيه أنشطتهم بقيمة أو أهمية أكثر مما تحظى به أنشطة النساء . وهكذا خضع هـذا النمـوذج للتشكل النظامى ، وصار من الصعب تغييره ، كما رسخ على الاعتقاد بـأن تـدرج النـوع الاجتماعى Gender Stratification لا يمكن تجنبـه ، بسـبب الاختلافـات والفـروق البيولوجية للجنس .

لقد أملت النظرية الوظيفية مجموعة من المبادئ المتماثلة يمكن أن نطبقها على أدوار النوع الاجتماعى فى الأسرة المعاصرة بنفس القدر . وقد أكـد بارسـونز Parsons وبيلـز Bales على أن هناك قليلاً من التعطل أو التمزق Disruption والمنافسة وبالتـالى نكـون بصدد الكثير من الانسجام والاستقرار ، حينما يقوم الأزواج والزوجـات بـالأدوار الخاصـة (التخصصية) والتكميلية Complimentary . وحينما يقوم والد الـزوج بالـدور الأدائـى Instrumental Role فإنه يساعد فى تدعيم التكامل الطبيعـى (الفيزيقـى) والاجتمـاعى الأساسى للأسرة عن طريق توفير الطعام والمأوى لها ، والقيام بدور حلقة الاتصال بينها وبين العالم خارج نطاق البيت. وفى نفس الوقت ، عنـدما تقـوم أم الزوجـة بـدورها التعبيـرى

Expressive Role ، فإنها تساعد فى تقوية وصلابة العلاقات ، وتقدم الدعم العاطفى والمكانات الاجتماعية العالية لتربية الأطفال ورعايتهم ، وكلها يدعم وحدة الأسرة Family Unit ، ويؤكد على أن الوحدة المعيشية تسير بسلام . وعندما يحدث انحراف عن هذه الأدوار، أو عندما تمتد هذه الأدوار وتتسع إلى حد كبير، فإن النسق العائلى يقع فى حالة من الخلل. وهكذا فإن النظرية الوظيفية تؤكد على أن النسق سوف يستعيد حالة التوازن فى النهاية، غير أن هذا الخلل أو التمزق يمكن تجنبه لو أن أدوار النوع الاجتماعى التقليدية التزم بها المجتمع وسار عليها فى المقام الأول . وعلى سبيل المثال ، فقد يرى الوظيفيون أن غموض دور النوع الاجتماعى يعد عنصراً جوهرياً فى وقوع الطلاق .

ومن الواضح أن الوظيفية يغلب عليها الطابع المحافظ فى توجهها ، ولا تضع فى اعتبارها تنوع الأنساق العائلية ، الذى يمكن أن يكون ذا وظيفة لها وللمجتمع فى نفس الوقت . فالأسر المعاصرة ، والوحدات المعيشية قادرة على التكيف بنحو هائل ، وتعرض تنوعاً كبيراً من الآباء والظروف . فأحد الوالدين – الأب أو الأم – الذى يعيش بمفرده، يتطلب الموقف منه القيام بأدوار عديدة – لا تعد تقليدية من وجهة النظر الوظيفية – ومن ثم ينجح الكثيرون منهم فى الجمع ما بين الأدوار الأدائية **Instrumental** والأدوار التعبيرية Expressive .

إن النظريات العلمية الاجتماعية يجب أن تكون موضوعية وذات حياد قيمى Neutral Value من الناحية المثالية . ويمكن لهذه النظريات أن تستمر وتستخدم فى تدعيم وضع معين أو وجهة نظر معينة ، حتى لو تحققت هذه المثالية . لقد استخدمت النظرية الوظيفية – من الناحية الأيديولوجية – كتبرير لوجود سيطرة الذكور ، وتدرج النوع الاجتماعى المبالغ فيه . وقد سادت التحليلات الوظيفية للأسرة وانتشرت على مدى خمسينيات القرن العشرين عندما خرجت الأمة منهكة من ويلات الحرب ، وانحسرت فى رؤى تقليدية عن الحياة الأسرية ، وحاولت أن تعيد بناء نفسها إزاء ما قبل الكساد ، لا ما قبل الحرب فقط. وعلى هذا نقول إن وجهات النظر الوظيفية حول النوع الاجتماعى والأسرة ، لم تعد قادرة على مجاراة التغير الاجتماعى السريع الذى يعصف بها ، وهكذا صارت تفسيراتها للأنماط المعاصرة يعتريها القصور .

وإلى هذا الحد ، كانت الوظيفية قادرة على تقديم تفسير منطقى ومعقول لأصول تباين دور النوع الاجتماعى ، وأكدت على المنفعة الوظيفية لاسناد المهام والأعمال على أساس النوع الاجتماعى فى تلك المجتمعات التى كانت تنظر إلى الأطفال كضرورة للحفاظ على

التكامل الاقتصادى للوحدات الأسرية . ومع ذلك ، فقد أشار مارويل Marwell إلى الأســر الكبيرة فى المجتمعات الصناعية المعاصرة باعتبارها خللاً وظيفياً ، وأن الأسرة نفسها لم تعد وحدة للإنتاج الاقتصادى . فقد تحافظ الأسر على وجودها دون هذا التقسيم الصارم للعمل فى الماضى ، والذى يعنى أن التخصص فى المهام والوظائف بداخل الأسر – وخاصة من خلال النوع الاجتماعى– أصبح يعبر الآن عن الخلل الوظيفى ، أكثر مما يعبر عن السواء الوظيفى. فالنسوة اللائى تحولن إلى الأدوار الأسرية التى ينظرن إليها على أنها مقيدة ، هن أكثر تعاسة فى زواجهن على سبيل المثال . وفى هذا الموقف ، اعتادت المفاهيم الوظيفية أن تفسر كيــف يظهر تقسيم العمل المعتمد على النوع الاجتماعى ، ولكنها تجد صعوبة فــى تحليــل التنــوع المعاصر لأنماط الأسر ، والأدوار الزواجية Marital Roles.

نظرية الصراع Conflict Theory :

انبثقت من القرن التاسع عشر ، كتابات كارل ماركس Karl Marx عــن نظريــة الصراع ، التى تقوم على فكرة أن المجتمع هو إحدى مراحل التعبير عن النضال مــن أجــل القوة والسيادة . وهذه الكفاحات تدور بين الطبقات الاجتماعية التى تتنافس من أجل التحكم فى وسائل الإنتاج ، وتوزيع الموارد . وقد طبق فريدريك إنجلــز F.Engels رفيــق مــاركس (١٨٨٤– ١٩٤٢) هذه الفروض على الأسرة. فأكد على أن المجتمعات البدائية كانت تعتمــد على مبدأ المساواة Egalitarian أساساً لأنه لا توجد فوائض قيمة ، وبالتالى فلا تقوم ملكية خاصة . وبمجرد ظهور بداية الملكية الخاصة ، نمت المؤسسات الإقطاعية ، وصارت القــوة تتركز فى أيدى فئة قليلة من الرجال . وعلى مستوى الأسرة بدأت تظهر علاقات السيد بالعبد، أو المستغِل بالمستغَل ، التى انتشرت على مستوى المجتمع الأكبر بين البرجوازية (المــلاك) والبروليتاريا (العمال) ، مما انعكس أثره على الوحدة المعيشية . وبعد قدوم الملكية الخاصة ، وحلول النظام الرأسمالى، لم يعد العمل المنزلى للمرأة يُحسب لها ، إلى جانب ما يكسبه الرجل من ضرورات الحياة ، فصار الرجل هو كل شئ ، وصارت المرأة مثل أى شئ إضافى غير هام . وعلى هذا فقد أصبح البيت خاضعاً للسلطة المطلقة للزوج الذى يحظى بوضع ســامٍ لا يخضع للنقاش . وبالتالى فلا يمكن أن تتحرر المرأة (الزوجة) من سطوة الرجل (الــزوج) إلا حينما تشارك فى عملية الإنتاج على مستوى أكبر ، وعلى النطاق الاجتماعى ، ولم يعد للعمل المنزلى وزن أو أهمية لأنه جزء مهمل – وغير ذى مغزى – من وقتها .

غير أن نظريات الصراع الحديثة (مثل دارنــدورف ١٩٥٩ ، وكــولينز Collins

١٩٧٥ ، ١٩٧٩) قد نقحت الأطروحات الماركسية الأصلية ، لتتواءم مع الأنماط والنماذج المعاصرة . وبالتالى فلم يعد الصراع مبنياً فقط على النضال الطبقى ببساطة والتوتر بين الملاك والعمال ، أو العمال وأصحاب العمل ، ولكنه يطرأ أيضاً بين جماعات أخرى عديدة بنفس القدر . إذ قد تشتمل هذه الجماعات الآباء والأبناء ، الأزواج والزوجات ، الصغار والشباب والمسنين ، والمعاقين والأصحاء (الأسوياء) ، والأطباء والمرضى ، والذكور والإناث ، وأية جماعات أخرى يمكن تعريفها بأنها أقلية Minority أو أغلبية Majority ، والقائمة تطول .

وقد خلص سميلزر Smelser (١٩٨١) إلى أن نظرية الصراع الحديثة تحوى الافتراضات التالية (١٥):

١- إن الملامح الرئيسية للمجتمع هى التغير ، والصراع ، والقهر .

٢- يعتمد البناء الاجتماعى على سيطرة بعض الجماعات على الجماعات الأخرى.

٣- لكل جماعة فى المجتمع مجموعة من المصالح المشتركة ، سواء كان أفرادها على وعى بذلك أو بدون وعى .

٤- حينما يتكون الوعى ويتشكل لدى الناس بمصالحهم المشتركة ، فإنهم يتحولون إلى طبقة اجتماعية .

٥- تعتمد كثافة الصراع الطبقى وقوته على توافر ظروف اجتماعية وسياسية معينة (بمعنى حرية تكوين الاتحادات والإئتلافات Coalitions)وعلى توزيع السلطة والمكافآت ، وعلى عمومية ووضوح Openness النظام الطبقى .

فإذا أردنا تطبيق إطار العمل الصراعى المعاصر على تدرج النوع الاجتماعى ، فلابد من إعادة تعريف الطبقة لتعنى جماعات معينة لديها مدخل للوصول إلى السيطرة على الموارد النادرة ، والتحكم التفاضلى فيها كالسلطة والقوة السياسية بالإضافة إلى القوة الاقتصادية . وبكلمات بسيطة ، فللرجال مزايا اقتصادية عن النساء ، مما يخلق أساس عدم المساواة بين النوع الاجتماعى . وهكذا يتحول الوضع الاقتصادى السامى للرجل – على مستوى المجتمع – إلى الأسرة سواء بسواء . فإذا لم يحقق العمل المنزلى نوعاً ما من القيمة النقدية Monetary – أو كما يعتقد إنجلز – إذا لم تكن المرأة مرتبطة بالأدوار المنزلية ، فإن سيطرة الرجال على النساء سوف تستمر إلى الأبد Perpetuated .

وقد اتسع نطاق نظرية الصراع ، وتطورت على يد هيكر Hacker من خلال دراستها الكلاسيكية عن كيفية النظرة إلى النساء باعتبارهن جماعة أقلية . فعن طريق المقارنات مع الأقليات السلالية Racial Minorities أكدت هيكر على أن النساء يشتركن فى نفس الخصائص . فبالإضافة إلى التمييز فى المعاملة Discrimination ، فإن النساء محصورات فى محل إقامة (مقيدات فى السُكنى) ، ويقمن بالعمل الرتيب الممل حينما يشاركن فى المجال الاقتصادى ، ويشغلن مكانة هامشية فى المجتمع ، كما أنهن يُعرفن ويُنمطن أنماطاً جامدة على أساس الصفات والخصال Attributes الموروثة . والطريف فى الأمر أن المدخل الذى انتهجته هيكر قد تأسس على مدى عقد من الزمان ، قبل أن يطرح علم الاجتماع أية محاولة أولية لتناول قضية النوع الاجتماعى والمجتمع ، أو حتى الإشارة إليها كعنوان وبطريقة متعجلة دون تفاصيل . وحينما ظهرت هذه المحاولات القليلة ، فإنها كانت تنطلق من التحليل الوظيفى للأسرة . ولكن حينما فاقت النساء الرجال عدداً Outnumber ، وشاركن بشكل عام فى المزايا أو المساوئ الاقتصادية لأزواجهن أو لآبائهن ، و مع ذلك فإن هذه الصفات والخصائص لا تتوازى مع نظيرها عند الأقليات السلالية كما ذهبت هيكر . ومع ذلك فقد أفادنا تحليلها فى صياغة إطار عمل مفيد ، حيث يمكن تطبيق المنظور الصراعى على ما يشار إليه الآن " غير تقليدى " Nontraditional ، أو " أقليات جديدة " ومنها النساء ، والمسنون ، والمعاقون ، والشواذ جنسياً وغيرهم.

إن نظرية الصراع – وخاصة التنويعات الماركسية – قد تعرضت للنقد بسبب تأكيدها المبالغ فيه على الأساس الاقتصادى لعدم المساواة، وتشددها البالغ فى أن الصراع والمنافسة والتوتر هى موضوعات لا يمكن تجنبها بين جماعات معينة . ومن ناحية أخرى فهى تستبعد الإجماع العام الذى تلتزم به العائلات عند صياغتها وتحديدها لبنيّة الأدوار العائلية ، وتوزيع المهام وتخصيصها على أساس رؤى أكثر تقليدية . كذلك فإن هناك عنصراً تآمرياً Conspiratiorial يظهر حينما تصبح نظرية الصراع قائمة على فكرة أن الرجال كجماعة ينظمون أنفسهم بوعى . لكى يبقوا على النساء " فى مكانهن " فلا تتغير أوضاعهن . غير أن هناك عدداً من القوى الاجتماعية – كثيراً منها غير منظم أو غير مقصود – تظهر على السطح لتمارس دورها عندما نفسر تدرج النوع الاجتماعى . وإذا كان التحيز " للمحافظة " هو جوهر النظرية الوظيفية ، فإن النظرية الصراعية تستعرض التحيز " للتغيير ". ولعل هذا التحيز أقل انتقاداً فى النظرية الصراعية – عنه فى النظرية الوظيفية – وذلك لأن معظم الناس الآن لا يستريحون للأنماط الخاصة لتدرج النوع الاجتماعى ، والجنسية Sexism والنتائج

التى تترتب عليها . والملاحظ أيديولوجياً الآن أنه من اليسير عليك أن تبرر التغير ، وخاصة إذا لم تكن النظرة إليه على أنه مدمر من الناحية الفردية والاجتماعية . ومن الممكن أن مستويات التسامح نحو الجنسية السافرة Overt Sexism سوف تتضاءل ، كما تضاءلت من قبل مع السلالية السافرة Overt Racism .

(٣) نظرية التفاعل الرمزى Symbolic Interaction.

إذا كانت النظرية الوظيفية ، والنظرية الصراعية ، تنتهجان مدخل أدوار النوع الاجتماعى من رؤية مجتمعية أو مؤسسية واسعة ، فإن نظرية التفاعل الرمزى – أو ما تسمى أيضاً بالمنظور التفاعلى Interactionist – تتبنى إطاراً مرجعياً نفسياً اجتماعياً أضيق نطاقاً . فالنموذج التفاعلى يرتكز على افتراض أن المجتمع قد وُجد واستمرت المحافظة عليه من خلال تفاعل أعضائه ، وكيف أن هؤلاء الأعضاء يعرفون (الحقيقة) الواقع ويحددونه . وبهذا المعنى ، فإن الحقيقة Reality هى ما يتفق عليه أعضاء المجتمع على أنه حقيقة . وقد عبر وليام توماس W.Thomas عن عملية التفاوض بمقولة كلاسيكية ، يشار إليها الآن بمصطلح نظرية توماس Thomas Theorem: إن الموقف الذى يمكن تعريفه بأنه حقيقى أو واقعى ، هو الحقيقى أو الواقعى فى النتائج المترتبة عليه ، ثم تطورت التفاعلية الرمزية على يد جورج هيربرت ميد George Herbert Mead حيث أصبحت تهتم بالمعانى التى يضفيها الناس على سلوكهم أنفسهم، وبنفس القدر على سلوك الآخرين . إذ يحدث التفاعل بطريقة منمطة Patterned ومقننة Structured ، لأن الناس يمكن أن يتفقوا على معنى الرموز المشتركة ومنها الكلمات ، واللغة المكتوبة ، والإشارات Signs والإيماءات Gestures . وهكذا يستجيب أعضاء الجماعة كل منهم للآخر على أساس المعانى المشتركة والتوقعات المشتركة للسلوك . وهكذا لا يكون رد فعل الناس أتوماتيكياً (آلياً) نحو بعضهم البعض . إذ أنهم ينتقون رد الفعل بعناية من بين عديد من الاختيارات بالاعتماد على نوعية الموقف . وبمجرد تعلم الإنسان الرموز واستدماجه لها ، تصبح عملية تفاعله مع الآخرين تلقائية بشكل أو بآخر ، غير أن أنصار نظرية التفاعل الرمزى قد سارعوا فى الإشارة إلى تبيان أن هناك سلسلة من الأفعال الرشيدة ، والمحددة على المستوى الفردى، لا تزال تحدث .

إن تنوع نظرية التفاعل الرمزى- والمعروف باسم التحليل الدرامى لمواقف الحياة اليومية Dramaturgical Analysis – لا يزال ينطوى على معنى ، وخاصة حينما ننظر إلى أدوار النوع الاجتماعى . فالدور النشط الذى يقوم به الأفراد ، ويسترشدون به فى

سلوكهم، يصل إلى حده الأقصى ، إذا كان التفاعل يُنظر إليه على أنه يحدث فى نـوع مـن المسرح الاجتماعى Social Stage . ومن خـلال كتابـات إرفـنج جوفمـان Erving Goffman ، أوضح أن مواقف الحياة اليومية Dramaturgy تتدعم حينما يحاول النـاس تكوين انطباع معين ، فإنهم يفترضون حقيقة أدواراً عديدة ، ويراعون أن الآخـرين سـوف يقيمونها فى الأداء.

فكل لقاء أو مواجهة مع شخص آخر ، تسفر عن عـدد لا يحصـى Myriad مـن الأدوار التى يمكن القيام بها . ففى المسرح – على سبيل المثال – تعـد التجهيـزات ويُعـد الديكور من أجل تقديم أفضل انطباع ممكن حول الأمل فى إنجـاز مجموعـة مـن النتـائج المرغوبة بعد مشاهدة المسرحية .

إن البحوث التى أجراها ليفر Lever وشوارتز Schwartz (١٩٧١) ، وشوارتز (١٩٧٣) ، ولوز Laws وشوارتز (١٩٧٧) ، على العزاب رواد البارات والمراقص ، أكدت على أهمية نموذج التحليل الدرامى لمواقف الحياة اليومية للتفاعلية الرمزيـة . فقـد تحولـت بارات العزاب Singles Bars بسرعة إلى نوع خاص من أماكن التسوق الجنسى Sexual Market Place ، حيث يتفاعل كل من الرجال والنساء بأنمـاط يمكـن التعـرف عليهـا Identifiable . فالذكور عادة يكرسون اللقاء أو المواجهة مع الإناث اللائى يمكن الاقتـران بهن فى حياة زوجية مستقبلية حسبما يتوقعون . إن كلاً من الرجل والمرأة يبحث عن "يترصد" Stalking شريك حياة ، ولكن كلاً منهما يفعل ذلك طبقاً لقواعد متفق عليها . فالرجل الـذى يأتى عادة بمفرده إلى البار ، لديه تصور تقليدى عن الرجولة وتكليفاتها ، تفـرض عليـه أن يبادر هو بأول خطوة نحو المرأة التى يريد اختيارها . أما المرأة التى تأتى إلى البار – ومعها صديقة واحدة لها على الأقل – فإنها تحرص على التعرف على الرجل أولاً ، ثم تقـرر بعـد ذلك ما إذا كانت تقبل أو ترفض مبادرته وخطواته للتحدث معها أو الشرب أو الرقص . كمـا أن المرأة التى وقع عليها الاختيار يجب أن تتحلل من ملازمـة صـديقاتها لهـا بطريقـة لا تشعرهن بالانفصال خاصة وأنهن يظللن " غير مرغوبات أو غير مفضـلات Unselected or Unwanted" وفى كل لقاء Encounter تستمر عمليات من التفاوض والحوار الـذاتى غير المنطوق ، والتفسير ، والاختيار [١٦].

إن هذه الأنواع من النصوص Scripts نقوم بها فى حياتنـا اليوميـة فـى مواقـف وحالات شتى ، مع بعض التنوع . إن ما يعرضه التحليل الدرامى لمواقف الحياة اليومية فـى

هذا السياق ، هو أن أدوار النوع الاجتماعى مقننة إلى درجة كبيرة، عن طريق مجموعة من النصوص المصممة للرجال ، ومجموعة أخرى صممت للنساء . وعلى الرغم من وجود قدر من السماح فى معدل اختيار السلوك فى كل نص ، إلا أن النتيجة المحتملة هى أن أدوار النوع الاجتماعى ذاتها تعزز المنافسة ، والاغتراب ، والرفض ، وتفتقر إلى كشف (فضح) الذات Self- Disclosure . وكما أشار لوز وشوارتز (١٩٧٧) ، فإن هذا النمط من اللقاءات السريعة ، والأحكام المتعجلة ، لا تحقق بداية إيجابية لعلاقة جادة .

والواقع أن النموذج الأكثر جدلاً عن النوع الاجتماعى وارتباطه بأنماط السلوك المختلفة ، قد قدمه ديوو Deaux وماجور Major (١٩٨٧) ، حيث ربطا بين مفاهيم التفاعلية الرمزية وعلم النفس الاجتماعى على نطاق واسع . افترض الباحثان فى هذا النموذج أن الأفعال تتأثر بتوقعات من يدركها ، والأنساق الذاتية للهدف أو المشروع Target علاوة على مفاتيح الموقف Situational Cues . وهذا النهج المبنى على التفاعل ، يتيح الفرصة للتنبؤ بكل من الثابت والمتغير من الفروق الجنسية فى السلوك ، كما أنه (النهج) يؤكد على ما يعتبره أنصار التفاعلية الرمزية شيئاً محورياً فى التفسير ، وفى الإطار الذى يحدث فيه السلوك . وهكذا يصبح النوع الاجتماعى عنصراً من التفاعلات المستمرة التى يبعث من خلالها المدركون توقعاتهم ومشروعاتهم أو أهدافهم الذاتية ، ويتفاوضون حول هويتهم الخاصة، وفى نفس الوقت يصبح هذا العنصر سياقاً يُشكل فيه التفاعل السلوك الناتج (النهائى). وقد أشار النموذج الذى قدماه إلى مدى تعقد التوقعات المرتبطة بالنوع الاجتماعى ، كما أنه يقدم إطار عمل مفيداً فى تحليل البيانات الميدانية المستمدة من مواقف متنوعة .

النموذج النظرى	صورة المجتمع	أسئلة توضيحية
البنائى الوظيفى structural functional	نسق من الأجزاء ذات العلاقات المتبادلة والمستقرة نسبياً . كل جزء يؤدى إلى مجموعة من النتائج الوظيفية اللازمة لأداء المجتمع ككل .	كيف يتكامل المجتمع ؟ ما هى الأجزاء الغالبة الرئيسية فى المجتمع ؟ كيف تتداخل العلاقات بين هذه الأجزاء ؟ ما هى النتائج التى يؤديها كل جزء من أجل أداء المجتمع كله؟
الصراعى الاجتماعى social confilict	تغلب على النسق خصائص اللامساواة الاجتماعية . فكل جزء من المجتمع يفيد بعض	كيف ينقسم المجتمع؟ ما هى الأنماط الرئيسية لعدم المساواة الاجتماعية ؟ كيف تسعى بعض فئات المجتمع

	الفئات الاجتماعية أكثر من غيرها . إن الصراع الذى يثيره عدم المساواة الاجتماعية يعزز التغير الاجتماعى.	وتسعى لحماية مزاياها ؟ ماذا تفعل الفئات الاجتماعية الأخرى لتحسين وضعها الاجتماعى ؟
التفاعلى الرمزى symbolic interaction	إنه عملية مستمرة من التفاعل الاجتماعى فى أطر ومواقف معينة تعتمد على التواصل الرمزى . إن إدراكات الفرد للواقع يعتمد على متغيرات عديدة علاوة على أنها متغيرة.	كيف ندرك المجتمع ؟ كيف يستطيع الإنسان فى تفاعله أن يولد التفاعل ويدعمه ويغير الأنماط الاجتماعية؟ كيف يحاول الأفراد تشكيل الواقع الذى يدركه الآخرون؟ كيف يمكن للسلوك الفردى أن يتغير من موقف لآخر؟

رابعاً : المنظور الأنثروبولوجى فى دراسة النوع الاجتماعى :

يحرص المنظور الأنثروبولوجى على الاهتمام بسمات الشخصية وعلاقتها بالثقافة السائدة. فالسلوك البشرى يتفاوت من مجتمع لآخر ، وتتفاوت معه سمات الشخصية والأدوار التى يقوم بها كل من الرجال والنساء . وإذا كانت الكثير من سمات الشخصية – كالذكورة والأنوثة – ترتبط ارتباطاً خفيفاً بالجنس ، إلا أنها وثيقة الارتباط من ناحية أخرى بقوة الظروف والأحوال الاجتماعية والثقافية .

تسوق الدراسات الأنثروبولوجية شواهد متفرقة على سكان بعض المجتمعات البسيطة، تدل على تفاوت السلوك وسمات الشخصية ، وتنعكس كذلك على النوع الاجتماعى والأدوار المرتبطة به . والشاهد الأول قدمه مسنجر Messenger عن سكان جزيرة إنيز بيج Inis Beag التى تبعد كثيراً عن ساحل أيرلندة ويسكنها ٣٥٠ نسمة ، ويعيشون أبسط حياة جنسية ، حيث يحرم السلوك الجنسى تماماً على غير المتزوجين . كما أن هؤلاء المتزوجين قد ارتبطوا بهذا النشاط الجنسى فحسب من أجل الإنجاب . والشاهد الثانى قدمه مارشال Marshal عن جزيرة مانجايا Mangaia على الجانب الآخر من العالم فى جنوب المحيط الهادى ، حيث

يبالغ سكانها فى الاهتمام بأجسادهم ويشجعون على اكتشافها بأنفسهم ، واكتشاف وتحرى أجساد الآخرين فى مرحلة عمرية مبكرة [١٧] .

كيف نفسر هذه الاتجاهات السلوكية المتباينة إلى حد كبير ، والتى تصدر عن سكان هاتين الجزيرتين ؟ إن ثقافتى "إنيز بيج" و "مانجايا" تلعبان دوراً حاسماً فى تشكيل تلك الممارسات الجنسية لكلتا الجماعتين . ما علاقة ذلك بالنوع الاجتماعى وأدواره بين سكان نيوغينيا ، وهل يعاد تشكيل أدوار النوع الاجتماعى التقليدية ، حتى صارت تشبه ما نسميه أو نعتبره بناءً اجتماعياً أكثر اعتماداً على المساواة egalitarian social structure.

الثقافة culture:

الثقافة هى جزء مكمل لكل جوانب حياتنا اليومية ، فهى تساعدنا على التكيف مع البيئة، وتضمن لنا استمرارنا فى التواصل مع ماضينا. إن فكرة أن الثقافة هى شئ ما ، عند القلة المختارة (الصفوة) ، تمتد بجذورها فى أنثروبولوجيا القرن التاسع عشر. فعندما نشر شارلز دارون C.Darwin كتابه" فى أصل الأنواع On The Origin Of Species ، تصوّر أن الكائنات الحية تطورت من أشكال وبنى بسيطة إلى بناءات وأشكال أكثر تعقيداً . **وعلى الفور ، امتد تأثير نظرية دارون عن التطور ليشمل كثيراً من علماء الأنثروبولوجيا** خلال القرن التاسع عشر ، الذين طبقوا هذه النظرية التطورية على تطور المجتمعات . وهكذا سادت النظرة إلى التطور الاجتماعى باعتبار أن الجماعات الاجتماعية يمكن وصفها بأنها قد تطورت من مستوى التوحش – وهو قاع المستوى البشرى – إلى جماعات متمدينة أو ذات ثقافة civilized or cultured فى قمة المستوى البشرى . وبالتالى صارت فكرة الثقافة الدنيا low culture ، والثقافة العليا high culture فكرة مقبولة على نحو شائع . ومع ذلك ، فإن النظرة الشائعة اليوم بين علماء الأنثروبولوجيا هى أن كل البشر لديهم ثقافة – بصرف النظر عن أساليب حياتهم lifestyles – وأن هذه الثقافة هى التى تميزهم عن غيرهم من الأنواع الحيوانية الأخرى [١٨].

مضامين الثقافة The contents of culture :

لعل أفضل فهم للثقافة هو النظر إليها باعتبارها كياناً يتضمن كل شئ يسهم فى تشكيل طريقة الحياة way of life . وهكذا يمكن القول بأن الثقافة تتكون من المعرفة المتراكمة، والقيم ، والتعبيرات الرمزية التى تستخدمها جماعة معينة من الشعب .

١- فالمعرفة knowledge : تشير إلى كل المعلومات التى تدور حول العالم ونشارك فيها . وقد تكون هذه المعرفة إمـــا إمبريقيـــة empirical أو تكـــون وجوديـــة فـــى شـــكلها existential والمعرفة الإمبريقية تتكون من المعلومات المكتسبة التى حصلتها الأجيـــال ومرت وانتقلت من جيل إلى آخر ، إنها تعتمد على البحث العلمى ، وصور الفهم المبنـــى على الحس الفطرى العام ، والتعاليم الدينية ، والمصادر الشـــفاهية والمكتوبـــة . وتلـــك المعرفة نحصلها من التعليم الدينى ، والمدارس ، وعلى منضدة الطعام ، وحول شـــعلات النار فى المعسكرات . أما المعرفة الوجودية فهى تتصل بالقضايا الأكثر تجريـــداً ، كمـــا أنها أكثر عرضة للتعامل معها وتناولها من خلال أسئلة معينة – على سبيل المثال– ومنها : لماذا نحن هنا ؟ ومن أين أتينا ؟ والغالب أن هذا النوع من المعرفـــة ، يعـــد المجـــال الرئيسى لكل من الفلسفة والدين .

٢- أما القيم Values فهى التصورات التى يشترك فيها أفراد المجتمع ، وتعبـــر عمـــا هـــو مرغوب فيه أو مقبول . فالحرية فى الثقافة الأمريكية – على سبيل المثال – والفرديـــة individuality والإنجاز achievement والنجاح ، والراحة المادية تعد قليلاً من كثير من القيم المقبولة على المستوى العام . كما تعد المعايير norms أو القواعد rules التى تحكم حياتنا اليومية ، أمثلة أخرى على بعض القيم التى تساعدنا فى صياغة معيشتنا .

٣- على حين تندرج التعبيرات الرمزية symbolic expressions للثقافـــة مـــن موســـيقى الهوتى Hootie و البلوفيش Blowfish إلى موسيقى باخ Bach ، وتندرج أيضاً مـــن الصور والرسومات واللوحات الزيتية فى أى معرض فنى ، إلـــى اللوحـــات الجداريـــة murals المرسومة بطريقة الرش على أحد جوانب المبنى ، ومـــن الـــرقص المـــدمر breakdancing إلى البالية ballet . وكل هذه التعبيـــرات الثقافيـــة (أشـــكال التعبيـــر الثقافى) تعكس التجارب والخبرات الشخصية لمبدعيها .

ومن هنا يمكن القول بأن الثقافة تأخذ أشكالاً مختلفة وعديدة . ولذلك فـــإن الأشـــكال التعبيرية فيها تعكس وتعبر بشكل أساسى عن كثير من الجوانب التى تكشف عن طريقة الناس فى اكتساب خبراتهم وتجاربهم بالعالم الذى يعيشون فيه ، والطريقة التى يتعاملون فيها بكفاءة وفاعلية مع البيئة التى تحيط بهم .

يعنيان معاً أدوات كل منهما من أجل البقاء survival وإذا كان الرمح يختلف تمام الاختلاف عن الحاسوب الشخصى ، إلا أنهما يعنيان نفس المعنى الواحد لكلا صاحبيهما معاً .

التمركز حول السلالة والنسبية الثقافية Ethnocentrism and C.Relativism:

إن الثقافة تجعلنا نضفى معنى على عالمنا الذى نعيش فيه ، كما أنها تتيح لنا الفرصة أن ننظم كل عناصره ومكوناته . وفى نفس الوقت ، فقد تعمينا الثقافة أو تفرض علينا أن نعتقد بأن طرق الفهم التى نتبعها ، وطرق وأساليب تنظيم العالم التى نستخدمها ، هى الوحيدة على مستوى العالم . ويميل الكثيرون منا إلى النظر إلى ثقافتنا على أنها الأسلوب الوحيد والأسلوب الصحيح لرؤية العالم . وعلى هذا فنحن نطلق على " الاعتقاد بأن طريقتنا هى الطريقة الوحيدة ، والطريقة الأفضل فى إدراك العالم " مفهوم التمركز حول السلالة ethnoncentrism .و على هذا ، فعندما نحكم على جماعة أخرى من خلال مستوياتنا ومقاييسنا الثقافية ، فإننا نصبح ضحايا التمركز حول السلالة بسقوطنا فيه . ولكننا لو نظرنا – من ناحية أخرى – إلى الجماعات الأخرى من خلال قيمهم ومعتقداتهم وأساليب حياتهم المختلفة ، ولاحظنا أن هذه القيم والمعتقدات وأساليب الحياة التى تتبعها هى طرقها وأساليبها فى التكيف مع ظروفها المعيشية التى تختلف عن ظروفنا نحن إلى حد كبير ، فإننا – فى هذه الحالة – نتبنى المنظور النسبى للثقافة (منظور النسبية الثقافية cultural relativistic perspective (انظر Landrine 1995) .

وبهذه النظرة السريعة والمختصرة لمفهوم الثقافة ، يمكن التطرق بعد ذلك إلى تأثيرها على أدوار النوع الاجتماعى كما تبدو فى مجتمعات مختلفة . لقد تفاعل النساء مع الرجال على مدى قرون عديدة ، ويمكن لنا أن نتعلم كثيراً عن أدوار النوع الاجتماعى فى حاضرنا الآن ، من خلال محاولة تفهمنا وإدراكنا أن طرقنا وأساليبنا التى نتبعها نحن ، ليست الوحيدة، وليست الصحيحة لمثل هذا التفاعل حتى يبدو واضحاً للعيان .

أدوار النوع الاجتماعى فى غينيا الجديدة :

فى بداية ثلاثينيات القرن العشرين ، سعت الأنثروبولوجية الأمريكية مارجريت ميد M. Mead للتعرف على الأساليب والطرق التى تستخدمها بعض المجتمعات قبل الكتابية العديدة فى شمال شرقى غينيا الجديدة ، فى تحديدها لأدوار النوع الاجتماعى وتعريفها لها . وهناك وجدت مارجريت ميد مادة ميدانية لما صار يُعرف فيما بعد بأدوار النوع الاجتماعى ، فصارت أساساً لدراسة كلاسيكية رائدة فى الموضوع تحت عنوان : " الجنس والمزاج

خصائص الثقافة The characteristics of culture:

يغلب على عناصر أية ثقافة معينة أنها مكتسبة بالتعلم leraned ، ولا تنتقل من جيل سابق إلى جيل لاحق عن طريق الجينات genes الموروثة . فالشخص يتعلم ثقافته أو ثقافتها من الآخرين ، ومن أعضاء الأسرة حيناً ، ومن الأقران peers حيناً آخر ، أو من التلفزيون.(١٨)

ويغلب على الثقافة من ناحية أخرى أنها مشتركة بين جميع أعضاء أية جماعة . بمعنى أنهم جميعاً يتفقون على الأفكار وأنماط السلوك ، والرموز التى تتشكل منها الثقافة ، ويتفقون أيضاً على معانيها . فالتقاليد والمعرفة الشائعة بين بعض الجماعات – مثل جماعة الأقزام pygmies الأفارقة – يشترك فيها الجميع بطريقة موحدة ويتفقون أيضاً على كل عناصرها. غير أنه فى الجماعات الأكبر حجماً والأكثر تعقيداً ، كالمجتمع الأمريكى حيث توجد العديد من الجماعات العرقية ، والديانات المختلفة ، التى تتصل ببعضها وتتفاعل مع بعضها ، قد نجد ثقافات فرعية subcultures ، وثقافات مضادة countercultures متنوعة . وتساهم فى الثقافة الفرعية كثير من نفس العناصر الثقافية التى تضمها الثقافة الأكبر (الأم) ، ومع ذلك فللأولى (الثقافة الفرعية) ما يميزها من القيم والمعايير وأسلوب الحياة الخاصة بها .

وهذا هو شأن الأقلية العرقية ethnic minorty المتميزة فى ثقافتها الخاصة والتى ترتبط ببقعة من الأرض على سبيل المثال المدن الصينية فى نيويورك . ومن الممكن القول أيضاً بأن الثقافة المضادة هى ثقافة فرعية ، وهذا يفرض وجود ملامح أساسية معينة من الثقافة الأكبر السائدة . ومن الأمثلة على ذلك ملائكة جهنم Hell's Angels ونادى السيارات motorcycle club .

وعلى الرغم من أننا قد نندهش وننبهر بالرماح والحراب spears التى يستخدمها صيادو غابة إيتورى Ituri من الأقزام ، أو ننبهر من أجهزة الكمبيوتر الشخصى التى يستخدمها وسطاء البورصة التجارية (سماسرة الأسهم بالبورصة stock brokers) ، إلا أن العناصر المادية الصناعية كالحراب والرماح ، وأجهزة الحاسوب، والموسيقى ، والرسم وما شاكلها ليست هى الملمح الأكثر أهمية لثقافة من الثقافات . ولكن بالأحرى هو أن الملمح الأكثر أهمية يتمثل فى المعنى الذى تتضمنه هذه المنتجات المادية بالنسبة للناس الذين ينتمون إليها . فالحربة أو الرمح عند القزم ، والحاسوب الشخصى عند سمسار البورصة المالية

(الطبـــاع) فـــى ثلاثـــة مجتمعـــات بدائيـــة Sex and Tempertament In The Three Primitive Societies (1935/ 1963) وهذه المجتمعات الثلاثة هى : الأرابش Arapesh والماندوجمور Mundugumor والتشامبولى Tchambuli ، حيث تسود لديها مفاهيم أكثر اختلافاً لما يتوقع من النساء والرجال . ولنحاول الآن أن نتفحص كلاً من هــذه المجتمعـــات الثلاثة لكى نعرف– من الواقع المعاش – كيف أنهم يفهمون الذكورة masculinity والأنوثة femininity بشكل يختلف عنا تمام الاختلاف .

(١) مجتمع الأرابش Arapesh:

واجهت مارجريت ميد أولاً الأرابش سكان الجبل فى منطقة يحدها البحر من الشمال ، وتمتد خلفه إلى جبال ساحلية ومناطق السهول العشبية إلى الجنوب . كانت حياة هذا المجتمـــع منظمة ، كما وصفتها ميد بقولها : " إن حياة الأرابش منظمة ... بطريقة عامة مجازفة ، فهم مجتمع أمومى maternal أساساً ، ومعتز بنفسه ، وإيثارى بمعنى أنه موجه – بعيداً عن ذاته – نحو تلبية حاجات الجيل القادم " . ولذلك فقد استخدمت ميد مصطلحات تصـــف بهـــا هـــذا المجتمع بأنه متعـــاون cooperative ،وغيـــر مُصـــر علـــى تأكيـــد حقوقـــه (متســـامح) unassertive، ومهذب gentle، ويصدق ذلك على النساء والرجال على السواء . ففى مجال رعاية الأطفال ، أو مراعاة المحاصيل الزراعية ، يهتم كل مـــن النســـاء والرجـــال بالعمـــل التعاونى معاً من أجل خير المجتمع ككل. كما يُعد السلوك العدوانى ممنوعاً ومقيداً تماماً فـــى هذا المجتمع . فالرجل من الأرابش ، الذى يُظهر أو يكشف عـــن ســـلوك عـــدوانى – وهـــو العنصر الجوهرى المفضل لدور الذكور فى كـــل المجتمعـــات الأخـــرى – يتعـــرض للنبـــذ ostracism من الجماعة ، لأنه أبدى سلوكاً منحرفاً . وإذا كانت المنافسة جزءاً مكملاً لدور النوع الاجتماعى المتوقع للرجل الأمريكى ، فإنها لو ظهرت فى أى شكل بين رجال ونســـاء الأرابش ، فإنها تعتبر فضيحة لمن شارك فيها . وعلى هذا تكون المكانة والهيبة status and prestige فى مجتمع الأرابش تمنح فقط لأولئك الذين يشاركون ويتعاونون مـــع الجماعـــة . ولذلك فقد وصفت مارجريت ميد نساء الأرابش ورجاله ، فى ضوء ما يسود لـــدى الغـــربيين حول الأنوثة وما يرتبط بها . ولكن السمات الأكثر إبهاراً لمارجريت ميد فى مجتمع الأرابش كانت تتلخص فى الشخصية الراعية (المهتمة) والمتعاونة ، والمهذبـــة ، والمحبـــة للغيـــر ، والمحايدة nutrant والمشاركة والإيثارية (إنكار الذات).

وفى ضوء كلمات ميد فى وصف الأرابش تقول : " إن العالم يعنى لـديهم حديقـة ، يجب أن تزرع وتعمر لا من أجل الذات ، ولا من أجل الفخر والتباهى والشـهرة ، ولا مـن أجل الصعود لأعلى والتعامل بالربا الفاحش usury ، وإنما تزرع وتعمر من أجل نمو اليـام (البطاطا الصينية) Yams والكلاب والخنازير ونحن وأطفالنا . و من هذا الاتجـاه الكلـى ، تنبثق مجموعة من سمات الأرابش الأخرى، وهى غياب الصراع بين الشـباب والمسـنين ، وعدم وجود أى توقع للغيرة أو الحسد، والتأكيد الواضح على التعاون . فمن اليسـير تحقيـق التعاون عندما تنصهر قلوب ومشاعر الجميع فى بوتقة مشروع عام لا يمكن لواحد فقط مـن المشاركين فيه أن يحقق مكسباً فردياً . وعلى هذا يتحدد المفهوم السائد عن الرجال والنساء فى القول بضرورة النظرة إلى الرجال والاهتمام بهم ، مثلما ننظر إلى المرأة ، باعتبارهم مهذبين فى أهدافهم ويقدمون الرعاية الأبوية .

(٢) مجمع الماندوجمور The Mundugumor :

كان أبناء مجتمع الماندوجمور معروفين بممارستهم الكانيبالية – أى أكل لحوم البشـر cannibalism – وسعيهم الحثيث نحو تحقيق الرفاهية . وحينما درست مارجيت ميد هـذا المجتمع، وصفت الرجل من خلال وصفها للحيـاة هنـاك كمعركـة متواصـلة لا تتوقـف constant battle : " فالرجل من مجتمع ماندوجمور كان فى بداية حياته طفلاً وُلد فى عالم عدائى hostile world، وهذا العالم يغلب على معظم أعضائه من جنسـه الـذكورى أنهـم سيكونون أعداءه، كما يرتكز الاستعداد الغالب لتحقيق النجاح فى هذا العالم ، على القدرة على العنف ؛ العنف من أجل الانتقام من التحقير والثأر للإهانة avenging insult ، العنف مـن أجل الحفاظ على أمنه وسلامته وحتى يكون أمن وسلامة الآخرين أكثر خفة. وعلى هذا يكون الرجل منذ مولده يعيش على مسرح الأحداث stage الذى يساهم فى تكوين شخصيته وتحديد نوع سلوكه (Mead, 189) .

ونظراً لأن الأم فى مجتمع ماندوجمور ، ترى أن واجباتها الأمومية عـبء ثقيـل burdensome ولا تحظى بالتقدير أو المكافأة ، فالطفل يتعلم بسرعة فى هذا الوضع كيـف يرعى نفسه ويعولها سواء كان ولداً أو بنتاً . إن الخبرات المبكرة للطفل عـن إهمـال الأم ، ورفضها رعايته ، يدعم فيه الاعتماد على النفس بدرجة ما ، وهذا يساعد على تعزيز السمات الشخصية لدى أبناء المجتمع ، فيصبح غالبيتهم يعتزون بالإبقاء على المنافسـة والعـدوان . وبالتالى فإن أى مظهر للرقة tenderness أو الطيبة kindness تجاه الآخر ، يقابل بالرفض

الشديد من أبناء المجتمع . وعلى هذا فإن ابن الماندوجمور الذى يذعن submissive أو ينسحب withdrawn أو يكون رقيقاً مهذباً، ينظر إليه المجتمع ككل على أنه غير صالح misfit ويجب تحاشيه shunned. والحياة عند الماندوجمور إذن هى عبارة عن تجربة اختبار القوة trial فالشخص الوحيد الأكثر ملاءمة وصلاحية – أى العدوانى والعنيد – هو الذى يفوز فى التجربة ، وعلى أثرها يشغل مكانة الشرف ويحظى بالاحترام .

وهكذا وجدت مارجريت ميد تشابهاً أساسياً بين كلا المجتمعين : الأرابش والماندوجمور . فقد تطبع النساء والرجال معاً على تلك الخصائص المماثلة فى الشخصية ونشأوا جميعاً عليها. فقد أكد الماندوجمور أساساً على سمة التمركز حول الذات بشكل فظ harsh self-centredness ، بينما عزز الأرابش التمركز حول الآخرين بشكل أرق gentler other- centredness .

(٣) مجتمع التشامبولى The Tchambuly:

يعيش هذا المجتمع حول بحيرة آيبوم Aibom ، بالاعتماد على الصيد بصفة أساسية، ولذلك كانت أدوار النوع الاجتماعى المعتادة هناك ، تختلف عما نعرفه فى المجتمعات الغربية تماماً . فالنساء – على سبيل المثال – فى هذا المجتمع هن المسئولات عن العمل والنشاط الاقتصادى فى القرية . فالنساء هن اللائى يكسبن النقود التى تلزم لإعاشة الأسرة ، وهن المسئولات عن الزراعة ، وصيد السمك ، وصناعة الأدوات التى تحتاجها القرية ، علاوة على أنهن يتخذن القرارات التى تؤثر فى القرية ككل (مثل إبداء موافقتهن على الزيجات) . وهكذا غلب على نسوة التشامبولى سهولة الحركة easygoing ، والعمل الجاد hard working والجدارة بالثقة reliable . وبصفة عامة فقد شاع جو من اللطف ودماثة الخلق affability بين نساء القرية .

أما الرجال فى مجتمع التشامبولى ، فقد كانوا من الناحية الأخرى ، يعتبرون الجنس الأضعف weaker sex . ولذلك فقد كانت اهتماماتهم تبدو فقط فى زينتهم الخاصة their own adornment ، ومطارداتهم الخاصة المبالغ فيها self aggrandizing pursuits . إنهم يقضون أيامهم فى صحبة الرجال الآخرين ، يناقشون عاداتهم ، وزينة أجسادهم . وقد أصبح رجال التشامبولى يخجلون حينما يرون النساء ، ويبدون فيما لو كانوا يرهبون من الجنس الآخر . تقول ميد (P. 245) : " يبدو أن الرجل التشامبولى يعيش أساساً من أجل الفن . فكل رجل يعتبر فناناً ، ومعظم الرجال لا يتصفون بالمهارة الفائقة فى فن واحد فقط ، وإنما

يتفوقون ويمهرون فى كثير من الفنون معاً كالرقص ، والنحت carving . والجدل plaiting وغيرها . وكل رجل يرتبط بشكل أساسى بدوره الذى يؤديه على مسرح الحياة فى مجتمعه ، ويهتم بزخرفة elaboration ملابسه ، وبجمال القناع الذى يمتلكه ، وتنمية مهارته الخاصة فى العزف على الفلوت flute-playing ، وكذلك الاهتمام بإنهاء وأداء طقوسه الاحتفالية على وجهها الأكمل ، وإدراكه تقييم وإلمام الناس الآخرين بأدائه لدوره .

وفى ضوء هذه الدراسات الثلاث التى قدمتها مارجريت ميد لنا، فإنها قد أكدت من خلال مجتمعات الأرابش ، والماندوجمور والتشامبولى على الإدراك المتزايد لمدى تنوع أدوار النوع الاجتماعى الذى تمارسه المجتمعات . ولكننا مع ذلك ، يجب ألا نقول إن جميع علماء الأنثروبولوجيا يقبلون ما قدمته ميد حول تأكيد الحتمية الثقافية cultural determininism وتدعيمها ، كمفهوم تفسيرى يكمن خلف أدوار النوع الاجتماعى . وقد رأى بعض الأنثروبولوجيين – بصفة خاصة – أن بحث مارجريت ميد حول مرونة النوع الاجتماعى ، يعد مضللاً ، إذا لم تعالج عيوبه بجدية (ومن هؤلاء Freeman, 1983) . وسواء قبلنا أطروحات ميد حول الدور المؤثر فى تشكيل الثقافة للسلوك الصادر عن النوع الاجتماعى ، أو رفضناها ، فإن البعض قد يطرح فكرة أهمية الثقافة أو أن الثقافة هى العامل الأهم – إن لم تكن هى كل العوامل – فى تشكيل تقديم النوع الاجتماعى لنفسه .

العموميات الثقافية وأدوار النوع الاجتماعى Cultural Uiversals & Gender Roles:

سبقت الإشارة مرات للتأكيد على تنوع الثقافات العديدة وتبايناتها حول ما يتعلق بأدوار النوع الاجتماعى . ومع ذلك، ألا توجد ملامح معينة مرتبطة بالنوع الاجتماعى والتى يمكن أن توجد فى كل المجتمعات – أو كلها تقريباً – ذات التقاليد والتراث الثقافى المختلف على مدى واسع؟ وبكلمات أخرى ، ألا توجد ما يسميه علماء الأنثروبولوجيا بالعموميات الثقافية Cultural universals التى ترتبط بالسلوكيات الخاصة بالنوع الاجتماعى أو ملامح أدوار النوع الاجتماعى؟ وللإجابة على هذا السؤال نقول : نعم . فنحن الآن سنوجه اهتمامنا نحو مناطق عديدة، حيث تظهر فيها بعض الإجماع unanimity – بين جماعات بشرية مختلفة – على التوقعات المنتظرة من سلوك النساء والرجال .

وسوف نبدأ مناقشتنا لهذا الموضوع – العموميات الثقافية فيما يلى :

(أ) بفحص الأنماط السلوكية الراسخة والمستقرة ، التى تقوم فيها النساء بمهام معينة ، ويقوم الرجال بالمهام الأخرى . وهذا النمط الراسخ هو عادة ما يشار إليه بنمط تقسيم العمل division of labor .

(ب) والخطوة الثانية هى التركيز البؤرى على نمط سيطرة الرجال على النساء فى سياقات ثقافية بالغة التباين .

(جـ) وأخيراً نتفحص استثناءات الملمح العمومى الذى يؤكد على وجود نمطين فقط قاصرين نسبياً على أدوار النوع الاجتماعى ، وذلك باستعراض ثقافات عديدة أخرى تحوى أكثر من هذين النمطين لأدوار النوع الاجتماعى .

خامساً : صورة الرجل والمرأة فى مجتمعات زراعية مختلفة :

يميز الأنثروبولوجيون بين نمطين من النظم الزراعية ، وهما الزراعة المتنقلة shifting agriculture والزراعة المستقرة plowing agriculture . أما **النمط الأول** فهو يعتمد على تنظيف منطقة من الأشجار والأعشاب ، وحرقها ، وزراعة البذور مكانها . ومع سقوط الأمطار تنمو البذور ويكبر المحصول ثم يحصده المزارعون ليقتاتوا به . وتستخدم هذه الطريقة – فى تلك الأرض – لمدة عامين أو ثلاثة ، وعندما تضعف التربة ، يهجرونها ويبحثون عن مكان آخر ليزرعوه بعد تنظيفه بنفس الطريقة ، وهكذا دواليك . والغالب على التكنولوجيا المستخدمة هنا البساطة الشديدة وتتمثل فى العصى التى يحفرون بها .

أما **النمط الثانى** فهو الزراعة المستقرة التى إما هى تستخدم المحراث والأسمدة، أو أعمال الرى المنتظم فى زراعة الأرض . وهكذا يستخدم المزارعون الحيوانات الأليفة فى تمهيد وإصلاح هذه الأرض وزراعتها . وهذا شكل تكنولوجى متقدم من الزراعة ، وهو الشكل الأكثر انتشاراً على مستوى العالم اليوم . أما الزراعة المتنقلة – النمط الأول – فقد كان سائداً فى أفريقيا، وجزر المحيط الهادى ، والأمريكتين (١٩).

وفى هذا الصدد فقد أشار إيستر بوسيروب Ester Boserup – الباحث والمستشار لدى الأمم المتحدة والعديد من المنظمات الدولية الأخرى – فى عام ١٩٧٠ ، إلى أن الزراعة المتنقلة هى نمط نسائى للزراعة ، وأن الزراعة المستقرة هى نمط رجالى . فقد لاحظ فى أفريقيا – التى اتخذها مثالاً توضيحياً لثقافة الزراعة المتنقلة – أن هذا النمط يسود فى كل إقليم الكنغو ، وأجزاء من جنوب شرق أفريقيا ، وشرقها ، وأجزاء أخرى من غربها . فالرجال

(الفتيان) يساعدون فى إسقاط الأشجار واقتلاعهـا ، وحفـر الأرض ، وإعـدادها لزراعـة محاصيل أخرى . أما معظم العمل الزراعى فى رعاية المحاصيل بالحقل – بما فى ذلك بـذر البذور Sowing والتخلص من الأعشاب الضارة weeding ، والحصاد harvesting – فقد كانت تقوم به النساء . فى الوقت الذى كان الرجال فيه مشغولين بالصيد والحروب والإعـداد لها .

والجدير بالذكر أن النمط النسائى فى الزراعة المتنقلة ، قد ساعد على انتشـار نمـط الزواج التعددى (تعدد الزوجات) polygyny الذى ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالظروف الاقتصادية. ففى هذه المجتمعات الزراعية المحلية ، كلما كثرت زوجات الرجل ، كلمـا اتسـعت رقعـة الأرض التى يمكن زراعتها . وهذا ينعكس عليه إيجابياً فى صورة زيـادة ثروتـه وارتفـاع هيبته. وفى هذا النمط من الزواج التعددى ، يكون للرجل مثنى وثلاث من الزوجات ، تعـيش كل زوجة فى مسكن مستقل ، وتزرع أرضها الخاصة ، وتطعم أولادها . وفى هـذه المزيـة الاقتصادية– لتعدد الزوجات – ما يؤدى إلى زيادة أهمية المرأة وارتفاع مكانتهـا . والـدليل على ذلك ، أن حجم المهر الذى يدفعه العريس لأهل الزوجة هو مهر كبيـر ومـأمول مـن العريس bridegroom . ومع تمتع المرأة بمكانة عالية نسبياً ، فإنها تتمتع بقدر كبيـر مـن الحرية ، وقدر آخر أكبر من الاستقلال الاقتصادى الناتج عن بيع بعـض محاصـيلها هـى الخاصة .

ولعل القدرة على بيع المرأة لأحد محاصيلها الخاصة ، تعد مؤشراً هامـاً ودالاً علـى النمط النسائى للزراعة . ولذلك نجد أن المناطق الأفريقية التى تسيطر فيها النساء على تجارة الأغذية بأسواق الريف والحضر ، هى عادة تلك المناطق التـى تتسـم بتقاليـد وخصـائص الزراعة النسائية . ومن تلك المنتجات الزراعية : الفاكهة والخضـروات والألبـان والبـيض والدواجن وكلها تبيعها النساء . وهكذا تشكلت الاتحادات النسائية التجارية ، وأتاحت للنسـاء مزيداً من القوة power . وهكذا يؤكد بوسيروب على أن التراث الثقافى للزراعة النسـائية ، والانخراط فى تجارة السوق التقليدى ، قد حقق للمرأة مكانة اجتماعية أعلى نسبياً ، وإحـلالاً وتواجداً فى القطاع التجارى الحديث فى الدول الأفريقية المستقلة المعاصرة ، أكثر مما حقـق لها عصر التحديث الذى أنجزته أية دولة.

وعلى الرغم من انتشار الزراعة المتنقلة فى أفريقيا فى الماضى ، إلا انهـا لـم تعـد منتشرة الآن بشكل واسع . كذلك فهى توجد فى أمريكا اللاتينيـة (فـى بعـض مجتمعاتهـا

المحلية)، وفى بعض مناطق الهند ولاوس . ففى هذه المناطق تعتمد الزراعة المتنقلة أساساً على عمل النساء وحدهن. وإذا كان الأوربيون أطلقوا على الأفارقة لقب الرجل الكسول lazyman ، فلا يزال هذا اللقب صحيحاً فى إطلاقه على الرجال فى المجتمعات التى تعتمد على الزراعة المتنقلة ،وهكذا يطبقه الأوربيون ، وشعوب الزراعة المستقرة على رجال الزراعة المتنقلة [٢٠].

وهكذا اكتشف الفيتناميون أن أبناء المجتمعات المحلية بأمريكا اللاتينية – الذين يمارسون الزراعة المتنقلة والزراعة النسائية – يعد الرجال فيها مزارعين كسالى ، وأن الهنود لديهم نفس الرأى عن قبائل المانيبور Manipur (فى الشمال الشرقى بالهند) الذين يمارسون الزراعة المتنقلة والنسائية . وهكذا فهم يسلمون بأن النساء يجب أن يعملن ، ولذلك صار من المألوف أن تسمع الرجال يقضون وقتهم دائماً فى فراغ لا قيمة له ولا يعملون شيئاً مفيداً .

والجدير بالذكر أن هذا الحكم القيمى الذى تتضمنه تصنيفات الرجال – الكسالى Izay-men يعكس تحيزاً للتمركز حول السلالة (التعصب العرقى) ethnocentric bias لدى أولئك الذين لا يعتقدون فى صدق هذا الشكل من الزراعة ، أو لا يمارسونه. إن توزيعات أدوار النوع الاجتماعى لا تعكس اتجاهاً كسولاً بقدر ما تعكس شكلاً متميزاً من الشراكة الاقتصادية أو المشروع الاقتصادى economic enterprise .

ففى المناطق التى تمارس الزراعة المستقرة ، فإن منظور بوسيروب يرى أن تقسيم العمل بين النوعين (الرجال – النساء) يختلف اختلافاً كلياً عن نظيره فى المجتمعات التى تمارس الزراعة المتنقلة. حيث تتكون قوة العمل الزراعى أساساً من الرجال ، وأن النساء يستبعدن تقريباً من أعمال الحقل . ولذلك نجد أن معظم الأساليب الفنية المرتبطة بهذه الزراعة المستقرة – على سبيل المثال – تعتمد على زراعة الأرض باستخدام الحيوانات الأليفة ، وأن الرجال هم الذين يتولون القيام بهذه الأعمال . فى حين تتفرغ النساء للعمل المنزلى والواجبات المنزلية ورعاية وتربية بعض الحيوانات . ولعل هذا هو السبب الذى جعل بوسيروب يصنف الزراعة المستقرة على أنها نظام للزراعة الرجالية أو الذكورية . [٢١]

ومن الواضح أن النظام الذكورى فى الزراعة يرتبط بالمكانة المتدنية والمعاملة الأدنى للنساء . بينما فى ظل النظم الأنثوية للزراعة ، يدفع الرجال مهراً لأسرة الفتاة التى يريدون الزواج منها، على حين فى المجتمعات التى تسودها ثقافة الزراعة المستقرة تقوم أسرة الفتاة

عادة بدفع المهر dowry للرجل الراغب فى الزواج . ومع تضاؤل الأهمية الاقتصادية للنساء، تقل نسبة حالات تعدد الزوجات polygyny إلى حدها الأدنى بشكل ملحوظ . وحيثما يقع تعدد الزوجات فى ثقافات الزراعات المستقرة – وخاصة فى آسيا – فإنه لا يرتبط بشكل وثيق بالظروف الاقتصادية المتعلقة بالزراعة . إضافة إلى ذلك فإن هناك عاملاً آخر هاماً يسهم فى انخفاض مكانة النساء ، وهو اعتمادهن الكامل تقريباً على أزواجهن .

والحقيقة أن تدنى القيمة الاقتصادية للنساء ، تعزى إلى عدم الترحيب بولادة الإناث . ففى بعض الحالات المتطرفة ، كانت الصين والهند تمارسان قتل الأطفال من الإناث female infanticide . ففى المجتمعات المحلية شمالى الهند ، حيث كان نصيب النساء من العمل الزراعى يتضاءل ، كان الآباء يتحسرون ويندبون حظوظهم على إنجاب الإناث ، اللائى كن يعتبرن أعباءً اقتصادية burdens ، علاوة على أنهن يكلفن الآباء تدبير مهورهن . وهكذا أصبح من المعتاد تحديد عدد البنات على قيد الحياة من خلال ممارسة قتل الإناث . وعلى الرغم من انحسار هذه الممارسة الآن واختفائها ، إلا أن بعض صورها وشواهدها لا تزال قائمة حتى الآن فى صور شتى ، منها حسن معاملة الأولاد عن البنات فى مجالات التغذية nutrition والملبس clothing ، والرعاية الصحية . وبالتالى تكون النتيجة هى ارتفاع معدلات وفيات الأطفال الإناث عن الذكور بشكل ملحوظ . وعلى الرغم من اختفاء ممارسة قتل الإناث فى الوقت الحاضر ، إلا أن إهمال الأطفال من الإناث لا يزال قائماً حتى الآن .

والواقع أن المرأة لم تكن مستبعدة فقط من العمل بالحقول فى نظام الزراعة المستقرة، ولكنها كانت أيضاً مستبعدة من الحياة العامة. وقد حل ارتفاع القيمة الجنسية للمرأة محل فقدان الوظيفة الاقتصادية لها . والأكثر إثارة للسخرية ironically أن القيمة الجنسية التناسلية المتزايدة للنساء ، كانت تُفسر فى ضوء الاعتقاد فى ضرورة ضبطها . وقد اتخذ هذا الضبط طرقاً شتى ، ومنها عزل النساء واستبعادهن ، والتمثيل mutilating بأجسادهن وتشويهها ، وقتلهن killing . ولو نظرنا أولاً فى الطريقة الأسوأ فى التحكم فيهن ، لوجدناها تتمثل فى "السوتيه " suttee – فى الثقافة الهندية المستقرة – الذى يعنى حرق الزوجة مع زوجها المتوفى فى كومة النار المشتعلة لإتمام طقوس جنازته ، وهذه كانت ممارسة شائعة فى الهند ، قبل تحريمها فى القرن التاسع عشر . وفى الصين كان تقييد القدم footbinding ممارسة شائعة لإجبار النساء وإكراههن .

وفى **حالة الصين** كانت ممارسة تقييد الأقدام شائعة ، حيث تقيد أقدام الفتيات فى سن يتراوح ما بين ٥- ٧ سنوات. وقد وفدت هذه الممارسة إلى الصين فى القرن العاشر الميلادى، واستمرت فيها حتى أربعينيات القرن العشرين ، على الرغم من أنها قد ألغيت رسمياً فى عام ١٩١١ . ففى الظاهر ostensibly كانت النظرة الرومانسية للقدم المقيد ، تعتبره مؤشراً دالاً على الأنوثة والجمال ، ولكن الواقع انه أصبح رمزاً دالاً على الدور التابع أو دون المستوى subordinate الذى تقوم به المرأة فى الصين. ولذلك جاء المثل الشعبى الصينى ليحدد الحكمةَ الجوهرية لهذه الممارسة فيقول : " إن تقييد الأقدام لا يقصد إضفاء الجمال عليهما كالقوس المنحنى ، ولكنه يقصد تقييد النساء حينما يخرجن من بيوتهن"[٢٢].

إن عملية تقييد الأقدام كانت مؤلمة جدًا، لأنها تتطلب تطويع الأصابع الأربعة للقدم تحت القدم نفسه والضغط عليها. وبالتالى تربط الأصابع بقاع القدم بأربطة قوية، وتجبر البنت على المشى وهى تلبس الحذاء الأصغر من قدمها، حتى يصغر حجم القدم – خلال مدة تتراوح ما بين ٢-٣ سنوات – بمقدار ثلاث أو أربع بوصات فى الطول من عقب القدم heel حتى طرف الأصبع toe.

سادساً : مشاركة المرأة العربية فى الحياة العامة (١٩٨٠-١٩٩٠) :

لقد برزت قضايا المرأة منذ عام ١٩٧٥ – السنة الدولية للمرأة – حيث أثيرت موضوعات اهتمامات المرأة women interests أو احتياجات المرأة women's needs ومشروعيتها. والواقع أن للرجال والنساء أدواراً مختلفة، وبالتالى احتياجات واهتمامات تختلف باختلاف المجتمعات والثقافات والبيئات.

وفى ضوء هذه المناقشات، ومدى ارتباط الاهتمامات والاحتياجات بالنوع الاجتماعى، صكت الحركات والاتجاهات النسوية مفهومين جديدين، وميزت بينهما، وهما [٢٤]:

١- احتياجات النوع الاجتماعى العملية Practical Gender Needs (PGNs) ويعنى المفهوم إنجاز المهام المحددة للنساء والرجال فى إطار تقسيم النوع الاجتماعى للعمل، وهو يتضمن المدى القصير والاحتياجات اليومية كتوفير الأكل والماء والطاقة، وقد تكون تلبيتها من مسئوليات المرأة، وقد تكون مشتركة بينها وبين الرجل على حسب أدوار النوع الاجتماعى ومحدداتها الاجتماعية والثقافية القائمة فعلاً.

٢- احتياجات النوع الاجتماعي الاستراتيجية Strategic Gender Needs (SGNs)

وهو مفهوم يسعى لتغيير الوضع الاجتماعي للمرأة، ويتجاوز الأدوار القائمة فعلاً ليصل - حسب تصوره - إلى وضع أكثر عدالة وإنصافاً للمرأة على المدى الطويل، وبالتالي يحدد الاحتياجات التالية :

أ-أمن المرأة الشخصيي وحمايتها من العنف.

ب- إزالة جميع أشكال التمييز في المجال المالي والثقافي بالمعنى الشامل.

ج- المساواة في التعليم.

د- التقليص من أعباء العمل المنزلي.

هـ - التقسيم العادل في مجال العمل بشكل عام.

و- الاختيار الحر، والاستقلالية في مجال الإنجاب.

والملاحظ أن معظم هذه الاحتياجات الاستراتيجية، لا تستقيم مع الأطر الاجتماعية والثقافية التي نعيشها في مجتمعاتنا العربية الإسلامية، كما أنها تتعارض مع الطبيعة البيولوجية ذاتها لكل من الرجل والمرأة، علاوة على أنها مبالغات تستهدف الإطاحة بالقيم الإسلامية وفرض القيم الغربية التي لم تنصف المرأة الغربية نفسها (لا في الأجور والعمل ولا في الذمة المالية، ولا في استقلالية الشخصية والهوية بعد الزواج) وماذا تعني الاستقلالية في مجال الإنجاب؟ وما تأثيرها على الأنساب وسائر الحقوق الشرعية؟

إن مجتمعاتنا العربية الإسلامية أعطت للمرأة الذمة المالية الخاصة بها، وساوت بينها وبين الرجل في التعليم والعمل والأجور، بل فضلت المرأة على الرجل في تشريعات اجتماعية كاجازة الوضع، ورعاية الطفل، ورعاية الأسرة، كما احتفظت لها باسمها وهويتها بعد الزواج فلا تحمل اسم عائلة الزوج وتفقد اسم عائلتها الأصلية. كما فضلت المرأة على الرجل في الميراث في كثير من الحالات حسب درجة القرابة.

وللتدليل على ذلك نسوق بعض البيانات الإحصائية حول مشاركة المرأة العربية في الحياة العامة - في سنوات مختلفة - السياسية والاقتصادية والتعليمية، لنرى وضع المرأة في مجتمعاتنا العربية إيجاباً وسلباً، مع مراعاة بعض التحفظ على الإحصاءات في عالمنا العربي والعالم الثالث ككل.

(١) مشاركة المرأة فى الحياة السياسية : شهت الثمانينيات والتسعينيات تحسناً فى الوضع الاجتماعى للمرأة، وزيادة فى مشاركتها السياسية، حيث صارت عضواً فى البرلمان ، كما أصبحت تشارك فى صنع القرار الحكومى سواء على المستوى الوزارى أو دون الوزارى. ولكن نسبة هذه المشاركة تختلف باختلاف الدول العربية. وقد أجرى مركز المرأة العربية للتدريب والبحوث (كوترCAWTAR) تصنيفاً للمجتمعات العربية إلى أربع فئات هى [٢٥]:

م	الفئة (المجموعة)	الدول التى تمثلها
١	دول مجلس التعاون الخليجى	البحرين – الكويت – عمان – قطر – السعودية – الإمارات
٢	دول الاقتصادات الأكثر تنوعاً (مشرق)	مصر – العراق – الأردن – لبنان – فلسطين – سوريا
٣	دول الاقتصادات الأكثر تنوعاً (مغرب)	الجزائر – ليبيا – المغرب – تونس
٤	دول أقل نمواً	جزر القمر – جيبوتى – موريتانيا – الصومال – السودان – اليمن

وفى ضوء هذا التصنيف، أوضح المركز حجم المشاركة السياسية للمرأة العربية بعضوية البرلمان وكيف أنها زادت فى عام ١٩٨٧ وانخفضت فى عام ١٩٩٩. كما تزايدت نسبة مشاركة المرأة فى صنع القرار فى الحكومة على المستوى الوزارى ودون الوزارى. وكما يبين الجدول رقم (١) :

جدول رقم (١) يوضح حجم المشاركة السياسية للمرأة العربية (%) [٢٦]:

مجموعات البلدان العربية	نسبة المقاعد البرلمانية التى تشغلها النساء			نسبة النساء فى منصب صنع القرار الحكومى			
				مستوى وزارى		مستوى دون وزارى	
	١٩٨٧	١٩٩٥	١٩٩٩	١٩٩٤	١٩٩٨	١٩٩٤	١٩٩٨
مجلس التعاون الخليجى	٠,٠	٠,٠	٠,٠	٠ ٠	٠,٠	٠,٨	٢,٠
الاقتصادات الأكثر تنوعا (المشرق)	٦,٥	٥,٢	٢,٠	٢,٨	٣,٢	٠,٠	٠,٨
الاقتصادات الأكثر تنوعا (المغرب)	٢,٦	٥,٠	٣,٧	٢,٠	٢,٥	٥,٥	٧,٠
البلدان الأقل نموا	٣,٠	١,٨	٢,٥	٠,٠	١,٨	١,٥	١,٥

ويتناول التقرير العربى أيضاً النشاط الاقتصادى حسب النوع الاجتماعى وفئة العمر فى المجتمعات العربية فى سن العمل والعطاء (٢٠-٤٤سنة). ويوضح التقرير أن النسبة المئوية المقدرة تزداد فى فئة الإناث بشكل ملحوظ فى جميع المجتمعات العربية مهما اختلفت تصنيفاتها، وقد تصل إلى ضعف النسبة المئوية المقدرة للذكور. وهذا ما يبرزه الجدول رقم(٢).

جدول رقم (٢) يوضح النسبة المئوية المقدرة لمعدل النشاط

الاقتصادى حسب النوع الاجتماعى وفئة العمر فى المنطقة العربية عام ٢٠٠٠ [٢٧]

المجموعات العربية	٢٠-٢٤ سنة		٢٥-٤٤ سنة	
	ذكور	إناث	ذكور	إناث
بلدان مجلس التعاون	٣٩,٥	٨٣,٨	٤٦,٤	٩٨,٣
الاقتصادات الأكثر نمواً (المشرق)	٣٣,١	٧٩,٢	٢٨,٤	٩٥,٥
الاقتصادات الأكثر نمواً (المغرب)	٤٧,١	٨١,٨	٤٠,١	٩٥,٨
البلدان الأقل نمواً	٥١,٠	٨٥,٦	٥٧,٠	٩٧,٢

ويستكمل التقرير النشاط الاقتصادى للمرأة، فيوضح توزيع الإناث الناشطات اقتصادياً حسب القطاع الاقتصادى فى البلدان العربية خلال عشرين عاماً (١٩٧٠-١٩٩٠). وفيها يتضح تناقض نشاط المرأة بالزراعة عامة فى جميع الدول العربية، فى حين يتزايد نشاطها بالخدمات – بشكل أوضح – فى الفئات الثلاث الأولى من تصنيف الدول العربية، ولاسيما فى مجتمعات الخليج العربى التى ارتفع فيها اشتغال المرأة بالخدمات من ٧٧,٨% فى عام ١٩٧٠ إلى ٨٥,٦% فى عام ١٩٩٠ بينما تناقص اشتغالها بالزراعة من ١٤,٥% عام ١٩٧٠ إلى ٥,٤% عام ١٩٩٠، وهذا ما يوضحه الجدول رقم (٣).

جدول رقم (٣) يوضح توزيع الإناث الناشطات اقتصادياً

حسب القطاع الاقتصادى والمجموعة العربية (٧٠-١٩٩٠) % بمتوسطات غير مرجحة [٢٨]

المجموعة	١٩٧٠			١٩٨٠			١٩٩٠		
	الزراعة	الصناعة	الخدمات	الزراعة	الصناعة	الخدمات	الزراعة	الصناعة	الخدمات
بلدان مجلس التعاون	١٤,٥	٧,٧	٧٧,٨	٨,٤	٨,٨	٨٢,٨	٥,٤	٩,٠	٨٥,٦
الاقتصادات الأكثر نمواً (المشرق)	٥٩,١	١٢,١	٢٨,٨	٥٣,٩	١١,٩	٣٤,٢	٤٠,٣	١٣,٠	٤٦,٧
الاقتصادات الأكثر نمواً (المغرب)	٧٣,٩	١٠,٩	١٥,٢	٦٤,٢	٢٣,٧	٢٢,١	٤٧,٤	١٥,٥	٣٧,٠
البلدان الأقل نمواً	٩٣,٠	١,٥	٥,٥	٨٩,٩	٢,٤	٧,٧	٨٢,٥	٤,٢	١٣,٣

ومن ناحية أخرى، فإن مركز المرأة العربية للتدريب والبحوث، حاول تحديد النسبة المئوية المقدرة للإناث – من بين مجموع السكان – الناشطات اقتصادياً بين العاملين فى مجتمعات عربية مختلفة، وعلى مدى سنوات تمتد من عام ١٩٦٦ إلى عام ١٩٩١ تقريباً. ولعل الفيصل فى هذا التحديد هو مدى توافر البيانات الإحصائية فى العالم العربى، ولذلك ذكر التقرير الجزائر ومصر والكويت وسوريا وتونس، وهي مجتمعات تمثل – لحسن الحظ – الفئات الثلاث الأولى من تصنيف المجتمعات العربية. وتدل البيانات على تزايد ملحوظ فى نسبة الإناث إلى الضعف تقريباً ضمن مجموع العاملين. وهذا ما يوضحه الجدول رقم (٤) التالى.

جدول رقم (٤) يوضح النسبة المئوية المقدرة من السكان الإناث الناشطات اقتصادياً

فى فئة العاملين فى بلدان عربية مختارة فى سنوات مختلفة [٢٩]

البلد	السنة	%	السنة	%	السنة	%
الجزائر	١٩٦٦	٧,٤	١٩٧٧	٧,٩	١٩٨٧	١٠,٥
مصر	١٩٦٦	٨,٥	١٩٨٠	١٠,٢	١٩٩٠	١٩,١
الكويت	١٩٧٠	٨,٢	١٩٨٠	١٤,٢	١٩٨٥	٢٠,٨
سوريا	١٩٧٠	٩,٩	١٩٨١	٨,٧	١٩٩١	١٦,٧
تونس	١٩٦٦	٦,٣	١٩٨٠	١٧,٧	١٩٨٩	١٦,٧

والواضح أن مجتمعاتنا العربية تحرص بشكل عام على مشاركة المرأة في النشاط الاقتصادى باعتبارها نصف المجتمع، وتحثها على القيام بدورها في عمليات التنمية الاجتماعية. وتتوالى – فى هذا الصدد – البيانات الإحصائية التى تصدرها الأجهزة الحكومية عن نسبة الإناث فى قوة العمل، وبالتالى فهى تسارع بضم المرأة إلى القوى العاملة، وزيادة نسبتها فى كل دولة.

وعلى هذا تتعدد التقارير والمؤسسات الدولية والإقليمية والمحلية(*) التى تهتم بإسهام المرأة فى القطاع الاقتصادى بمجتمعاتنا العربية كالزراعة والصناعة والتجارة والخدمات ، والنسبة المقدرة للإناث فى فئة العاملين فى بعض هذه المجتمعات . وتبرز التقارير تزايد نسبة هذا الإسهام الذى تراوح فى الستينيات ما بين ٦,٣% و ٩,٩% . وفى السبعينيات ما بين ٧,٩ و ١٧,٧% ، على حين تراوح فى الثمانينيات ما بين ١٠,٥% و ٢٠,٨ % (**).

ولكن هل هذه المؤشرات الإحصائية تدل على مشاركة حقيقية فى التنمية الاجتماعية العربية ؟ وهل مساهمة المرأة فى قطاع العمل الرسمى مؤشر إيجابى يدل على الانطلاق نحو التنمية الحقيقية ؟ وهل تستوى كل بلدان العالم المتقدم فى هذا المضمار ؟ وأخيراً هل مشاركة المرأة فى القوى العاملة الرسمية فقط هو المجال الوحيد لتحقيق التنمية العربية ؟

من اللافت للنظر أن نسبة مشاركة المرأة اليابانية فى قوة العمل الرسمية لا تتجاوز ٦% ، وفى هذا المجتمع المتقدم اقتصادياً وتكنولوجياً واجتماعياً وثقافياً (٣٠). فهل نصف اليابان بضعف مستوى التنمية وقصورها لضآلة مشاركة المرأة فى العمل الرسمى ؟ وهل نصف مجتمعاتنا العربية بالتقدم وتحقيق التنمية الاجتماعية المتكاملة لأن نسبة مشاركة المرأة وصلت إلى ما يزيد عن ٥٠% ؟ إن تجربة اليابان أولت المرأة مهمة بناء المجتمع وبناء بُناة التنمية ألا وهو العنصر البشرى الذى يحتاج إلى تنشئة سوية ورعاية شاملة وتربيب واع . وعلى هذا فالمرأة تساهم أولاً فى تنشئة الأجيال الواعية والقادرة على تحقيق التنمية ، وفى هذا فليتنافس المتنافسون . وبعدئذ تشارك فى العمل الرسمى وغير الرسمى .

سابعاً : البيولوجيا والثقافة الشعبية : صورة وشخصية الذكر والأنثى :

نحاول فى هذه الفقرة إظهار العلاقة بين الجنس Sex باعتباره يعكس تأثير العوامل البيولوجية ، والنوع الاجتماعى Gender باعتباره مرآة تعكس تأثير العوامل الاجتماعية والثقافية ، وخاصة الأمثال الشعبية كعنصر بارز من عناصر التراث الشعبى المصرى . وإذا كانت الأمثال نتاجاً لخبرات وتجارب الحياة اليومية المتنوعة – والمتضاربة فى بعض الأحيان

– إلا أننا نستشهد منها بما يعكس تأثير المجتمع والثقافة على رسم صورة الذكر والأنثى . ونهجنا فى ذلك أن نسوق الملامح البيولوجية والفيزيقية التى ترسمها **الأمثال** ، ثم نتجه صوب السمات النفسية والاجتماعية لشخصية الرجل والمرأة ، كما تبدو فى محاور الحياة الزوجية ، والحياة الاقتصادية ، والمسئولية التربوية.

(١) الحياة الزوجية : وهى حياة مشتركة بين الرجل (الزوج) والمرأة (الزوجة) فى ظل أسرة أو وحدة معيشية ، تخضع لتصورات ، ويحكمها تراث ممتد عبر آلاف السنوات .وهو تراث مستمد حيناً من الطبيعة البيولوجية أو الفيزيقية لكل من الرجل والمرأة .

وتأتى الملامح الفيزيقية **للمرأة** فى المقدمة الأولى للزواج ، ومنها مثلاً الطول أو القصر ، والسمنة أو النحافة ، والجمال أو القبح ، وبياض البشرة أو سوادها ..الخ . فالذوق الشعبى يهوى مجموعة من العناصر الجمالية ومنها أن تكون بيضاء هيفاء ، رفيعة الوسط ، ممتلئة الساقين. ويعجب بالوجه الصبوح دقيق الأعضاء ، وينفر مما عدا ذلك . وفى هذا الصدد تؤكد الأمثال على الملامح الفيزيقية المرغوبة فى المرأة لتكون زوجة ومنها :

- إن كنت عايز تمص قصب ، مص من الوسط ، وإن كنت عايز تخطب ، خد رفيعة الوسط ".
- " خد الجميل واقعد فى ظله ".
- خد الغندور ونام قدام الكانون ".
- "خد المليح واستريح ".
- "خد الحلو واقعد قباله ، وإن جُعت شاهد جماله "
- "يا واخد البيض يا مقضى الزمان فرحان ، ضيعت مالك على جوهر وعود ريحان".
- " يا واخد الصغير يا حرامى السوق ".
- " الطول ع الحور ، والتخن ع الجميز ".

والملاحظ فى هذه الأمثال أنها تعلى من شأن الصفات الفيزيقية للأنثى ، التى تحظى بالإقبال والرغبة فى الزواج منها. ولذلك فهى تحرص على بياض البشرة والطول والرشاقة وإشراق الوجه ، حتى يظل الزوج سعيداً مدى الحياة ، مستريحاً من المنغصات ، فإن جاع كفاه النظر لجمال زوجته ، وإن أحس بالإرهاق الاقتصادى من تكاليف الزواج ، عوّضه

الجمال راحة وهدوءاً فيقضى زمانه فرحاً مسروراً بجمال زوجته ، فلا يهمه شئ بعدئذٍ حتى وإن نام أمام موقد الطهى (الكانون).

ولكن على العكس من ذلك ، تأتى الملامح الفيزيقية الدميمة للأنثى ، فلا تحظى بالاحترام فى التراث الشعبى ، ولذلك نجد الأمثال تعبر عن هذا التصور ومنها :

- "إللى بعرقوبها تدبح الطير ، إهرب منها ما فيها ش خير".
- "ما يعجبكش طولها الزين ، ولا لفتها فى الملاية ، عليها عرقوب يدبح الطير ، مناخيرها قد الدواية ، خلت فطورى عشايا ".
- "يا واخد السود يا مقضى الزمان حزين ، ضيّعت مالك فى خنفس وجالوص طين".
- "جوز القصيرة يحسبها صغيرة ".

وحتى لا نظلم التراث الشعبى فى نظرته للملامح الفيزيقية للمرأة، وتحبيذه لبياض الأنثى ورشاقتها وجمالها ، فإنها لم يقتصر فقط على الجمال الحسى ، وإنما ركز على جمال الروح ، أو ما يسميه "الخفة" . إذ يمكن أن يكون الجمال الحسى طلاءً ظاهرياً يخفى الكثير من الدمامة . ولذلك نجد المثل الشعبى يبرز هذا المعنى بقوله :

- " ما يجعبكش حمار الخد يا شارى ، من بره مزوّق ومن جوّه هباب عالى ".
- "بيع الجمال واشترى خفة ، الجمال كتير بس الخفيف صدفة ".

وفى هذا الصدد نجد الأنثى السوداء تتمنى أن تكون بيضاء لتنال القبول – حسب التفضيلات الفيزيقية – ولذلك تقول على لسان المثل :" يا ريتنى بيضه ولىّ ضب ، والله البياض عند الرجال ينحب ". وبالتالى فإن الملامح تحظى بالإجماع عند الرجل – كما تتصور المرأة – ولكن الرجال لا يحبذون الصفات الفيزيقية والملامح الجمالية الشكلية فقط ، بقدر ما يحبذون جمال الروح فى الأنثى وكما يطلقون عليه " الخفة " . غير أن الأنثى السوداء تضرب بكل ذلك عرض الحائط وتتمنى بياض البشرة حتى وإن كانت أسنانها مشوهة المنظر " لها ضب ".

وعلى الجانب الآخر نجد التكوين الفيزيقى **للرجل** يحوى ملامح تفضلها المرأة ، ويفضلها هو ، ويحرص على إبرازها . ومن ذلك التباهى بالشارب ، واللحية ، والطول ، والقوة . فالشارب رمز للرجولة والفتوة ، والرجل لابد أن يكون له شارب ، عل حين لا يكون

للمرأة ، ولذلك فمن العقوبات العرفية والرسمية – التى كانت توقع على الرجل قديماً – حلاقة الشارب إمعاناً فى إذلاله وقهره . ومن الأغانى الشعبية عن الفرسان العرب : " علـــى شـــنابه يقفوا صقرين ". ومن أشكال التحدى بين الرجال أن يقول أحدهم للآخر : " أحلق شنبى لــو ده حصل " ، أو "أحلق شنبى لو خسرت الموقف". فالرجل إذن يتباهى بشـــاربه ، كمـــا تتبـــاهى المرأة بحملها " الحبلة تمشى وتتمايل ، وتحسب أن الحبل دايم " [٣١] .

وفى تحديد السمات الشخصية المرغوبة عند المرأة للزواج منها، تحرص الأمثال على إبراز الصفات الشخصية النفسية والاجتماعية – وليست الفيزيقية – مما يـــدل علـــى تعـــديل صفات النوع إلى النوع الاجتماعى . ومعنى ذلك أنها تعلى من شأن الصفات المكتســبة مـــن المجتمع بناءً على مؤثرات الأسرة والبيئة والتربيـــة ، لا الملامـــح الفيزيقيـــة ولا الصـــفات الوراثية. ومن ذلك ما يدعو الرجل إلى حسن الاختيار ، والصفات المفضلة للزوجة [٣٢]:

- "خد رعنتهم ولا تاخدش ساهيتهم ".
- " اللى ما ياخدش من ملته ، يموت بعلة غير علته ".
- " الأصيلة تنام مع جوزها على الحصيرة " .
- "إشترى حمارة الفقى ، ولا تتجوزش مراته " .

ملامح الحياة الزوجية عند الرجل والمرأة : نظرت المرأة إلى الرجل على أنه هو كل حياتها، وهو الذى يمنحها القيمة والمكانة الاجتماعية ، ولذلك ينظر المجتمع إلى المرأة ، مـــن خـــلال زوجها ، وهذا ما تحدده الأمثال الشعبية حول شخصية الرجل وطريقة تعامله مع المرأة :

- " اللى يقول لمراته يا هانم ، يقابلوها ع السلالم ".
- "حرمة من غير راجل ، زى الطربوش من غير زر " .
- " يا سوق بلا رجاله . . وايش تعمل النسوان ".
- " اللى جوزها يقول لها يا عورة ، الناس تلعب بها الكورة ".
- " ضل راجل ولا ضل حيط ".
- " اللى جوزها يحبها ، الشمس تطلع لها ".

- اللى يرضى عليها بعلها تصبح تهنن فى ابنها وتقول لها : يا ملك يا ابن الملوك ، أبـوك يستاهل دبح جوزين ديوك ، واللى يغضب عليها بعلها ، تصبح تضرب فى ابنها وتقـول له: يا مرة يا ابن المرة إمتى أبوك قناله مرة ؟".

والرجل (الذكر) هو رب البيت والمسئول عن تلبية احتياجاته وسد مطالبـه ، ولـذلك يسود القول الشعبى بأن " الراجل ما يعيبه إلا جيبه " . ومع ذلك فإن الرجل – أو الزوج – إذا تدّخل فى شئون وأعمال المنزل ، فإن المرأة تكره ذلك ، وتكره بقاءه فى البيت إذا تدخل فـى شئونها ومملكتها . ومن ثم فالمثل يقول على لسانها (٣٣):

- " الندب بالطار ولا قعاد الراجل فى الدار".
- " إن كان البيت للعمامة روح طريق السلامة ، وإن كان البيت للدفة خُش واتدفا".

ولأهمية الرجل ودوره فى الحياة الزوجية ، فإن الأمثال الشعبية تبـالغ فيمـا يحـدث للمرأة إذا غاب عنها زوجها ، أو تزوج عليها . وعلى هذا تدعو الأمثال المـرأة لأن تحـافظ على زوجها – حتى وإن كان دون المستوى المرغوب – حتى تستقر الحياة الزوجية ، وتعيش الأسرة معاً فى سلام وأمان . تقول الأمثال :

- " خدوا جوز الخرسة إتكلمت ".
- "خدوا جوز العاقلة إتجننت ".
- " خدى لك راجل يبقى لك بالليل غفير وبالنهار أجير ".
- " قلوب الرجال صناديق مقفولة ".
- " جرى الرجالة زى بحر النيل ، وجرى الولاية زى نقط الزير".
- "لقمة الراجل مقمرة ، ما تكلهاش إلا المشمرة ".

وهذه وتلك دعوة للمرأة للعمل والنشاط – سواء داخل البيت أو خارجه – فلا مكـان للكسلانة أو الخاملة . ولذلك تجتهد الأنثى (الزوجة) وتنشط لتحظى بالمكانة العالية عند زوجها وأسرتها وجماعتها المحلية والقرابية، ولا عجب فالنشاط يدفعها لحسن التصرف والتدبير حتى مع قلة الإمكانيات وضيق ذات اليد " فالشاطرة تغزل برجـل حمـار" ، و "المـوفرة غلبـت المشورة". وعلى هذا تتباهى بحصيلة نشاطها وجديتها فتقول:" العيش مخبـوز والميـه فـى الكوز". أما الكسلانة ، فإن الأمثال تصورها خاملة خائبة لا يرجى منها نفـع فهـى " فاتـت

عجينها فى الماجور ، وراحت تضرب فى الطنبور"، و " الدهوانة تضيّع مفتـاح الخزانـة " ، و"البحر غربال الخايبة ".

ولقد لعبت البيئة الاجتماعية دورها فى تشكيل شخصية الأنثى ، وبالتـالى اكتسـابها أدواراً مختلفة ، وعلاقات متنوعة ، ربما تخرج عن نطاق التـأثير الفيزيقـى البيولـوجى أو الوراثى. ومن ذلك ميلها فى الغالب إلى المعتقدات السحرية ، والعلاقات الاجتماعية الواسعة ، والاندماج السريع مع الآخرين من الجيران أو الأقارب . ومن الملامح التراثية الدالة على ذلك ما يلى :

أ- تميل الأنثى إلى الاعتقاد الراسخ فى السحر والشعوذة ، ولذلك كثر اعتقادهـا وممارسـتها للزار – كممارسة نسائية بالدرجة الأولى – أكثر من الذكور . وتدلنا دراسات الزار على أن المرأة تستخدمه كوسيلة للضغط على الرجل ، ليلبى لها طلباتها – التى يرفضها المجتمع – كالتدخين مثلاً أو الرقص أو الغناء ، أو تلك المطالب التى يعجـز الـزوج عـن توفيرهـا كالملابس الحديثة والحلى وأدوات الزينة [٣٤].

ب- تستخدم الأنثى السحر أكثر من الذكر ، وخاصة فى الحياة الزوجيـة لمواجهـة بعـض الأمراض المزمنة أو المستعصية (كالعقم أو المرض النفسى أو العقلى) ، أو لمواجهـة مـا يهدد استقرار هذه الحياة وانسجامها (كالزواج التعددى) ، وما قد يقع عليها من ظلـم بـلا مبرر . وهنا تلجأ الزوجة لعمل السحر الضار للإيقاع بين زوجها وزوجته الثانية (الضرة) ليخلو لها الجو ويعود إليها . وهنا تقول لها الضرة : " يا كاتبة يا ساحرة ، لا نايبـك مـن الدنيا ولا من الآخرة ".

جـ- نظراً لحب الأنثى للعلاقات الاجتماعية (الصداقة والجوار والقرابة والعمل) ، والحفـاظ عليها ، فإنها تحب الصحبة والحياة الاجتماعية ، وتكره العزلة . ولذلك كانت المرأة أكثـر كلاماً ، ومن ثم فهى لا تحفظ سراً. وفى هذا الشأن يقول المثل الشعبى : "من أعطى سـره لامرأته ، يا طول عذابه وشتاته "[٣٥] . كذلك فالمرأة أكثر اندماجاً مع الجيران ، وبالتـالى تصبح حياتها وحياة أسرتها كتاباً مفتوحاً أمام جيرانها . وفى هذا يقول المثـل : " جـارك قدامك وورك ، إن ماشاف وشك يشوف قفاك". فهو العين التى تلتقط العيوب سريعاً ، ومـا يترتب على ذلك من حسد يرتبط بالجيران " فالحسد عند الجيران، و البُغض عند القرايب ". ولذلك يقول المثل على لسان المرأة التى حسدتها جارتها : " حسدتنى جارتى علـى طـول رجليّه " .

(٢) **الحياة الاقتصادية :** تعتمد الحياة الاقتصادية على مبادئ التعاون والتخصص وتقسيم العمل ولذلك تؤازر الثقافة الشعبية هذه المبادئ حيناً وتقلل من شأنها حيناً آخر . فالحياة عموماً تعاون بين أفراد النوع الواحد والأنواع المختلفة ، وبالتالى فلكل من الرجل والمرأة أدوار محددة فى الحياة الاقتصادية . وقد تزيد خبرة الرجل عن المرأة مرة ، وتزيد خبرة المرأة عن الرجل مرة أخرى، وهكذا تتغير المفاهيم المبنية على أساس النوع Sex، وتحل محلها المفاهيم الجديدة التى تعتمد على النوع الاجتماعى Gender . فالأمثال الشعبية – وغيرها من عناصر التراث – تقلل من خبرة المرأة فى أمور الحياة اليومية الاقتصادية والاجتماعية (كالبيع والشراء والاختيار للزواج ، والسفر والانتقال والسُكنى والتملك) ، وتصور نقص الخبرة على أنه مصدر الخسران ، وبالتالى توجب على الزوج أن يستشير الزوجة ، ويسلك عكس ما أشارت به . وفى هذا يقول المثل الشعبى : " مرة بن مرة ، اللى يطاوع مرة "، و "شاوروهم واخلفوا شورهم "، و "شورة المرة بخراب سنة لو صحّت".

غير أن هذه الصورة فيها ظلم كبير للمرأة ، وتقليل من شأنها . ففى التاريخ الإسلامى مواقف متعددة كانت مشورة المرأة فيها إنقاذاً للمجتمع كله، ومن ذلك رأى أم المؤمنين السيدة أم سلمة فى صلح الحديبية [٣٦].

ومن الصور الحديثة لمشاركة المرأة فى الحياة الاقتصادية فى المجتمع البدوى المصرى ، ما شهدته – وتشهده – بادية البحر الأحمر وشمال سيناء ، حيث تعتمدان على الرعى. فالأسرة تمتلك عدداً من رؤوس الماعز والغنم والإبل ، ترعى فى الصحراء المحيطة. ويسود تقسيم للعمل فى النشاط الرعوى ، فالمرأة ترعى الغنم والماعز ، والرجل يرعى الإبل. غير أن الدور الإنتاجى للمرأة ، يفوق دور الرجل فى هذه المجتمعات [٣٧]. فهى ترعى الأغنام والماعز ، وتمز الصوف وتغزله وتنسجه ، فتصنع منه ملابسها وملابس أسرتها ، وتصنع الخيمة التى تؤوى الجميع ، والفُرش والبُسط التى تنام عليها الأسرة ، وتتدثر بها. كما أنها هى التى تحلب الشياة والماعز ، وتصنع الجبن والزبد والسمن ، وتربى الطيور الداجنة ، وتبيع ما يزيد عن حاجة الأسرة فى السوق ، لتشترى بعائده السلع المطلوبة كالشاى والسكر والأرز والبقول والدقيق والدخان والملابس .وعلى هذا تعد المرأة " راكان " الأسرة ، أى العمود الأساسى الذى تعتمد عليه ، كما تعتمد الخيمة على "الراكان" فى منتصفها . فإذا أضفنا إلى ذلك دورها البيولوجى فى الحمل والإنجاب والرضاعة ، ودورها الاجتماعى فى التنشئة

الاجتماعية ، ودورها الثقافى فى نقل التراث من جيل إلى جيل وغرسه ، أدركنا مدى عظم شخصيتها، وتنامى إسهامها فى بناء الأسرة ، وتعاظم دورها التنموى الاجتماعى .

ولا يقتصر هذا على الواقع البدوى المصرى فحسب ، بل يمتد ليشمل القطاع الريفى ، والقطاع الحضرى وإن اختلفت الأشكال ، ففى مناطق عديدة من الصحراوات الأفريقية ، كانت تسود مفاهيم معينة للنوع الاجتماعى فى ظلال الاقتصاد المعيشى ، تحولت وتغيرت مع سيادة الاقتصاد المحصولى النقدى Cash Crops . فقد تغير تقسيم العمل للنوع الاجتماعى ، وإدارة الموارد على مستوى الوحدة المعيشية Household ، حيث ازدادت الروابط مع السوق اتساعاً ، فازداد حجم المدخلات والمخرجات من وإلى السوق العالمى [٣٨].

فبينما استمرت المرأة بشكل عام تدير إنتاج الطعام للوحدة المعيشية ، صار النشاط الاقتصادى الأساسى للرجل يتركز فى المحاصيل النقدية . وقد كان من المتوقع أن تساهم النساء فى قوة العمل الإنتاجى للمحاصيل النقدية ، (وخاصة فى العمليات المكثفة للعمل) فتقمن بالمهام التى كان الرجال يقومون بها عادة فى الماضى مثل إعداد الأرض وفلاحتها . فالمرأة فى مجتمع إيبو Ibo بنيجريا قد اعتادت على تحمل المسئولية الأساسية لإنتاج طعام الأسرة (الوحدة المعيشية) . إذ بينما تقوم ببذر البذور ، وتنقية الحشائش ، والحصاد ، وتربية الحيوانات ، وإعداد الأطعمة ، كان الرجال مسئولين فقط عن إعداد الأرض . ومع ذلك ، فمع تزايد انخراط الرجال فى نظام المحاصيل النقدية ، واقتصاد السوق ، والأنشطة غير الزراعية، والأعمال المأجورة الأخرى ، تغيرت أدوار النوع الاجتماعى ، فصارت النساء مسئولات عن كل الأعمال التى كان الرجال يؤدونها فى الماضى فى ظل الاقتصاد المعيشى[٣٩]. وقد حدث نفس التغير الاجتماعى الاقتصادى فى غانا ، فتغيرت معه أدوار النوع الاجتماعى .

والواقع أن مجتمعنا المصرى قد تعرض – ولا يزال – لتحولات وتغيرات عديدة ، داخلية تارة ، وخارجية تارة أخرى ، طرأت على أثرها تحولات فى أدوار النوع الاجتماعى ، فصارت المرأة تشارك فى صنع القرار السياسى ، وتساهم فى الحياة الاقتصادية ، وتقود المجتمع المدنى والمنظمات غير الحكومية ، وتتصدر المحافل العامة ، وتشغل المناصب القيادية . وبالتالى فإن الربع الأخير من القرن العشرين ، قد شهد تحولات جذرية فى مفاهيم النوع الاجتماعى ، وتشهد بداية الألفية الثالثة تحولات أكبر من خلال عوامل بنائية داخلية – كزيادة نسبة الإناث عن الذكور فى الواقع الملموس ، وعوامل خارجية تفرضها العولمة

والمعلوماتية والتكنولوجيا والصناعة والإلكترونيات . ولذلك فمن الممكن التنبؤ بأن القرن الحادى والعشرين هو **قرن المرأة** .

(٣) المسئولية التربوية : وهى مهام يشترك فيها الرجل والمرأة (الأب والأم) . إلا أن دور الرجل أكثر بروزاً وخاصة فى حالة الأبناء الذكور ، حيث يحتاجون إلى قدوة وضوابط وتوجيه ومؤاخاة . وتحوى الثقافة الشعبية عناصر عديدة حول هذه المفاهيم والمضامين . فإذا كان الأب غائباً أو متوفياً ، حدث الخلل فى التربية بشكل يستدعى الرثاء للابن ، وعلى لسان حاله يقول المثل الشعبى : " اللى من غير أب يلطف به الرب ".

وفى ضوء مسئولية الأب الجسيمة عن التربية ، تحثه الأمثال الشعبية على الاهتمام والمراقبة والنصح ، وتحذره من التقصير فى هذا الدور التربوى خشية ضياع الأبناء . ولذلك تقرر الأمثال هذه الحقيقة من خلال النماذج التالية (٤٠) :

- " الإبن ينشأ على ما كان والده عليه ".
- " أدّب عيالك تنفعهم ".
- "أدب الابن يحفظ كرامة الوالد".
- "إبنك على ما تربيه ".
- "إبنك وهو صغير ربيه ، ولما يكبر خاويه".

وفى حالة **إنجاب البنات** توجه الأمثال الشعبية اهتماماً كبيراً لشخصية الأب ، وتشير إلى نوع العلاقة الحميمة بينه وبين ابنته . فالبنت مصدر خير وبركة ، ولذلك يقول المثل : "أبو البنات مرزوق "، و "اللى ما عندوش بنات ما يعرفوش الناس امتى مات "، وذلك لأن البنت أكثر براً بأبيها وأهلها.

ويمتد الاهتمام بشخصية الرجل ، إلى الحد الذى رسمت فيه الثقافة الشعبية للأب طريقه الذى يجب عليه أن يسلكه ، فتحضه على أن يحسن الاختيار لابنته ويراعى رغبتها ، ويتبسّط لإتمام الزواج . وكذلك تقول الأمثال الشعبية للأب :

- " إن كان بدك تصون العرض وتلمه ، جوّز البنت للى عينها منه ".
- "إن جوزّت بنتك غريبة ، حضّر لها حمارة وزكيبة ".
- " أخطب لبنتك ، ولا تخطبش لابنك".

- إللى ما بدوش يجوّز بنته ، يغلّى مهرها".

وخلاصة تلك الأمثال – وما يناظرها من عناصر الثقافة الشعبية الأخرى – أنها مبنية على النوع بالدرجة الأولى . فالرجل هو الذى يختار للزواج ، وهو الذى يعول الأسرة ، ويربى ويوجه الأبناء ، وهو الذى يختار لبناته أزواجهن ، وبالتالى فهو المسئول الأول عن المهام التربوية والتأهيلية للأبناء . أما المرأة فهى تحمل وتلد وترضع أبناءها ، وتتولى القيام بالدور الأكبر فى التنشئة الاجتماعية وخاصة فى المرحلة الأولى – منذ الميلاد وحتى دخول المدرسة – ولا يبدو أن الرجل يشاركها فى هذه المهام . علاوة على ذلك فهى المسئولة عن المهام المنزلية من طهى وغسيل ملابس ونظافة بيت . فى نفس الوقت لا تعد المرأة مسئولة عن ميزانية الأسرة ، ولا الإنفاق عليها ولا الإعالة بأى شكل ، باعتبار أن القوامة للرجل وأنه المسئول الأول .

غير أن هذا الواقع قد تغير مع التحولات الاجتماعية والثقافية التى مر بها المجتمع المصرى – ومعظم المجتمعات العربية والنامية – وترتب على ذلك تغير مفهوم النوع الاجتماعى ، فنشأت أدوار جديدة للرجل – لم تكن موجودة فى الماضى – وأدوار أخرى للمرأة لم يكن لها الانتشار الكبير فيما سبق . ومن تلك الأدوار والتغيرات الجديدة ما يلى :

١- أصبحت المرأة تشارك مشاركة فعالة في **الإنفاق** على الأسرة مع الرجل أو أكثر منه فى بعض الأحيان . وكان ذلك نتيجة لتعلمها واشتغالها بالمهن والأعمال الرسمية أو غير الرسمية . وبالتالى لم تعد الإعالة قاصرة على الرجل بل امتدت لتشمل المرأة حيناً، وانفردت بها حيناً آخر.

٢- تصدرت المرأة أدوار **النشاط الاقتصادى الآن** ، فصارت تبيع وتشترى ، وتمتلك المحلات ومؤسسات الأعمال والمال ، وصارت سيدة أعمال ، كما لمسنا أخيراً مجلساً لسيدات الأعمال على مستوى مصر ، والعالم العربى.

٣- شغلت المرأة **مراكز قيادية** ، ومناصب رسمية رفيعة فى شتى المجالات الحكومية والأهلية ؛ فى السياسة والاقتصاد والدبلوماسية والبرلمان والإعلام والقضاء والتربية ..الخ . ولم تكن هذه الأدوار متاحة أمامها فى الماضى ، ومن ثم تغيرت مفاهيم النوع الاجتماعى .

٤- اتسع نشاط الرجل وأدواره فى عملية التنشئة الاجتماعية – التى كانت تتصدرها المرأة فى الماضى – وأصبح يقوم بدور رعاية الطفل والاهتمام به ، وصار يتقاسم الدور مع المرأة الأم ، وإن كانت تشاركها بعض المؤسسات التربوية الحديثة . كذلك تولى الرجل القيام بدور الرعاية الصحية للطفل الآن ، فيذهب به إلى الطبيب ، وإلى المستشفى ، ويتولى إعطاءه الأدوية فى مواعيدها المحددة بالتناوب مع الأم حيناً ، وبالانفراد حيناً آخر . وقد كانت تلك المهام تقع فى الماضى على عاتق الأم فقط [٤١].

٥- أصبحت المرأة الآن – فى الغالب- هى التى تتعامل مع السوق ، وتشترى السلع والاحتياجات للأسرة كلها – بما فيها الرجل – ويصدق ذلك على الطعام والشراب والملبس ، وحتى اختيار المسكن وتجهيزه وتأثيثه . على حين كانت هذه المهام صلب مسئولية الرجل فى الماضى ، ولم يكن يُسمح للمرأة بالخروج من البيت فى الحضر والريف معاً .

٦- كان الطهى دوراً نسائياً كاملاً فى الماضى ، حتى أجادت الثقافة الشعبية فى تنشئة البنت على جودة الطهى ، وإعداد الطعام ، وحسن تقديمه للرجل – سواء كان أباً أو أخاً أو زوجاً – ولذلك نصحت المرأة بأن الطعام الجيد فى الإعداد والتقديم هو الطريق إلى قلب الرجل . وكان هذا ديدن النساء جميعاً فيما سبق . أما الآن فإن الطهى صار تقريباً نشاطاً رجالياً ، ودوراً ذكورياً ، ولم نعد نجد فى الفنادق ولا فى المطاعم طاهيات ، بل نجد طهاة من الرجال فقط . ومن جانب آخر صار الرجل هو الذى يقدم " طبق اليوم " فى وسائل الإعلام المختلفة ، وتتولى المرأة "المذيعة" تقديم الطاهى إلى جماهير النساء .

المراجع والحواشى

(١) صندوق الأمم المتحدة الإنمائى للمرأة Unifem ، مفهوم النوع الاجتماعى : الوحـــدة الأولى ، مكتب غرب آسيا ، عمّان ، ٢٠٠٠، ص١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ص ٥- ٦.

(٣) Linda Lindsey, Gender Roles:A Sociological Perspective, Printice Hall, Englewood, New Jersy, 1990, P.2.

(٤) أنظر : Ibid, PP. 3-4.

(٥) يونيفيم ، مرجع سابق ، ص ٦.

(٦) د. أميمة أبوبكر و د. شيرين شكرى ، المرأة والجندر: إلغاء التمييز الثقافى والاجتماعى بين الجنسين ، دار الفكر ، دمشق ، ٢٠٠٢، ص ١٣.

(٧) Tariq Al Swaidan, Quraan Al Karim, Hotmail. Com

(٨) عبدالحليم أبوشقة ، فى تحرير المرأة فى عصر الرسالة ، ط٤، الكويـــت ، دار القلـــم، ١٩٩٥، ج١، ص ٢٣٠، نقلاً عن المصدر السابق .

(٩) القرآن الكريم ، سورة آل عمران ، الآية ١٩٥.

(١٠) القرآن الكريم ، سورة الأحزاب ، الآية ٣٥.

(١١) القرآن الكريم ، سورة المجادلة ، الآية ١.

(١٢) د.أميمة أبوبكر وزميلتها ، مرجع سابق ، ص ٢٣.

(١٣) أنظر : Linmda Lindsey, Op. Cit., PP. 5-6.

(١٤) انظر : Ibid, PP. 7-8.

(١٥) انظر : Gender Roles, Ibid, P. 9.

(١٦) James Doyle and Michele Paludi, Sex and Gender, The Human Experience, Mc Graw Hill, New York, 1998, P. 93.

(١٧) انظر : Ibid., P. 94.

(١٨) انظر : Ibid, pp.94-95.

(١٩) انظر: The Human Experience, Ibid, PP. 95- 98.

(٢٠) Mark Hutter, The Changing Family (3rd Edition), Mac Graw Hall, New York, 1997, P. 286.

(٢١) انظر: Ibid, P. 287.

(٢٢) انظر: Mark Hutter, Ibid, PP. 267- 288.

(٢٣) انظر: Ibid, P. 288.

(٢٤) Unifem ، مرجع سابق ، ص ١٤.

(٢٥) مركز المرأة العربية للتدريب والبحوث (كوتر CAWTAR) ، تقرير تنمية المرأة العربية ٢٠٠١، العولمة والنوع الاجتماعى : المشاركة الاقتصادية للمرأة العربية ، تونس ، ٢٠٠١، ص ص ٨٤- ٨٥.

(٢٦) المرجع السابق ، ص ٨٥.

(٢٧) نفس المرجع السابق ، ص ٩٤.

(٢٨) كوتر ، المرجع السابق ، ص ٩٦.

(٢٩) العولمة والنوع الاجتماعى ، نفس المرجع ، ص ١٠٠.

(*) ومن هذه المؤسسات على سبيل المثال التى تصدر تقارير دورية ؛ البنك الدولى ٢٠٠١، ومركز تنمية المرأة العربية بجامعة الدول العربية ٢٠٠١، وبرنامج الأمم المتحدة الإنمائى UNESCWA ، والجهاز المركزى للتعبئة العامة والإحصاء بمصر : ٢٠٠٠.

(**) راجع الجدولين رقمى (٣) و (٤).

(٣٠) د. نبيل النواب ، المرأة العربية والتنمية : نحو دور أوسع للتعليم التقنى والمهنى فى دمج المرأة العربية فى التنمية ، الفكر العربى ، العدد ١٣، ١٩٩٤.

(٣١) إبراهيم أحمد شعلان ، الشعب المصرى فى أمثاله العامية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٢، ص ١٢٢.

(٣٢) المرجع السابق ، ص ٩٧.

(٣٣) أحمد تيمور باشا ، الأمثال العامية ، ط٣، لجنة نشر المؤلفــات التيموريــة ، مطــابع الأهرام التجارية ، القاهرة ، ١٩٧٠، ص ٤٨٨.

(٣٤) على المكاوى ، المعتقدات الشعبية والتغير الاجتماعى ، رسالة ماجستير (غير منشورة) ، جامعة القاهرة ، القاهرة ، ١٩٨٢، الفصل الرابع ، خاصة صفحات ٢٦٩- ٢٨٤.

(٣٥) أحمد تيمور باشا ، مرجع سابق ، ص ٤٦٤.

(٣٦) د. أميمة أبوبكر ود. شيرين شكرى ، المرأة والجندر ، مرجع ســابق ، ص ص ١٥- ١٧.

(٣٧) د. على المكاوى ، البيئة والصحة : دراسة فى علم الاجتمــاع ، دار النصــر للنشــر والتوزيع ، جامعة القاهرة ، القاهرة ، ٢٠٠٢، ص ١٣٢.

(٣٨) انظر : United Nations, 1999 World Survey on the Role of Women in Development: Globalization, Gender and Work, New York, 1999, P. 39- 40.

(٣٩) انظر : Ibid, 40-41.

(٤٠) أحمد تيمور باشا ، مرجع سابق ، ص ٢٦، ٣٥، ١٠٧، وراجع أيضاً : إبراهيم أحمــد شعلان ، مرجع سابق ، ص ص ١٢٤- ١٢٦.

(٤١) حول دور الأم فى الرعاية الصحية للطفل ، راجع : د. علــى المكــاوى ، الجوانــب الاجتماعية والثقافية للخدمة الصحية : دراسة ميدانية فى علم الاجتمــاع الطبــى ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٨٨، ص ص ٣٥٢- ٣٥٨.

* * *

الفصل الثالث عشر

الجنين المشوه

التداعيات الاجتماعية وسُبل الوقاية

مقدمة

تعد موضوعات الصحة والمرض انعكاساً لواقع اجتماعى، ومرآة تعكس طبيعة الثقافة السائدة، والتغيرات المتلاحقة التى تشهدها طبيعة الحياة فى المجتمع بشكل عام. والواقع أن الطب كلما تقدم، والتكنولوجيا كلما ارتقت واتسعت مجالاتها، كلما تزايدت المشكلات الأخلاقية وتعقدت المواقف القانونية، ومعها يحار الإنسان بين الأمل والألم، الرحمة والعذاب، الموت والحياة، الدنيا والآخرة. لقد نجح الطب فى علاج أمراض ميئوس من شفائها، فثارت قضايا آثار التكنولوجيا على تكاليف العلاج، وتوزيع الموارد، ونوعية حياة المرضى، والقيم الإنسانية[١]. كذلك استلزم تطور زرع الأعضاء، والاستنساخ، والإخصاب خارج الرحم، والموت الرحيم، والهندسة الوراثية وغيرها، استلزم كل ذلك مفاهيم طبية وقانونية وأخلاقية جديدة. وثار الجدل بشأن كل منها – ولا يزال – بين مؤيد ومعارض، مما يستدعى توضيح الموقف العلمى والقانونى والفقهى والأخلاقى، حتى لا يتعرض القائمون بها للجزاءات القانونية أو الأخلاقية أو الدينية.

ومن قبل طرأت على الساحة قضايا الأخطار البيئية كالتلوث الإشعاعى، وبعض الأدوية، وبعض الفيروسات المعدية وما تسببه من كسور فى الكروموسومات، وإحداث طفرات، مما يؤثر فى نوعية الجاميطات المسئولة عن الأجيال القادمة، ومن ناحية أخرى، فإن الجينات الشاذة التى تسبب أمراضاً عقلية أو تشوهات جسدية تقلل من نوعية الجاميطات المسئولة أيضاً عن الأجيال القادمة[٢]. وهنا ظهرت تيارات عديدة حول تحسين موروثات Germ Plasm الجيل التالى، أى تقوية الجبّلة الوراثية، وظهر معها التطبيق العملى لتحسين النسل Eugenics على يد فرانسيس جالتون Galton، وذلك بأن يصمم السلوك الاجتماعى لتحسين التركيب الوراثى للعشيرة فى الإنسان، وهذا يتحقق من خلال الدراسة المستمرة لوراثة الإنسان، وفروع المعرفة الإنسانية الأخرى، والتعليم لنشر الآراء المبنية على حقائق سليمة حيث يتطلب التحسين معلومات دقيقة.

والآن تطرح قضية الجنين المشوه نفسها على الساحة، وتستلزم البت فيها من النواحى الطبية والدينية الشرعية، والقانونية، والاجتماعية والنفسية، حتى يخرج أهل الذكر فى هذه المجالات العلمية بالرأى الذى يستريح إليه المجتمع، ويأمن – فى تنفيذه والأخذ به – من الإثم فى الدنيا والعذاب فى الآخرة. وهذا ما تأمل ندوتنا الحالية الخروج به خدمة للمجتمع ورعاية للأسرة.

وفى ضوء ذلك تعرض الورقة للموضوعات التالية:

أولاً: أهمية الخصوبة فى المجتمع المصرى والعربى.

ثانياً: العقم فى الثقافة الشعبية المصرية: التشخيص والعلاج.

ثالثاً: العقم والطب الحديث.

رابعاً: الأسباب الاجتماعية لتشوه الجنين.

خامساً: التداعيات الاجتماعية للجنين المشوه.

سادساً: سبل الوقاية من تشوه الجنين.

أولاً: أهمية الخصوبة Fertility فى المجتمع المصرى والعربى:

تعتبر الاختلافات فى الأنماط العامة للخصوبة شائعة فى مجتمعات العالم. فهناك انخفاض فى المواليد فى المجتمعات المتقدمة، وارتفاع فى المجتمعات الأقل تقدماً. وفى نفس الوقت نلاحظ أن الطبقات الأكثر ثراء تتسم بانخفاض معدلات الخصوبة، على حين تتميز الطبقات المحرومة (الفقراء وغير المتعلمين، والعمال غير المهرة) بمعدلات أعلى. ومن جانب آخر نجد بعض الجماعات السلالية والعرقية ذات خصوبة عالية، فى حين أن بعضها الآخر يتسم بالعكس. وتعتمد هذه الأنماط المتميزة للخصوبة على طبيعة المجتمع.

وتقاس الخصوبة بعدد المواليد. أما الخصوبة نفسها فهى عدد المواليد الأحياء الذين ينجبهم سكان مجتمع ما. وينبغى التمييز ما بين الخصوبة Fertility، والقدرة على التوالد Fecundity التى تشير إلى القدرة البيولوجية، أو الفسيولوجية للمرأة على الحمل والتوالد، والتى تبدأ غالباً من سن الخامسة عشر، وتنتهى فى سن التاسعة والأربعين[٣]. والواقعة الحيوية الحاسمة التى تحدد الخصوبة هى المولود الحى Live Birth وليس الحمل. وتعتمد المجتمعات المتقدمة على السجلات المدنية – للمواليد وللوفيات – ويُعد الأبوان مسئولين عن تسجيل مكان وزمان حدوث الولادة، ومعلومات عن الأم كالعمر وترتيب ميلاد الطفل Parity والمستوى التعليمى، والهوية الإثنية Ethnic Identity.

أما فى المجتمعات الأقل تقدماً، فإن سجلات المواليد غير مكتملة غالباً، وبالتالى فقد يلجأ بعضها إلى اختيار عينة من المناطق الجغرافية، وتقدير نسبة المواليد ثم تعميمها على المجتمع من خلال طريقة المسح بالعينة، ويلجأ البعض الآخر إلى

حصر المواليد. وتستند هذه المسوح إلى بيانات عن التـاريخ الزواجـى، وحـالات **الإجهاض**، واستخدام أساليب منع الحمل، ومعلومات عن الخصـائص الاجتماعيـة الاقتصادية للزوجين (مثل التعليم، ومحل الإقامة ريف أو حضر، والمهنة، والإثنيـة وغيرها)[٤]. وقد أجريت هذه المسوح على مستوى معظم مجتمعات العالم وأثمرت ما يسمى مسح الخصوبة العالمى World Fertility Survey.

والجدير بالذكر أن الخصوبة فى مجتمعنا العربى، تحظى بأهمية كبيرة، فهـى قيمة متأصلة فى حياتنا، أرستها القيم، وفرضتها طبيعة الحياة الاجتماعية، وتغـذيها العادات والتقاليد. ولعل تراثنا المصرى القديم يعزز هذه القيمة من خلال أسـطورة إيزيس وأوزوريس التى ترمز إلى الخصوبة بكل معانيها.

وتدلنا الدراسات الميدانية، على مجتمعنا المصرى، على ارتفاع قيمة الإنجـاب فى الريف والبادية والحضر، وإن اختلفت المعدلات والأشكال، ولكـن المضـمون واحد. فالأطفال قيمة اقتصادية، فهم فى البادية والريف عمالة زراعية تؤدى أعمالاً تدر دخلاً يرفع من مستوى معيشة الأسرة[٥]. كما أنهـم "**عـزوة**" تسـاند الأسـرة وترفـع مكانتها بين الأسر الأخرى "**لا إيد تسقف لوحدها، ولا وحدانى يكيد عدا**"، و"**عمر الوحدانى ما يكيد عدو**"، و"**اللى مالوش ولد عديم الضهر والسند**". وتعلـى الثقافة الشعبية من قيمة الأولاد الذكور عن الإناث، نظراً لأن الولد امتـداد لأبيـه، ويحمل اسم العائلة، وأمان للأب عند الشيخوخة. ولذلك تحظى ولادة الذكر بأهميـة أكبر من ولادة الأنثى: "**لما قالوا دا ولد، شد ظهر أمه وانسند**"، و"**لما قالوا دا غلام شد ظهر أمه وقام**"، و"**ياريت على الطلق الشديد غلام، ماتكونش بنيـة وتشـمت الجيران**"، و"**ربنا يبعت للعويلة ولد، تقعد جنبه وتنسند**"[٦]. وفى حفـلات السـبوع للمولود – سواء كان ذكراً أو أنثى – يحرص المحتفلـون علـى زيـادة الإنجـاب تأكيـداً للعزوة، والتماساً للمكانة الاجتماعية، ولذلك فهم يرددون فى احتفـالهم "**يـا ملح دارنا كتّر عيالنا**".

ومن ناحية أخرى، فإن استمرار الأسرة، وبقاء العلاقة الزوجية سوية رهـين بالإنجاب. ولذلك تحرص المرأة على الإنجاب ليزداد ارتباط الزوج بها، وتأمن على مستقبلها معه، وفى نفس الوقت تضمن ألا يتزوج عليها طلباً للأبناء. ومن هنا فـإن مرور شهرين أو ثلاثة على أسرة حديثة الزواج – بلا حمل – يعنى بدايـة القلـق والسعى عند الأطباء والمطببين الشعبيين، لالتماس الحمل والتعجيل به. وهذا يـدل مرة أخرى على تجذُّر قيم الخصوبة فى مجتمعنا، والحرص عليها.

ثانياً: "العقم" فى الثقافة الشعبية المصرية: التشخيص والعلاج:

تحرص الثقافة الشعبية على سرعة التماس العلاج للعقم، ولذلك يتجه المجتمع نحو العلاج حسب الأوضاع الطبقية، فالأغنياء مثلاً يقصدون الطب الحديث مباشرة، والفقراء يلجأون إلى الطب الشعبى أولاً. وإذا لم يجد هؤلاء وأولئك للعقم علاجاً، تبدلت المسالك بحيث يتجه الفقراء للطب الحديث، والأغنياء للطب الشعبى. وفى كل الأحوال يجمعهم هدف التخلص من العقم بأية وسيلة طبية، ومهما كانت الوسيلة بعيدة أو منطقية. ومن هنا تتعدد الوسائل فى الطب الشعبى ما بين الاستشفاء بالأولياء والزار والسحر والوصفات المنزلية، والأعشاب وغيرها.

وتحوى الثقافة الشعبية أيضاً تشخيصاً للعقم باعتباره:

١- عداوة الجن والكائنات فوق الطبيعية للمرأة، وبالتالى إعاقة حملها، والعلاج فى هذه الحالة يكون بالسحر.

٢- عداوة القرينة والأسياد الآخرين للمرأة، فلا يسمحون لها بإتمام الحمل، وبالتالى يكون استرضاء هؤلاء وتلبية طلباتهم وسيلة أساسية من خلال حفلات الزار.

٣- الوضع المقلوب للرحم، واحتواؤه على هواء بداخله يمنع الحمل، وهنا يكون الاستشفاء بالأولياء، وخاصة فى المناطق الريفية والبدوية، باستخدام "الدحريجة" أو "المراغة". والغالب أن معظم أضرحة الأولياء مزودة بمكان عال يتدرج انخفاضاً إلى أسفل مسافة ٥-١٠ أمتار، تتدحرج عليه العاقر من أعلى لأسفل، اعتقاداً بأن الدحرجة "تعدل الرحم"، فيتخلص من الهواء الذى يعوق الحمل[٧]. وتتعدد الأسماء الدالة على هذا المكان المتدرج ما بين "الدحريجة"، و"المراغة" و"الفسقية".

٤- الخلل فى الأعصاب ومراكز الحس، وبالتالى يكون العلاج بالكى هو الوسيلة الملائمة. ويسود هذا الاعتقاد فى المناطق الريفية والبدوية بمصر، ويمارس الكى فى البادية رجال ونساء، يعالجون العقيم – سواء كان رجلاً أو امرأة – بكيه فى واحد وعشرين موضعاً ما بين الصدر والظهر. ويمكن أن تكوى المرأة البدوية الرجل العقيم فى بادية الصف بالجيزة، ويعتمد الريفيون على البدو فى هذه الممارسة.

٥- الحالة النفسية (الزعل)، أحد الموانع وبالتالى يكون العلاج باستخدام الوصفات المنزلية. ومن ذلك تحميص الورل (مثل الحرباء) وسحقه، وخلطه بسمن بلدى

أو زيت، ثم يشربها الرجل العاقر – وليس المرأة – أو يأخذ لحمه. حد يسير في عرب العيايدة ببادية الصف بالجيزة.

٦- وجود عمل سحرى للمرأة لإفشال حملها، وبالتالى فلا حمل إلا بالتخلص من هذا العمل السحرى عند أحد السحرة – فى الريف والبادية والحضر على السواء – والمجتمع المصرى ملئ بهذه النوعية من أصحاب المعتقدات والممارسات السحرية.

٧- ابتلاء من الله تعالى لبعض خلقه، وهنا يزداد اقتراب العاقر – رجلاً كان أو امرأة – من الله تعالى فى صورة المداومة على الطاعات والتوسع فى العبادات، وتقديم النذور، وأداء الحج والعمرة، والتقرب أيضاً إلى الأولياء. وعندما يحدث الحمل والميلاد، يسمى المولود باسم الولى محل الاعتقاد.

ثالثاً: العقم والطب الحديث:

يأتى الطب الحديث فى نهاية المطاف – وبعد حلقات طويلة من سلسلة الطب الشعبى – ليسهم إسهاماً ملموساً فى علاج حالات العقم. والواقع أن هذا العلاج الحديث يستلزم تكاليف لا يقدر عليها الفقراء، وبالتالى فإن معظم جمهوره يكون من الأغنياء وأعضاء الطبقات العليا.

لقد أوضح العلم والطب أن التبويض له علاقة مباشرة مع الغدد النخامية، ويخضع لتحريض هرمون منمى أو منبه يسمى Follicle Stimulating Hormone. وفى حالة تنشيط المبيض بحقن خارجية أكثر من اللازم، تنضج أكثر من بويضة واحدة، رغم حذر الطبيب المعالج. ومن الممكن أن تنطلق خمس أو ست بويضات أو أكثر، ويتم تلقيح كل منها فيكون الحمل فى النهاية بعدد كبير من الأجنة. وقد نجح الطب فى علاج العقم من خلال ما يسمى "بأطفال الأنابيب". وعادة ما يتم تلقيح أكثر من بويضة – فى هذه الطريقة – ضماناً لحدوث الحمل. والملاحظ أن الأم قد تعانى من انسداد فى الأنابيب؛ أو أن الأب يعانى من ضعف فى حيوانات الإخصاب فيتم تركيز السائل وتخصيب البويضة فى الخارج، ثم تزرع فى رحم الأم، وتحاط بالعناية حتى يتم الحمل. وهذه الطريقة ناجحة بنسبة ١٠٠% وهى منتشرة فى معظم المجتمعات العربية(٨).

الطب الحديث والجنين المشوه:

الجنين المشوه هو الجنين الحى فى رحم الأم، ويختلف عن الجنين الطبيعى

فـــي وجود بعض العيوب أو التشوهات الخلقية البســيطة أو الشــديدة، الخارجيــة الظاهرة أو الداخلية الكامنة، ولا تتلاءم مع الحياة الرحمية، وبالتــالى لــن تكتمــل فتــرة الحمل وتتلاءم فقط مع الحياة الرحمية ولا تستطيع الحياة بعــد الــولادة، أو تتلاءم مع كليهما معاً.

وفى الحالة **الأولى** سينتهى الحمل بالإجهاض الذاتى بسبب تشوه الجنين، وبمــا يمثل ٩٠% من حالات الإجهاض الذاتى فى الأشهر الأولى مـــن الحمـــل، بســبب تشوهات الجنين، وليس لأسباب تتعلق بالأم، ولا تكون هناك فرصة للتدخل، إلا إذا كان هناك خطر على حياتها كما فى حالات الحمل خارج الرحم[٩]. ومن أمثلة ذلك تشوهات الجهاز العصبى، أو الأعضاء الداخلية، أو اختلال الكروموزومات بشــكل لا يتلاءم مع الحيــاة الرحميــة كالزيـــادة الكبيــرة Polyploidy أو الـــنقص فـــى الكروموزومات الجسدية Somatic أو النقص فى مادتها دون وجود اختلال عــادى، أو الطفرات المميتة.

وفى الحالة **الثانية**، ينتهى الحمل بميلاد طفل يموت بعد الــولادة مباشــرة، أو بعدها بفترة قصيرة، بسبب عيوب القلب الشديدة التى تعكس الــدورة الدمويــة، أو اختلاط الدم الشريانى مع الدم الوريدى بما يزيد عن ٣٠%، أو ضمور الحويصلات الهوائية للرئة، أو ضمور الكليتين، أو بعض أمراض سوء التمثيل الغذائى الشــديدة التى تؤدى إلى نقص حاد فى نسبة السكر أو زيادة فى حموضـــة الـــدم، أو زيـــادة الغازات فيه[١٠].

وينتهى الحمل فى الحالة **الثالثة** بطفل متلائم مع الحياة، يعيش بشكل طبيعى أو شبه طبيعى. وهنا تتراوح تشوهات الجنين ما بين البســيطة (كالشــفة الأرنبيــة أو تشوهات الأطراف أو الأصابع) وفيها يعيش حياة طبيعية. أما الحياة شبه الطبيعيــة فتتمثل فى التأخر العقلى، أو التضخم فى بعض الأعضـــاء الداخليــة مثـــل الكبــد والطحال، وهى تتحسن جزئياً بالعلاج، ويتكيــف معظــم هـــؤلاء الأطفـــال مـــع المجتمـــع. أما التشوهات الشديدة فهى تؤثر على الطفل فـــلا يقـــدر علـــى الحيـــاة الطبيعية؛ لا ذهنياً ولا حركياً.

رابعاً: الأسباب الاجتماعية لتشوه الجنين:

نعرض فى هذه الفقرة لبعض الأسباب المستمدة من طبيعة المجتمـــع وثقافتـــه، وتنعكس على الجنين بالتشويه بشكل أو بآخر، سواء كان التشـــوه جزئيـــاً أم كليـــاً،

عقلياً أم بدنياً. ومن ذلك ما يلي:

١- **الزواج القرابي**: تلعب الوراثة دورها – وخاصة في حالات الزواج بين قرابة الدرجتين الأولى والثانية – في تشوه الجنين والتأثير على الصحة العقلية والبدنية بعد الولادة. فإذا كانت الوراثة هي القوة الطبيعية التي تنقل صفات الأصل إلى الفرع، فإنها إذن مجموعة المميزات التي تتركز في البويضة المخصبة التي تنمو ثم تنقسم إلى خليتين ثم إلى أربع فثماني، والثماني تنقسم إلى ست عشرة فاثنين وثلاثين، فأربع وستين... وهكذا حتى يتكون الجسم البشرى من ملايين الخلايا التي يتخصص بعضها فيصبح خلايا القلب، وأخرى الكبد، وثالثة الجلد، ورابعة الأعصاب وهكذا[١١].

ويعد التخلف العقلى Mental Retard نمطاً شائعاً من الأمراض الوراثية، يحدث نتيجة لتراكيب كروموزمية غير عادية مثل XYY في الكروموزوم رقم ٢١. ويسمى هذا المرض أيضاً "بالطفل المنغولى" Mongolism أو داون Down. وهو مرض يزداد بين حالات الزواج القرابى نظراً لتشوهات الجنين بفعل هذه العوامل الوراثية.

كذلك تترتب على الزواج القرابى تشوهات خلقية وتأخر النمو، وسببها تغيرات كروموزومية كالمتضاعفات الثنائية/ الثلاثية، أو الشذوذ المبكر في انقسام الخلية الجسمية. ويعانى الطفل بعد الولادة من نقص طبى وعقلى في آن واحد.

٢- **الزواج المتأخر**: وهو عامل اجتماعى رئيسى في تشوه الجنين نظراً لأن الحمل يكون في نهايات مرحلة الخصوبة عند المرأة. فإذا كانت تلك الخصوبة تتراوح ما بين سن ١٥-٣٩، وسن زواج الفتاة صار يتراوح الآن بين ٢٥-٣٠ سنة، فإن احتمالات الحمل تكون في أواخر فترة الخصوبة مما يعرض الجنين للتشوه، وبعد الولادة يعانى من تشوهات وأمراض التخلف العقلى، والطول غير العادى، والميول العدوانية ضد المجتمع، وصغر حجم المخ، وصمم نتيجة لخلل في أوتوسوم Autosome صغير بحالة ثلاثية. والملاحظ أن ٤٠% من هذه الحالات تولد لسيدات فوق سن الأربعين[١٢]. أضف إلى ذلك أن تأخر سن الزواج قد يسبب الإجهاض المستمر للأم، فلا يكتمل حملها في ظروف طبيعية.

٣- **البيئة**: وهى تلعب دورها البارز في تشويه الجنين في المرحلة الرحمية، وفي مرحلة الميلاد. ويتمثل ذلك فيما يحدث من نسوء تعامل مع الجنين عند الولادة، أو عسر الولادة ذاتها، أو الولادة المبكرة، ويؤدى إلى الشلل الدماغى، وتأخر النمو العقلى، وشلل في أحد الأطراف، أو الإعاقة البدنية[١٣].

والواقع أن مشكلة تلوث البيئة – التى يعانى منها العالم كله الآن – تسبب العديد من تشوهات الأجنة، والأمراض التى يحملها الطفل بعد ولادته وحتى موته. ومن ذلك الملوثات الكيميائية، وملوثات الماء، والهواء، والغذاء، والسموم، والملوثات الفيزيائية والإشعاعية. فإذا تناولنا فقط الملوثات الكيميائية ودورها فى تشويه الجنين والقضاء عليه، سواء قبل الولادة أو بعدها، وجدنا أنها أربعة ملايين مادة كيميائية تستخدم فى الصناعة والزراعة والمنزل والأدوية. ويوجد من بينها ٣٠٠ ألف فقط تنتج على نطاق تجارى، والباقى إما مواد وسيطة أو ناتج بقايا، أو كيميائيات مخبرية. ومع ذلك، ففى كل يوم تضاف إلى البيئة آلاف العناصر والمركبات الكيميائية بدافع الإنتاج والربح الصناعى، فتخللت الهواء والماء والطعام والدم وأنسجة الجسم. وقد عثر عليها فى عينات من لبن الأمهات المرضعات، ووجد الباحثون أنها تصل إلى الجنين وتضره، وتؤثر مباشرة على المواليد فتتلف النظام العصبى المركزى، وتتلف المخ، وتضر الجهاز التناسلى للذكر والأنثى، وتسبب العقم وموت الأجنة وتحدث التشوهات الخلقية، وتصيب الرئتين والكبد والكلى(١٤).

خامساً: التداعيات الاجتماعية للجنين المشوه:

يمثل الجنين المشوه صدمة مبكرة لأبويه، وخاصة إذا كان ترتيبه الأول، أو كان حملاً متأخراً بعد عقم، أو طول عنوسة. وتتفاعل الصدمة وتتصارع مع القيم الاجتماعية كالإنجاب السوى، والعزوة، والقوة الاقتصادية، والأمان المستقبلى للوالدين. وقد شغلت هذه الصراعات الإنسان على مر العصور – ولا تزال تشغله حتى الآن – لدرجة أن بعض الفلاسفة اليونانيين كأفلاطون فى جمهوريته، كان ينادى بالتخلص من المواليد المعاقين أو المشوهين ليحافظ المجتمع على سلامته وصحة أبنائه.

وتزداد الصدمة أيضاً إذا كان الإخصاب خارج الرحم، حيث تكبدت الأسرة مشاقاً عديدة، وتكاليف اقتصادية عالية. وتكون المحصلة جنيناً مشوهاً. وهنا تتصارع غريزتا الأبوة والأمومة مع ملامح المستقبل المبهمة، وأماراته العسيرة للجنين – بعد ولادته – وللأسرة فى رعايته؛ كيف يعيش؟ وكيف يتكيف مع المجتمع ويعتمد على نفسه؟ وهل يعد – بعد ذلك – امتداداً للأسرة، ويحمل اسم العائلة؟ وفى حياة الأبوين يمكن تدبير أمر رعايته سوياً، ولكن ماذا بعد وفاة أحدهما أو كليهما؟ إن الجنين المشوه بداية لمستقبل غير طبيعى، يتوقع فيه المرء كل

الأشياء، مما يزيد عليه من عبء التفكير فى مواجهة التشوه، ووقت المواجهة (مـــع الجنين أو المولود؟) وآليات المواجهة نفسها. إنها حيرة لا تنتهـــى، ومعركـــة بـــين العاطفة والعقل يصعب حسمها، وصراع بين الرغبة فى الحياة السوية، والإشـــفاق على صاحبها وأسرته.

سنحاول إبراز أهم التداعيات الاجتماعية للجنين المشوه، مع ملاحظة انطباقهـــا عليه حتى بعد الولادة والبقاء على قيد الحياة:

١- تفقد الأسرة – وخاصة الأم – الأمل فى الإنجاب السوى وتحقيق العزوة، ممـــا يؤثر على حالتها النفسية وينعكس بشكل فسيولوجي أو عضوى قد يعوق الحمل فى المستقبل.

٢- ضياع المكانة الاجتماعية للأم لعدم قدرتها على إنجاب أطفـــال أســـوياء، ممـــا يعرضها لتدنى مكانتها بين أعضاء الجماعة القرابية وربما المجتمـــع المحلـــى. وتكتمل الصورة إظلاماً حينما يتزوج عليها زوجها بأخرى.

٣- ارتفاع التكلفة الاقتصادية لعلاج الجنين المشوه – بعد ولادته – مـــع ضـــعف الأمل فى السلامة الكاملة نفسياً وبدنياً وعقلياً. وتزداد حدة المشكلة مـــع تـــدنى الأوضاع الطبقية بين الفقراء وعجزهم غالباً عن تدبير أمورهم المعيشية فكيـــف بهذا الموقف؟

٤- زيادة الإنفاق الحكومى على مواجهة حالات الإعاقة والتشوه – بكل أطيافهـــا – وعجز المؤسسات الصحية المتخصصة عن استيعاب هذا العدد الـــذى يتزايـــد بمرور الوقت. إضافة إلى ندرة المتخصصين فى هذه المجالات. وعلى ســـبيل المثال فإن حالات التخاطب فى مجتمعنا المصرى يصل معـــدل الخدمـــة فيهـــا إلـــى أخصائى واحد/ ٣٥٠ حالة، بينما هو فى البلدان المتقدمـــة ١ : ٢ علـــى الأكثر. وتزداد الأزمة أيضاً حينما نعرف أن أعداد ذوى الاحتياجات الخاصـــة فى تزايد كبير.

٥- عجز الأم عن القيام بدورها – كربة بيت وزوجة وأم لأبناء آخـــرين، وعضـــو فى جماعة قرابية، وعاملة بالمؤسسات الحكومية أو الخاصة – مما يسبب لهـــا صراع الأدوار Role Conflict، وتتعرض الأسرة بالتالى للتفكـــك الاجتمـــاعى. ومع تزايد أعداد وأنواع التشوهات والأمراض، يـــزداد معـــدل التفكـــك علـــى مستوى المجتمع ككل مما يهدد استقراره وسلامته.

٦- زيادة العبء النفسى والبدنى على الأسرة فى تأهيل الطفل المعاق – لو بقى على قيد الحياة – فى ظل مجتمع لم يهيأ التهيئة الكافية لقبول هذه الفئة وحسن التعامل معها، ومراعاة احتياجاتها الخاصة. ولعل لوسائل الإعلام وبعض المؤسسات الأهلية الأخرى دوراً ملحوظاً الآن فى التوعية والإرشاد.

٧- انصراف الشباب عن الزواج بإحدى بنات هذه الأسرة – ذات الإبن المعاق عقلياً أو بدنياً – خوفاً من امتداد تأثير العوامل الوراثية وتكرارها عند ثمرة هذا الزواج. كذلك فالمجتمع المصرى يحرص على فرز الفتيات – عند الاختيار للزواج – فلا يكون لدى المرغوب فيها عيب خلقى أو تشوه أو مرض وراثى، وذلك انطلاقاً من التراث الشعبى الذى يقول فيه المثل: "**الراجل ما يعيبه إلا جيبه**". كما أن سمراء البشرة تتمنى أن تكون بيضاء، ولو كان لها ضب وأسنانها غير سوية، حتى يُقبل الرجال على الزواج منها. وبالتالى فالمثل يقول على لسانها: "**يا ريتنى بيضه ولىّ ضب. والله البياض عند الرجال ينحب**"(١٥).

سادساً: سبل الوقاية من تشوه الجنين:

يؤكد التراث العربى على الوقاية أكثر من توكيده على العلاج ولذلك يقولون "الوقاية خير من العلاج"، و"درهم وقاية خير من قنطار علاج"، و"الواقية خير من الراقية". والملاحظ أن أكبر قدر من الوقاية يقع على عاتق المرأة بحكم أنها المسئولة فى الأسرة عن الرعاية الصحية وخاصة للأطفال. وإذا كنا عرضنا لضخامة العبء الذى يسببه الجنين المشوه – والطفل المشوه بعد الميلاد – فإن الأخذ بالوقاية هو الاستراتيجية الأحوط والأكثر أمناً. وتتحدد سبل الوقاية، من خلال الأسباب الحقيقية للتشوه. وبالتالى يمكن أن تتلخص استراتيجية الوقاية فيما يلى:

١- تجنب الآثار السلبية للزواج القرابى الداخلى Indogamy، وذلك من خلال الاعتماد على الزواج الاغترابى Exogamy، فيقل احتمال وجود الأمراض الوراثية والتشوهات المتنوعة، علاوة على زوال أثر الصفات المتنحية التى تقوى وتسود فى حالات الزواج القرابى. ونحن لا نبالغ فى هذا المطلب الوقائى الذى سبقنا إليه رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم حينما قال: "**اغتربوا لا تضووا**"، أى تزوجوا من خارج الجماعة القرابية، **فلا يضعف نسلكم**. وفى هذا يقول الشاعر العربى حفاظاً على تحسن نسله:

وأترك بنت العم وهى سليلة　　　مخافة أن تضوى علىّ سليلى

٢- لابد من حملة توعية وحملات متتالية للحد من تأخر سن الزواج، وخاصة بالنسبة للمرأة. لأن الزواج المتأخر لها مجلبة لتشوه الأجنة فى نهاية فترة الخصوبة. وإذا كان تأخر الزواج راجعاً إلى سلسلة معقدة من العوامل الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية والقانونية المتشابكة، فإن المسئولية تتوزع على الأجهزة الحكومية والإعلامية والتربوية والاقتصادية والقضائية، علاوة على القطاع الأهلى والمجتمع المدنى ومؤسساته، والأسر المصرية ككل. إنها مسئولية مشتركة، تستدعى تكاتف كل الأجهزة لمواجهتها والحد من خطورتها على المجتمع كله.

٣- الحفاظ على البيئة، ووقايتها من كل أنواع التلوث وخاصة الكيميائى والإشعاعى والغذائى. فهى أساليب فعالة فى صنع التشوه للأجنة وللمواليد والأطفال والكبار. لقد عانى الإنسان فى الماضى من مخاطر البيئة فكان يسعى لحماية نفسه منها، ولكن الآن – ومع زيادة التلوث وزيادة مخاطره – يسعى لحماية البيئة من نفسه. لقد صار الماء والهواء سلعتين غاليتى الثمن، بعد أن كانا سلعتين نظيفتين ومجانيتين فى الماضى. وقس على ذلك الكساء والغذاء والاتصال والانتقال والصناعة والتحضر المشوه، وما جلبوه من تشوه للأجنة، وأمراض وراثية وعيوب خلقية لا حصر لها. وقد يقول القائل: هل نقدر على تحقيق هذا الهدف (الحفاظ على البيئة)؟ وأقول نعم نقدر بأن يبدأ كل منا بنفسه، وكل مؤسسه بنفسها، وكل وزارة بنفسها، وكل أسرة بنفسها وليكن شعارنا "فلنواجه التلوث لنسلم ويسلم أبناؤنا من العاهات" أو "بمواجهة التلوث نقضى على التشوهات والعاهات"، و"إن الله لا يغير ما بقول حتى يغيروا ما بأنفسهم".

٤- التوسع فى مكاتب فحص الراغبين فى الزواج، من الرجال والنساء قبل الزواج للكشف عن الخصائص الوراثية التى قد تساعد على وجود تشوهات أو أمراض أو عيوب خلقية، وتوعية هؤلاء جميعاً بأهمية هذا الإجراء ضماناً لصحة الأبناء، وسلامة الأسرة، وسلامة المجتمع ككل. ولتكن هذه الفحوص مجانية فى البداية، جذباً للجمهور، وإقناعاً له، على أن تتحمل تكاليفها وزارة الصحة. وبهذا فسوف تقل حصة ما يوجه لعلاج الإعاقات والعاهات من ميزانية الوزارة، باتباع الوقاية بهذا الشكل.

٥- تسخير العلم والطب والتكنولوجيا الطبية فى التشخيص المبكر والكشف عن تشوه الأجنة – فى حالات الزواج القرابى والمتأخر للمرأة – قبل مرور أربعة

أشهر على الجنين فيصعب شرعاً التخلص منه. وليكن هذا الفحــص إجباريــاً لكــل الحالات المذكورة، مع تقديم التوعية والنصح لها بمدى خطورة عواقــب التشوه بين الأجنة.

٦- تسجيل حالات الزواج القرابى والمتأخر للمرأة، بالمراكز الصحية فى الحضــر غالباً، وفى الريف إلى حد ما، حتى يمكن توجيه الرعاية الصحية لها، ومتابعتها ضمن مشروعات صحة الأم والطفل، أو "مشروع قــومى لســلامة الأجنــة". وتزويد هذه المراكز بكفاءات طبية فى مجال الفحــوص والتحاليــل المبكــرة، وزائرات صحيات يتابعن مع الأم الحامل.

٧- تسخير إحدى القنوات التليفزيونية – ولتكن قناة الأســرة والطفــل – للتوعيــة الدائمة بهذه المخاطر، وتقديم المشورة والنصيحة للــراغبين فــى الــزواج أو السائلين عن الرأى الطبى، من خلال استضافة أطباء أكفاء يوضحون الحقــائق العلمية والطبية للجمهور. وتوجيه نفس الاهتمام بالقطاعين الريفــى والبــدوى للتوعية بخطورة الزواج القرابى. ويمكــن إخــراج وتقــديم بعــض الأفــلام والمسلسلات الدرامية للتوعية بطريقة غير مباشرة. كما تجب مشاركة الإذاعــة والصحافة فى هذا العمل الجماهيرى ضماناً لوصول الرسالة وتحقيقاً للهدف.

٨- تضمين بعض البرامج والمقررات التعليمية فى المــدارس، معلومــات طبيــة وعلمية – وخاصة فى البيئة والمجتمع، أو علم النفــس والاجتمــاع، أو علــم الحياة – تساعد على توعية الطالب بمخاطر تشوه الأجنة، والعيــوب الخلقيــة والأمراض الوراثية، ودور البيئة فيها، حتى لا يقع ضحيتها فى المستقبل.

ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشداً

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

أهم المراجع

(١) د. على المكاوى، علم الاجتماع الطبى: مدخل نظرى، ط٢، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٦، ص ص ٥٥-٥٦.

(٢) د. على المكاوى، الثقافة وشخصية التوائم، بحث منشور فى: الشخصية المصرية فى عالم متغير، تحرير د. محمود الكردى، أعمال الندوة السنوية الخامسة لقسم الاجتماع بجامعة القاهرة، القاهرة، ١٩٩٩، ص ص ٢٨٧-٢٨٨.

(٣) د. محمد محيى الدين، علم السكان، مركز البحوث والدراسات الاجتماعية بجامعة القاهرة، القاهرة، ٢٠٠٢، ص ص ٢١٧-٢١٨.

(٤) المرجع السابق، ص ٢١٩.

(٥) د. كمال التابعى، القيم والتنمية الريفية: دراسة فى علم الاجتماع الريفى، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، ١٩٨٦، ص ص ٤٣٠-٤٣١.

(٦) د. إبراهيم أحمد شعلان، الشعب المصرى فى أمثاله العامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٢، ص ١٣٢.

(٧) د. على المكاوى، الجوانب الاجتماعية والثقافية للخدمة الصحية: دراسة ميدانية فى علم الاجتماع الطبى، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٨، صفحات ٣٢٩ و٣٣٢ و٣٤٧ و٣٥٩ و٣٦٠.

(٨) د. على المكاوى، الثقافة وشخصية التوائم، مرجع سابق، ص ص ٢٨٤-٢٨٥.

(٩) د. إكرام عبدالسلام، أخلاقيات التعامل مع الجنين المشوه، ورقة مقدمة لندوة "كيفية التعامل مع الجنين المشوه"، اللجنة العربية لأخلاقيات العلوم البيولوجية والثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥، ص ١.

(١٠) د. إكرام عبدالسلام، نفس المصدر السابق ونفس الصفحة.

(١١) د. على المكاوى، الزواج القرابى وأثره على الصحة فى المجتمع القطرى، دراسة منشورة فى كتابنا: "الأنثروبولوجيا الطبية: دراسات نظرية وبحوث ميدانية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٦، ص ص ٣٠٣-٣٠٤.

(١٢) المرجع السابق نفسه، ص ٢٩٦.

(١٣) د. على المكاوى، المرجع السابق، ص ٣٠٦.

(١٤) د. على المكاوى، الإنسان والبيئة والصحة: دراسة فى علـم الاجتمـاع، دار النصر للنشر والتوزيع بجامعة القاهرة، القاهرة، ٢٠٠٥، ص ٨٠.

(١٥) د. على المكاوى، "صورة الذكر والأنثى فى الدراسات الأنثروبولوجية"، بحث مقدم إلى المؤتمر العلمى السنوى الرابع عشر: "الصفات الأنثروبولوجية فى الـذكر والأنثى"، الجمعية المصرية لعلوم الأنثروبولوجيا البيولوجية، كلية الطـب جامعـة عين شمس، القاهرة، الخميس ٢٩ أبريل ٢٠٠٤، ص ٣٩.

* * *